موسوعة تاريخ الأندلس

فكر وتاريخ وحضارة وتراث

تأليف

الدكتور حسين مؤنس

الجزء الأول

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بور سعيد الظاهر

موسوعة تاريخ الأندلس

تاريخ - وفكر وحضارة وتراث

تأليف

الدكتور/ حسين مؤنس

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينيه

٥٢٦ شارع بور سعيد القاهرة

ت : ٩٢٢٦٢٠ ـ ٩٣٦٢٧٧

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي: ٥٢٦ شارع بورسعيد الظاهر
تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

تاريخ الأندلس

من الفتح
إلى نهاية إمارة الأمير عبد الله

٧١١ - ٩١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

١- مقدمة

يعتبر فتح شبه الجزيرة الأيبيرية من أروع حلقات الفتوح الإسلامية الأولى، فقد جاء تتويجا لجهاد العرب الطويل لفتح المغرب ودليل على حيوية الشعب العربى وإقدامه وإيمانه بدينه ونفسه، فبعد فتوح المغرب التى استغرقت حوالى ٧٠ سنة ما بين مد وجزر ونصر وهزيمة وانتهت آخر الأمر بانتصار العرب جاءت هذه القفزة إلى أوروبا وصل العرب إلى جبل البرت المعروفة بالبرانس مضيفين بذلك نحو ٦٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع إلى عالمهم الإسلامى العربى، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فإن الدفع العربى القوى استمر فيما يلى البرت شمالا فضم الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا، وحكموا نحو عشر مساحتها لمدة نصف قرن من الزمان ثم ارتدوا بعد ذلك إلى جزيرة الأندلس وانتصروا عليها.

ومن الواضح أن شبه الجزيرة الأيبيرية أو الأندلس كان بهذا الوضع متطرف جدا بالنسبة لمملكة الإسلام، فالمسافة بين أقصاه جنوبا ومركز الدولة فى دمشق أو بغداد لا تقل بحال عن سبعة آلاف كيلو متر يستغرق قطعها أربعة شهور على الأقل للفارس المجد، وهذه المسافة كلها كانت تشغلها شعوب حديثة الدخول فى الإسلام والعروبة هى الأخرى، ومعنى هذا أن الطريق لم يكن سهلا ولا مفتوحا فى معظم الأحوال، وقد رأينا المشاكل والمصاعب التى ملأت تاريخ المغرب كله فى فتحه أولا ثم فى العصور التالية للفتح، وكانت كلها مشاكل طبيعية ولا بد منها، لأن دخول هذه الشعوب فى دولة الإسلام كان تحولا كاملا فى تكوينها وإدخالا لها فى التاريخ، فكان لا بد أن

تستغرق العملية زمنا طويلا وكان لا بد أن تمر فى كل الصعاب والمشاكل التى يعرفها كل من يعرف شبه الجزيرة الأيبيرية.

نستطيع أن نتصور إذن وضع الأندلس الذى يقع بعد هذا المغرب كله ويقوم وراء البحر على أرض أوروبية كانت مسيحية قبل دخول العرب وظلت مسيحية جزئيا طوال تاريخها الإسلامى لأن الإسلام ترك الناس أحراراً فى مسألة دخول الإسلام فسارت العملية سيرا بطيئا وإن كان طبيعيا.

ولقد قال المؤرخ الإنجليزى نفيل باربر : إن الأندلس كانت بالنسبة للعالم العربى بلاد ما وراء البحار، وهذا صحيح، وبلاد ما وراء البحار لا بد أن تستطيع الاعتماد على أنفسها إلى مدى بعيد لأن البلاد الأصلية لا تستطيع أن تواليها بالعناية والرعاية، إذ لها هى مشاكلها، وقد كان من الأساس بالنسبة للأندلس أن يكون هناك اتصال بحرى منتظم بينه وبين بلاد الإسلام، ولقد وفق الأندلسيون بالفعل إلى إنشاء قوة بحرية تجارية ملأت حوض البحر الأبيض نشاطا، ولكن الصلة أتت من الناحية الأخرى، أى من ناحية البلاد المشرقية التى لم تكن لها سياسة بحرية مستمرة، فاقتصر الجزء الرئيسى من النشاط البحرى الأندلسى على بلاد المغرب وجزائر البحر وضاعت الفائدة الكبرى التى كان من الممكن أن تتحقق لو كان هناك اتصال بحرى منتظم وغزير بين مصر والشام من ناحية، والأندلس من ناحية أخرى، وكان لهذا أثره فى مصير الأندلس النهائى.

ولقد بذل الأندلسيون جهدا عظيما فى إقامة وطنهم الأندلسى، واستطاعوا رغم صعوبة ظروفهم أن ينشئوا دولة ثابتة الأركان وحضارة زاهرة لا تقل بحال لمن تحقق فى غير الأندلس من بلاد الإسلام والعروبة، ولكن إذا كان ولا بد أن يعيش الأندلس فقد كان ولا بد من أن يظل الطريق البرى بينه وبين المشرق مفتوحا، وقد شعر الأندلسيون بذلك واجتهدوا فى الإبقاء على هذا الطريق، ويتجلى ذلك فى الحرب الطويلة التى قام بها الحكم المستنصر فى المغرب الأقصى بقصد تثبيت أقدامه فيه،

ولم يكن المستنصر يكسب شيئا من المغرب الأقصى، ولكنه رأى أن قيام الدولة الفاطمية فى المغرب يعطل الطريق، فبذل من الجهد ما بذل وضحى من مال الاندلس ورجاله ما أضعفه للوصول إلى هذه الغاية.

ومن الواضح أن قيام الدولة الفاطمية كان له أسوأ الأثر على الأندلس، فإن هذه الدولة الطارئة الغريبة عن طبيعة الغرب من كل ناحية كسرت وحدة تاريخه وأقفلت الطريق وصرفت جهد الدولة الأندلسية والمغربية إلى حروب داخلية عقيمة، فقد قضوا كما رأينا على الأغالبة والرستميين والمداريين والأدارسة وأقاموا مكان هذه الدول مشيخات قبلية يقوم عليها جند مرتزق فعاد تاريخ المغرب كله إلى الوراء، وانقطع الطريق بين الأندلس والمشرق، وعندما كانت الثورة على العامريين أوائل القرن الحادى عشر الميلادى تحولت بسرعة إلى حرب أهلية لم تتوقف بعد ذلك أبدا، لأن الفئات التجارية – وهى إمارات الطوائف كانت صغيرة وضعيفة فتغلب عليها العدو واحدة واحدة دون أن يحصل على أى عون من المشرق.

وعلى هذه الصورة نرى أن تاريخ الأندلس فى جملته إنما هو صراع طويل بين شعب عفى ذى إرادة وحضارة قوية من ناحية وظروف غير مواتية من ناحية أخرى، ففى حين انقطعت الأسباب بين الأندلس وأم الإسلام فى المشرق كانت الأبواب مفتحة على مصاريعها بين إسبانيا النصرانية وبلاد أوروبا المسيحية والبابوية، وفى المواقع الحاسمة التى قررت مصير الأندلس نجد أوروبا المسيحية كلها فى جانب والأندلس والمغرب الأقصى أحيانا فى جانب، وقد كسب المسلمون مع ذلك انتصارات كبرى، ولكنهم كانوا يستهلكون أنفسهم وشيئا فشيئا لم يعودوا يستطيعون المقارنة.

وتاريخ الأندلس على هذا قصة صرح متين أقامه العرب بين فكى الأسد وفى قلب بلاد الأعداء، وقصة حضارة زاهرة تعتبر من أجمل وأطرف فصول تاريخ الحضارة العالمية، وتاريخه على هذا صفحة مجيدة من تاريخ العرب العام.

وعندما نقول الأندلس فإننا نعنى بذلك ما ساده الإسلام والعروبة وخضع لحكم إسلامى من شبه جزيرة أيبريا، ففى دفعة الفتح الدولى كان اسم الأندلس يطابق شبه الجزيرة كله، ثم انحسر المد العربى فترك الركن الشمالى الغربى، واقتصر الأندلس على الباقى وبقيت على ذلك إلى نهاية الخلافة الأموية أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، ثم أخذت حدود الأندلس تتراجع حتى اقتصرت على مملكة غرناطة فى منتصف القرن الثالث عشر، وعندما سقطت غرناطة سنة ١٤٩٢م أى آخر القرن الخامس عشر اختفى الأندلس كحقيقة سياسية، وإن ظل قائما كحقيقة تاريخية وحضارية.

ولفظ أندلس لم يأت من أندلس بن يافث كما تقول أسطورة أندلسية عربية، بل هو جاء من اسم الوندال وهم فريق - القبائل المتبربرة اقتحم إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى واستقر فى طرفها الجنوبى حيث أقام زمنا طويلا، فأصبح ذلك الجزء الجنوبى يسمى واندالوسى، ثم عبر الوندال إلى الغرب وكان لهم فيه تاريخ طويل خلال القرن الخامس الميلادى، ولكن اسم واندالوس ظل يطلق على الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة، وبهذا الاسم سماها بربر المغرب الأقصى، فلما وصل العرب قيل لهم : إن هذا هو الوندلس، وسقطت الواو لأنها أداة تعريف فى لهجة بربر إقليم طنجة فسقطت وعوضت بأداة التعريف العربية فقيل الأندلس .

وبعد أيام العرب ظل لفظ الأندلس فى صورة أندلوثيا يطلق على ثمان محافظات تقع فى الثلث الجنوبى لشبه الجزيرة وهى المرية وغرناطة وجيان وقرطبة ومالقة وقادش وولبة واشبيلية.

وشبه جزيرة أيبريا وتشمل اليوم إسبانيا والبرتغال إقليم واسع تصل مساحته إلى حوالى ٦٠٠ ٠٠٠ كيلو متر وإسبانيا وحدها وهى تحتل خمسة أسداس شبه الجزيرة تعتبر ثالثة بلاد أوروبا فى المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها حوالى ٥١٦٠٠٠ كيلو مترا مربعا .

وشبه الجزيرة هى مجموعة عبارة عن هضبة متوسط ارتفاعها ٦٠٠ متر عن سطح البحر، وهى

أعلى بلاد أوروبا باستثناء سويسرا، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعه على ٨٠٠م وسلاسل الجبال التى يصل ارتفاعها إلى ١٦٠٠ متر وزيادة كثيرة.

ونجد الفاصل بين شبه الجزيرة وبقية أوروبا هى جبال البرت أو البرتات أو جبل الأبواب التى تسمى بالبرانس وهو تعريب للاسم الأوروبى Pvunaii وهى جبال عالية عريضة تشقها بعض ممرات جبلية وعرة ولكن ممكن اختراقها من الشرق والغرب عن طريقين سهلين ساحليين، ورغم ذلك فهى حد طبيعى فاصل بين من يعيشون جنوبه ومن يعيشون شماله.

ويفصل أيبريا عن إفريقية مضيق جبل طارق ولا يزيد اتساعه عن ١٤ كيلو مترا، وفى الأيام الصاحية يمكن رؤية الشاطئ من الناحية الأخرى، وعلى مسافات طويلة يتقارب الشاطئان، ورغم ذلك فإن ذلك المضيق فاصل طبيعى حاسم، وقد حاول العرب إلغاءه على طول تاريخهم فى الأندلس فلم يستطيعوا، وعاد مضيق جبل طارق بعدهم فاصلا بين قارتين وحضارتين وعقيدتين .

ويطل شبه الجزيرة على المحيط الأطلسى بواجهة طويلة غنية بالتعاريج الصالحة للمراقى، وكذلك واجهتها التى تطل على البحر الأبيض، ولهذا فقد كانت إسبانيا دائما بلادا ذات أهمية بحرية وإن لم يكن شعبها بحريا كالإنجليز مثلا، وقد أنجبت إسبانيا خلال تاريخها الطويل بحارين، وملاحين مهرة جابوا البحار وشاركوا فى الاكتشافات، وللأسبان دور عظيم فى ميدان صيد الأسماك وهى عماد من أعمدة الثروة هناك .

وأيبريا فى هيئتها العامة مخمس ضخم تشقه سلاسل جبال كبيرة من شرق إلى غرب، وبين كل سلسة وأخرى يجرى واد فسيح يشقه نهر بفروعه، وكل سلسلة من هذه السلاسل تتكون من سلاسل جبال متصلة على نسق، وإذا نظرنا إلى شبه الجزيرة من بعيد رأينا مجارى الأنهار وأحواضها تنبع من الشرق وتنحدر غربا لتصب فى المحيط، وقد تنحرف نحو الجنوب عن مصباتها، وفى موازاة

كل نهر من هذه تجرى سلسلة من الجبال. فلدينا سلسلة الجبال الكنتبرية موازية لنهر المنيو «المنتلون» وجنوبى نهر دويرو تجرى سلسلة الجبال الوسطى، وجنوبى نهر تاجة تقوم سلسلة جبال أوريتانا وأهم أجزائها جبال طليطلة وجنوبى الوادى آنه تقوم سلسلة جبال بيطرة اللت وأهم أجزائها جبال المعدن وجنوبى الوادى الكبير تجرى سلسلة جبال سيرا نيفادا .

أما الأنهار التى تصب فى الشرق فأهمها الايرو، وهو أعظم أنهار.شبه الجزيرة وهو يجرى بين جبال البرانس وسلسلة الجبال الأيبرية .

وبقية أنهار الشرق صغيرة إذا قيست إلى أنهار الغرب ولكنها ذات أهمية كبيرة لأن الناحية الشرقية من شبه الجزيرة منخفضة فى مجموعها مما مكن للأنهار من أن تكوّن أحواضا واسعة ذات سهول، فلدينا التوريا وهو نهر بلنسية، ويروى سهل بلنسية نهر آخر نهر شقر، وهناك نهر شقورة وهو نهر مرسية ووادى الارز Guadal Rorce وهو نهر مالقة .

وأهم سلاسل الجبال من الناحية الحضارية هى سلسلة الجبال الوسطى وتجرى بين نهرى دويره ووادى آنه، وهى تتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، وتسمى عند العرب بجبل الشارات، واسمها اليوم جوادا راما وهو تعريب لاسم وادى الرمل وهو اسم نهر يمر هناك، فقد كانت هذه الجبال خلال العصور الإسلامية الفاصل الحقيقى بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية، وفى معظم فترات تاريخنا نجد الأندلس ما يقع جنوبى جبال الشارات، وإلى شمالها تقوم أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وهى قشتالة أو قشتالة وليون، ونهر تاجه الذى يمر جنوبى هذه الجبال هو الحد الفاصل الرئيسى لبلد الاسلام، فعليه كانت تقوم طليطلة أكبر عواصم الجزء الشمالى للأندلس، وعلى نهر بازو تقع مدريد عاصمة إسبانيا اليوم .

أما أهم الأنهار بالنسبة لتاريخنا فهو الوادى الكبير وعليه وإلى جنوبه يقع الجانب الأكبر من كبريات مدن الإسلام فى الأندلس وخاصة إشبيلية وقرطبة وجيان .

ويلى نهر الوادى الكبير فى الأهمية عندنا نهر أبرو وكانت تقوم عليه سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة، وتليه فى الأهمية من الناحية الشرقية بلنسية ولقنت ومرسية والمرية ثم مالقة.

وشبه الجزيرة فى مجموعه اقليم جاف، فلا تكثر الأمطار فيه على مدار السنة إلا فى الإقليم الشمالى المطل على خليج بسكاية، أما بقية شبه الجزيرة فلا يسقط عليه أمطار متوسطة ما بين ٤٠ و٥٠ سنتيمترا للمتر المربع فى السنة، وهناك نحو ٧٠٠٠٠ كيلو متر لا تمطر تقريبا معظمها فى الوسط الجنوبى والجنوب الشرقى .

ولكن الكثير من الجهات الممطرة لا تزرع بسبب وعورة السطح وتكوينه الصخرى .

وأغنى أقاليم أسبانيا من الناحية الزراعية ثلاث : ما يقع شمال جبال الشارات، وحوض الأبيرو وسهل بلنسية، وإذا أمعنا النظر قليلا وجدنا أن إقليما واحدا فقط من هذه الأقاليم الزراعية الغنية وهو إقليم بلنسية كان فى يد العرب، أما إقليم وادى الأبرو فإن معظمه كان فى ممالك إسبانيا النصرانية، ومعنى هذا أنه على الرغم من أن النواحى الإسلامية كانت أوسع وأكثر امتدادا فإن البلاد التى كان يملكها النصارى كانت أغنى، فهنا مناطق القمح الواسعة والمراعى الغنية، ومن هنا كان غذاء أهل هذه النواحى دائما أكثر وأحسن، فإذا أضفنا إلى ذلك وعورة بلادهم التى شدت من أجسامهم وزادت قواهم تبينا أن إسبانيا النصرانية كانت فى الواقع أغنى وكان سكانها من الناحية البدنية اقوى وأكثر احتمالا.

وكانت إسبانيا على طول تاريخها بلدا يعتمد اعتمادا أساسيا على الزراعة، ولم يتغير الوضع وتتحول إسبانيا إلى بلد صناعى إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وقد أدخل العرب إلى إسبانيا طائفة من الزراعات الرئيسية فيها مثل البرتقال والزيتون والأرز والقطن، وهذه بالإضافة إلى القمح هى الحاصلات الزراعية الرئيسية لإسبانيا والبرتغال .

٢ - شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامى :

دخل العرب إسبانيا سنة ٧١١م وكانت فى ذلك الحين خاضعة لسلطان القوط الغربيين الذين دخلوا إسبانيا فى جملة من دخلها من المتبربرين عند تدهور الإمبراطورية الرومانية، وقد دخلها قبلهم من المتبربرين السويف والآلان والوندال الذين أشرنا إليهم، والقوط كانوا من أكبر جماعات المتبربرين عددا وكانوا قد استقروا فى اسكنديفاوة ومنها هاجروا إلى الجنوب، وهم يعرفون فى لغتهم بالجوت أو الجوتان، وقد انقسموا عند الخروج من إسكنديفاوة إلى فريقين : الفيزيقوط وصحة نطقه vesu Gut أى القوط الفيبون، والاوسترو قوط Austra Gut أى القوط الأذكياء، ويقال إن صحة المعنى هى القوط القصار الفيزيجوت والقوط الطوال الاستروجوت، ولكن الترجمة الشائعة هى القوط الغربيون للفيزيجوت والقوط الشريقيون للاستروجوت، والذين يعنوننا هنا هم القوط الغربيون .

بعد رحلات وحروب طويلة استقر القوط الغربيون فى جنوبى فرنسا وإسبانيا، ثم انفردوا بإسبانيا خلال النصف الثانى من القرن الخامس وانشأوا أسرة ملكية أول ملوكها يوريك الذى حكم حتى سنة ٤٨٦ وخلفه الاريك الثانى، وبعد قرن من استقرار القوط فى إسبانيا تولت الملك أسرة من محاربيهم تعرف باسرة أتاناجيلدو، وكانت عاصمتهم طليطلة وامتد سلطانهم على شبه الجزيرة كله من جبال البرت إلى الزقاق .

وكان القوط مسيحيين ولكن على المذهب الأريوسى الذى يقول بطبيعتين منفصلتين للمسيح، فى حين أن الكاثوليك والبابوية يقولون بطبيعة واحدة للسيد المسيح إلهية وإنسانية فى آن واحد، وكان رجال البابوية يعملون نشطين للقضاء على الأريوسية، وكان رسلهم منتشرين فى إسبانيا، وأخيرا استطاعوا إقناع الملك ريكاريدو بترك الآريوسية والتحول إلى الكاثوليكية، وكانت ديانة معظم

السكان الأصلية في شبه الجزيرة، وقد تم ذلك وتقرر نهائيا في المجمع الديني الثالث لمدينة طليطلة سنة ٥٨٩ ويعتبر خورخو إسبانيا هذا الحادث حاسما في تاريخ بلادهم لأنه حقق الوحدة الدينية .

وفي سنة ٦٨٧ صار الملك إلى واحبا وكان رجلا قادرا عاقلا، وقد وقعت في أيامه غارة عربية سريعة على شرق الأندلس، وخلف واحبا ملك يسمى ويفيزا ويسميه العرب غيطشة، وقد اختلف عليه أبناؤه واضطرب الحكم بيده فثار به الكونت رودريجو حاكم قرطبة وعزله وتولى مكانه، وكان غيطشة قد أصدر قوانين ترفع اضطهاد اليهود، فأعادها لذريق وحكم بالعنف والقهر، وكانت النتيجة أن أبناء غيطشة وأهمهم إجيكا الذى يسمى أخيلا وأوباس الذى يسمى عباس اتصلوا بالعرب، ووفد منهم وفد ليلقى طارق بن زياد ووعدوه بالمعاونة، وهناك أيضا من يقولون : إن اليهود كذلك أرسلوا وفدا ليقابل طارق بن زياد ويستحثه على فتح الاندلس، ولهذا فإن مؤرخي اليهود يعتبرون طارق بن زياد بطلا من أبطال تاريخهم القومي.

وقد كان لا بد أن يستشير طارق بن زياد موسى بن نصير، وفي هذه الأثناء تقدم الكونت بليان وانضم إلى جماعة محرضي طارق على فتح الأندلس.

وتذكر المراجع العربية هنا قصة ابنة الكونت بليان التي أرسلها إلى بلاط لذريق فاعتدى هذا عليها فكان ذلك دافعا لأبيها إلى الانضمام إلى جماعة أنصار بيت غيطشة أولا ثم إلى العرب ثانيا.

وهنالك من يقول : إن بليان تجشم عناء الرحلة إلى القيروان ليلقى موسى ويقنعه، فرأى موسى أن يختبر صدقه بتكليفه بالقيام بغارة على الأندلس، ففعل وعاد بغنائم وأسرى فاقتنع موسى وأذن لطارق في البدء في الفتح مستعينا ببليان ، فبدأ طارق بإرسال فرقة من جنده يقودها طريف بن أبي زرعة فقامت بغارة سريعة على بلد صغير غربي الجزيرة الخضراء، فسمى هذا البلد طريفة من ذلك الحين وكان ذلك سنة ٧١٠ ميلادية .

وفى العام التالى بدأ الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الفتح نقول إن مؤرخى إسبانيا يجتهدون فى تصوير ملوك القوط ملوكا إسبانا وخاصة من أيام ريكاريدو الذى وحد الديانة، ولا مانع من قبول هذا الرأى وإن كان لا بد أن نقول إن القوط اعتبروا أنفسهم دائما طبقة ممتازة لا صلة لها بعامة الشعب وغالبية مكونة من الأيبيريين الرومان أى أهل البلاد الأصليين الذين أخذوا بمظاهر الحضارة الرومانية، وليسى معنى ذلك أن الايبيريين تعلموا اللاتينية إذ الحقيقة أنهم لم يعرفوها أبدا، فظلت لغة الرومان فى معسكراتهم وتعلمها ناس ممن اشتغل بالكتابة فى خدمة الرومان وعرضها رجال الدين، ولم يزد اتصال الأيبريين بالحضارة الرومانية على ذلك.

ويرجع الفضل إلى الرومان فى تقسيم إسبانيا إداريا وإنشاء الطرق الكبرى وتعمير المدن الرئيسية التى كانت كلها مراكز للحكم الرومانى من مثل برشلونة وطرطوشة وطليطلة وماردة وقرطبة وإشبيلية التى عرفت باسم هيسباليا ومنها جاء اسم إسبانيا الذى أطلق على البلاد كلها فيما بعد.

أما القوط الغربيون فهم لم ينشئوا شعبا، ولم يضيفوا إلى تراث الحضارة الإسبانية شعبا ذا بال، وعلى أى حال فهم كانوا أغرابا عن البلاد حتى أيام ريكاريدو وهذا الأخير لم يحكم إلا من عشرين سنة قبل دخول العرب، فلم تتسع أيامه أو أيام خلفائه فرصة لكى يصبحوا إسبانا .

وردريق أو لذريق وهو آخر من حكم من القوط كان رجلا مستبدا طاغية، ولكن التعصب الدينى جعل منه فيما بعد بطلا إسبانيا، وعلى أى حال فعندما دخل المسلمون البلاد كانت المسيحية مركزة فى العواصم، وكان الكثيرون جدا من اهل البلاد وثنيين أو مسيحيين بالاسم، وكانوا جميعا يئنون من وطأة القوط وظلمهم وضرائبهم، وكانت المدن فى اضمحلال وانهيار، فكان دخول العرب إنقاذا لها على الحقيقة .

٣ - فتـــح الأنـدلـــس :

أسرع طارق بن زياد بالتنفيذ بمجرد أن تلقى موافقة موسى لأن الظروف كانت مناسبة للقيام بالهجوم الأول، فقد كان الوقت مستهل الربيع لان شهر رجب ٩٢هـ الذى تحدده الرواية الإسلامية للفتح يوافق شهرى أبريل ومايو ٧١١م، ثم إن لذريق كان مشغولا فى شمال شبه الجزيرة بصد غارة حاولها الفرنجة على إقليم أرغون وعاصمته بنبلونه «بمبلونة».



عبر طارق فى رجب ٩٢هـ / أبريل - مايو ٧١١م مضيق جبل طارق فى قوة يقدر عددها بسبعة آلاف معظمهم من البربر وفيهم عدد قليل من الموالى وعدد أقل من العرب الحلفاء، وكان

نزولهم على سفح جبل يسمى قلب Calpe ولكنه سيسمى من ذلك الحين جبل طارق، ثم سار نحو قرية صغيرة تسمى قرطبة واستولى عليها ليؤمن رأس القنطرة التى تصل بين المغرب والأندلس، ثم انحدر إلى الجنوب بحذاء الساحل وأنشأ معسكرا فى مواجهة جبل طارق تجاه جزيرة صغيرة تعرف بالخضراء، وقد عرف المعسكر الذى تحول فيما بعد إلى مدينة باسم الجزيرة الخضراء، وعهد طارق إلى الكونت بليان بحراسة هذا المعسكر فى حالة ما اذا اضطر العرب إلى التراجع والاحتماء به.

وتسامع لذريق بخبر نزول المسلمين فأسرع نحو طليطلة عاصمته حيث جمع ما تيسر له من الجند، وفى نفس الوقت طلب طارق مزيدا من الجند، فأرسل له موسى خمسة آلاف أخرى وبهذا أصبح جيشه ١٢٠٠٠ يضاف إليهم عدد قليل من أنصار غيطشة ورجال الكونت بليان، ورأى طارق أن يتريث بعض الشيء قبل أن يغامر بالمسير إلى إشبيلية كما كان يريد .

وتقدم طارق غربا حتى وصل إلى شاطئ بحيرة ضحلة تعرف ببحيرة الخندق La Tanda وجعل إلى غربه سلسلة جبال ريتنى، وفى هذا الموقف انتظر وصول لذريق الذى لم يلبث أن أقبل من ناحية مدينة شذونة على رأس جيش يقال : إن عدته بلغت ١٠٠٠٠٠ مقاتل .

وتحدد الرواية العربية يوم ٢٨ رمضان ٩٢هـ / ١٩ يوليو ٧١١م تاريخا للموقعة الحاسمة التى انتصر فيها المسلمون وانفتحت على أثرها أبواب الأندلس، ولكن الحقيقة أن المعركة دامت أكثر من يوم، وأنها دارت فى كل المنطقة المحصورة بين جبل طارق ومجرى نهر البرباط وبحيرة الخندق والتى تمتد إلى مدينة شذونة شمالا، والغالب كذلك أن القتال دار فى نواح متعددة من تلك المنطقة وربما وصلت إلى شريش، وهناك من يقول إن القتال وصل إلى شريش Terez.

على أى حال فقد استمر القتال حتى انهزمت القوات القوطية تماما، وتقول المراجع العربية إن لذريق قتل فى المعركة، ولكن الغالب أنه نجا فى عدد قليل من رجاله، وربما يكون المسلمون قد

أدركوه عند نهير يسمى وادى الطبين حيث لاقى حتفه، وربما يكون كذلك قد استطاع الفرار إلى الشمال .

المهم لدينا أن هذه المعركة قضت على المقاومة القوطية وفتحت الطريق إلى عاصمة القوط، وقد كان لذريق كما قلت غاصبا للعرش، أى إن المسلمين على الحقيقة لم تكن أمامهم مقاومة حقيقية بعد ذلك .

وكان على طارق متابعة لتعليمات موسى أن يعود بعد ذلك إلى المغرب كما فعل عبد الله بن سعد بعد معركة سبيطلة قبل ذلك بخمسة وستين عاما، ولكن العرب تعلموا كثيرا خلال هذه المدة، ثم إن جنود طارق كان لا يمكن أن يعودوا أدراجهم بعد هذا النصر، فذلك معناه حرمانهم من ثمرة جهادهم، وكان هناك أيضا أبناء غيطشة وأنصارهم والكونت بليان ومن معه، وهؤلاء جميعا كانوا يدفعون بطارق دفعا إلى أن يواصل سيره فى الأندلس .

ورأى طارق أن الحزم يقضى بالمسير والاستيلاء على عاصمة القوط دون أن يضيع وقتا فى الاستيلاء على مدن وقواعد أخرى قبل ذلك، فسار شمالا بمعظم قوته، وعبر الوادى الكبير غربى قرطبة واندفع إلى الأمام، وفى نفس الوقت أرسل فرقة من جيشه يقودها مغيث الرومى مولى الوليد ابن عبد الملك فاستولت على قرطبة وملكت ناحية قنطرة الوادى وبذلك أمنت طريق عودة الجيش.

ووصل طارق إلى طليطلة ودخلها دون صعوبة قاطعا بذلك نحو ٦٥٠ كليو مترا بعد انتصار وادى لكه، وقد وجد المدينة شبه خالية لأن رجال القوط تسارعوا عندما سمعوا بمسير المسلمين نحوهم فحمل كل منهم ما استطاع، وأخذ عائلته وولى هاربا، واستولى على سكان البلد على أثر ذلك فزع فهرب الكثيرون منهم من بينهم الأسقف سندرد أسقف طليطلة، فقد حمل ذخائر الكنسية وولى هاربا فى اتجاه ما يعرف اليوم بوادى الحجارة وبرشلونة، ومن هناك إلى روما.

وقد عجّل طارق فسار فى أثر الهاربين حتى أدرك الكالاد ايناريس المعروفة بقلعة عبد السلام إلى الشمال الغربى من طليطلة، ثم أدركه الشتاء، فعاد إلى طليطلة وأراح فيها.

ووصل خبر هذا النجاح الباهر إلى موسى بن نصير فى القيروان، وهنا نجد نفرا من المؤرخين يذهبون إلى أن الغيرة استبدت بموسى فغضب على مولاه وأرسل إليه يأمره بالوقوف عند هذا الحد وأن ينتظر حتى يقدم هو عليه، ونجد كذلك نفرا آخر منهم يقولون : إن موسى غضب على طارق فعلا ولكن ليس نتيجة للحسد وإنما خوفا على جند المسلمين من الترامى إلى هذا البعد فى بلد فسيح ودون نظر إلى العواقب، وربما كان رأى هؤلاء الأخيرين هو الأصوب لأننا نعلم أن طارقا بعد أن استقر فى طليطلة بعث إلى مولاه بتفصيل ما دار فى الفتوح وطلب إليه مددا.

ولم يتردد موسى فى المسير إلى الأندلس فى قوة كبيرة ووصل فى الشتاء أواخر ٧١١ وأوائل ٧١٢م إلى طنجة، وفى يونيو ٧١٢م (رمضان ٩٣هـ) عبر إلى الأندلس فى قوة تقدر بثمانية عشرة ألف رجل غالبيتهم العظمى من العرب هذه المرة، وكان فيهم عدد كبير من كبار رجال القيسية والكلبية وعدد كذلك من التابعين أشهرهم على بن رباح وحنش بن عبد الله الصغانى.

نزل موسى فى الجزيرة الخضراء، ولم ير – بناء على نصيحة رجاله وحلفاء المسلمين من أهل البلاد – أن يفتح جانبا من شبه الجزيرة وهو فى الطريق إلى طليطلة، فبدأ بالاستيلاء على شذونة واستولى كذلك على حصنين كبيرين إلى جوارها هما قرمونة وقلعة وادى أيره، ثم تقدم نحو إشبيلية وحاصرها حتى سلمت بعد وقت قصير وانسحبت حاميتها إلى الغرب إلى مدينة نبلة Nie-bla وهى اليوم من مدن البرتغال.

وتقدم موسى نحو ماردة وكانت من كبار بلاد إسبانيا القوطية، يحيط بها سور كبير حصين، وقد اعتصم بها جانب كبير من جيش لذريق المنهزم، فحاصرها موسى واستعمل فى ذلك أدوات

الحصار، ولقى المسلمون مقاومة عنيفة وتحملوا خسائر كبيرة فى الأرواح، ولكنهم استمروا فى الحصار حتى استسلم البلد فى أول شوال ٩٤هـ / ٣٠ يونيو ٧١٤م، وقد وجد المسلمون فى ذلك البلد ذخائر وافرة ملأت أيديهم.

وفى شهر يوليو التالى تقدم موسى ومن معه نحو طليطلة وخرج طارق بن زياد للقاء مولاه موسى حفيا به ويقال : إن موسى أهانه أو ضربه بالسوط وغير ذلك، ولكن هذا كله مستبعد، وربما يكون الرجلان قد تعاتبا، ولكننا نجدهما عقب ذلك مباشرة يسيران معاً لمواصلة الفتوح.

وفى أثناء ذلك انتقضت إشبيلية على المسلمين، فعجل موسى بإرسال ابنه عبد العزيز بن موسى فأطفأ الثورة واستولى على ليلة وباجه واكشونبه، وكانت أكبر مدائن الجنوب الغربى لشبه الجزيرة، ومنها يتكون النصف الجنوبى للبرتغال اليوم، وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسى من هذه الناحية.

ويذهب المؤرخ الإسبانى سافورا إلى أن موسى بعد أن تلاقى مع طارق فى طلبيرة تسامع بظهور لذريق تلك القوط فى غرب شبة الجزيرة فى ناحية سلمنكة، فأسرع إلى هناك وتلاقى مع لذريق وبقايا القوط فى معركة عند بلدة تسمى Sogoyuela de les cornegos قرب قرية تمامس Ta-mames الحالية، وهناك لقى لذريق مصرعه الأخير، ولكن يبدو أن ذلك كله غير صحيح و So-goyuela التى قرأ سافورا اسمها فى مدونة لاتينية قديمة الأغلب أن صحتها Sidonia أى شذونة، وعلى هذا يكون لذريق قد قتل فى معركة وادى لكه الطويلة قرب بلدة شذونة.

ثم عاد موسى بن نصير إلى طليطلة وبدأ عمله كأول ولاة الأندلس، وهو دون شك أول عربى يحكم قطرا أوروبيا، وقد أكد موسى هذا المعنى عندما أمر بضرب عملة إسلامية فى دار السكة بطليطلة، ولما كان عمال هذه الدار إسبانا يكتبون صيغ العملة باللاتينية فقد ظهرت هذه العملة الإسلامية وعليها شهادة الإسلام باللاتينية، فنقرأ على أحد وجهيها:

IN NOMINE DEI : NON DEUS NISI DEUS SOLUS NON DEUS ALIVS.

ونقرأ فى الوجه الثانى:

HIC SOLIDUS FERITUS IN SPANIA ANNO 714.

وأراح موسى فى طليطلة شتاء ٧١٣م- ٧١٤م ومن هناك أرسل - رسولين إلى الخليفة الوليد ابن عبد الملك ليحملوا إليه النبأ مع طرف من الذخائر، ويقال إن الرسولين كانا على بن رباح التابعى ومغيث الرومى مولى الوليد .

وعندما اقبل ربيع ٧١٤م خرج موسى بجيشه فى اتجاه شمالى شرقى قاصدا سرقسطة، وتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة التى تعتبر مفتاح منطقة وادى أبره كلها وقام التابعى حنش بن عبد الله الصنعانى باختطاط جامع سرقسطة الذى سيصبح من كبار مساجد الأندلس المشهورة.

وعقب ذلك سار موسى نحو لاروة متبعا الطريق الرومانى الكبير المبلط الذى يعرف بالطريق القيصرى Via Augasta ويسمى بالعربية الرصيف أو البلاط، وقد استولى موسى على لاروة وبدأ يستعد للسير نحو برشلونة، ويقال : إن نيته كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصرى حتى أرغونة ومنها إلى روما.

ويورد المقرى فى نفح الطيب نصا يقول : إن موسى كان يزمع الاستيلاء على القسطنطينية من الغرب، وهو إسراف فى حسن الظن، كما هو واضح، لأن المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ٨٠٠٠ كليو متر كلها جبال ومرتفعات يحتاج قطعها إلى أعداد وعدد يصعب تصورها.

ولكن الظروف لم تمهل موسى للاسترسال وراء لاروة فقد أقبل إلى معسكره مغيث الرومى عائدا من دمشق بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بأن يذهب موسى وطارق معًا إلى دمشق ليقدما بنفسيهما بيانا عن الفتوح إلى الخليفة، ويبدو أن مغيثا الرومى لم يكن بارا بموسى فيما نقل

إلى الوليد من أخباره، وكان مغيث رجلا متآمرا قلقا، وقد انتهت حياته فى معركة الأشراف فى الغرب الأوسط، ولكن أسرته: بنو مغيث ستصبح من كبار بيوتات الأندلس ومن موالى بنى أمية المقربين.

ولم يرفض موسى الاستجابة لهذا الطلب، ولكنه طلب إمهاله حتى يستكمل فتح الشمال الغربى لشبه الجزيرة كما فتح الشمال الشرقى، فأمر طارق بمواصلة السير على الطريق الرومانى وسار هو مع نهر أيره فى اتجاه الشمال الغربى ثم غربا بعد ذلك نحو جليقية، فسار بحذاء الجبال الكنتبرية، أما طارق فقد تمكن من إخضاع منطقة أرغون وعاهد أميرها المسمى فرتون، وقد أسلم فرتون هذا وأصبح جد بنى قسّى الذى سيكون لهم دور كبير فى تاريخ الثغر الأعلى الأندلسى، وبعد ذلك اتجه غربا ليلحق بموسى فاستولى على حصنى أمايا ثم على مدينة اشترقه Astorga وكانت مركز الناحية التى تسمى فى النصوص العربية ألية والقلاع Ala'va-Castilla وتسمى فى الجغرافية التقليدية الإسبانية بأقليم قشتالة القديمة وآخر ما استولى عليه طارق كان بلدة ليون، قرب برغش الحالية.

أما موسى فقد سار أول الأمر بحذاء ايرو الأعلى فى اتجاه منبع النهر ثم اتجه إلى الشمال عابرا الجبال الكنتبرية، ودخل إقليم اشتورياس فاستولى على ابيط ووصل إلى ساحل خليج بسكاية عند خيخون، وهرب أهل الناحية وبقايا القوط شرقا نحو البلدة المسمى حاليا كنجاس أونيس Cangas de Onis ووراءها تقوم منطقة جبلية وعرة ترتفع فيها ثلاث قمم عالية تسمى بقمم أوروبا Los Picos de Europa.

وعندما وصل موسى إلى ساحل خليج بسكاية وقائده طارق إلى مداخل إقليم جليقية شعر موسى أنه أتم فتح شبه الجزيرة وأنه يستطيع بعد ذلك أن يلبى أمر الخليفة الوليد.

وهكذا نرى هذين الفاتحين العظيمين يأخذان طريق العودة إلى المشرق فى ذى القعدة ٩٥هـ/ سبتمبر ٧١٤م، وقد خلفا الأندلس وراءهما بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوح العربية، ففى بحر ثلاث سنوات من الجهد المتصل والحركة الدائمة استطاع هذان الرجلان مع حفنة من المسلمين ما بين عرب وبربر لا تزيد على ٣٠٠٠٠ مقاتل أن يفتحوا قطرا أوروبيا واسعا يعتبر من أصعب الأقطار الأوروبية من الناحية الجغرافية الطبيعية، وقد قام المسلمون بهذا الفتح بشجاعة تعتبر مضرب المثل، ومسارا على خطة عسكرية وسياسية واضحة ترك على خبرة بعيدة بمسائل الحروب وفتوح البلدان، وقاد موسى وطارق رجالهما بحزم ونظام وبعد نظر تذكرنا بقيادات خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص وأبى عبيدة بن الجراح.

وقد خلف موسى ابنه عبد العزيز بن موسى واليا على الأندلس مكانه، فإذا اعتبرنا طارق بن زياد أول ولاة الأندلس كان عبد العزيز هو الثالث، وقد بدأ ولايته فى سبتمبر سنة ٧١٤م.

وقد ذكرنا فيما سبق ما أصاب موسى على يد سليمان بن عبد الملك، ويقال : إن طارق بن زياد شكا لسليمان سوء معاملة موسى إياه واختصاصه نفسه بخير الأسلاب والمغانم وخاصة مائدة سليمان التى طار صيتها فى الروايات الإسلامية، وما هى فى الحقيقة إلا مذبح كنيسة طليطلة أى المنضدة التى يقف عندها القس ليقوم بالصلاة، وكانت منضدة غالية محلاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

وعلى أى حال فإن سليمان بن عبد الملك، وكان عدواً لكبار رجال دولة بنى أمية وكبار الفاتحين، لم يستطيع تقدير طارق العظيم، فانزوى هو الآخر ومات فى خمول.

وببداية حكومة عبد العزيز بن موسى يبدأ فى تاريخ الأندلس عصر الولاة، أى الولاة التابعون للحكومة المركزية فى دمشق، وتستمر هذه الفترة حتى سنة ٧٥٨م وهى السنة التى قامت فيها إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

ولكن عبد العزيز أنفق معظم أيام ولايته فى استكمال فتح شبه الجزيرة، فإن الفاتحين الكبيرين قضيا على ورث القوط ووصلا إلى الحدود فى كل ناحية، وبقيت بعد ذلك أجزاء كاملة - شبة الجزيرة فى شرقها وغربها دون فتـح - وكان لا بـد من استكمـال فتحها، وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى، ولهذا فنحن نعتبره ثالث فاتحى الأندلس، ونعتبر فترة الولاة تبدأ بانتهاء ولايته سنة ٧١٦م.

٤ - ولايـة عبـد العزيـز بن موسـى واستكمال فتح الاندلس ٧١٤ - ٧١٦ :

ونلاحظ أثناء الشهور الأخيرة لموسى وطارق أن فتح الأندلس أثار فى المغرب كله حركة كبرى، فتسابق الناس إلى العبور إلى تلك الأرض الجديدة الغنية ليستقروا فى نواحيها ويصيبوا من خيراتها، ويقول الرازى : إن الناس عبروا على كل ما يستطاع العبور عليه حتى جذوع الأشجار، ولهذا فإننا نجد فى شبه الجزيرة ابتداء من أيام عبد العزيز بن موسى ألوفا بعد ألوف من المهاجرين الجدد ينساحون فى كل ناحية من نواحى شبه الجزيرة، وفى بعض الأحيان نجد بطونا بأسرها من قبائل بربرية تعبر إلى الأندلس وتستقر فى نواح قاصية مثل قشتالة القديمة، ولكن أكثر الاستقرار كان فى أحواض الأنهار الأربعة الكبرى : الوادى الكبير والوادى آنة وتاجه وإبرو، وفى أحواض هذه الأنهار ستنمو الجماعات الإسلامية الضخمة التى ستكون سكان الأندلس الإسلامى.

وكان عبد العزيز بن موسى يشعر بالفعل أن عليه أن يتم ما تركه أبوه من فتح، وقام بجهد كبير فى هذا السبيل ولكن التفاصيل التى لدينا عن أعماله قليلة، فنحن نعلم أنه قام عقب توليه الأمر بحملة على غرب شبه الجزيرة ففتح يابرة وشفترين وقلمرية، وفى نفس الوقت كان قواده يستكملون فتح الشمال الغربى من شبه الجزيرة إلى جبال البرت واستولوا على برشلونة وطرطوشة وجرونة وأرغونة، وهذه الأخيرة تقع شمالى الجبال وفى جنوبى فرنسا.

وقام عبد العزيز بن موسى بنفسه بحملة واسعة على شرق الأندلس ففتح البيرة وهى بلدة كانت تقوم على مقربة من موقع غرناطة، وكانت غرناطة إذ ذاك قرية صغيرة جدا فلم يعظم أمرها إلا فيما بعد، وإلى أواخر القرن العاشر الميلادى كانت البيرة لا غرناطة هى عاصمة ذلك الإقليم، وقد أطلق اسمها على كورة واسعة تشمل حوض نهر شنيل فرع الوادى الكبير.

ومن هناك اتجه عبد العزيز شرقا نحو ما عرف بعد ذلك بكورة مرسية، وكانت تلك الناحية إمارة مستقلة تحت سلطان القوط، وكان يحكمها أمير قوطي يسمى تدمير، وقد أطلق العرب اسمه على الناحية كلها فيما بعد، فإذا احتل تدمير كان المراد مرسية بلدا وكورة.

وقد تفاوض تدمير مع موسى فى الدخول فى طاعة المسلمين محتفظا باستقلاله فقبل عبد العزيز ذلك واشترط عليه دفع جزية مالية سنوية وتسليم سبعة حصون يحتلها الجند العربى ضمانا لوفاء تدمير بتعهده.

وقد احتفظت لنا المراجع بنص المعاهدة وهى مؤرخة في رجب ٩٤ هـ/ أبريل ٧١٣م ويفهم من تاريخها أن مفاوضة سابقة كانت قد تمت أيام موسى وانتهت إلى هذه المعاهدة قبل خروج الفاتح الكبير من الأندلس، أما عبد العزيز فقد قام بالتنفيذ.

وكانت عاصمة الأندلس الإسلامى فى ذلك الحين إشبيلية وفيها أقام عبد العزيز وقد سكن فى دار ملحقة بكنيسة تسمى سانتا رُبيه، حولت إلى مسجد، وتزوج بأيلونه أو اجيلونة أرملة لذريق ويسميها العرب أم عاصم، ويبدو أن سلطانها عليه كان عظيما مما أثار عليه نفراً من قواده، وقد تفاهم هؤلاء مع سليمان بن عبد الملك على التخلص من عبد العزيز فاغتاله زياد بن عذرة البلوى فى أوائل رجب ٩٧هـ / مارس ٧١٦م، هجم عليه فى المسجد بعد صلاة الفجر، وقد أثار قتله اضطراباً كبيراً بين قواد الأندلس، وانتهى أمرهم إلى أن اختاروا بأنفسهم واليا جديدا هو أيوب بن حبيب اللخمى، وكان ابن أخت موسى بن نصير .

٥- عصـر الـولاة ٧١٦ - ٧٥٨م :

تولى أمر الأندلس خلال هذه الفترة ٢٢ واليا، حكم واحد منهم مرتين، ومعنى ذلك أن متوسط مدة الوالى أقل من سنتين، وهذا وحده يكفى لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة.

وبعد أن درسنا تاريخ المغرب خلال هذه الفترة نتبين أن ذلك القلق كان هو الأمر المتوقع، فلدينا أولا اضطراب السياسة العامة لبنى أمية بعد الوليد بن عبد الملك ووقوعها فريسة للعصبيات القبلية والشخصية، وكان لا بد أن يكون لذلك كله أثره فى الأندلس كما كان له أثره الذى رأيناه فى المغرب.

وهناك كذلك الخلاف الكبير بين العصبات العربية فى المغرب، ثم خلاف العرب البلديين مع العرب الشاميين، ثم خلافات هؤلاء جميعا مع البربر، وكان لابد أن يمتد ذلك لكله إلى الأندلس.

وهناك أيضًا التنازع على السلطان بين الطامحين فيه، وقد رأينا ما كان من أمر حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع وابنه عبد الرحمن، ولدينا فى الأندلس ما يشبه ذلك.

يضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلد قائم بذاته وله ظروفه التى لا تشبه ظروف أى بلد مما فتحه المسلمون فى ذلك الحين، فإن الأندلس كان ثغرا لبلاد المسلمين، وكان لا بد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد، ويستوقف نظرنا أن العرب برغم مشاغلهم الكثيرة فى الأندلس استطاعوا أن يواصلوا الفتوح فى غالة نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس وكسبوا خلال هذه الفترة انتصارات كبيرة تضيف صفحات مجيدة إلى سجل الفتوح الإسلامية، ولا يقلل من أهمية هـذه الفتوح أنهـا وقفـت بعـد موقعة بلاط الشهداء، لأننا سنرى أن المد العربى كان لا يمكن أن

يستمر إلى ما لا نهاية، كان لا بد أن يقف عند نقطة ما، ونقطة بلاط الشهداء نقطة رائعة بالنسبة لقوم عددهم خليل نسبيا بدأوا فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة.

وهناك أخيرا مشاكل الحكم فى الأندلس نفسه، وهو بلد فسيح جدا دخله العرب فى وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها، فكان على العرب أن يعالجوا مشاكل جمة، وإن الإنسان ليدهش إذ يراهم - رغم صعوبة ظروفهم وقلة العون الذى تلقوه من الحكومة المركزية - يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقا، فلم يظلموا من أهل البلاد أحدا بل نشروا بينهم عدلا لم تعرفه البلاد قبل ذلك، وعنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الرى، وأنشأوا مساجد فى كل نواحى الأندلس تقريبا.

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها من التعقيد صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاوية الداخل وهو من عباقرة الحرب والسياسة فى تاريخ الإسلام، فأنقذ البلاد من الفوضى والعرب من نتائج الاستمرار فى الحرب الأهلية، واحتفظ بثمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين، فلم تضع هذه الجهود كلها هباءً.

ولا يتسع المجال هنا للكلام بالتفصيل على ما قام به أولئك الحكام خلال فترة الولاة، ولكننا سنكتفى بتتبع ميادين العمل الرئيسية ثم دراسة المشاكل الكبرى التى واجهت الحكم العربى وما قام به الحكام حيالها حتى نصل إلى إمارة عبد الرحمن الداخل.

١ - خلافات العرب فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر:

رأينا كيف صار أمر الأندلس إلى أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير فى منتصف ٩٧هـ/ مايو ٧١٦م تقريبا، وأيوب بن حبيب يمثل العرب البلديين، أى العرب الذين قاموا بالفتح واستقروا فى البلاد وأصبحوا بمقتضى هذا يشعرون أنهم أولى بها من غيرهم.

وقد تواطأ أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى مع الخليفة سليمان أملا منهم فى أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم فى البلاد.

وقد ظل أيوب بن حبيب حاكما نحو أربعة أشهر لم يفعل خلالها شيئا ذا بال، ولكنه هو الذى نقل عاصمة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة، لأن موقعها أكثر توسطا، ثم إن أعدادا كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم.

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه، فقد قام يزيد بن أبى مسلم والى سليمان بن عبد الملك على المغرب بتعيين الحر بن عبد الرحمن الثقفى على الأندلس، فكان الحر على هذا يمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجند الشامى، مما ابعد عنه العرب البلديين، بدأ الحر ولايته فى ذى الحجة ٩٧هـ/ ٧١٦م واستمر سنتين وثمانية أشهر لا تنسب المراجع إليه فيها كبير عمل، ولكنه هو الذى أقام دار الإمارة فى قرطبة. وكانت هذه الدار فى مواجهة قنطرة الوادى، وكانت قبل ذلك مقرا للحاكم القوطى الذى انتزع مغيث الرومى البلد من يده، وقد سكن مغيث فى جانب من القصر عرف ببلاط مغيث، ثم أخرجه منه أيوب بن حبيب وسكن فيه، فلما جاء الحر بن عبد الرحمن الثقفى زادت عنايته بالقصر وجعله قصر إمارة فعلا وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة إلى خربة على ضفة النهر باسم بلاط الحر.

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز فى ١٠ صفر ٩٩هـ / ٢٢ سبتمبر ٧١٧م نظر فى أمور المغرب والأندلس فأقام على الأول إسماعيل بن عبيد الله وعلى الثانى عنبسة بن سحيم الكلابى، وكلاهما كان من خيرة الحكام.

بدأ عنبسة فى رمضان سنة ١٠٠هـ / أبريل – مايو ٧١٩م وعلى الرغم من قصر المدة التى تولاها فإنه من الولاة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية فهو أول من نظر فى حصر

أرض الأندلس وتمييز ما فتح منها صلحا مما فتح عنوة، وبدأ باستخراج الخمس من العنوة ليجعله ملكا للدولة، وأتم هذا فيما يتصل بإقليم قرطبة، والمفروض أنه فتح عنوة، وقد خرجت فى الخمس أرض واسعة أنشأ الحر فى بعضها مقبرة للمسلمين ووزع الباقى على الزراع على أساس المزارعة أى المناصفة فى الغلة، ثم أعاد بناء قنطرة الوادى وكانت قد تصدعت.

وفى ربيع سنة ١٠٢هـ / ٧٢١م خرج عنبسة غازيا فى غالة فاستشهد فى طرسونة فى يوم عرفة من العام نفسه ، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الله، وهو أعظم الصالحات.

وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر فى إخلاء الأندلس من المسلمين خوفا على مصيرهم فى ذلك الثغر السحيق فى نظره، ولكنه عدل عن هذه الفكرة إذ كان المسلمون قد استقروا فى البلاد وكثروا وبدأ نفر من أهلها يسلمون، فلم تكن هناك وسيلة لتنفيذ هذا القرار الخاطئ دون شك.

بعد السمح بن مالك وبعد موت عمر بن عبد العزيز عاد الأمر فى المغرب والأندلس إلى الجند الشامى وولاتهم، فثارت خصومات بين الولاة والعرب البلديين، وانضم البربر فى الأندلس إلى البلديين لاتفاق مصالح الجانبين، وقد بلغ استبداد الشاميين ذروته فى الأندلس حتى سنة ١١١هـ/ ٧٣٠م وهى التى انتهت فيها إمارة الهيثم بن عبيد الكلابى، وكان من أشد الولاة تعصبا للشاميين الذين يسمون هنا أيضاً بالقيسيين.

وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والحين لإقامة واحد منهم عاملا على الأندلس، ولكن الحكومة المركزية كانت تسرع بتولية والٍ جديد، وبعد عزل الهيثم أقام عرب الأندلس واليا منهم، ثم اختارت الحكومة واحدا منهم هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فبدأ ولايته فى صفر سنة ١١٢هـ / مارس - أبريل ٧٣٠م.

وكان عبد الرحمن من كبار جند الأندلس، ومن أولئك الذين قضوا معظم أيامهم في ميادين الجهاد في غالة، وقد سبق له أن تولى الأندلس سنة ١٠٢هـ/٧٢١م، فلما عادت إليه الولاية للمرة الثانية لم يكن له هم إلا جمع القوات وإعداد العدة للجهاد، وكانت ولايته القصيرة من أهدأ فترات عصر الولاة، ومن سوء الحظ أن عبد الرحمن استشهد في معركة بلاط الشهداء في رمضان ١١٤هـ/ أكتوبر ٧٣٢م.

وعقب ذلك أقام عرب الأندلس على أنفسهم واحدا منهم هو عبد الملك بن قطن الفهرى الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ الأندلس فيما بعد، وكانت ثورة البربر فى المغرب قد بدأت تشتد وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس، فبدأ أمر العرب فى ذلك البلد يتحرج.

ولا تذكر لنا المراجع شيئًا واضحا عن أسباب ثورة البربر على العرب فى الأندلس، وكل ما نفهمه منها أنها كانت امتدادا طبيعيا لثورتهم فى إفريقية، وقد قيل كذلك إن الثورة اندلعت لأن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضى تاركين للبربر أسوأها أى المناطق الجبلية القاحلة، وذلك غير صحيح فإن أرض الأندلس الطبيعية من الكثرة بحيث تتسع لكل المهاجرين عربا وغير عرب.

ثم إن المسلمين لم يكونوا إذا دخلوا بلدا اقتسموا أراضى الناس فيما بينهم، والدولة العربية لم تكن دولة نهب وسلب وإنما كانت دولة لها نظامها، وأراضى البلاد المفتوحة كانت لها نظمها التى تحكمها ولم نسمع أبدا أن قبيلا من العرب دخل بلدا فاستولى على مزارع وضياع وطرد أصحابها منها، وإنما الفاتحون كانوا يستقرون فى النواحى جماعات عسكرية تحت تصرف الدولة، وفى مقابل ذلك كانوا ينالون حصة مقررة من الخراج، أما العرب والبربر الذين أحبوا أن ينصرفوا للزراعة فقد زرعوا أراضى باتفاق مع أصحابها على أساس المزراعة أو على أى أساس آخر، وفى هذا

المجال نجد أن البربر كانوا أكثر اشتغالا بالزراعة، وقد انساحوا دون حرج فى الأراضى الغنية فى شرق الأندلس وفى أحواض الوديان الغربية وخاصة ناحية واديى ودويرة، وتلك كانت نواح غنية بالأرض والثمرات.

وإنما يمكن أن يقال : إن بعض العرب الذين استقروا فى نواحى الأندلس تمسكوا بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم ظنا منهم أن الدولة دولتهم، وكان معظم هؤلاء من الشامية أى فى القيسية أى من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية دولتهم، أما العرب البلديون - ومعظمهم من اليمنية - فكانوا بعيدين عن هذه النزعة لأنهم كانوا قبل كل شىء أهل معاش وأرزاق وعمل فى حين أن الشاميين كانوا يرون أنهم أهل حرب وسياسة وحكم.

فى هذه الظروف نفهم أن أخبار ثورة بربر المغرب التى أنكرت سيادة العرب جملة وجدت صدى فى الأندلس، فقام البربر فى النواحى التى كانت لهم فيها أغلبية على العرب الذين معهم وأخرجوهم وخاصة من جليقية وحوض الدويرة الأراضى فيما بين هذا النهر ونهر تاجة.

وكان أمير الأندلس إذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهرى، كبير العرب البلديين وكان هواه ومعظم من حق من اليمنية، وكان يحب أن القدرة قامت على الشاميين فما راعه إلا وهى موجهة إلى العرب جميعا وبلغه من العرب الهاربيين إليه من نواحى اشترف وليون أن البربر أنفسهم فى ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة وقرطبة، والجزيرة الخضراء على الترتيب، فخاف الرجل سوء العاقبة.

فى هذه الأثناء كان بلج بن بشر القشيرى ومن معه محصورين فى سبته بعد هزيمة الأشراف وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطن دون جدوى، ولكنه اضطر إلى السماح لهم بالعبور ليعاونوه على القضاء على البربر، وعبروا بالفعل بقيادة بلج بن بشر سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م، ولم ينقض عام على دخولهم الأندلس، وكانوا حوالى ١٠ آلاف حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الثائرين،

وكانـت المعركـة الحاسمة عند وادى سليط Cuadalate قرب الجزيرة الخضراء أوائل ١٢٤هـ/ نوفمبر ٧٤١م.

وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون يطاردون البربر، وكانت نتيجة ذلك إلى روع بربر الأندلس روعا شديدا فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصة فى الوسط والشمال الغربى ويعودون إلى إفريقية، وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام فى الأندلس، فإن ألوفا كثيرة من هؤلاء المسلمين الذين كان ينتظر أن يعبروا بالإسلام كل نواحى شبه الجزيرة هاجروا وتركوا كل الأراضى الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريبا من المسلمين، فأصبحت هذه النواحى ابتداء من النصف الثانى للقرن الثانى الميلادى أرضا خلاء مفتوحة لنصارى الشمال ليمتدوا فيها كيف يشاءون.

وسيعمر النصارى جزءاً كبيرا منها خلال القرن التاسع الميلادى ويصبح حوض الدويرة أرضا نصرانية.

لقد خسر المسلمون نتيجة لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة، خسروه دون أن يخرجهم منه عدو، وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض وقلة نظرهم إلى العواقب.

وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب بلج رفضوا العودة إلى إفريقية كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطن، ووقع النزاع الشديد بين بلج وعبد الملك وانتهى بعزل هذا الأخير وولاية بلج بن بشر فى ذى القعدة ١٢٤هـ/ سبتمبر ٧٤١م.

وقد أنكر أهل الأندلس جميعا رياسة بلج ومن معه من الشاميين القيسيين وقاموا عليهم وقتلوا بلجا فخلفه شامى شديد العصبية مثله هو ثعلبة بن سلامة العاملى واشتدت الحرب بين البلديين من عرب وبربر فى جانب والشاميين فى الجانب الآخر.

٢- أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ونظام الكور المجندة:

وأسرع عامل إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فأرسل واليا جديدا إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى فبدأ ولايته فى رجب ١٢٥هـ / مايو ٧٤٣م. وبدأ الرجل بداية طيبة، فأمن العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحهم ونظر فى أمر يبعد عنهم أذى الشاميين، واجتهد فى إبعاد أذى هذه المنازعات عن أهل البلاد المسالمين من أسلم منهم ومن لم يسلم، لأنهم أساس عمارة البلاد.

ثم نظر إلى الشاميين فتبين أنهم جميعا متجمعون فى قرطبة وإقليمها، وهذا التجمع هو الذى يفتح لهم طريق التدخل فى السياسة وشئون الدولة، ففكر فى أن يوزعهم على نواح شتى من الأندلس لا ينزلها من البلديين وأهل اليمن أحد، وقد أشار عليه بذلك أرطباس بن غيطشة شيخ نصارى الذمة، وكان شخصية محترمة مقربة من الأمراء، وكان يسمى بقومس الأندلس.

وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ويأخذوا ثلث الخراج الذى يؤديه نصارى الذمة والمزارعون، على أن يقدموا للحكومة عددا معينا من الجند كلما طلبت ذلك.

وقد تم توزيع أولئك الشاميين على الكور الآتية:

جند مصر	كور أوكشونية وباجه وتدمير
جند حمص	كورة إشبيلية
جند فلسطين	شذونة
جند الأردن	ريه، أى ناحية مالقة
جند دمشق	البيرة أى غرناطة
جند قنسرين	جيان

وقد أصبحت هنا الكور الثمانية تسمى بالكور المجندة وقد استقرت فيها جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم واطمأنوا فيها، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة على النظام الذى ذكرناه، وقد أصبحت هذه الاجناد من العناصر العسكرية الرئيسية فى التنظيم الحربى للأندلس.

ولم يستطع أبو الحطار الاستمرار على هذه السياسة الحكيمة، فمال إلى اليمنية وثار النزاع من جديد.

٣- السنوات العشر الأخيرة من عصر الولاة فى الأندلس :

حكومـة الصـمـيل بن حـاتم ويوسف الفـهـرى:

فى هذه الأثناء ظهرت شخصية الصميل بن حاتم بين الشاميين، والصميل شخصية فريدة فى بابها تجمع معظم النواحى الإيجابية والسلبية فى كثير من العرب الجاهليية الذين دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهـم، فهو شجاع لا يهاب الموت، كريم يجود بكل ما فى يده دون تردد، شهم لا يرتكب ما يمس المروءة، وهو سيد مهذب يعرف كيف يعامل الناس، وهو أيضا شاعر يقول شعرا يسيرا ولكنه يعجب بالشعر الجيد، وهو بعد ذلك كله أمى ولا يعرف من القرآن الكريم إلا نزرا يسيرا، وهو عنيف فى خصومته شديد الحق لا ينسى ثأره، مسرف فى اللـذات ما تيسـرت لا يتـورع عن شرب الخمر، وهو ذكى خبيث لا يفوته أمر ولا يتردد فى القضاء على خصومه، وهو كسول فى معظم أوقاته، وهو لا يوقر شيئا ولا يؤمن بشيء، وهو لا يتردد فى الإقدام على إرسال خصومه إلى حتفهم دون مبالاة فإذا قام على قدميه لم يبدأ.

هذا الرجل نظرا فى أمر الأندلس فتبين- بسبب قيسيته أى شاميته - أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب وحدهم لكنهم كذلك لا يستطيعون سيادة البلديين لكثرة هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن أنفسهم فى كل حين، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلا إذا تعاون الفريقان على

أى صورة من الصور فبدأ أولا فجمع الشاميين إلى لواء واحد، هو لواؤه، ثم بحث فى المعسكر الآخر البلدى عن زعيم يؤيده ويسوس الأمر باسمه فى نفس الوقت، فوجد يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى أجمع البلديون على رياسته، وكان الشاميون أيضًا مستعدين للخضوع له بسبب فهريته، وأخيرا تم الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهرى ويكون الصميل مستشاره وصاحب رأيه، واستقر الأمر على ذلك فى ربيع الثانى ١٢٩هـ/ ديسمبر ٧٤٦م، ولم تستقر الأمور لهما إلا بعد حرب طويلة مع زعيم يمنى يسمى يحيى بن طريف بلغت عصبيته اليمنية مبلغا جعله غير قادر إطلاقا على احتمال أهل الشام بأى سبيل، ولكنه انهزم وقتل فى معركة شقندة ١٣١هـ/ ٧٤٧م وخلا الأمر بعد ذلك للصميل ويوسف الفهرى حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

وقد هدأت الأحوال هذه السنوات فيما عدا ما كان من مجاعة شديدة بلغت ذروتها سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م، وكانت هذه الجماعة نتيجة لما رأينا من حروب شديدة بين العرب فيما بين بعضهم وبعض وبين العرب والبربر، فازدادت الهجرة إلى إفريقية وقل عدد المسلمين فى شبه الجزيرة عما كان، ويستثنى من ذلك إقليم سرقسطة، وكان معظم أهله عربا يمنيين، فاستقروا فى الأرض وزرعوا وعمروا ولم يتأثروا بهذه الفتن إلا قليلا.

٦- فتوح المسلمين فى غالة وهى فرنسا :

فى مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأمويـة على الأقـل كانت حركـة الفتـوح حركة متصلة لا يمكن أن تتوقف ما دامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام، فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة، هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن.

فيما يتصل بالأندلس كان هناك واقع أكبر لكى يستمر العرب فى الفتح فيما يقع شمال البرت، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال، إنما كان القوط يملكون إقليم سبتمانية وهو يتكون من سبع مديريات تمتد على ساحل البحر الأبيض من جبال البرانس إلى مصب الرون، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة أرجونه (أرغونة).

أما ما يلى جبال البرانس فى الشمال فكانت تحتله فى الغرب دوقية أقطانية وعاصمتها بردال أو بردو وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى أود أو أودو وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة، وفى ناحية الشرق، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقية برغندية وتشمل بقية حوض الرون، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة.

أى إن العرب فى محاولتهم للاندفاع شمالا كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة: بقايا قوات القوط فى سبتمانية التى تسمى أحيانا لاجاليا جوفيكا.

قوات دوقية اقطانية.

قوات إمارة برغندية.

ثم قوات مملكة الفرين .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم قطلونيا ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجرنده المعروفة باسم خيرونا. وبذلك كان شبة الجزيرة كله فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٧١٦م.

ولما تولى أمر الأندلس الحر بن يوسف الثقفى فى ذى الحجة ٩٧هـ/ أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل ارغونه عاصمة سبتمانية، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين.

ولكن حركة الفتح فى غالة بدأت بصورة جدية على يد السمح بن مالك الخولانى الذى ولاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـ/ ٧٢٠م، وكان رجلا عظيم الإيمان والحدس، فقاد جنده من الارغونة إلى طرطوشة واستولى عليها، وتقدم فحاصر طرطوشة (تولوز) أولى المدائن الكبيرة فى دوقية اقطانية، فأسرع الدوق أوده وجمع جيشا كبيرا وتقدم نحو المسلمين، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين، وقد صبر المسلمون صبرا كريما حتى استشهدوا عن آخرهم، وكان ذلك فى يوم عرفة ١٠٢هـ/ ٢١ يونيو ٧٢١م ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغونة إلا بفضل قائد ممتاز من طراز السمح هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم.

تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى ارغونة، وهناك انتخبه الجند العربى عاملا على الأندلس، وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقى الأولى التى لم تدم إلا قليلا.

وكان الوالى الذى خلف عبد الرحمن رجلا من طراز كبار الفاتحين وهو عنبسة بن سحيم الكلبى فقد تولى فى صفر ١٠٣هـ/ أغسطس ٧٢١م ومن حسن الحظ أن ولايته استمرت نحو خمس سنوات فلم تنته إلا فى شعبان ١٠٧هـ/ يناير ٧٢٦م.

قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من الولاية فى تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر على مواصلة الفتوح فى غالـة، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦هـ/ ٧٢٥م فرتب أمر حاميتى برشلونة وأرغونه ثم سار شمالا فاحتل قرقشونة وعقد حلفا مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم، ثم تقدم إلى خيمة فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقا مماثلا، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالا دون أن ينفق وقتا فى الاستيلاء على مدن.

فلما أدرك أوكان احتلها إذ كانت أول عواصم إقليم يورجوفيا، ثم أدرك حوض نهر السارون أحد نهيرات اللوار الذى يلتقى بنهر الرون عند مدينة ليون، واحتلت القوات الإسلامية ليون وماكون وشالون، وهنا تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت ديجون والأخرى صعدت مع السارون شمالا حتى بلغت صانئف على بعد ٧٠ كيلومترا جنوبى باريس، وهذه كانت أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالا، وهى تبعد نحو ٨٠٠ كيلومترا شمال جبال البرت.

وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد لدليل قاطع على ما امتازوا به من جرأة وقوة إيمان تصنع المستحيلات، ولا يقلل من هذا الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد، فالواقع أن البقاء عندد كان مستحيلا إذا نظرنا إلى الظروف العامة التى تمت فتوح المسلمين فى غالة خلالها فإن عنبسة كان يوغل فى قلب أوروبا الغربية نفسها وكانت الشعوب الجرمانية متراصة يلى بعضها بعضا، ثم إن الفرنجة أصحاب هذه المنطقة كانوا يمرون فى فترة نهوض سياسى تولاه آل شارل مارتل الذين عُرفوا بالكارولنجيين ليحلوا مع الميروفنجيين وكان شارل مارتل، وتسمية المراجع العربية كارل يجمع قوى أنصاره وينتظر الفرصة التى تسمح له بإثبات استحقاقه لتاج الملك من دوق ملك الميروفنجيين الغصب.

وأخذ عنبسة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٨م محملين بالغنائم بعد أن اجتاحوا حوض الرون كله، وتخطوا اللوار ووصلوا إلى السين.

ولا نستطيع القول بأن عنبسة فتح جنوبى غالة أو حوض الرون، لأنه فى الواقع لم يفعل شيئا لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد، ولكنه على أى حال الفاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى فى فتوحه، وربما جاز تشبيه حملة عنبسة بحملة عقبة الكبرى مع اختلاف الظروف طبعا.

وكان لا بد من حملات ضخمة أكثر نظاما ليتم فتح هذه النواحى كما أتمت حملات زهير ابن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع، ولكن ظروف العرب فى المغرب والأندلس لم تكن تسمح لهم بمواصلة الفتوح بالقوة التى عهدناها فيهم، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ثم بينهم وبين البربر، ثم إن حملة عنبسة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها، فقد اقتحمها العرب اقتحاما وأوغلوا فى داخل بلادها دون أن يستطيع أحد مقاومتهم.

ولقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك وهو شارك مارتل - أو كارل - بأنه لا بد أن يقوم بعمل حاسم إذا عاد العرب مرة أخرى، وبالفعل بدأ يستعد للقاء حاسم، فأخذ بجمع القوات والسلاح والأزواد، وصالح أمراء برغندية واتفق مع رجال سيتمائية ومع الدوق أودو ليقوموا معًا بعمل حاسم ضد المسلمين.

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقاق فى صفوف المسلمين المقيمين فى الثغر الأعلى الأندلسى أى حوض الإيرو فكان له آثر سيئ على سير الفتوح فيما بعد، فإن الدوق أودو كان قد حالف المسلمين، بل صاهر قائدا بربريا من قوادهم يسمى مونوسة كان مركزه فى الناحية الغربية من جبال البرانس، ولم يرض المسلمون عن هذا الصهر لأن مونوسة بدأ يأخذ جانبى أودو ورجال اقطانية، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال.

وتذهب الروايات إلى أن عبد الرحمن الغافقى الذى كان يحكم أرغونه وينظم أعمال الجهاد

اختلف مع مونوسة اختلافا شديدا، وكان عبد الرحمن رجلا عنيفا بالغ الاستقامة من طراز عقبة ابن نافع، فاشتد مع مونوسة فزاده نفورا وانضمت إليه جماعات كثيرة من البربر.

وكان عنبسة قد استشهد في طريق عودته إذا دهمتهم قوات نصرانية كبيرة في خوانق جبال البرت، وقد قتل عنبسة في اللقاء في سنة ١٠٧هـ/ ديسمبر ٧٢٨م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذى حكم حتى ربيع الأول ١١٠هـ/ يونيو، يوليو ٧٢٨م.

وقد قام عذرة بعمليات عسكرية قليلة في غالة ولكن يبدو أن الجند الإسلامي الذى كان مركزه في أرغونه كان يقوم بضربات سريعة وغارات عنيفة في كل وجه، ومثل هذه الغارات والضربات تؤتى غنائم وافرة للمحاربين أنفسهم ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى، فهى من ناحية ترعب الناس من المسلمين وتلقى في روعهم أنهم أهل غارة وسلب ونهب لا غير، ومن ناحية أخرى هى تفقد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسالة الحقيقية.

ومن أسف أن عذرة بن عبد الله الفهرى لم يستطع ضبط رجاله فذاع اسمه في جنوبى فرنسا كلها كرجل سفاك نهاب وتطلع الناس هناك إلى من يخلصهم من هذه الغارات السالبة الناهبة، وذلك كله مهد الطريق أمام شارك مارتل.

ومن حسن الحظ أن قيادة الفتوح صارت في صفر ١١٢هـ/ أبريل ٧٣٠م إلى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، فقد استطاع بحزمه وروحه العسكرى أن يضبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد، حقا إنه لم يستطع استعادة مونوسة إلى صفوفه، ولكنه على أى حال أوقف تيار تدهور الفتوح إلى غارات، ولو أن عبد الرحمن الغافقى كان أقل عنفا مما كان في الواقع لربما استطاع أن يصل إلى نتائج أحسن، ولكنه كان جنديا عنيفا بالغ الحماس لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قلل فرص النصر الكبير أمامه، وقد خرج عبد الرحمن الغافقى للغزو في غالية مغاضبا لعبيدة بن عبد الرحمن الفهرى عامل إفريقية، وكانا قد اختلفا في أمر من أمور الغنائم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خرج عبد الرحمن الغافقي لحملته الكبيرة في أوائل ٦٦٤م/ربيع ٧٣٢م وكان معه ٧٠ ألف جندى تقريبا غالبهم من البربر، في حين أن الروايات النصرانية تقول : إنه كان يقود ٤٠٠ الف مقاتل.

ولم يحاول عبد الرحمن الغافقي أن يكسب صداقة الدوق أودو، بل لم يعمل على إيقافه على الحياد، وإنما عبر جبال البرت في صيف ٧٣٢م من ممرات من رتشغاله فاقصى رأسا إلى قلب بلاد أودو، فاضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفرنجة، واستولى عبد الرحمن على طولوشة مرة أخرى ثم ارتد شرقا إلى حوض الرون فأخمد ثورة كانت في مدينة آرل، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو بردو عاصمة اقطانية، وتصدى له الدوق أودو فهزمه عبد الرحمن هزيمة كبرى على ضفاف نهر الدوردوني، ثم دخل المسلمون يوردو واحتلوها وأسرع اودو نحو شارل مارتل، وتقدم عبد الرحمن فاحتل بواتيه بعد صراع عنيف وشرع يستعد للسير شمالا نحو باريس.

وعجل شارل مارتل الذى تسميه مراجعنا قارل فحشد كل ما استطاع من قوة للقاء المسلمين واستغفر الناس استغفارا دينيا فتضخم جيشه وسار جنوبا للقاء العرب شاعرا أن هذه هي قضيته الكبرى لكي يثبت جدارته بالملك من دوق الميروفنجيين.

وكان الجيش الإسلامي كبيرا، ولكن لا بالضخامة التي يصفه بها المؤرخون النصارى، وينبغي قبل أن نقص تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ أولا أن الجيش الإسلامي رغم شجاعة رجاله وارتفاع قواهم المعنوية كان قد بعد جدا عن بلاد الإسلام، فإننا الآن على بعد ٤٠٠ كم تقريبا شمال جبال البرت، وجبال البرت تبعد ٩٠٠كم عن قرطبة، وهذه مسافات شاسعة جدا تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والأمداد أمرا عسيرا، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقي رسالة استنجاد إلى قرطبة فإن حاملها لا يصل في أقل من شهرين، في حين أن قارل «كارل» كان يحارب في بلاده وبين أهل عشيرته.

وثانيا كانت الغالبية العظمى من المسلمين البربر ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب أهل القباوة على ما ينبـغى فى هـذه الظروف، ولـم يكن لدى عبد الرحمن الغافقى من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف الجيشى ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته.

وثالثا، كان الوقت خريفا، وهو موسم الأمطار الثقيلة فى هذه النواحى، والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر، وكانت تلك المناطق كلها غابات، والفارس العربى لم يكن يحسن الحرب فى الغابات، ثم إن خيول المسلمين العربية الضامرة تأثرت دون شك بالبرد والأمطار ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التى تعمل بها فى الجو الدافئ الجاف.

ورابعا : يبدو أن عبد الرحمن الغافقى كان جنديا عظيما ولكن كانت تنقصه القدرة على وضع خطة محكمـة للقتـال كما رأينا مثلا عند حسـان بن النعمان وطارق بن زياد، فقد استمر عبد الرحمن فى سيره حتى لقيه الفرنجة.

وأخيرا : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التى كان الجيش الإسلامى يسحبها وراءه، ويفهم من بعض الروايات أن خوف المسلمين على ضياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة

وقد كان اللقاء على بعد ٢٠ كيلومترا شمال بواتييه فى الطريق إلى تور وجنوبى مجرى اللوار، فى موضع قريب من طريق رومانى قديـم هو المسـمـى بالبـلاط، وفى هـذا الموضع قرية تسمى الآن Nounair la Bataille وربما كان موقعها يحدو مكان المعركة.

أما تاريخ المعركة فالرأى السائد اليوم أنها بدأت فى ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م/ أواخر شعبان ١١٤هـ واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أى أوائل رمضان من تلك السنة.

دارت المعركة إذن فوق الأسبوع مما يدل على أنها كانت معركة حامية والحق أن كلا الجانبين بذل أقصى وسعه فى القتال، وصبر المسلمون صبرا طويلا حتى تجمعت عليهما قوات نصرانية من

كل ناحية، فلم يقتصر الأمر على الفرنجة بل كان هناك كثيرون من أجناس جرمانية أخرى، وآخر مراحل المعركة كان هجوما عنيفا على مؤخرة الجيش الإسلامى فانتهبت الغنائم وتزعزع نظام الجيش ووقعت ثغرات نفذ منها الأعداء.

وفى أثناء ذلك استشهد عبد الرحمن الغافقى بسهم أصابه، وكان هذا نذير الهزيمة.

وقد استمر القتال مع ذلك حتى هبط الليل فتحاجز الفريقان، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان المعركة تحت الظلام، فلما أصبح الفرنجة لم يجدوا للمسلمين أثرا، ولكنهم وجدوا ذخائر عظيمة فانتهبوها ولم يفكروا فى تتبع المسلمين، فسلمت البقية الباقية منهم وعادت إلى ارغونه.

وعندما بلغ الخبر إلى **عبيدة بن عبد الرحمن الفهرى** عامل إفريقية ولى **عبد الملك بن قطن** الفهرى مثله على أمر الأندلس، فأسرع هذا إلى أرغونه، وفى الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين فى جبال البرت وجنوب فرنسا، وقف سلطان المسلمين فى سبتمانية وعقد معاهدات مع نفر من الرؤساء خلفوا الدوق اودو فى حكم نواحى اقطانية وتمكن فى وقت قصير من أن يتلافى الكثير من الآثار السيئة التى تخلفت عن هزيمة البلاط، ومن حسن الحظ أن كارل شغل عن المسلمين بأعداء كثيرين من أبناء جنسه فى شمال مملكته فأتيحت الفرصة للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد.

وقد تمكن عبد الملك بن قطن من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائد من قواده تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهرى.

وقد فتح يوسف هذا مدنا من آرل وابنيون وڤالانس وليون وثبّت حدود أملاك المسلمين هناك، ثم أخضع إقليم دوفينيه الذى يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزءا كبير مما يعرف اليوم بالرڤييرا الإيطالية، واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان المسلمين على نواحى جبال البرت.

ونلاحظ أن المسلمين اتخذوا سياسة جديدة لحكم ما بيدهم من فرنسا، وهى إقامة حاميات قوية في المدن وتحصين قلاعها واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب.

هكذا كان الحال فى ليون وابنيون التى يسميها المسلمون صخرة ابينيون وآرل وغيرها.

ثم جاء بعد ذلك **عقبة بن الحجاج السلولى** فأتم إخضاع نواحى برغندية، وكان عقبة مجاهدا عظيما، فتجددت همة المسلمين للقتال، وأحس كارل أنه لا مفر له من مواجهة المسلمين مرة أخرى، وتقدم بالفعل بجيش كبير يقوده هو وأخوه شلديراند، وسار نحو المسلمين أيضا ملك اللومباردبين، فاضطر المسلمين إلى إخلاء أبنيون وتراجعوا إلى ارغونة وتحصنوا فيها.

وهناك ثبتوا نحو ٣٠ سنة، فلم تسقط إلا فى سنة ١٤١هـ / ٧٥٩م وكان ذلك فى أيام عبد الرحمن الداخل، وقد وجد عبد الرحمن أنه لن يستطيع المحافظة على أملاك إسلامية شمال البرت فأخلى هذه الأراضى واقتصر على شبه الجزيرة الأيبيرية، وكان ذلك خطأ منه، لأن جبال البرت هى مفتاح إسبانيا، وكانت نتيجة تخليه تماما عما يقع شمالها أن استعاد الفرنجة فيما بعد منطقة قطلونية فأنشأ شرلمان فيها ولاية الثغر الإسبانى (لاماركا هيسبانيكا) أو معنى ذلك أن شبه الجزيرة اقتطع أيضاً من الشرق بعد ان اقتطع من الغرب كما رأينا.

وقد بقيت للمسلمين جماعات محاربة فى نواحى سبتمانية ودفينيه، وانسحب معظمها إلى نواحى جبال الألب الحصينة حيث اتخذوا لأنفسهم مواقع يقومون منها بأعمال عسكرية فيما يجاورها، وقد وصلت أعمالهم الحربية إلى قلب سويسرا.

ولكن هذه لم تكن فتوحا ولا أعمالا إسلامية، إنما هى غارات معظم هدفها الدفاع عن النفس، والسلب، وقد تلاشت هذه الجماعات شيئا فشيئا تاركة أسماءها على بعض النواحى وبعض وديان جبال الألب الجنوبية أو الشرقية، من امثال أمرو وهو عمر واشمه وهو هرثمة وسارازان، وهو اسم عام يراد به المسلمين عامة فى هذه النواحى.

٧ - قيام الدولة الأموية الاندلسية :

وصلنا بتاريخ الاندلس إلى ولاية الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى، وهى ولاية طويلة ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبى ساد البلاد فى أثنائها، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب، ولكن وضع الأندلس يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، إنما هو يحتاج إلى حكم قوى نشيط فإن البلد خضع للمسلمين، ولكنه لم يتحول إلى بلد إسلامى بعد، فقد كانت غالبية السكان نصرانية، ولو استمر الأمر على ذلك فإن أمر المسلمين فى الاندلس كان لا بد أن يتلاشى، فهو خارج مملكة الإسلام، وبعيد كل البعد عن أرض الخلافة، ولو عادت الفتنة مرة أخرى ولو لفترة قصيرة فقد كان تلافى النتيجة المحتومة مستحيلا.

وقد أمكن تلافى هذا المصير بحادث هو من قبيل المصادفات ولكنه كان من أسعد المصادفات فى تاريخ الإسلام، ذلك أن **قيام الدولة العباسية فى ربيع الأول ١٣٢هـ / يونيو ٧٤٩**م اقترن بمذابح واسعة النطاق أنزلها العباسيون بالأمويين انتقاما لما فعلوا بآل البيت فى الظاهر، وتخلصا من بقايا الأمويين وأحسانهم فى الباطن.

وقد حُصِد الأمويون دون رحمة، ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك وكانوا أربعة ذكور عدا البنات، وقد قتل الابن الأول فيمن قتل من الامويين فى دمشق عندما دخلها العباسيون، أما الثانى فقد قتل فى مذبحة دير الجماجم، وفر الثالث والرابع، فقد كانا فى بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما، ففرا معًا، وكان أولهما عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، وكان فى التاسعة عشرة، وأخ صغير له فى الثالثة عشرة، واختبآ فى مكان على ضفة الفرات ثم لجآ إلى نواتى ليعينهما على العبور، فخانهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما ففرا على

وجهيهما وألقيا بنفسيهما فى الماء ليعبرا سباحة، ووقف الجندى على الشاطئ يدعوانهما إلى العودة ويعدانهما بالأمان، وارتد الاخ الاصغر ليعود، وحذره اخوه فلم يسمع، فلم يكن يصل إلي الشاطئ حتى قتل.

أما عبد الرحمن فقد فر إلى قرية بالشام كان قد اتفق مع اختيه أمة الرحمن وأم الاصبغ على أن ترسلا له موليه بدرا وسالما بنقود إلى هذه القرية، ومضى الثلاثة هاربين حتى عبرا معه ووصلا المغرب، وكادا يقعان فى يد عبد الرحمن بن حبيب، ولكنهما نجيا إلى ساحل المحيط عند طنجة، واختفوا فى قبيلة نفزة وكانت ام عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة.

وعلى بعد ٦٠٠٠ كيلو متر من بغداد شعر عبد الرحمن بشيء من الأمان، وكانت سنه إذ ذاك عشرين سنة، وكان حريا أن يقضى بقية عمره فى خمول ودعة ولكنه كان عالى النفس بعيد المطامح، فأخذ من موضعه هذا يتطلع إلى ما حوله رجاء أن يجد وسيلة يخرج بها من ذلك الخمول.

وفى سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م تقريبا نجد عبد الرحمن يعيش فى قبيلة مغيلة فى حماية شيخها، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه، وكان أمره قد صار إلى الصميل ويوسف الفهرى، وكان سالم مولى أخته قد حدثه عنه لأنه كان فى جملة عساكر موسى بن نصير، ولكن سالما لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق، وثبت معه بدر الذى سيكون له نصيب كبير فى إقامة صرح الدولة الأموية الأندلسية.

وكانت فى الاندلس جماعة كبيرة من موالى بنى أمية، ما بين موالى خلفاء كالوليد وسليمان وهشام أبناء عبد الملك، وموالى البيت الأموى عامة وموالى موسى بن نصير وموالى مغيث الرومى ومن إليهما من موالى بنى أمية، وانضم إليهم موالى القرشيين وقد عرفوا بموالى قريش فكثر

عددهم، وكانوا من خيرة مسلمى الأندلس لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة، وكان يوسف الفهرى قد ادعى ولاء أولئك الموالى جميعا عند ذهاب أمر بنى أمية، ووجدوا هم فى ذلك قوة لهم فاندرجوا فى أنصار يوسف، وقد أدرك عبد الرحمن أنه يستطيع الوصول إلى شىء بفضل هؤلاء الموالى فى الاندلس.

لهذا أرسل مولاه بدرا برسالة إلى زعمائهم فى الأندلس وأهمهم ثلاثة : أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت يرجوهم فيها معاونته على الوصول إلى الأندلس للاستقرار فيها فى ظروف حياة مناسبة لمثله.

ومن أول الأمر فهم الموالى أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس، وكان ذلك يوافق أهدافهم، فاهتموا للأمر وكلموا فيه الصميل بن حاتم لأنهم كانوا يعرفون أن القوة فى يده، ومن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهرى، والمفروض أنهم كانوا من مواليه، وقد وعدهم الصميل خيرا.

وكان يوسف الفهرى مشغولا إذ ذاك بأمر ثورة فى سرقسطة قام بها اليمنيون، وكان يلح على الصميل وموالى بنى أمية فى الخروج وهؤلاء يسوفون ، ثم خرج الجيش آخر الأمر، وفى أثناء الطريق تبين موالى بنى أمية أن الصميل مسيحى يحتال عليهم، وأنه لا يضمر لعبد الرحمن هذا خيرا، فانصرف زعماؤهم عن الجيش واتجهوا إلى مراكز الموالى فى البيرة وجيان، وفى الطريق قرروا أن ينفضوا يدهم من الصميل والقيسية المغربية وأن يجربوا حظهم مع اليمنية الكلبية.

وكانوا موفقين فى هذه الخطوة، لأن اليمنيين كانوا يتوقون إلى الأخذ بثأر هزيمتهم فى شَقُندة، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسف الفهرى.

لهذا استجاب اليمنيون فى إقليم غرناطة إلى هذا النداء، وتحمسوا لعبد الرحمن على أمل أن يديركوا الرياسة معه، وقرروا مع موالى بنى أمية استقدامه إلى الجزيرة، وهكذا كان.

وعبر عبد الرحمن فى ربيع ١٣٧هـ /٧٥٤م إلى الأندلس ونزل فى فرضة المنسر Almune-car فى محافظة غرناطة الحالية، ومنها انتقل إلى طُرُش Torox وكانت دار يوسف بن بخت شيخ جند قنسرين وأحد كبار موالى بنى أمية، وهناك توافد عليه الموالى وأتباعهم وذاع الأمر فى الأندلس كله.

وبلغ الأمر الصميل ويوسف الفهرى فى سرقسطة، وكانت ظروفهما سيئة بسبب سوء تعرضهما مع الجند فلم يكن فى أحد حماس حقيقى للنهوض معهما، وأقبل الشتاء وهما فى هذا الثغر القصى، ومضى الناس يهونون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين : إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش فى سلام.

فى هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن فى طرش يحفل بالناس، وكان أكثر الوافدين عليه والمنضمين إليه من اليمنيين وانضمت إليهم جماعات من البربر، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة من القلاقل فى ظل حكم جديد.

وعندما أقبل الربيع بدأت بطون مضر والقيسية تتوافر على الصميل ويوسف وكانا قد انتقلا إلى قرطبة، وظهر أن المغربين الشاميين لا يريدون أن يتنازلوا عن الرياسة التى وصلوا إليها مع الصميل بن حاتم ونظامه فكثر جمعهم، وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقواته على منازل اليمنيين لاستنهاضهم، فانضم إليه الكثيرون، وتقدم نحو قرطبة وخرب معسكره على الضفة الجنوبية للنهر، فى حين تزايد حجم جيش الصميل ويوسف وتأهب الجانبان للقاء الحاسم.

وقع ذلك اللقاء يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة ١٣٨هـ/١٤ مايو ٧٥٦م عند المصارة وهى طرف قرطبة الغربى، وانتهى اليوم بنصر حاسم لعبد الرحمن، ووصل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم، ثم صلى بالناس وخطب على منبر قرطبة، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد الدولة فى الأندلس، بل ميلاد عصر جديد فى تاريخ الغرب الإسلامى كله.

واستأمن الصميل ويوسف إلى عبد الرحمن فأمنهما، ثم نكث عليه، وانتهى الأمر بحبس الصميل وموته مخنوقا فى سجنه.

أما يوسف الفهرى فقد تشرد فى نواحى الأندلس حتى قتل فى قرية قريبة من طليطلة.

* * *

٨ - عصـــر تأسـيـس الـدولــة الأمـويــة :
عبــد الرحمـــن بــن معــاويـــة ٧٥٦م- ٧٨٨م
وهشــام الرضـى بـــن عبـــد الرحمـــن ٧٨٨م- ٧٩٦م
والحكـم الربضى ١٨٠هـ- ٢٠٦هـ/ ابريل ٧٩٦م- ٢٢ مايو ٨٢٢م

أصبح عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل أميرا على الأندلس وهو لا يعرف عنه إلا القليل، بل لم تكن علاقاته بعرب الأندلس وبربره وأهل البلاد أول الأمر متينة يستطيع الاطمئنان إليها، ولكنه كان رجلا موهوبا جمع صفات كثيرة من السيادة، والحزم والسياسة والكياسة وبعد الهمة وحسن التدبير، وكان قد تربى فى قصر جده هشام بن عبد الملك، وانتفع بذلك رغم أن سنه كانت صغيرة إذ ذاك، ولكن هشاما كان من خيرة رجال العصر الأموى، وكان عصره حافلا بالأحداث، وكان قصره مدرسة تكون فيها نفر من خيرة المتأخرين من بنى أمية منهم مروان بن محمد الجعدى وعبد الرحمن بن معاوية بن هشام هذا، فبدأ يرتب أموره فى هدوء، وتلقى الثورات التى قامت عليه فى حزم وثبات، ومضى قدما فى تثبيت أركان إمارته التى وضع أول أحجارها، وكان عليه بعد ذلك أن يجعل لها جذورا ويقويها بدعائم.

ومن أول الأمر نجد عبد الرحمن يسير فى العمل سير من يعرف الدولة ونظامها وما ينبغى لها من قواعد، فنجده يرتب شئون الإدارة المركزية معتمدا على رجال من موالى بنى أمية اختارهم اختيارا حسنا مثل تمام بن علقمة ويوسف بن بخت وبدر مولاه وعبد الملك بن عمر المروانى وعبد الواحد بن مغيث الرومى وأبى القمر بن أبى عبدة وعبد الحميد بن غانم وشهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعى وعبد السلام بن عبد الله بن جابر جد بنى عبد الرءوف، وعبد الله وأقسوس الكناس مولى سليمان بن عبد الملك. وسيصبح أولئك الرجال وأبناؤهم من عمد

القوة للنظام الأموى الأندلس على طول تاريخه، فإن الأمراء كانوا يختارون قوادهم وكبار موظفيهم من بينهم، لأن معرفة الإدارة وشئون الحكم تأصلت فى بيوتهم، وأهم بيوت أهل الحكم هنا التى تميزت على غيرها وكثر ظهور النابهين من بين أفرادها فى ميادين الإدارة والقيادة وشئون المال وتولى العمالات فى النواحى والوصول إلى مراتب الوزارة مرة بعد مرة بيوت تمام بن علقمة وعبد الواحد بن مغيث وشهيد بن عيسى بن شهيد وأبى القمر بن أبى عبدة، وستنضم إليها وتتفرع منها على الطريق بيوت أخرى، ولكنها بيوت موالٍ أيضا، ومن يدرس تاريخ بنى أمية الأندلسيين لا بد أن يدرى تاريخ هذه البيوت الموازية وأهمها بنو أبى عبدة وبنو عبد الرءوف وبنو شهيد، وأبناء هذه البيوت لهم فضل عظيم على بنى أمية الأندلسيين وما وصلوا إليه من نجاح.

كان عبد الرحمن الداخل هو الذى وضع ذلك الأساس لأنه كان فى حاجة بالفعل إلى رجال يعتمد عليهم، فهو غريب عن البلاد لا يعرف من أمرها إلا القليل، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الموالى جميعا تصاهروا مع أهل البلاد فنشأت بيوتهم أندلسية فى طبيعتها، ونشأ أولادهم أندلسيين فى مزاجهم وعواطفهم وإن كانوا عربا فى روحهم وثقافتهم، مسلمين أصحاء فى إيمانهم، وسيسير بنو أمية أنفسهم فى ذلك الطريق: سيتزاوجون من أهل البلاد وينبض فى عروقهم الدم الأندلسى.

وابتداء من أيام هشام بن عبد الرحمن لا تتعجب عندما تعرف أن لغة الحديث فى القصر والشارع وشئون الأسر والأسواق كانت مزاجا به العربية والإسبانية، فى حين كانت العربية الفصحى لغة الدولة والدين والأدب والعلم والرسميات وقد صاحب هذه الثنائية الثقافية الشعب الأندلسى على طول تاريخه.

قامت دولة عبد الرحمن على عون كبير من العرب اليمنيين والبربر البلديين، وقد تصور اليمنيون البلديون أن انتصار عبد الرحمن معناه أن الدولة صارت دولتهم وأنهم يستطيعون الآن أن

يتعرضوا كيف يشاءون ويستمروا على أسلوب الفوضى والاستخفاف بالناس والأموال والإغراق فى العصبيات القبلية التى وصلت بالأندلس إلى الحالة السيئة التى رأيناها خلال عصر الولاة، ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد لا يعترف بقيسى أو يمنى ولا يفرق بين شاميين أو بلديين أو بربر أو أهل البلاد، إنما هم جميعا أهل وطن واحد، ولا بد لهم من الخضوع لقرطبة.

وقد أنكر اليمنيـون ذلك إنكارا شديـدا واعتبـروه جحـدا لفضلهـم، فتوالـت ثوراتهم على عبد الرحمن فى كل ناحية، وقد اعتمد فى حربهم على مقاتلى موالى بنى أمية وعلى جند الكور المجندة وعلى حشود البربر وأهل البلاد، وكانت خطته معاجلة الثائرين قبل أن يجمعوا أمرهم.

وقد عادت هذه المبادرة على عبد الرحمن بنفع كبير فقضى دون كبير مشقة على ثورات اليمنيين فى الجزيرة الخضراء وإشبيلية وطليطلة، وباجة ونبلة.

وكانت بعض هذه الثورات خطرة حقا مثل ثورة العلاء بن مغيث الحضرمى فى باجة، لأن هذا الرجل جمع جمعا عظيما من اليمنيين والفهريين وجند مصر ودعا لبنى العباس وكتب إليهم بطلب سجلا بالحكم، ورجعوا هم بذلك، ولكن عبد الرحمن قضى على الثائربن فى حزم وقوة سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٤م، وقد حاول زعيم يمنى آخر هو سعيد اليحصبى المعروف بالمقرى أن يثأر لقتلى ثورة العلاء بن مغيث، واستنفر اليمنيين للثورة على عبد الرحمن فى نبلة Niebla فى جنوب غرب الأندلس فقضى عليها هى الأخرى وعلى محاولة مماثلة فى إشبيلية.

وكانت خطته فى ذلك هى المعاجلة، فكان إذا تلقى خبر أى تحرك ضده وضد نظامة سارع بإرسال فرق صغيرة طيارة من الفرسان تحت قيادة واحد من كبار رجاله، ثم سار هو بنفسه.

وكانـت آخر ثورة خطيرة واجهها عبد الرحمن ثورة رجل بربرى يسمى شقيا أو شعيا بن عبد الواحد زعم أنه من أبناء فاطمة الزهراء، وقد قامت فى منطقة وعرة هى شنتيرية فى منطقة الجوف ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذا الفاطمى إلا بعد جهد شديد سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م.

محاولة شرلمان غزو الأندلس، ملحمة رولان:

وقد تعرض الأندلس أيام عبد الرحمن إلى محاولة قام بها شرلمان للاستيلاء على سرقسطة أى الثغر الأعلى، ولو وفق شرلمان إلى ذلك لما كان من المستبعد أن يستطرد إلى غيرها من عواصم الأندلس، ومن حسن الحظ أن الأندلس كان مجتمعا تحت راية عبد الرحمن فى ذلك الحين فتمكن من النجاة من الخطر المحيق.

ومن أسف أن الذين لفتوا نظر شرلمان إلى الأندلس ودعوا إلى غزوه ووعدوه بالمعاونة كانوا عربا يتزعمهم سليمان بن يقظان الكلبى المعروف بالأعرابى والى برشلونة والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة، وكان كل هدفهم الانتقام من عبد الرحمن، أى إنه هان عليهم أن يعرضوا الإسلام والعروبة فى الأندلس للخطر فى سبيل شفاء أحقاد شخصية.

وقد بلغ بهم الأمر أن ذهبوا للقاء شرلمان فى بادريون فى ولاية وستفالية فى غرب المانيا الاتحادية الحالية، واتفقوا معه على أن يعاونوه على الاستيلاء على سرقسطة.

وفى ربيع سنة ٧٧٨هـ/ شوال ١٦١م سار شرلمان نحوا إسبانيا فى جيش ضخم، فعبر جبال البرت من ناحية الارغونة ودخلت بعض فرق جيشه من ممر فى الجزء الغربى من الجبال يسمى واشقاله أو باب الشرزى، وكان الاتفاق أن يعاونه اليشكنس من حلفاء المسلمين فى ذلك العمل، وأن يقوم الحسين بن يحيى الأنصارى بتسليم سرقسطة إذا وصل إليها.

ولكن بعد أن استولى شرلمان على بنبلونه ورأى جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى أن سليمان بن يقظان الأعرابى قد خدعهم وأن الأمر سينتهى بغزو نصرانى أجنبى لبلاد إسلامية غيروا موقفهم وتحالفوا مع البشكنس على أولئك الغزاة، ورفض الحسين بن يحيى الأنصارى أن يفتح

أبواب سرقسطة، فأخطا شرلمان لها، وأحس أنه لن يستطيع الاستيلاء عليها قبل نزول الشتاء. فقرر العودة، وغضب من سليمان بن يقظان الأعرابي واعتبره أسيرا هو وكل من كان بين يديه من رهائن العرب، وانقلب راجعا في أواخر يوليو ٧٧٨.

وكان أسر سليمان بن يقظان الأعرابي ومن معه إيذانا بانقلاب جميع مسلمي الثغر الأعلى وحلفائهم من البشكنس على شرلمان والفرنجة عامة، فدبروا الانقضاض على قواته عندما تتوسط خوانق ممر رتشفاله الضيقة.

ويقول ابن الأثير (٥/٦) : إن « شرلمان لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن هجم مطروح وعيشون ابنا سليمان بن يقظان الأعرابي في أصحابهما فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة ».

وهذه هي الإشارة العربية الوحيدة لواقعة خطيرة سيكون لها صدى بعيد في الأدب الشعبي الفرنسي، ذلك أن مؤخرة جيش شرلمان كان يقودها فارس من إقليم بريطانيا يسمى هردولانه، ويسمى عادة برولان، فانقض عليها المسلمون والبشكنس ومزقوها إربا وقتلوا رولان، رغم ما أبدى هو ومن معه بسالة، ثم وقع قتال عنيف انتهى بالقضاء على معظم قوات شرلمان، والتاريخ التقليدى لهذه الواقعة ١٨ أغسطس ٧٧٨م/ ذي قعدة ١٦١هـ.

وقد نشأت حول هذه الواقعة ملحمة رولان La Chamson de Roland المشهورة ومعظم حوادثها لا صلة لها بالواقع التاريخي، ولكنها ترينا تصور الناس في جنوبي فرنسا للمسلمين وعقيدتهم، وهذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة في تكوين اللغة الفرنسية.

وبعد ذلك بسنتين سار عبد الرحمن إلى سرقسطة فقضى على بقايا الثائرين فيها، وممن أن إقليمها ونظمه، ودخل بنبلونة عاصمة البشكنس وعاهدهم على الخضوع للمسلمين وأداء الجزية وكان ذلك سنة ١٦٣و ١٦٤ هجرية / ٧٨١م.

نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله :

وقد قضى عبد الرحمن ما بقى من حكمه فى هدوء نسبى وانصرف إلى تثبيت دعائم دولته، ومن الطريف أنه عندما استقر أمره بعث يستدعى بقايا بنى أمية ليستعين بهم فى أمره فأقبل إليه الكثيرون منهم فعهد إليهم بمسئوليات كبرى ولكنه فوجئ بحسد الكثيرين منهم له ورغبتهم فى القضاء عليه فيئس من ناحيتهم.

وهكذا نجد أن هذا الرجل العظيم يلاقى من نكران الجميل وانقلاب الرجال ما جعله بعد ذلك يقتصر على المخلصين من موالى بنى أمية ومن انضم إليه من أهل البلاد ورجال الكور المجندة وهم من العرب.

وقد أنشأ عبد الرحمن إلى جانب ذلك قوة جديدة من الصقالبة أى الجند الذى يُشترى أفراده صغارا من بلاد النصرانية ويربون تربية إسلامية عربية، وينشأون جندا خالصا للإمارة ورجالها.

وقد أصبحت هذه القوة مع الزمن عنصرا أساسيا من عناصر القوة السياسية العسكرية للأندلس.

وقد توفى فى ٢٤ ربيع آخر ١٧٢هـ/ ٢ أكتوبر ٧٨٧م وهو فى الثامنة والخمسين من عمره بعد أن حكم الأندلس ٣٣ سنة كلها عمل متواصل ومصاعب وأهوال، فهذا الرجل الذى شاد بنفسه ملكًا وأنقذ بلدًا ووضع أساس تاريخ شعب وحضارة نجد أنه لم يسترح يومًا منذ تولى أمر الأندلس فى الخامس عشر من مايو ٧٥٦م، فقد كان البلاد الذى تولى أمره ضخمًا متعدد المشاكل، وكان سلطان العرب فيه قد بدأ يتلاش بعد ما رأينا فى الفتن والحروب الأهلية.

وقد دخل عبد الرحمن الأندلس غريبا وحيدًا تقريبا فتمكن بذكائه ومواهبه وشجاعته وعمله المتواصل من أن يقيم صرح دولة تعد من أمجد دول الإسلام، وقد أقامها على أسس إدارية وسياسية

ومالية متينة أثبتت الأيام صلابتها، وهو من هذه الناحية يفوق معظم منشئى الدول فى تاريخ الإسلام، ويزيد من قيمة عمله أن الناس الذين قدر له أن يعتمد عليهم ويحكمهم قد درجوا على الفوضى والأنانية والقسوة وقصر النظر، وكان الكثير من زعمائهم لا يبالون بمسجد الإسلام والعروبة فى سبيل مصلحة يسيرة يحققونها أو ثأر يدركونه أو كبرياء يرضونها منها مبادئ.

ولم يكن عبد الرحمن ليستطيع معاملة أولئك الناس باللين والحب والأخلاق، فكان لا يبالى فى سبيل الدولة بأى شيء، وقد وصفه دوزى بالميكيافيلية والقسوة والخبث، ولكن دوزى لم يكن يود أن يظهر فى الأندلس من يستنقذها، ولهذا فقد اشتد فى نقد عبد الرحمن، والحقيقة أن هذه الخلال التى لا نرضاها فى هذا الرجل لم يكن عنها غنى لرجل مثله فى مثل ظروفه، وكان لا بد على أى حال من القضاء على الفوضى وعواملها وإقرار النظام، وقد نجح عبد الرحمن فى ذلك، ولكننا ينبغى أن نقرر أنه كان دائما يختار الوسيلة الأقسى والأشد رغبة منه فى الخلاص من المشكلة بسرعة، وبعد أن توالى نجاحه أصبح شديد الاستبداد لا يقبل مناقشة أحد، فقد غضب على بدر مولاه بعد طول خدمته إياه، وأقصاه عنه فى شبه نفي لسبب صغير لا يستحق، وعامل رجاله فى عنف وحزم بالغين.

من هذه الناحية كان عبد الرحمن أمويا صرفا يشبه فى كثير من خلاله مروان بن الحكم وعبد الملك ابنه، وكان إلى جانب سياسته تلك رجالاً شهما ذا همة، وعاملا لا يتعب وعقلاً ذكيا لا يفوته شيء، وفى هذا كله كان يشبه جده هشام بن عبد الملك، ولكنه كان أحسن حظا منه، لأن هشام بن عبد الملك تولى أمر دولة كانت فى سياق الموت، أما عبد الرحمن الداخل فقد تولى أمر دولة وليدة قامت على أسس سليمة فى بلد غني بالإمكانات، وقد خلق وراءه دولة مستقرة الأحوال زاهرة من الناحيتين المالية والحضارية، وإن كان هو قد مات وحيدا مكروها من كل من حوله.

وكانت له عناية بالإنشاء والتعمير، فقد بدأ عمران قرطبة على يده وهو الذى أنشأ مسجدها الجامع وبنى جزأه الأول قبالة قصر الإمارة، وبدأ بذلك تاريخ أكبر أثر معمارى فى تاريخ الغرب الإسلامى كله.

وعنى عبد الرحمن كذلك بقصر الإمارة، فبدأ باتخاذ قصوره الكبيرة، وأنشأ قصراً خاصًا للإدارة فى أقصى حدائق القصر من جهة النهر، وأصبح هذا القصر مركزا لإدارات الدولة، وفتح له بابا جهة النهر يسمى باب السدة، أى باب الدواوين، ومن هنا عرف بيت الإدارة هذا باسم السدة، وكذلك عنى عبد الرحمن بتجديد سور قرطبة وأنشأ مساجد كثيرة فى قواعد الأندلس.

هشام الأول بن عبد الرحمن، المعروف بالرضى:

وخلف عبد الرحمن ابنه هشام، ولم يكن أكبر أولاده ولكنه كان محببا إلى أهل الدولة والفقهاء ورجال القصر لدماثة كانت فى خلقه، ولهذا تخطى أخاه سليمان وكان جنديا لايهتم إلا بالجيش وأهله.

بدأ هشام حكمه فى جمادى الأولى ١٧٢هـ/ ٧٨٨م وأمه أم ولد جليقية، وكان يبدى لينا وورعا، ولكنه كان فى الحقيقية سياسيا يكسب الناس بهذا المظهر، ولم يفعل شيئا ذا بال أثناء حكمه القصير، ولكن الناس ارتاحوا له لأنهم كانوا قد تعبوا من عنف أبيه وسرعته فى البطش واستمراره فى الحركة والعمل ونستطيع أن نعتبر إمارة هشام إكمالا لإمارة عبد الرحمن.

ولم يعكر صفو إمارة هشام إلا ثورات قام بها بعض اليمنيين وخاصة فى إقليم قطلونية وسرقسطة ومحاولات قام بها نصارى الشمال للاتساع جنوبًا، ولكن قواد هشام عرفوا كيف يوقفون ذلك التيار.

دخول مذهب مالك الأندلس :

وأهم ما حدث في عهد هشام هو دخول مذهب مالك الأندلس وكان الأندلسيون قبل ذلك على مذهب الأوزاعى إمام أهل الشام ويمتاز فقههم بالعملية، فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين متفق مع صالح الجمهور فهو من الإسلام، وهو مذهب أخذت منه المذاهب الكبرى بأطراف، ولكن الأوزاعى يعممه ويجعله قاعدة.

ومن سوء حظ الأوزاعي والليث بن سعد وطاوس وأمثالهم من أصحاب المذاهب الفقهية الأولى التى اندثرت أنهم لم يرزقوا تلاميذ يدونون مذاهبهم وينشرونها فى الآفاق، أما مالك بن أنس فقد كان أحسن حظا، فقد رزق تلاميذ نبهاء من أمثال عبد الرحمن بن غانم وأشهب بن عبد العزيز ومن إليهم من منشئى المدرسة المالكية المصرية، ثم أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون اللذان دونا مذهب مالك فى المغرب وعملا على نشره مع طائفة من أجلاء الفقهاء.

وفى الأندلس أيضًا كان مذهب مالك حسن الحظ، فقد كان مالك معاصرًا لهشام بن عبد الرحمن معجبًا له، لا يكف عن الثناء عليه، وكان ذلك يبلغ هشامًا فيستريح إليه، فلما وفد على الأندلس أوائل تلاميذ مالك الذين درسوا عليه من أمثال الغازى بن قيس وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون وعيسى بن دينار وسعيد بن أبى هند رحب بهم هشام وجلسهم وأذن لهم فى تدريس مذهب مالك فى المسجد وأخذ القضاة بالحكم به، ثم اتخذ كبار المالكية قضاة وفقهاء مشاورين، أى أهل شورى، يستفتيهم الأمير فما يحزبه من أمر، وشيئا فشيئا أصبح المذهب المالكى المذهب الرسمى فى الأندلس.

التقليد الشامى:

ومذهب مالك هو العنصر الحضارى الوحيد الذى قبلته الإمارة الأموية الأندلسية خارجا على نظم الأمويين فى المشرق، وأهم هذه النظم العروبة المطلقة فى لغة الدواوين وأوساط الدرس، فبينما كان العباسيون فى المشرق يقبلون صوراً حضارية إيرانية وهندية كان الأمويون فى الأندلس لا يقبلون إلا ما هو عربى، وهم لم يفعلوا ذلك بقانون سنّوه وإنما باتجاههم العام فى الحياة، فعلى الرغم من أن ملكهم قام فى أوروبا إلا أن الحياة فى تصورهم سارت على قواعد مشايخ القبائل، فكانت حضروبادية تذكرنا ببوادى خلفاء بنى أمية المشرقيين فى الشام، ومن ذلك أن عبد الرحمن الداخل أنشأ لنفسه قصرا على تل شمالى قرطبة سماه الرصافة يشرف من ناحية الشمال على سهل فسيح كان يستخدم لعرض الجند يسمى فحص السرادق ويشرف من الجنوب على قرطبة.

ولم يخرج طعام بنى أمية الأندلسيين حتى أيام الناصر عن الزائد والعصائد، واعتمدوا على رجال ذوى همة وبسالة وروح عربى وإن لم يكونوا من أرومة عربية خالصة، فقد كان فيهم بربر ونفر من أهل البلاد، ولكنهم جميعا استعربوا لسانا وفكرا وأسلوب حياة، وصاروا يعدون أنفسهم عربا.

وقد بلغ من اهتمام هشام باللغة العربية أن جعلها لغة الكنيسة لنصارى الأندلس، فترجموا إليها الكتاب المقدس ونصوص الصلوات.

وقد كان ذلك من أكبر العوامل التى أسرعت بتعريب أهل الأندلس، وتحويل هذا البلد إلى مركز من مراكز الحضارة العربية، ويعرف ذلك كله بالتقليد الشامى الذى التزمه أمراء بنى أمية الأندلسيون وخلفاؤهم حتى نهاية عصر الخلافة.

تفضيل أهل الشام:

وكان معظم الموالى الأندلسيين يعدون أنفسهم بين الشاميين لأنهم كانوا من موالى بنى أمية، وبنو أمية ظلوا حتى فى الأندلس يعتزون بأنهم شاميون، ولهذا فقد كانوا يفضلون أهل الشام على غيرهم، وكانوا يتخذون فى حياتهم ونظم حكمهم ما كان سائداً فى بلاد الشام، وهذا هو الذى أعطى هذا التقليد اسم الشامي.

وقد توفى هشام بعد سبع سنوات فحسب من حكمه، فكانت سنه عندما مات فى صفر ١٨١هـ/ أبريل ٧٩٦م لا تزيد على أربعين سنة وهى سن صغيرة جدا، ولكن بنى أمية عامة كانوا قصار الأعمار، وطوال الأعمار منهم فى المشرق قليلون، أما فى الأندلس فلا نعرف منهم من تخطى الخمسة والستين إلا الأمير عبد الله وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر.

ويثنى معظم المؤرخين على هشام بسبب رضا الفقهاء عليه، وقيامهم بالدعوة له، وتصويره فى صورة الأمير التقى الورع الرحيم، ولم يكن الرجل كذلك فى الحقيقة، وإنما كان فيه قسوة على أعدائه لا نجدها عند أمثاله ممن يوصفون بأنهم حكام أتقياء، فقد سمل عينى شاعر يسمى أبا المخشى عاصم بن زيد لأنه أثنى على أخيه ومنافسه سليمان، وقتل ولدين من أولاد موالى بنى أمية ظلما لريبة فى نفسه.

وقد اعتذر عن ذلك وبذل شيئا من العوض، ولكن ذلك لا ينفى الجناية.

وقد أخفى الفقهاء ذلك عن العامة وزعموا أن هشامًا كان يخرج فى الليل ويطوف بالمساجد فإذا وجد فيها ناسًا عاكفين على قيام الليل أعطهم مالاً، وربما كان يفعل ذلك فعلا، ولكن ذلك كان سياسة منه وخبثًا.

ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبة الجزيرة :

وقبل أن نستطرد إلى إمارة الحكم الأول ابن هشام المعروف بالحكم الربض نقول كلمة يسيرة عن ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبة الجزيرة.

ذكرنا كيف وصلة جيوش موسى بن نصير إلى أوفييدو Oviedo ولك Lugo وخيخون وكيف اعتصمت فلول القوط ومن انضم إليهم فيما وراء جبال كنتيرية فى الناحية المسماة باسم اشتريس.

وتذهب الروايات النصرانية إلى أنه كان من بين كبار القوط الذين لجأوا إلى هذه الناحية القاصية فارس يسمى بلاجيوس، ويسمى عادة بيلايو، ويسميه العرب بلاى، كان من أعداء غيطشة وأنصار لزريق، فلما اعتصمت بقايا القوط فى ناحية اشتريس أصبح بلاى رئيسهم وصاحب الإمارة عليهم.

وقد انتشرت هذه الفلول أول الأمر فى النواحى المطلة على خليج بسكابه من جليقية إلى اشتريس، ولكنها انكمشت إزاء حملات المسلمين المتوالية فى ناحية جبلية شرقى اشبيد والحالية عند البلد المسمى كانجاس Cangas ، واتخذت حصنا لها موضعا جبليا تصل فيه الجبال الكنتيرية إلى أعلاها عند قمم أوروبا المسماة Los Picos de Europa، وفى هذه الناحية موضع مغارة تسمى كوفا دونجا Cueva de ongas (Covadunga) ويسميها العرب صخرة بلاى، وقد حاصرها المسلمون على أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى سنة ٦٨هـ/ ٧١٨م ثم ارتدوا عنها استصغاراً لشأنها أو يأسا من إمكان الاستيلاء عليها، ولم تكن ذات أهمية فى ذلك الوقت على أى حال.

وفى سنة ١١٢هـ/ ٧٣٠م فى عهد الهيثم بن عدى الكلابى بعث حاكم الثغر الأعلى عثمان بن أبى نسعة جيشا إلى اشتريس للقضاء على باقية المقاومة النصرانية هناك، وقد بذلت

الحملة جهداً كبيرا ولكنها لم تنل شيئا من بلاى والحضارة وتنسب الروايات النصرانية إلى بلاى انتصاراً كبيراً على المسلمين عند كوفا دونجا، وتعتبر هذا النصر نقطة البداية لتاريخ إسبانيا النصرانية، ولكن ليس لدينا ما يؤكد ذلك.

وكانت هناك إمارة نصرانية صغيرة فى الجزء الشرقى من بلاد كنتبرية أنشأها زعيم يسمى بتروس Petrus ثم خلفه أمير يسمى الفونسو واتخذ لقب الدوق، ثم تزوج الفونسو ابنة بلايو وتوحدت مملكة اشتريس، التى يسمها العرب مملكة الجلالقة.

الفونسو هذا هو منشئ المملكة النصرانية التى ستستمر فى النمو والاتساع حتى تستولى على الأندلس من المسلمين، وقد عاونه الحظ باشتغال المسلمين بالحرب الأهلية بين بعضهم وبعض على ما فصلناه، وحوالى منتصف القرن الثامن الميلادى كانت إمارة اشتريس تلك قد امتدت نحو الجنوب وعمرت حوض نهر المينيو واقتربت من حوض الدويرة واستولى الفونسو الأول على اشترق منتهزاً فرصة إخلاء المسلمين إياها بسبب المجاعة التى نزلت بالأندلس نتيجة للفتنة بين العرب والبربر.

وفى أثناء حكم يوسف الفهرى والصميل بن حاتم الطويل امتدت المملكة النصرانية على مهل، وكذلك عندما شغل عبد الرحمن الداخل بحرب الثائرين عليه وسقطت فى أيدى النصارى مدن هامة مثل « لك « Lugo و « برتقال « Portur Cellis « وسلمنصة « Sal-menca و» شقورية- Sagcria « و « أبلة- Avila « و « سمورة- Zamova «.

وعندما استقر الأمر لعبد الرحمن عاد فاسترجع أهم من المدن، وكان ملك اشتريس إذ ذاك يسمى فرويلا Froila وهو الذى خلف الفونسو الأول وكان قاسيا عنيفا سفاكا فكرهه الناس ومالوا إلى محالفة المسلمين يتزعمهم فى ذلك ملك يسمى موروجات أو مورقات Maurecatus يقال: إن أمه عربية، وعلى هذا استمر الأمر حتى تولى العرش الفونسو الثالث.

وفى الشمال الغربى كذلك نشأت إمارة نصرانية مستقلة فى بلاد البشكنس عرفت باسم شبوب Sobobe وقام الزعيم البيسكى أو اليتكسنى ابينجو اريستا Inigo Avista بانشاب إمارة نبرة No-varra هناك.

وفيما بين إمارات النصرانية فى الغرب وبلاد الإسلام امتدت منطقة خلاء حتى حوض نهر الدويره، وكان النصارى يحاولون الامتداء فيها إذا اتشغل المسلمون عنهم ويرتدون عنها إذا تنبهوا لهم، وهكذا استمر الأمر حتى نهاية القرن الثامن الميلادى.

إمارة الحكم الربض ١٨٠هـ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦م - ٨٢٢م:

تعتبر إمارة الحكم بن هشام أو الحكم الأول المعروف بالربض نهاية عصر القلاقل والمحاولات التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الأموية التى بسطت سلطانها على البلاد، وكان الكثير من زعماء عرب البلاد وبربرها لا يسلمون بقيام هذه الدولة، ولا تزال نفوسهم تطمح إلى الإطاحة بها للعودة إلى الفوضى السابقة، ولذا فقد كثرت الثورات فى عصر الحكم، واختلفت أنواعها، ولكنها كانت فى الغالب ثورات اجتماعية أو إقليمية لا فتن عشائرية أو قبائلية يقوم بها هذا الفريق من العرب أو البربر أو ذاك بغية خلع طاعة الإمارة والتخلص من النظام.

وقد ثبت الحكم للثورات الاجتماعية التى قامت فى أيامه ثباتا يدعو إلى الإعجاب وإن كانت شخصية الحكم نفسه كثيرة العيوب والمتناقضات وسياسته حافلة بالأخطاء.

ذلك أن الحكم تولى أمر الأندلس شابا فى السادسة والعشرين من عمره، وكان إلى جانبه عماه سليمان وعبد الله وغيرهم ممن كانوا يرون أنفسهم أحق بالملك منه ولا يعدمون من يؤيدهم من أهل البلاد وجماعات العرب، فأقبلوا يدبرون عليه وينتظرون الفرصة للإيقاع به.

وكان هو نفســه شابـا ميـالا للمتاع والرحلات، وقد حسب أن أباه وجده قد مهدا له الملك

وما عليه إلا أن يستمتع، ونبض فيه عرق التعالى الأموى فنظر إلى من سواه من الناس فى غير اكترات، واستخف بأهل قرطبة ورجالاتهم وأهان الكثيرين منهم وأهمل جانب الفقهاء الذين بلغوا مكانة كبرى فى أيام أبيه هشام، واكتفى بخدمه وحواشيه وندمائه وانصرف إلى اللهو والصيد والخمر، حتى أيقظته الحوادث يقظة هزت كيانه وبدلت من حياته وأظهرت طبيعته الصلبة الجادة، فتمرس بالخطوب وترك اللعب ونظر فى أمر نفسه، ولم يعد له هم إلا تثبيت ملكه وحماية مملكته، وقد اقترف فى سبيل ذلك جرائم كثيرة، ناله منها بعد ذلك الندم، فقضى أواخر سنواته فى عزلة وحسرة واستغفار، وتوفى ذات ليلة دون أن يعرف بخبر وفاته إلا نفر قليل من رعيته، ولم يعلن خبر وفاته إلا بعد أيام.

وكان أول ما عاناه الحكم حرب عميه سليمان وعبد الله، وقد شقى هو بهما وشقيت بذلك البلاد شقاوه كبيرة لأنهما ربطا نفسيهما بنفر من الثائرين فى الثغر الأعلى، بل سعى واحد منهما وهو عبد الله إلى تأليب شارلمان على الإسلام والمسلمين وذهب لمقابلته فى ايكس لاشابل، وبالفعل أرسل شارلمان جيشا دخل الأندلس، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى رده على أعقابه سنة ٧٩٧ وبعد ذلك بقليل استأمن سليمان أبا عبد الله فقد أصيب بالفالج فاستراحت البلاد من أذاه.

نشوء كونتيسة قطلونية فى الشمال الشرقى - الرشيد وشرلمان :

ولكن محاولة عبد الله وسليمان فى الثغر الأعلى كشفت لرجال شارلمان ضعف الجهة الإسلامية من هذه الناحية، وحفزه أهل شمال شبه الجزيرة من النصارى على القيام بحملة أكثر جدية، وبالفعل سارت قوات فرنجية فى سنة ٨٠٦م نحو الأندلس، وعبرت الجبال وحاصرت برشلونة، وثبت القائد العربى سعدون الرعينى مدافعا عن ذلك الثغر فى رباطة جأش، وانتظر أن يصله المدد فلم يصله شيء، لأن الحكم كان مشغولا بعميه فى جنوب الأندلس، وأخيرا سقطت برشلونة فى يد الفرنجة وأنشأ شارلمان فيها ولاية ثغرية تسمى لاماركا هيسبانيكا La Marca Hispanica حتى

أصبحت من ذلك الحين شوكة فى جنب المسلمين لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت كونتيسة قطلونية El Condado du Cataluno التى ستخدم مملكة ارغون وتستطيع غزو الجانب الشرقى لمملكة الإسلام فى الأندلس فيما بعد.

ويذهب نفر من المؤرخين بهذه المناسبة إلى أن الدولة العباسية حالفت الدولة الفرنجية ضد إمارة الأندلس، وهناك أخبار غير موثوق فى صحتها عن مراسلات بين شارلمان وهارون الرشيد فى هذا المعنى، ولدينا أخبار سفارات وهدايا متبادلة بينهما، فأما علاقات الصداقة بين الرشيد وشارلمان فيمكن قبولها ولو أن مؤرخينا المشارقة لا يذكرون مرة واحدة وصول سفارة فرنجية إلى بلاط الرشيد، وليس لدينا شيء يثبت ما تزعمه الروايات النصرانية من أن الرشيد أرسل إلى شارلمان مفاتيح بيت المقدس.

ولكن مؤرخى شارلمان يذكرون ورود سفارات إسلامية إلى بلاطه، وبعضها يذكر هدايا أرسلها الرشيد إلى شارلمان منها خيل ومنها الساعة الدقاقة المشهورة.

وقد درس الموضوع دراسة جيدة د. عبد العزيز الدورى وخرج منها بأن هذه السفارات لم تكن رسمية، وإنما قامت بها جماعات من تجار المسلمين، من المغاربة فى الغالب، حملوا الهدايا إلى بلاط شارلمان وزعموا أنها من خليفة المسلمين، لكى يحصلوا على امتيازات وتسهيلات تجارية، ولا يمنع هذا من القول بأن الرشيد وشارلمان تبادلا مراسلات، وإن لم يصل إلينا منها شيء.

أما القول بأن الرشيد حالف ملكا نصرانيا على أمير الأندلس المسلم فأمور ليس لدينا عليه أدنى دليل، ثم هو يتعارض تعارضا تاما مع ما تعرف من خلق الرشيد والاتجاه العام للدولة العباسية فى عصره، وهو اتجاه إسلامى لا شك فيه.

التطور الاجتماعى فى الأندلس :

ومنذ أول ولاية الحكم نلاحظ ظاهرة لا نعرفها فى الكثير من بلاد الإسلام فى العصور الوسطى وهى أن طوائف الشعب فى العاصمة وكبار المدن غير راضية عن الحال وغير مقتنعة بنصيبها الذى قدره لها أهل الحكم، ففى العراق والشام ومصر مثلا نجد أن الناس ما بين مياسير وأوساط وفقراء منصرفين عن السياسة وأهلها لا يفكرون فى القيام عليهم إلا إذا بلغ الإجحاف حدا يجاوز الاحتمال، وفيما عدا ذلك فأهل الحكم فى سلطانهم وأهل المتاجر فى متاجرهم وأهل الزرع فى حقولهم وهؤلاء جميعا تجارا وزراعا وصناعا يتقاسمون نصيبهم من الشقاء والحرمان دون أن يفكروا فى التجمع لاتخاذ إجراء عام ضد الحكومة المركزية، وإن كانت قلوبهم مشتعلة بالغضب على الحاكمين.

وكانت العادة فى العصور الوسطى أن يتحمل الناس مظالم الحكام فى صبر على اعتبار أن الحاكم الظالم عقاب من الله لا بد من احتماله حتى يرفعه الله عن عباده، ولهذا السبب ندر أن قام شعب على حكامه لرفع الظلم، أما فى الأندلس فإننا نجد الناس على خلاف ذلك، فإن الأندلسيين لا يسكتون على الأذى ولا يصبرون على ما لا يرضون وقتا طويلا، وفى كل مدينة أندلسية نجد جماعة تتحدث باسم الناس وتطالب الحاكم بالعدل وتتحداه، وفى كل هيئة أو جماعة حرفية نجد رؤساء يتحدثون وينتقدون، ومن هنا كان التحدى للحكم مستمرا وكان نقد أعمال الحكام وتتبعها والتشهير بهم يتردد فى كل مكان.

وعلى الرغم من ذكاء بنى أمية وإدراكهم السياسى نلاحظ أن فهمهم لهذه الناحية فى شعبهم كان بطيئا وجزئيا على العموم، واستمروا يحاولون الحكم بأساليب المشرق وهى القهر والعنف، فطال

النزاع بينهم وبين رعاياهم، وخسر الجانبان كثيرا، وفى النهاية كانت خسارة الأندلس الإسلامى عظيمة.

وقد كان الشعب الأندلسى فى طريقه إلى التكون فى ذلك الحين، وكانت العملية عسيرة تحتاج إلى وقت، وكان لا بد أن تلاقى صعوبات وتتغلب على عوائق، وقد مرت الشعوب الأوروبية كلها فى مثل هذه الأدوار، ولكن مؤرخينا لم يلاحظوا هذا التطور أبدا ولم يفهموه وأساءوا الحكم عليه.

كان الشعب مكونا من أقلية عربية أو تعد نفسها عربية تتمثل فى البيت الحاكم وعدد من الاسر فى العاصمة والمدن والأرياف وجماعات تنتسب إليها وتتمسك بأصولها العربية لأنها ترى فى ذلك شارة شرف وامتياز.

وقد سبق أن ذكرنا أن اولئك العرب كانوا فى الحقيقة مولدين، فكل أمهاتهم إسبانيات من جليقية أو من بلاد البشكونس أو صقلبيات، وإذا تزوج أحدهم ابنة عربى الأندلسى وجدت أن أم هذه العربية غير عربية، أى إنها كانت فى الحقيقة مولدة، وهذا لا يقدح فى عروبة هذه البيوت، لأن أفرادها كانوا يحسون أنهم عرب ويتصرفون على أنهم عرب خلص ويجيدون الفصحى ويحفظون أشعارها ويفخرون بأصولهم العربية، وهذا هو المهم، لأن الفيصل فى هذه الموضوعات هو إحساس الإنسان الذى يحدد موقفه ويملى عليه تصرفاته، فما دام الرجل يحس أنه عربى ويجد ذلك شرفا ويربط نفسه بنسب عربى ويفخر بأمجاد العرب ويحسب نفسه من أمة العرب فهو عربى وإن كانت أمه غير عربية.

ويدخل فى هذه الطائفة جماعات الموالى، فهؤلاء جميعا كانوا يحسبون أنفسهم عربا ويدعون أرومات عربية، يقتبسونها من أصول مواليهم، فهذا من لخم وذاك من جذام أو من أسد أو من مضر، وحتى الذين كانوا من أصول إسبانية منهم ادعوا أصولا عربية مع الزمن.

وسواء صدقت هذه الأنساب أو لم تصدق فإنها كانت عاملا أساسيا وفعالا فى حياة أولئك الناس، فهم جميعا يعيشون ويتصرفون على أنهم عرب ممتازون عن غيرهم ولهم حق السيادة والحكم.

وكان هناك المولدون وهم أبناء الأسبان الذين أسلموا وكذلك أبناء الزيجات العربية الإسبانية من عامة الناس.

وكانت أعداد من دخل الأندلس من عامة العرب كبيرة وخاصة من اليمنيين وأبناء القبائل المعدودة يمنية مثل كلب وخولان ومراد ومذحج ومدلج وخثعم، وهؤلاء كانوا فى العادة يندرجون فى غمار الناس فى المدن والأرياف ويعملون بالزراعة والتجارة والصناعة ويتزوجون إسبانيات، ويخرج أولادهم أندلسيين من أصول عربية، ولكن طابع الأندلسية غلب عليهم، فهم أندلسيون وحسب كما نشأ العرب فى الشام شاميين وفى مصر مصريين وفى خراسان خراسانيين وهكذا.

ويدخل فى هؤلاء القضاعيون الذين هاجروا إلى الأندلس وكانت أعدادهم غفيرة، وقضاعة ليست من الشام أو اليمن وإنما هى شعب عربى قائم بذاته كما يقول ابن حزم.

وانضم إلى هؤلاء مع الزمن البربر الذين دخلوا الأندلس فى جماعات كبيرة واستعربوا واتخذوا أنسابا عربية ليرتفع شأنهم بين الناس، فهؤلاء أيضا نشأ أولادهم مولدين أندلسيين.

ومن هذه الجماعات كلها نشأت جماعات الشعب الأندلسى العربى الذى نعرفه، وكان الإسبانى النصرانى إذا أسلم اتخذ اسما عربيا وسمى بالأسلمى أو المسلمى فأما أولاده فينشأون أندلسيين مستعربين ثم يصبحون مع الزمن أندلسيين عربا ويندرجون فى غمار كتلة الشعب الأندلسى العربى الذى كان يكون الغالبية العظمى من السكان.

وكان هناك المستعربون وهم الأسبان الذين ظلوا نصارى على دينهم ولكنهم استعربوا لسانا وأسلوب حياة، وكانوا غالبية السكان أول الأمر ثم أخذت أعدادهم تتناقص مع الزمن.

هذه الأجناس كانت قد تتجاور وتتعايش وتتعامل، فأما العرب ومن انضم اليهم من الموالى فقد احتفظوا لأنفسهم بمكان اجتماعى رفيع واختصوا أنفسهم بمراكز الرياسة والصدارة، فأبغضتهم الطوائف الأخرى وأنكروا عليهم ما يدعونه من امتياز، فى نفس الوقت كان المولدون والمستعربون يتقاربون بدافع اتحاد المصالح.

ولم يعطل اتحاد المولدين والمستعربين إلا رجال الدين فى الناحيتين، فقد كان القساوسة يؤلبون النصارى على المسلمين ويحضونهم على التمسك بنصرانيتهم، فى حين كان فقهاء المسلمين شديدى العصبية لدينهم، ويبذلون نشاطا عظيما فى دعوة الناس إلى الإسلام وحثهم على التمسك بعقيدتهم.

وكانت غالبية الفقهاء فقراء فكانوا يقيمون فى قرطبة مثلا هى شقندة حيث يسكن العمال وصغار التجار والطلاب، وكانوا لهذا منبثين بين الناس، وكان لهم عليهم سلطان بحكم علمهم، ومن ناحية أخرى كانوا قريبين من باب السدة حيث مكاتب الدولة، وكان ترددهم عليها كثيرا.

وكانت هناك أقلية من الفقهاء ممن حصلوا علما غزيرا ووصلوا إلى مراكز الصدارة فى الدولة والمجتمع، وهؤلاء كانوا يتمسكون بأصولهم العربية، صحيحة كانت أم زائفة وكانوا يدخلون فى زمرة أهل الحكم والغنى والجاه.

كان الحكم ورجال دولته يعرفون هذه الحقائق كلها عن الشعب الذى يحكمونه، ولكنهم كانوا يجهلون طبيعته، وقدراته فلم يبالوا به ولم يقدروه حق قدره، وكان ذلك منهم خطأ جسيما، وعندما شرع الحكم بن هشام يحكم أقبل على الحكم كأنه خليفة شاب من خلفاء بنى أمية فى المشرق، فمضى يلهو ويتمتع بأطايب العيش ومن حوله حاشية متكبرة متعالية وجند خاص قاس عنيف على الناس معظمه من الصقالبة وهم مماليك البيت الأندلسى.

ولم تنقض على ولاية الحكم شهور حتى بدأ أهل بيته وكبار دولته يدبرون عليه، لأنهم رأوه شابا خليعا ماجنا مستخفا، وانضم إليهم نفر من الفقهاء، وفى ذات مرة كان الحكم عائدا من صيد له فتعرض له الجمهور وسبوه وأهانوه، فلما عاد إلى القصر بدأ ينظر فيما آل إليه أمره، ثم اكتشف مؤامرة دبرها عليه أهل بيته، فأوقع بأفرادها فى قوة سنة ١٨٩/٨٠٥ وقد رعب الناس من قسوته وقسوة رجاله، وبدأ الخوف يسود بين الحاكم والرعية، فاستكثر الحكم من الجند المرتزق الصقلى، وكانت فى أفراده قسوة وشدة، وكانوا لا يحسنون الكلام بالعربية، فسماهم الناس بالخرس، وسخط مياسير قرطبة وكبار أهلها وفقهاؤها على الحكم سخطا شديدا، وتوتر الجو وبدا بوضوح أن الحكم سيتعرض لمحنة قاسية.

فتنة طليطلة ويوم الخندق ١٩٠هـ /٨٠٥م :

ولم يقتصر خوف الناس من الحكم على قرطبة بل امتد إلى طليطلة حيث كانت غالبية السكان مولدين ونصارى، وكانوا متمسكين بما كان لهم من سيادة أيام كان بلدهم عاصمة إسبانيا، فكان لهم زعماء كثيرون يتمسكون بحقوقهم القديمة، وبدلا من أن ينظر الحكم فى الأمر بهدوء وتعقل ويسعى إلى التفاهم مع الناس ليفهم الظروف التى تؤدى بهم إلى القلق نجده يلجأ إلى العنف والحيلة وينزل بأهل طليطلة مذبحة كبيرة قضت على الثورة مؤقتا ولكنها أساءت إلى سمعة البيت الحاكم وأوجدت هوة سحيقة بين الحاكم والمحكومين.

وتسمى هذه المذبحة باسم يوم الحفرة، لأن المقتولين فيها وضعوا فى حفرة كبيرة خلف قصر الحاكم وأهيل عليهم التراب.

وجدير بالذكر أن الذى دبر هذه المذبحة البشعة كان أندلسيا من أصل إسبانى يسمى عمروسى وكان يتولى حكم طليطلة.

هيج الربض الاول سنة ١٩٠هـ / ٨٠٦م

هيج الريفى الثانى سنة ٢٠٢هـ / ٨١٨م:

وعندما بلغت قرطبة أنباء يوم الحفرة ومذبحته أصاب أهلها هلع شديد تحول إلى غضب، فبدأت نذر الثورة تظهر فى العاصمة وكثر الاحتكاك بين جند الأمير وجمهور الناس، ويبدو أن الحكم لم يتعظ قط بما حدث فمضى فى طريقه مستخفا بالناس غير عابئ بمشاعرهم، فتحدوه تحديا ظاهرا وشتموه على الطريق وصفقوا عليه بالأيدى، فقبض على طائفة من زعمائهم وصلبهم فى سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م، وسكتت الحال إلى حين، فلما كان فى الثالث عشر من رمضان ٢٠٢هـ/ ٢٥مارس ٨١٨م انفجرت مراجل الغضب الشعبى فى الضاحية الجنوبية لقرطبة وهى شقندة، وكانت فيها أحياء العمال والصناع والطلاب وصغار الفقهاء، وقد انضم كبار الفقهاء إلى الناس فى هذه الثورة فى صورة ظاهرة من أمثال يحيى بن يحيى الليثى وطالوت بن عبد الجبار وعيسى بن دينار وفوجئ الحكم فى ذلك اليوم بجموع الثائرين تتقدم إلى قصره للإطاحة بعرشه.

ويعجب مؤرخونا بما أبدى الحكم من ثبات فى ذلك اليوم، ولكننا نرى اليوم أن ذلك كان جحود قلب وبلادة إحساس منه، فهؤلاء الثائرين لم يكونوا طامعين فى ملك بل كانوا يطلبون العدالة، وقد تصرف الحكم معهم تصرفا خسيسا فأطلق جنده على بيوتهم فأشعلوا فيها النيران وعرضوا أولادهم وحرمهم للموت، فارتد الناس لإنقاذ أبنائهم فحصدهم الجنود حصدا، وانتهى اليوم بانتصار الحكم، ولكن عواقب ذلك الانتصار كانت وخيمة جدا على مصير الأندلس، فإن الحكم أصدر أمره بطرد أهل الريفى الجنوبى من الأندلس، وكانوا ألوفا من أجل الناس وأكثرهم شهامة، وقد قاموا بأعمال تشهد بقوتهم فى كل ناحية وصلوا إليها، هاجر كثير منهم إلى الشمال واستقروا

فى أقاليم طليطلة وشمال غرب الأندلس، وكانوا بعد ذلك من خيرة عناصره السكانية، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب وأنشأوا عروة الأندلسيين فى فاس، وتوزعت جماعات منهم فى بلاد المغرب الأقصى الأخرى، واتجهت كتلة منهم إلى الإسكندرية بالبحر فاحتلتها وطردت عاملها، ولم يتخلص منهم عامل مصر إلا بمشقة، فذهبوا إلى كريد وانتزعوها من أيدى البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ظلت تحكمها حتى استعادها البيزنطيون منهم سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م.

انتهت ثورة الريفى بنصر للحكم، ولكنها كانت درسا بليغا له ولمن جاء بعده فقد رأى بعينيه قوة هذا الشعب الأندلسى واستعداده لإيقاف الحكام عند حدهم، ومن هنا فسنرى أن الأمراء سيكونون بعد ذلك أكثر مراعاة لمشاعر الناس وأحرص على ولائهم.

ولم يسعد الحكم بحياته بعد ان قضى على هيج الريفى، فقد مرض وتطاولت به العلة وحل به الندم وجعل يتمنى لو لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو، وتوفى فى قصره وكتم أهل بيته خبر موته فلم يعلن إلا فى ٢٦ ذى الحجة ٢٠٦هـ/ ٢٢م ديسمبر ٨٢٢ بعد أن تقرر الأمر من بعده لابنه عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط.

٩ - بداية الاستقرار :

عصر عبد الرحمن الأوسط ٢٦ ذو حجة ٢٠٦هـ - ٢٢ مايو ٨٢٢م
٣ ربيع الثاني ٢٣٨هـ / ٢٣ سبتمبر ٨٥٢م.
والأمير محمد ٤ ربيع الثاني ٢٣٨هـ - ٢٩ صفر ٢٧٣هـ / ٢٣
سبتمبر ٨٥٢م أوائل أغسطس ٨٨٦م.
والمنذر ٨ ربيع أول ٢٧٣هـ - منتصف صفر ٢٧٥هـ
أغسطس ٨٨٦م - يونيو ٨٨٨م.

كان عبد الرحمن بن الحكم مؤهلاً بطبعه لإزالة الآثار المحزنة التى خلفتها إمارة أبيه، فقد كان هادئ الطبع لين الجانب، وكان ألوفا حسن العشرة، يحب الناس ويجد متعة فى الجلوس والحديث والتبسط معهم محبًا للحياة متقربًا إلى الناس وإن لم يقل ذكاء عن سالفيه، فقد كان يدرك كل شيء على حقيقته ولكنه كثيراً ما كان يتصنع عدم المعرفة ويغض عن أخطاء الآخرين، فزاد ذلك فى معرفته بالناس وقربه إلى قلوبهم فأحبوه وسعدوا به وأمنوا إليه.

ولم يكن فيه غدر ولا قسوة ولكن كان فيه حزم وقدرة على اتخاذ القرار المناسب، وكثيراً ما كان يدع الأمور تجرى وهو يرقبها دون أن يتخذ القرار إلا بعد وقت طويل، ويبدو أن ذلك كان راجعًا إلى ميل منه إلى الدعة وابكار للراحة ما تيسر له ذلك.

وقد تولى فى الرابعة من عمره وحكم ثلاثين سنة استطاع خلالها أن يحقق الكثير، وتوفى عن اثنتين وستين سنة - وأمه جارية جليقية تسمى حلووة.

ولم تكن الفتن الداخلية تستثيره كثيراً، فكان ينتظر حتى تهدأ من نفسها أو حتى يهدئها بأقل

مجهود كما فعل مع فتنة المغربيين واليمنيين التي استمرت سبع سنوات في كورة تدمير وهي التي سميت فيما بعد بمرسية في شرق الأندلس، وكانت تدمير من الكور المجندة، وكان معظم جندها من جند مصر وغالبيتهم من اليمن، ولكن المغربيين فيها كانوا يحاولون السيطرة على اليمنيين، ومن هنا كانت الفتنة، وكان يرسل إليهم الجيوش بين الحين والحين، فلما تفاقم أمرهم أرسل إليهم قائده يحيى بن خلف في جيش كبير أوقع بهم قرب لورقة، فأخذت فتنتهم في الخمود، وانتهت سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م.

وكذلك كان موقفه من أهل البيرة الذين أقبلوا إلى قرطبة للشكوى من ظلم ربيع الأسقف والى النصارى هناك، فقد انتظر أن يهدأوا فلما لم يسمعوا النصيحة سلط عليهم الجند.

وكان عبد الرحمن شديد الاهتمام بحماية حدوده الشمالية إذ إن نشاط العدوان على أراضي المسلمين تزايد على أثر ولاية لويس الثاني عرش الفرنجة وهو من كبار ملوك فرنسا، وكانت له أطماع واسعة في إقليم قطلونية، وقد عرف عبد الرحمن كيف يكسب صداقة البشكنس ضد الفرنجة، فوقفوا إلى جانبه واستطاع أن يرد غزوة فرنجية على ذلك الإقليم في سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م.

كذلك نشط الفونسو الثاني ملك جليقية واشتريس في الغارة على أراضي المسلمين واستولى حيناً على مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط فرده عنها القائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وألزم الفونسو بدفع الجزية بعد معركة حامية في بسيط يسمى فج جرنبق في إقليم البة Alava، وقد قتل في هذه المعركة عدد كبير من جند العدو ونهبت ذخائره الكثيرة وعم التخريب.

وكانت هذه هي آخر غزوة قام بها هذا القائد المظفر الذي يعد من أكبر القادة العسكريين الذين ظهروا في الأندلس، فقد استمر في ميادين القتال مناضلا عن الأندلس فوق الثلاثين سنة أبدى خلالها من القدرة العسكرية والإخلاص للأندلس ما وضع تقليداً جديداً سيتبعه قواد أندلسيون كثيرون من بعده.

وتولى قيادة جيوش الإمارة بعده أمير من البيت الأموى هو أمية بن معاوية بن هشام، وقد استطاع أمية أن يواجه ثورات كثيرة فى نواح شتى من نواحى الأندلس من بينها حملة له على اليمنية فى إقليم تدمير، وكان رئيس من رؤسائهم قد عاد إلى التمرد ودعا لبنى العباس حتى تمكن أمية بن معاوية بن هشام من الايقاع به فى وقعة تشبه وقعة المصارة بلدرقة قبل ذلك بسنتين.

ولكن همة عبد الرحمن تجلت فى ذوده عن حدود بلاده وموالاة الغزوات فى ألبة والقلاع وأراضى البشكونس واقليم قطلونية، وكان هو يقود بنفسه الغزوات فى معظم الأحيان.

وفى عام ٢٢٨هـ/٨٤٢م أنزل هزيمة قاصمة بقوات إمارة نبرة، وفيها أيضًا توفى الفونسو الثانى الملقب بالكاستو أى العفيف ملك جليقية واشتريس بعد ٥١ سنة من الحكم ومناجزة المسلمين وخلفه ابنه رايدر الأول أو - رذمير.

غزوات النرمان:

وفى أيام عبد الرحمن ظهر خطر الأردمانيون راميرو، وهو صيغة الجمع من لفظ نردمان أو تورمان، أى أهل الشمال، والمراد بهم سكان اسكنديناة ودينا حركة، وكانوا يمرون إذ ذاك فى عصر بطولتهم، وكانوا يغيرون على شواطئ أوروبا الغربية بأساطيل من سفن صغار ذات أشرعة سوداء تدخل مصبات الأنهار وترسو داخل البلاد وتغير على المدن وتنهب ما تعثر عليه وتوقد النيران لتثير الخوف، ثم تهرب مسرعة، وقد اشتهروا باسم الفايكنجز Vikings ، وبسبب استعمالهم للنار سماهم العرب بالمجوس.

وفى أيام شرلمان احتل النرمان الساحل الشمالى الغربى لفرنسا وكان يسمى باسم فريزيا وأقاموا فيه وأنشأوا فيما بعد دولة فيه، وسمى الإقليم باسمهم نورمانديا أو نورماندى، وأبناء هؤلاء النورمان هم الذين فتحوا إنجلترا بقيادة وليام الفاتح سنة ١٠٦٦م.

بدأت سفن النرمان تجوس بحار الأندلس الغربية ابتداء من سنة ٢٢٩هـ/٨٤٣م، وكان أول ظهورها قرب شاطئ الاشبونة في ذلك العام، فكتب يأمرهم واليها وهب الله بن حزم إلى الأمير عبد الرحمن يقول : إن ٥٤ من سفنهم الكبيرة ذات الأشرعة السود ظهرت في البحر. ومع كل سفينة منها مركب صغير، فكتب الأمير إلى عمال السواحل بالتحفظ، وسارت سفنهم إلى الجنوب فأغارت على قادس وأوغلت قواتهم داخل البلاد حتى وصلت شذونة ونهبت كل ما في طريقها، ثم عاد النرمان إلى سفنهم، وساروا بحذاء الساحل حتى بلغوا مصب الوادى الكبير فاستولوا على جزيرة قبطيل في مدخله، ثم دخلت السفن النهر وصعدت فيه حتى بلغت اشبيلية ونهبها المجوس وأحرقوا الكثير من ديارها، بل أحرقوا المسجد الجامع.

وبلغ الأمر الأمير عبد الرحمن فنهض للأمر بما هو أهله، فأرسل القوات إلى الحدود الغربية وواجه النرمان في شجاعة وحزم وتولى حربهم من قواد الإمارة عبد الله بن كليب وعبد الرحمن رستم فأوقع المسلمون بالنورمان هزيمة كبرى عند طليلطة أي شمال إشبيلية سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م.

وقد أغارت سفن النورمان على الأندلس بعد ذلك مرارًا ولكنها كانت ترد على أعقابها بخسائر فادحة في كل مرة.

وكانت أطول غارة لهم في الأندلس هي غارة إشبيلية ومدتها ٤٢ يومًا ثم أغاروا على ليلة ثم عادوا إلى الاشبونة وركبوا ما بقي من مراكبهم.

نشأة الأسطول :

وقد كانت نتيجة الخطر النورماني أن تنبه عبد الرحمن الأوسط إلى أهمية الأسطول، فبدأ في إنشائه إنشاءً محكما واتخذ له دور الصناعة والقواعد في الاشبونة وإشبيلية وولبة والمرية وبلنسية، ومالقه، ولم تنقضِ سنوات حتى كان للأندلس أسطولان قويان، أحدهما في المحيط الأطلسي ومركزه الاشبونة والثاني في البحر الأبيض وقاعدته مالقة، ومن منتصف القرن التاسع الميلادي يظهر الأندلس كقوة بحرية كبرى ويبدأ قطع البحرية والأسطول يرسو كعماد من عمد قوة إمارة قرطبة.

وكانت أولى ثمرات قيام ذلك الأسطول فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م وضمها إلى الأندلس، ومن ذلك الحين تصبح جزائر البليار الكبرى الثلاث ميورقه ومنورقه ويابسة من ولايات الإمارة الأندلسية، وقد أنشئت ولاية الجزائر الشرقية سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م.

بعض المتعصبين من رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية فى الأندلس :

وظهرت فى أيام عبد الرحمن كذلك فتنة تعصب نصرانية أثارها نفر من الرهبان، وكان أولئك الناس يؤكدون لأتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل وأن دولته لا تلبث أن تزول، ولكنهم كانوا يرون أن أمر الإسلام يثبت ويشتد يوماً بعد يوم، وإمارته تزهر ومجتمعه يزداد رخاء.

ثم رأى أولئك الرهبان أن الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم، فلا يكاد واحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها، بينما ينفقون جهدا كبيرا فى دراسة العربية ومطالعة آدابها، بل برع الكثيرون منهم فى كتابة العربية.

وقد شكا من ذلك قس متعصب يسمى اليرو Alvaro القرطبى فى رسالة مشهورة، فلما وجد أولئك الأحبار المتعصبون أن أبناء دينهم لا يأبهون بأمرهم بل يزدادون عنهم انصرافا ويدخل الكثيرون منهم فى خدمة الإمارة القرطبية، ويسلمون ويصلون إلى أدنى العالمية فى المجتمع والإدارة انفجرت مراجل حقدهم، فإذا بهم يجاهرون بالعدوان فى الإسلام وإهانة مقدساته علناً أمام الناس، وكان الشرط يقتادونهم إلى القضاة، فيحاول هؤلاء استتابتهم دون جدوى، فيحكمون عليهم بالإعدام، وكان هذا هو غرضهم: أن يموتوا فى صورة الشهداء حتى يستثيروا عواطف الناس.

وقد كثر خروجهم على هذه الصورة ابتداء من سنة ٢٣٧هـ/٨٥١ وظهرت من بينهم أسماء رهبان أصبحوا بعد ذلك قديسين فى سجل الكنيسة من أمثال يولوج Eulogio القرطبى وفلورا

Flora القرطبية، وقد استعان الأمير عبد الرحمن بالصبر على هذه الأزمة وطلب إلى زعماء النصارى أن يعقدوا مجمعا دينيا فى قرطبة لينظر فى أمر هذه المحنة بالعقل، وبالفعل انعقد برئاسة ريكافريدو مطران إشبيلية، ومثل الأمير فيه القومس غوص بن انطفيان، أحد كتاب الأمير، وقد أصدر المجمع قراراً يستنكر فيه هذه الحركة الحمقاء، وشيئا فشيئا هدأت هذه المحنة وعاد الوئام بين النصارى والمسلمين بفضل هدوء عبد الرحمن وحسن نظره فى الأمور.

وقد اسلم غوس بن انطنيان بعد ذلك وحسن إسلامه وأقبل على الاعتكاف فى المسجد الجامع فى قرطبة حتى لقب بحمامة المسجد.

وعلى طول أيام عبد الرحمن الأوسط كان الصراع مستمرا ومتزايدا على الحدود الشمالية للإمارة، فيما يلى طليطلة شمالا، ومما يدل على أن قوات الإمارات النصرانية كانت تتزايد، بل إن أهل طليطلة كانوا إذا خرجوا عن طاعة الإمارة استنجدوا بنصارى الشمال فأنجدوهم، وكان معظم استنجادهم بملوك ليون، ولهذا كان عبد الرحمن يوالى الغزو بنفسه ويرسل قواده كل صيف، وكانت الغارات تتجه أحيانا إلى نبرة، وعاصمتها بنبلونة، ومن ناحيتها تدخل إلى إقليم البة والقلاع، وأحيانا إلى بلدة مملكة ليون.

وفاة عبد الرحمن الأوسط :

وتوفى عبد الرحمن الأوسط فى ٣ ربيع الثانى ٢٣٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ٨٥٢م بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة تعتبر من أزهر فترات التاريخ الأندلسى بما ساد قرطبة وكبار المدن ومراكز العمران من هدوء وما تمتعت البلاد من رخاء ورفاهية، لأن عبد الرحمن ورجاله كانوا من أذكياء رجال الدول الذين يؤمنون بأن رخاء الرعية أساس لثبات الحكم واستقرار أسس العدالة والنظام.

ويرجع جانب كبير من رخاء الأندلس فى أيام عبد الرحمن إلى الفائدة الكبرى التى عادت

على الإمارة من الاستفادة من ملكات رجال الأسر الموازية التى أشرنا إليها مرة بعد أخرى فى هذه الدراسة.

وقد ظهر فى أيام عبد الرحمن عدد كبير من قرابته أبناء هذه البيوت من أمثال القائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الذى ذكرناه، والقائد الحاجب عيسى بن شهيد، ويوسف بن يوسف بن بخت وحنا بن عبد الغافر بن أبى عبدة ومحمد بن عبد السلام بن بسيل وعبد الرحمن بن رستم، وكانوا من كبار المخلصين للإمارة ولواجبهم ، وقد رفعهم عبد الرحمن إلى مراتب الوزراء، فكان له نحو عشرة وزراء فى وقت واحد، وقرر لهم أن يجتمعوا فى مرة فى قصور «السدة» عرض «بيت الوزارة» ليتناقشوا فى المهم من شئون الدولة ويرفعوا ما يرون إلى الأمير من كبار المسائل، وكان الذى يعرضها على الأمير الحاجب وهو كبير الوزراء.

الوزارة فى الأندلس :

ونظام الوزارة فى الأندلس هذا من المبتكرات الكبرى فى التنظيم السياسى الأندلسى، لأن تاريخ البيت الأموى كان غنيا بالشخصيات ذات الكفاية التى أطلقتها باستمرار البيوت الموازية التى ذكرناها.

ومنذ أيام عبد الرحمن الداخل لم يتجه البيت الأموى إلى إيجاد وظيفة الوزير بصورتها واختصاصاتها التى نعرفها عن العباسيين فى المشرق وإنما اعتمد الأمراء على أفراد من تلك البيوت فى تسيير شئون الدولة دون اختصاص واحد منهم بلقب معين أو وظيفة معينة، حتى قيادة الجيوش تولاها الأمراء وأنابوا عنهم فى أحيان كثيرة رجالا حملوا لقب القائد ولكن لفترة الحملات فقط، ولكن ظهور شخصيات ممتازة حقًا من أمثال عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد جعل من الضرورى أن يجتاز أولئك الرجال بألقاب ثابتة، فنجد عبد الكريم بن عبد الواحد بن

مغيث يصبح قائد الجيوش بصورة مستمرة، ويصبح عيسى بن شهيد قائدا أيضا، ثم نجد لقبا آخر يضاف إلى ابن مغيث وهو الحاجب، وترتبط بوظيفة الحاجب كل الاختصاصات التى كانت للوزير فى المشرق، وبالفعل تصبح الحجابة فى الأندلس فى الوزارة فى المشرق، ويصبح الحاجب ثانى شخصية فى الدولة بعد الأمير.

وقد وزعت الاختصاصات الإدارية بين رجال من أفراد هذه البيوت، فهذا للمال ويسمى الخازن وذلك للأمن ويسمى صاحب الشرطة، وذلك للمنشآت ويسمى صاحب الأشغال، ثم نجد لقب الوزير يعطى لهؤلاء على أنه لقب تشريف أو درجة وظيفية فى أول الأمر، ثم نجده بعد ذلك مرتبطاً باختصاص معين فنجد الوزير عيسى بن شهيد يقود الصوائف ويسمى بالوزير القائد، ويوسف بن بخت يتولى شئون المال ويسمى بالوزير الخازن ومحمد بن السليم يتولى المواريث ويسمى الوزير صاحب المواريث وهكذا، ومن أيام عبد الرحمن الأوسط نجد الوزير فى الأندلس له معنى الوزير فى أيامنا واختصاصاته ومسئولياته، ونجد الحاجب يصبح رئيس الوزراء، فهو الوزير الكبير، وهو الذى يلقى الأمير كل يوم ويناقشه فى شتى المسائل، ويجتمع كل يوم مع أصحاب الوزراء فى دار خاصة عرفت باسم بيت الوزارة، وفى هذا البيت يجلس الوزراء على ترتيب معين فى هيئة دائرة، لكل واحد منهم وسادة يجلس عليها، ووسادة الحاجب أعلى من بقية الوسائد، ونجد لكل واحد من الوزراء ديوانه وكتّابه، أى سكرتاريوه.

والمسائل تدرس وتتخذ فيها القرارات، ثم يأخذها الحاجب إلى الأمير ويعرضها عليه، فما يتفق عليه يدخل ديوان الأمير لتحرر له الصيغة الديوانية أو القانونية المناسبة ثم يقدمها إلى الأمير الوزير صاحب العرض لتختم بخاتم الأمير ثم بخاتم الدولة وتصدر على النحو الذى تصدر به المراسيم اليوم، وتكون سارية المفعول من يوم صدورها.

وقد تعددت وظائف الوزراء، فنسمع مثلا بوزير الخيل؛ وهو الوزير المكلف بإعداد الخيل اللازمة لجيوش الدولة والعناية بها وبما تحتاج وإليه من سرج ولجم ومراع وما إلى ذلك، وهناك وزير الفرعنة، ومهمته تقديم الخيل اللازمة لكل حملة مع فرسانها وإعداد الفرسان بكل ما يلزمهم، وهناك وزراء بلا تخصص معين، وهم أشبه بوزراء الدولة، ومكاتبهم فى القصر ليكلف الأمير منهم من يشاء بما يشاء.

وهؤلاء الوزراء جميعا لهم الحق فى لقاء الأمير والحديث معه، وهم حاشيته ومنهم أيضًا ندمانه، وكانت عناية الأمير تمتد إلى أولادهم فإذا مات الأمير أو هطل عن العمل حل محله ابنه، وفى أحيان كثيرة لا يكون الابن ذا كفاية تؤهله للوظيفة، فيعين له الأمير من يعاونه فى العمل حتى يتقنه، وذلك حرصا من الأمراء على أن تكون الأمور دائما فى أيدى هذه البيوت المخلصة التى تشبه أسر النبلاء التى كانت تحيط بملوك الغرب.

وكان أهل هذه البيوت أولا مقصورا على موالى بنى أمية وأولادهم وما تفرع عنهم، ثم دخلت عليهم أسر أخرى قربها الأمراء، وكان منهم العرب والمولدون والمستعربون أحيانا، وكان الكثيرون منهم من البربر.

وجدير بالذكر أن الأندلسيين من الأصول البربرية كانوا لا يقلون كفاية عن الأندلسيين من الأصول العربية أو من أهل البلاد.

وكان الأمراء يقيلون الوزراءإذا ساءهم منهم شيء، وعندما يقال الوزير ترفع وسادته من بيت الوزارة، وليس من الضرورى أن يحل محله وزير آخر، وقد ينقل الوزير من وزارة إلى أخرى، وقد يعطى موظف كبير مثل صاحب المدينة أى محافظ العاصمة لقب الوزير فيسمى الوزير صاحب المدينة وتوضع له وسادة فى بيت الوزارة.

وفى بعض الأحيان لا نجد حاجبا، فيقوم بعمله الوزير صاحب العرض، وهذا الأخير كان يعتبر من خاصة الأمير أى من أهل القصر أى من الحاشية.

الخطط :

وكانت الوظيفة الكبيرة تسمى فى الأندلس بالخطة مثل خطة الوزارة أو خطة الخيل أو خطة الأعنه وخطة الكتابة وهى تعادل ديوان الإنشاء فى المشرق وخطة المظالم ويراد بها النظر فى الشكاوى المقدمة ضد رجال الدولة وتطبيق الأحكام على طبقات أهل المملكة، وخطة القيادة، وخطة الأشغال وخطة البحر.

خطة القضاء :

ومن الخطط الكبرى فى الأندلس كانت خطة القضاء، ويراد به قضاء الجماعة أو قضاء قرطبة، وصاحبها كان ايشبه وزير العدل فهو لا يتولى قضاء قرطبة فقط، بل كان من اختصاصه اختيار قضاة المدن الأخرى والأقاليم، وهو ينظر فى شئون القضاة ويراقب أعمالهم، وله أن يعزل منهم ويريد ويقترح تولية القضاء من يريد، وكان قضاة العواصم الكبرى يعتبرون نوابا له يرجعون إليه فى أحكامهم.

وكان قاضى الجماعة ثالث شخصية فى الأندلس بعد الأمير والحاجب، ولهذا كان الأمراء يختارون قضاة الجماعة بعناية شديدة وتدقيق بالغ، وكان أدنى خطأ ظاهر من القاضى يؤدى إلى عزله، وكان لقاضى الجماعة سلطة على الأمير نفسه فى مسائل العدالة، وكان من واجباته الحيلولة بين رجال القصر وكبار الموظفين وارتكاب المخالفات، ولهذا كان القاضى رجلا مرهوب الجانب، وكان الكثيرون يتحاشون هذه الوظيفة خوفا من ألا يستطيعوا إقامة العدل على الأقوياء أو تحرما من خدمة أمراء لا يرضون عن كل تصرفاتهم.

الفقهاء المشاورون:

وكان هناك إلى جانب الأمير دائما عدد كبير من الشيوخ ذوى العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم يسمون بالفقهاء المشاورين، أى الذين يشاورهم الأمير فى كبار شئونه، وخاصة الدينية منها، وقد ابتدع كبار فقهاء المالكية هذه الخطة لأنهم فى محاولتهم اتباع آثار مالك بن أنس كانوا يرفضون تولى القضاء أو الوظائف العامة مكتفين بالانصراف إلى العلم والتدريس وإفتاء الناس فيما يعرض لهم من مشاكل، وكان هذا العزوف يرجع من مقامهم فى أعين الناس.

ولم يكن عزوف هؤلاء الفقهاء عن تولى الوظائف تعبيرا عن عدم الرضا عن البيت الأموى، لأنهم فى الحقيقة كانوا يؤيدونه، كما رأينا، ولكنهم كانوا يسيرون فى هذا فى آثار مالك الذى لم يتول وظيفة ما وعاش للعلم والتعليم.

وقد أراد الأمراء أن يفيدوا من مكانة أولئك الفقهاء الكبار فى نفوس الناس فقربوهم إليهم واختاروا من بينهم عددا من أوسعهم علما وجعلوهم فقهاء مشاورين، وكانوا يعتبرونهم أهل شورى لهم.

وأول من نسمع عنهم ممن تولى هذه الخطة يحيى بن يحيى الليثى، وهو فقيه جليل درس دراسة واسعة فى المشرق، وعاد إلى الأندلس أيام الأمير هشام فاحتل مكانة جليلة فى الدولة ورفض أن يتولى القضاء، وفى أيام الحكم الربض نجده يشترك فى ثورة أهل قرطبة على الأمير، ويهرب بعد الفضاء من هذه الثورة، ثم يعفو عنه الأمير ويعود إلى مكانه، وفى أيام عبد الرحمن الأوسط ترتفع مكانة يحيى بن يحيى حتى يصبح من أكبر شخصيات الدولة، ويصبح بالفعل وزيرا للعدل يولى القضاة ويعزلهم، وهو الذى كان يوصى باختيار الفقهاء المشاورين إلى جواره فظهرت هذه الجماعة

فى كامل صورتها، ولم يكن الفقهاء المشاورون هيئة تجتمع معًا لتتخذ قرارا، بل كان الأمير يستشيرهم فرادى، فقد يستدعيهم وقد يرسل لهم القضايا فى بيوتهم ليبدو آراءهم فيها.

وكان يحيى بن يحيى الليثى كبير الفقهاء المشاورين فى أيام عبد الرحمن الأوسط، وكان الأمير لا يقدر شيئا فى شئون القضاة إلا برأيه، وقد استبد بأمر القضاة حتى ثقل عليهم، فلما مات قال ابن عذارى: فى هذه السنة مات يحيى بن يحيى الليثى واستراح القضاة من همه.

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة يعدون من أكابر الفقهاء فى تاريخ الأندلس كله، هم : عبد الملك بن حبيب، ويحيى بن يحيى الليثى، وعيسى بن دينار، وقد قيل فيهم : إن عبد الملك عالم الأندلس وعيسى بن دينار فقيهها ويحيى بن يحيى عاقلها.

وكان كبير المشاورين يسمى بشيخ الفتيا أو شيخ المسلمين أو رئيس البلد، وكلها تسميات تدل على كبر المكانة التى كان يتمتع بها الفقهاء المشاورون فى ذلك العصر ،ويلاحظ عليهم إلى آخر أيام عبد الرحمن الأوسط أنهم كانوا فقهاء ولم يكونوا أصوليين، أى إنهم كانوا يعرفون فقه مالك فقط ولكن ليس لديهم علم كبير بالحديث أو بأصول الفقه، وإنما هم كانوا فى الأغلب فروعيين عمليين، أى يعرفون من الفقه ما تمس إليه حاجة المعاملات الجارية وحتى فى هذا لم يكن لديهم من العلم إلا ما قاله مالك بن أنس.

وسيظل مستوى العلم بالفقه فى الأندلس على هذا المستوى حتى عصر الأمير محمد عندما يعود إلى الأندلس فقيهان أصوليان من أعلم الناس بالحديث الشريف ومناهج استخراج الأحكام من الأصول وهما : بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح، وهما من مدرسة الأصوليين وكبار المحدثين الذين ظهروا فى المشرق فى القرن الثالث الهجرى، ويمثلهم هناك يحيى بن معين وأحمد بن حنبل.

وعلى أيدى فقهاء هذا الجيل سيدخل الفقه فى الشرق والغرب على السواء فى عصر جديد من عصوره أو استبدأ سلسلة إجلاء الفقهاء المتقنين المعروفين بالحفاظ.

الشخصيات الحضارية : زرياب :

وإلى جانب هذه الشخصيات الممتازة فى عالم السياسة والحرب والعلم امتاز عصر عبد الرحمن الأوسط بعدد من الشخصيات التى تستطيع أن تسميها شخصيات حضارية، ويراد بالشخصيات الحضارية أولئك الأفراد الذين يتميزون بخصال وخصائص شخصية وعلمية فنية يكون لها أثر فى تطوير الحضارة من مستواها فى عصورهم.

وكان عبد الرحمن الأوسط نفسه شخصية حضارية، فكان أميراً قادراً مجرباً حسن الحكم على الأمور، ثم إنه كان عالماً وشاعراً وذا ذوق فى كل ما يتصل بشئون الحياة من مسكن ومأكل وملبس.

وأول الشخصيات الحضارية التى سنتحدث عنها هنا هى شخصية على بن نافع الموسيقى المعروف بزرياب.

كان زرياب فى أول أمره تلميذاً لإسحاق الموصلى موسيقى الرشيد فى بغداد، ويقال : إنه أبدى من البراعة ما لفت إليه نظر الرشيد فشعر إسحاق الموصلى بالغيرة من تلميذه النابه فهدده بالقضاء عليه، فخرج من بغداد ووصل إلى القيروان، وهناك اكتسب لقب زرياب وهو طائر أسود، وقد كان زرياب أسود اللون، وهناك ظهر أمره كموسيقى ممتاز، وانتشر صيته حتى بلغ الأندلس، فاستقدمه عبد الرحمن الأوسط فوفد إلى قرطبة واستقبله الأمير استقبالا حفيا ورتب له راتبا كبيرا وهيأ له الوسائل ليظهر فنه.

ومن أول الأمر أظهر على بن نافع أنه موسيقى فوق المستوى، فأنشأ معهدا للموسيقى يعلم فيه

الشبان والشابات، وكان يهتم بتربية الصوت وتوسيع مداه، ويلزم التلاميذ بالقيام بتمارين وتدريبات عسيرة لكى يخرج الصوت من القفص الصدرى كله لا من الحنجرة فحسب كما يفعل الكثيرون من المغنين، والغرض من ذلك أن تستخدم إمكانيات المغنى الصوتية استخداما كاملا، فتتسع قدرته للتعبير الغنائى عن المعانى والأحاسيس.

وقد ابتكر طريقة لكتابة الموسيقا، ومن أسف أننا لم نعرف إلى الآن كيف كان زرياب يكتب موسيقاه، ثم أدخل تعديلا جوهريا على العود، وهو أداة الموسيقا الرئيسية فى ذلك العصر، فأضاف إليه وترا خامسا وأصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها، واخترع الفرق الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين، وكان يلحن القطعة الموسيقية تلحينا كاملا يجمع بين الإنشاد الجماعى والفردى والعزف. وهو أول من أنشأ فى الأندلس المسرح الصغير الذى تجلس عليه الفرقة الموسيقية، وكان ذلك المسرح يسمى بالستارة.

وكان غناء أهل الأندلس إلى ذلك الحين غناء عربيا بسيطا هو الحداء، فأدخل زرياب موسيقا عالمية عرفت باسم الزريابية، وأصبح الحداء أو الحدو هو الغناء الشعبى، فى حين أن الموسيقا الزريابية أصبحت الموسيقا الكلاسيكية الرفيعة فى الأندلس.

وكان زرياب يعمل بنظام تام وهيئة جليلة، فكان يخصص صدر النهار للدرس والتدريس وبعد الظهر للقراءات والاطلاع، وفى الليل يتوجه إلى القصر، وكان سراة الناس يرسلون إليه بجواريهم ليعلمهن، وقد أخرج جيلا من المغنيات الممتازات اشتهر أمرهن فى العالم الإسلامى كله مثل قلم وعلم وشفاء.

وبلغ من إعجاب عبد الرحمن الأوسط به أنه أمر ذات مرة بأن يدفعوا له ٣٠٠٠٠ دينار مكافأة له على لحن، فرفض خزان الأمير وضع المبلغ على اعتبار أن ذلك تضييع لأموال المسلمين، فلم يستطع الأمير إرغامهم على الدفع.

ولم يقتصر أثر زرياب على الموسيقا بل إنه كان رغم سواد لونه فيصل الأناقة فى عصره، وهو الذى علم أهل الاندلس كيف يرتدون الصوف شتاء والقطن أو الكتان صيفا، وعدّل فى هيئات الثياب فقصرها وضيق الأكمام وأعطاها هيئة جميلة، وعلم الأندلسيين كيف يقصون شعورهم، وهو الذى علمهم تقصير الشعر فى الجانبين، وإرساله وراء الأذن، وابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه مثل الصف الأمامى وهو إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازة الحاجبين، وتفنن فى العطور، فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والغالية والادهان ومال إلى عطور الزهور.

كذلك أدخل زرياب تعديلات على المطبخ الأندلسى، فأدخل كثيرا من الخضر كالهندباء والكمأة وأضاف أصنافا كثيرة عرفت باسمه، وعلم أهل الاندلس الأكل على الموائد واستعمال الملاعق والسكاكين بدل الأصابع وخرج بهم عن الأطعمة البدائية القديمة وهى العصائد و الثرائد إلى الأشكال والألوان التى عرفها أهل المشرق.

وعلى الجملة فقد كان زرياب شخصية حضارية ممتازة، فقد أدخل تغييرا جوهريا على المجتمع الأندلسى كله وساعد فى نقله من البداوة إلى الحضارة، ومن الفوضى إلى التنظيم المتحضر، وكان إلى جانب ذلك شخصية محترمة ذا سمت ووقار، ولم تؤثر عنه هفوة خلق أو سوء تصرف، بل كان يتحاشى الشراب ولا يتعاطاه.

وفى تاريخ الموسيقا العربية يحتل ذلك الثائر الاسود مكانا جليلا، فقد كان من القلائل الذين أخلصوا للفن الموسيقى وجددوا فيه وحافظوا على السمت المحترم للفنان، ولم يسمحوا لأنفسهم أبدا بأن يهبطوا إلى مستوى المسلمين والندماء، فكان قليل التردد على القصر، لا يحضر إلا لحفل موسيقى، وكان لا يذهب بموسيقاه إلى بيوت الأغنياء، وإنما يذهب إلى داره من يريد أن يستمتع بفنيه.

وقد جمع مالا عريضا من تدريس الموسيقا وتخريج الشبان والشابات، وكان الكثيرون ممن تخرجوا على يديه أعلاما للفن، لهم فى المجتمع مكانا كبيرا.

وقد توفى على بن نافع فى ربيع الأول ٢٣٨هـ/ أغسطس ٨٥٢م قبل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل.

ولم يكن على بن نافع زرياب الشخصية الطريفة الوحيدة التى ازدان بها عصر عبد الرحمن الأوسط، فقد ظهرت فى أيامه جماعة أخرى من أجل الشخصيات فى تاريخ الإسلام العام، ويعد ظهور هذه الطريقة ثمرة من ثمار غراس بنى أمية الذين بلغ حكمهم نحو قرن من الزمان عندما توفى عبد الرحمن الاوسط.

ومن هذه الشخصيات عباس بن فرناس، وهو فى الحقيقة من رجال عصر الحكم الربض، ويكنى أبا القاسم، وكان فيلسوفا ورياضيا وشاعرا، وهو من أهل تاكرنا فى جنوب الأندلس من أصل بربرى، وكان ذا براعة فى الكيمياء وإليه تعزى طريقة عملية فى صناعة الزجاج من دقيق الأحجار، وصنع آلة تعرف بالميقاتة لمعرفة الوقت تعتمد على الظل، وأكبر مخترعاتة محاولته الطيران، فقد صنع لنفسه كساء من الريش ذى جناحين كبيرين يضع فيهما زراعيه، وقد قفز بذلك الرداء من أعلى تل قرب مدينة بلنسية يسمى منت اقوت، وهو تعريب لاسمه الأسبانى Monte Agudo وطار بضعة امتار ثم اختل توازنه وسقط.

ويرجع سبب سقوطه إلى أنه لم يفطن إلى أهمية الذيل فى طيران الطائر، وقد سقط عباس بن فرناس وانكسرت إحدى فقار ظهره السفلى ولزم الفراش شهورا متطاولة، وسخر منه أهل عصره حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الساخر :

يطم على العنقـــاء فى طيـــرانهـــا

إذا مـا سـحـا جـسـمـانه ريش قـشـعم

وقد أقلع عباس بن فرناس عن محاولة الطيران بعد ذلك، ولكن محاولته تعتبر صفحة جميلة فى تاريخ الحضارة العربية.

ولكنه لم يقلع عن الاشتغال بالسيمياء وهى فرع غير علمى من الكيمياء يرمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب عن طريق الصهر فترات طويلة، وقد اخترع عباس شيئا شبيها بقلم الحبر وأراد أن يوفر لأصحاب الكتابة مئونة حمل الأقلام والمحابر أينما ساروا.

ويكفى عباس بن فرناس فخرا أنه أول من قام بمحاولة عملية لإنسان فى الطيران، وقد حكى اليونان أن رجلا منهم يسمى ايكاروس حاول الطيران ولم يوفق.

ومحاولة عباس بن فرناس هى الثانية من نوعها فى تاريخ البشر قبل العصور الحديثة.

وقد ظلت محاولة عباس بن فرناس للطيران عالقة بأذهان أهل بلنسية زمنا طويلا، وعاشت حتى بعد أيام المسلمين ، فتحولت محاولته إلى أسطورة، بل إن شخصيته لا تزال إلى يومنا هذا رمزا على الفن والابتكار فى نواحى بلنسية، وباسم التل الذى حاول الطيران منه يصدر أدباء بلنسية مجلة للشعر تسمى Nonteagudo.

وإلى جانب ذلك كان عباس بن فرناس موسيقيا صانع الرق مجيدا للضرب بالعود، وقد أثارت اختراعاته وابتكاراته الريب فى قلوب الفقهاء والعامة فاتهم بالزندقة ولكن أحدا لم يثبت عليه بشيء، فعاش حتى توفى فى سن عالية فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط.

ومن طرائف الشخصيات أيام الحكم وابنه عبد الرحمن الشاعر الفيلسوف يحيى بن حكيم الجيانى المعروف بالغزال، وهو عربى من بكر بن وائل، ولد فى جيان، وقد سمى بالغزال، لجمال هيئته وأناقته، وكان شخصية بوهيمية، يخلط الجد بالهزل، ويأخذ الدنيا أخذا ساخرا، لا يكاد يحفل لشيء، وكان شاعرا مبدعا وعقلا جريئا، لا يكف عن مهاجمة الفقهاء والتندر بما كان يسميه

نفاق بعضهم وتظاهرهم بالتقشف والعزوف عن الدنيا مع غناهم وحرصهم على المال والجاه، وقد تعقبوا فى إصرار لكى يجدوا وسيلة لاتهامه بالزندقة والقضاء عليه، ولكنه كان أمهر منهم، ثم هرب إلى المشرق وغاب عنهم زمنا، ولقى أبا نواس وأنشده شعره فاعجب به أبو نواس.

وفى هذه الرحلة قال كلاما كثيرا كان من الممكن أن يؤذيه، ولكن أحدا لم يثبت عليه بشيء ثابت، فلما عاد إلى الأندلس لقى قبولا من عبد الرحمن الأوسط وأصبح من ندمائه وأصحابه.

وقد أعجب عبد الرحمن بأدبه وظرفه وهيأته فجعله سفيرا له لدى الملوك، فأرسله فى سفارة إلى الإمبراطور تيوفيلوس امبراطور بيزنطة فذهب فى رفقة صديق له يسمى يحيى صاحب النقلة وكان رياضيا، وقد كسب الغزال إعجاب أهل البلاط البيزنطى وأعجبت به سيدات القصر، رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره، وأنشد فى بعضهن أشعارا قام المترجمون بنقلها إلى اليونانية فلقيت إعجاب أهل القصر، وقد قضى هذا السفير فى سفارته ثلاث سنوات عاد بعدها محملا بالهدايا والذكريات وحمل إلى عبد الرحمن رسالة من الإمبراطور.

وقد كان نجاح الغزال فى هذه السفارة حافزا لعبد الرحمن إلى إرساله إلى ملك الأرومانيين فى الدانيمرك لكى يتباحث معه فى أمر أولئك الغزاة الذين يؤرقون أمن الأندلس، فذهب مع صاحبه يحيى بالبحر أيضًا، وكانت رحلة شاقة اضطرته الأمواج خلالها إلى الرسو فى أيرلانده ثم فى انجلترا، وأخيرا دخل مضايق بحر البلطيق، ووصل إلى بلاط ملكى النورمان بعد أن كان أهوالا أخر تصويرها فى شعره.

وفى بلاط الملك أبدع الغزال أيما إبداع، واستظرفه الملك، وكان يحب أن يستقدمه، ويستمع لحديثه وفكاهاته بواسطة مترجم، ولكن إعجاب الملكة كان أعظم، وكان اسمها تود، وقال فيها شعرا كثيرا.

وطال مكوث الغزال فى بلاط النورمان لأن الناس أحبوه واستمسكوا به، ولكنه كان لا بد أن يعود، فعاد إلى قرطبة ليقص على الناس قصصا طريفا، وليحدثهم بما كان بينه وبين الملكة تود، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يأخذه مأخذ الجد الخالص، وكان هذا من صالحه لأنهم لو أخذوه مأخذ الجد لأصابه أذى شديد على أيدى الفقهاء.

وقد عمر يحيى الغزالى بعد ذلك عشرين سنة أخرى فمات وقد تجاوز الثمانين سنه ٨٦٤م.

التحول الحضارى فى الأندلس

فى عصر عبد الرحمن الأوسط :

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم انتقل الأندلس من بساطته الأولى إلى ترف الحضارة، فأنشأ الناس القصور الجميلة وأثثوها بفاخر الأثاث والرياش المستجلبة من المشرق، ووفد الناس من الأندلس بطرائف الجواهر والآنية والرياش، واستجلب الناس الجوارى المعلمات من المشرق، وسادت الأندلس كله موجة من الحضارة والترف، وأخذت قرطبة طريقها لتصبح أجمل مدائن أوروبا على الإطلاق، ومن أبرز ما ابتدعه الناس إذ ذاك المنى، جمع منية، وهو البيت الريفى الذى تحيط به حدائق، أى ما كان الرومان يسمونه باسم الڤيلا، وقد أخذنا عنهم هذا اللفظ، وقد أنشئت المنى شمالى قرطبة وغربها وسكنها سراة الذى فى حى خاص يشبه الأحياء الأرستقراطية فى عصرنا هذا، وكان بعض الأغنياء يستوسعون فى حدائق المنى حتى تصبح رياضا، وجسم الروف بالحور. وقد امتدت الأحوار إلى الشمال والغرب امتدادا كبيرا.

وفى هذه القصور عاش الأغنياء حياة كلها ترف وغنى، وقام على خدمتهم خدم كثيرون بعضهم أوروبى وبعضهم شرقى، وحرص أولئك الموسرون فى أن تكون لكل منهم سفارته تغنى فيها مغنيات قادرات، ولكن ذلك لا ينبغى أن ينسينا أن هذه كانت حياة الأقلية، أما الأكثرية فى

الأندلس فكانوا يعيشون فى رخاء نسبى، لأن البلد كان غنيا، وكان الناس مقبلين على العمل لأن الضرائب كانت قليلة، أو كانت الحكومة المركزية تشرف على أعمال الحكام عن طريق ديوان المظالم، وكان مخصصا بالنظر فى شكاوى الناس من أعمال رجال الدولة وتصرفاتهم، وكان يتولاه دائما رجل من كبار أهل الدولة تعطى له السلطة الكافية لمحاسبة كبار الحكام.

ومن الطريف أن يحيى الغزال ممن طالبهم صاحب المظالم وكانت تهمته أنه فرق فى الناس القمح المخزون فى الخاص بأمر الدولة فى الاشبونة وكان قد عين عاملا عليها، وكان المفروض أن هذا القمح مخصص للجنود، ولكن الغزال وجد أن الناس أولى به إذا نزلت بهم مجاعة، وقد عزل يحيى الغزال من وظيفته لهذا السبب، وانصرف إلى حياة الشعر واللهو فى قرطبة بعد ذلك.

زيادة مسجد قرطبة الجامع :

وقد اهتم عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت والمبانى، وأهم منشآته زيادة المسجد الجامع، فأضاف إليه سبع بلاطات من ناحية الجنوب، ونقل المحراب من موضعه إلى جدار الجامع الجديد.

وقد لاحظ المعمارى الذى قام بعمل الزيادة أن ارتفاع سقف الجامع لم يعد مناسبا لاتساعه، ففكر فى طريقة يرفع بها هذا السقف، وهداه فكره إلى أن يقيم فوق الأعمدة أعمدة أخرى وأقواسا أخرى، فكان من نتيجة ذات الأقواس المزدوجة التى تعد من بدائع العمارة الإسلامية، وقد زاد المعمارى فى جمال هذه الأقواس أنها بنيت بالآجر (الطوب الأحمر) والحجارة البيضاء، مدماك من الآجر، وآخر من الحجارة، فأصبح ازدواج لون العقود إلى ازدواج طبقتيها طابعا مميزا لمسجد قرطبة الجامع على ما عداه من مساجد الإسلام.

وقد رفعت هذه الأقواس الثابتة السقف إلى ارتفاع يقرب من ثمانية عشر مترا، مما زاد فى بهو المسجد ورخامه داخله، وكان ذلك الجزء المسقوف من المسجد الذى يعرف ببيت الصلاة يكون جزءاً صغيرا من مساحة المسجد.

فقد كان له صحن مكشوف فسيح يدور عليه السور، وقد زرعت فيها أشجار البرتقال، فسمى صحن المسجد بهو البرتقال، وقد تناقش فقهاء قرطبة وقتًا طويلاً فيما إذا كان من الجائز أن نغرس الأشجار فى بهو الجامع، وأقر الفقهاء ذلك رغم مخالفته لرأى مالك بن أنس.

فى بلاط عبد الرحمن الأوسط :

وقد أشرف فى عمارة هذا الجزء نصر فتى الأمير عبد الرحمن وخادمه المقرب إلى نفسه، وكان نصر رجلا كفئا ولكنه كبقية صقالبة القصور، كان جبان القلب أنانيا قليل الإحساس بالحب الحقيقى، وكان يتآمر مع طروب جارية الأمير عبد الرحمن المقربة إلى نفسه، وكانت طروب جارية بشكتسيه، شديدة الطموح، وكانت ترجو أن يصبح ولدها عبد الله أميرا بعد أبيه متخطية بذلك الأمير محمد، أكبر أبناء الأمير وولى عهده، وقد بلغ بها الأمر أن دبرت قتل الأمير بالسم وقام نصر بإعداده وتقديمه للأمير فى شراب، ولكن بعضهم نبه الأمير إلى الخطر، فطلب إلى نصر أن يشرب الشراب المسموم، فلم يسعه إلا أن يفعل، وأسرع نصر والسم فى بطنه إلى مسكنه، وأرسل بطلب لبن الماعز إذ قيل له : إنه يضيع أثر السم، فلم يوجد حتى هلك.

وقد فرح فيه الكثيرون ممن كان لا يكف عن أذاهم وارتاح منه القائد الحاجب عيسى بن شهيد وكان من المتمسكين بضرورة المحافظة على العرش للأمير محمد بن عبد الرحمن.

الشعر والموشح والزجل :

وما دمنا قد تحدثنا عن يحيى بن حكم الغزال فلنقف وقفه قصيرة عند الفكر الأندلس الذى بدأ يستقل عن الفكر المشرقى ويظهر فى صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر، واستمر تطوره فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده.

فإلى أيام عبد الرحمن الأوسط لم يكن هناك مظهر للفكر الأندلسى إلا فى الشعر، لم يكن المجال قد انفسح أمام النثر الفنى ليظهر، ولم تر الأندلس ناثرا أصيلا من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب.

وقد نشأ الشعر الأندلسى محاكيا للشعر المشرقى، وعندما ثبتت أقدام الإسلام فى الأندلس كان عصر الشعر العربى الإسلامى الخالص قد انقضى بذهاب بنى أمية.

ذهبت أيام جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة، وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيين من أمثال أبى نواس وبشار بن برد وأبى تمام وابن الرومى وابن المعتز.

وهؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيد جدا فى تكوين مدرسة مماثلة من الشعراء فى الأندلس.

فنجد عند كبار شعراء عصر الأمراء من أمثال أبى عمر أحمد بن عبد ربه ومؤمن بن سعيد ويحيى بن حكم الغزالى وأبى بكر بن هذيل ومحمد بن شخيص ومحمد بن يحيى القلفاط صورا شعرية مغنية من شعر أولئك الفحول.

وأبو تمام بالذات كان له أثر عظيم جدا عند شعراء الأندلس لرصانة شعر وجودة معانيه وديباجته العربية الخالصة.

ويلى أبا تمام فى ذلك ابن الرومى وابن المعتز.

فأما الأول فقد فتن الأنذلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال الصور التى يأتى بها.

وأما الثانى فأعجبتهم فيه الصنعة والرقة والحديث الكثير عن البساتين والرياض والزهور والربيع وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة.

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبى الأندلسى، وهو شعر يصاغ في عامية أهل الأندلس ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربى وخاصة السهل الجارى منها كالرمل والرجز، وقد عرف هذا الشعر بالزجل، والزجل الذى يقال فى كل بلاد العروبة ولد فى الأندلس فى الغالب ونحن نسمع عنه أول ما نسمع فى تلك البلاد.

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والأيبرية الرومانية، فإن الأندلسى كان يقول: كيرو كاس ولما (أريد كأس ماء) ومى آلما حزن دا اليوم (نفسى حزينة اليوم) اشتريت من السوكو سبانيا بلانكا (اشتريت من السوق غطاء رأس أبيض) ازداد فارون سمرلو وبنت شقريلا (ولد لفلان ولد اسمه دينة شقرار ... وهكذا.

وهذه اللغة هى التى كان الناس جميعا يتحدثون بها ويفهمونها فى الأندلس وهى كذلك كانت لغة الزجل الذى سيبلغ أوج ازدهاره فى عصر الطوائف على يد زجالين موهوبين أشهرهم : أبو بكر بن قزمان.

بعد ذلك ظهر الموشح، والغالب أيضا أنه ابتكار أندلسى، فكانوا يأخذون مركز إحدى الأغانى الشعبية باللغة الإسبانية الدارجة وينسجون على منواله أربعة أشطار أو خمس تنتهى بذلك المركز الذى يسمى خرجة، ثم أربعة أبيات أخرى عربية تنتهى بنفس الخرجة وهكذا:

الســــــــــــــــر حــق
وأنـا بـه أشـــــــــهــــــــد
أضــل الــعـــــــــــــــشـق
مـــــهــــجـــــتى ولا ينفـــــد
وابـن صـــــــــدقـــــــو
مـن خــــــــريدة تنشـــــد

Alba q"esta kan Bel Fogore

Kand bene bide abore

Una alba que liine tan her moso julgor

Cuando vrine fede amor

وترجمته بالعربية :

فجر له ضياء بالغ الجمال

عندما يطلع تبعث الحبة

وهذه الخرجة الإسبانية التى تسمى المركز أيضا تتكرر بلفظها فى نهاية كل مقطع عربى مكون من ستة أشطار صغيرة كهذه، وكانت العادة أن ينشد الأشعار العربية منشد مفرد، أما الخرجات أو المراكز فكانت تغنيها الجماعة مع المنشد أو المنشدة.

وقد انتقل المرشح إلى بلاد الإسلام كلها وأصبح نوعا جاريا من الشعر يجمع بين العربية الفصيحة والعامية الدارجة، وكان أول ظهوره على يد مقدم به معانى القبرى الفريد الذى نشأ فى أيام عبد الرحمن الأوسط.

ونعود إلى ذكر الشعر الفصيح فنقول : إن أكبر شعراء العصر الذين نتحدث عنهم هم : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (١٠ رمضان ٢٤٦هـ- ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨هـ / ٢٩ نوفمبر ٨٦٠م/ ٣ مارس ٩٤٠م) صاحب كتاب العقد الفريد، وهو كتاب جامع شامل فى الأدب العربى الجاهلى والإسلامى، وهو يصور لنا مفهوم العرب الأوائل للأدب وهو الأخذ من كل شيء بطرف، أى ما نسميه اليوم بالثقافة العامة.

وكان ابن عبد ربه إلى جانب ثقافته الواسعة شاعرا أشبه بالرسمى للأمراء، فهو يقول شعرا

كثيرا ولكنه شعر قصور معظمه فى المديح والتهانى والفخر والمراثى وما إلى ذلك ولكن الرجل كان عاقلا متعاونا، عرف كيف يحتفظ بمكان ممتاز فى المجتمع الأندلسى، وقد ظل طول حياته شاعر الأندلس الأول حتى توفى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر فى سن عالية.

ومن أهم ما ينسب له من الشعر أرجوزة فى تاريخ أمراء الأندلس أدرجها فى كتاب العقد الفريد، وقد ترجمت إلى الإسبانية نظرا لأهميتها التاريخية.

وعلى العكس من ذلك كان معاصره مؤمن بن سعبن، فقد كان رجلا متداخلا كثير الوقوع فى الناس، دائم الدعابة، فنال الناس من أذاه شيء كثير، وآذوه هم الآخرون كثيرا، ولكن حياته غير السعيدة بخيرها وشرها، بحلوها ومرها تصور لنا جوانب شتى من حياة الناس فى الأندلس.

أما ثالث الشعراء الذين تحدثنا عنهم كتب الأدب الأندلسى فى ذلك العصر فهو أبو بكر بن هذيل، وكان شاعرا مجيدا، يحسن إنشاد أشعار الروضيات والوصفيات، وقد شهد وهو صغير جنازة ابن عبد ربه فآلى على نفسه أن يبلغ شأوه، ووصل إلى ما أراد بجده ودأبه، وكان ضريرا.

وهؤلاء الثلاثة إلى جانب يحيى بن حكم يصورون لنا آخر ما وصل إليه الشعر فى ذلك العصر، وهم ليسوا أعاظم شعـراء الأندلـس على أى حـال، لأن أعاظم الشعراء هؤلاء سيظهرون فى أيام عبد الرحمن الناصر وما بعده، أى عندما يصل الأندلس إلى الاستقرار الكامل وتصل حضارته إلى عصرها الذهبى أقصى ما وصلت إليه من نضج فى عصر الطوائف وما تلاه من عصور الصراع الحاسم على مصير الأندلس.

ونلاحظ على الجملة أن الإمارة الأموية القرطبية قامت على رجال ذوى ملكات وقدرات، لكل منهم ناحية اختصاصه وشخصيته الواضحة، والدولة المركزية تعترف لكل رجل من هؤلاء بمكانته وتعطيه حقه وتفسح له المجال ليفيد بملكاته ويستفيد منها.

وهذه الظاهرة سمة من سمات القوة فى الدول، لأن الدول تبنى على الرجال، أما القول بأن الدول تبنى على المال وبالمال يسطنع الرجال فمذهب خاطئ يدل على ضعف، وقد أخذ بمبدأ الرجال بنو أمية المشرقيون فى صدر دولتهم ثم بنو أمية الأندلسيون هؤلاء، وأخذ بمبدأ المال العباسيون، وكان هذا من أحد أسباب ضعف دولتهم.

بل إن الكثير من خواص الأندلس كان له شخصيته المستقلة التى تعترف بها الدولة، وتمنح أصحاب الأمر فى الناحية درجة كبيرة أو صغيرة من الاستقلال الداخلى، ومثال ذلك منطقة الثغر الأعلى، وهى حوض نهر الابر وما يليه شمالا إلى جبال البرت، فهذه منطقة متاخمة للممالك والإمارات المسيحية فى الشمال والشمال الغربى والمشرق، وكانت تتولى أمورها أسرات محلية تتمتع بامتيازات إقطاعية سلم جل الأمراء، ومن هذه الأسر ما يرجع إلى أصول إسبانية محضة مثل بنى قسى المنحدرون من فورتوينو حكم تلك المنطقة أيام الفتح العربى، وبنو هاشم، وهم عرب استقروا هناك ووصلوا إلى الرياسة، وكانت لهم قواتهم العسكرية وامتيازاتهم الإقطاعية فى نواحيهم، وكانت العلاقات بين هذه الأسر والبيت الأموى فى تغير دائم ما بين طاعة وعصيان ولكن رجالها كانوا على الجملة من أهل الطاعة، وخاصة عندما قوى أمر إمارة قرطبة وثبتت أركانها من عصر عبد الرحمن الأوسط وما بعده.

كذلك منطقة طليطلة، فقد كانت منطقة ثغرية يتمتع أهلها باستقلال محلى، فكانت لطليطلة مشيختها التى تدير أمورها بالشتراك مع عمال الإمارة.

وكانت ثورات أهل طليطلة على الإمارة كثيرة ولكن الأمير ممن انتهج - كما سنرى - سياسة جديدة فى تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصارى الشمال وتوثيق علاقاتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها.

وناحية الضعف فى سياسة الرجال الأموية الأندلسية أن الأندلسيين بطبعهم كانوا قوما ذوى خيلاء وزهو وغرور بأنفسهم، فأسرفوا فى الاعتداد بأنفسهم، فما من رجل تغضبه الدولة فى شيء إلا يثور فى ناحيته، ويسبب المتاعب، كما سنرى فى نهاية عصر الاستقرار هذا.

الأمير محمد:

٤ ربيع الآخر ٢٣٨هـ / ٢٤ سبتمبر ٨٥٢م

٢٦ صفر ٢٧٣هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦م

لم يكن الأمير محمد كبير أبناء عبد الرحمن الأوسط ولكنه كان أصلحهم للأمر برأى أبيه ورجال مملكته، وقد رشحه عبد الرحمن لولاية العهد وأخذ رجال الدولة بالالتفاف حوله، فلما توفى عبد الرحمن صار الأمر إليه دون مشقة.

وكان محمد قد جاوز الثلاثين بقليل يوم تولى العرش، وكان شابا عاقلا جدا بعيد النظر هادئ الأعصاب حتى لنلاحظ عنده جمودا عاطفيا يذكرنا بما كان عليه جده الأمير عبد الرحمن الداخل.

تولى محمد وحاجب الدولة عيسى بن شهيد فأقره على عمله، وكان لعيسى فضل كبير عليه، وكذلك أقر وزراء أبيه وزاد فى تنظيم الوزراء وترتيب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء يقاربون وزراء اليوم فى الاختصاص حقا.

وبعد أن توفى عيسى بن شهيد تولى الحجابة عيسى بن الحسن بن أبى عبده وكان وزيرا جليلا رغم رثاثة هيئته، ثم خلفه هاشم بن عبد العزيز وكان رجلا أرعن طائشا شديد الأنانية، وقد كان له أسوأ الأثر على الدولة وعلى الأمير، بل إن من رعونته كانت سببا فى قيام كثير من الثورات والاضطرابات التى انتهت إلى عصر الفتنة الأولى، الذى سنتحدث عنه .

وقد واجهت الأمير محمد لأول ولايته مشكلات محلية كثيرة فى مختلف النواحى، فثار أهل طليطلة واتجه بنو قسى بن قسى أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال بناحيتهم وتحركت جماعات ثائرة فى الغرب فى إقليم ماردة.

وإن من يقرأ حوليات الأندلس أيام محمد ليتصور أن معظم النواحى خرجت إلى الإدارة المركزية، ولكننا ينبغى أن نذكر أن هذه كانت الحال أيضا فى معظم ممالك أوروبا النصرانية، لأن طبيعة الأرض هناك تسهل الثورة على من أرادها، ثم إن الناس الذين ينشأون فى هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يميلون إلى الاستسلام للحكومات المركزية وخاصة رؤساء الناس فى النواحى وهم أمراء الإقطاع، ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الأهلية دائمة فى هذه البلاد كما كانت دائمة فى الأندلس.

المهم لدينا أن الأمير محمد كان مدركا لهذه الحقيقة وكان مستعدا دائما لحماية وحدة بلاده لا يكف عن الخروج فى الحملات أو إرسال القواد بالجيوش.

وقد لقى محمد من أهل طليطلة عناء شديدا، لأنه ما فعله معهم جده الحكم كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموى، وقد كانت الحرب سجالا بين أهل طليطلة وجيش قرطبة، واستطاعت قوات الإمارة أن تحرز نصرا كبيرا عند وادى سليط فى الجزء الجنوبى من كورة طليطلة سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م ووقع نفر من زعماء الثورة والمحرضين عليها فى يد الأمير، ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقوات الإمارة سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م خارج طليطلة نفسها، وعلى أثر ذلك استكان البلد وصالح الأمير.

وأقام محمد فى طليطلة ينظر فى أمور أهلها، فتبين له أنه لا بد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والاستحكامات يمتد بحذاء جبل الشارات حتى يصل إلى وادى

أبره، فتقوم هذه الحصون بإيقاف أى تقدم للنصارى جنوبا، ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مهادنة النصارى أو محالفتهم، وبالفعل أنشئ خط الحصون هذا وكانت أول مراكزه مجريط في شمال شرقي طليطلة ثم طلمنكة وقلعة هنارس ووادى الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب، وقد سمى هذا الخط كله بوادى الحجارة أى وادى الحصون، وأهم حصون مجريط، وهى مدريد، ومدينة سالم وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغرى الأوسط، الذى عرف بالثغر الأوسط.

أما الثغر الشرقى فكان يسمى بالثغر الأعلى، وهو منطقة وادى أبره وعاصمته سرقسطة، وكان هناك ثغر أدنى فى الغرب وهو استمرار للثغرين: الأعلى والأوسط، وأهم مراكزه قوريه وشنترين ثم الاشبونة وهى قاعدته على المحيط، وكانت هذه المناطق الثغرية الثلاثة مناطق حدود يحكمها حكام عسكريين بدل عمال الكور، وكانت لها معاملة مالية خاصة، فلم يكن أهلها يؤدون الأعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التى كانت تجبى بها فى بقية البلاد، إذ كان يراعى أن أهل هذه النواحى ينفقون أموالا كثيرة فى الدفاع عن أراضيهم، ثم إنهم كانوا فى الغالب قوما مسلحين، يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد.

وقد جرت العادة فى بلاد الإسلام، وفى الأندلس خاصة بأن يفد إلى هذه الأقاليم المطوعة والعباد والزهاد والمرابطون يرابطون على حدود الإسلام حماية لدار الإسلام حسبة لله والتماسا للثواب.

وعاد خطر الارومانيين يهدد شواطئ الأندلس، وكان المسلمون قد استعدوا لهم بالأساطيل فلم يستطيعوا هذه المرة أن يصيبوا من المسلمين ما كانوا يصيبون فيما مضى، فلم يجرؤوا على اقتحام الأشبونة أو إشبيلية، فانقضوا على بلدة صغيرة هى باجة (فى البرتغال الحالية) وهناك أوقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة، وبعد ذلك تحولت غزوات النرمان إلى ضربات سريعة على السواحل وامتدت حتى وصلت الساحل الشرقى لشبه الجزيرة، ويئست تماما من القدرة على القيام بعمل

كبير فى الأندلس الإسلامى، فاتجهت إلى إسبانيا النصرانية وتمكنت من الدخول بسفنها فى مصب نهر الايرو ووصلت إلى بنبلونه عاصمة نيرة ونهبتها نهبا ذريعا، وأسروا ملكها غرسية ولم يردوه إلا لقاء فدية كبيرة.

وتلك كانت آخر محاولة قام بها الأرومانيون ضد الأندلس إذ تبينوا أن شواطئهم محروسة وأساطيله معدة ورجاله متنبهين، ولم يعد أحد يسمع عن خطر المجوس على الأندلس بعد سنة ٨٥٩/٢٤٥.

كذلك قامت حروب كثيرة بين الأندلس ومملكتى نيره (بنوة) وليون، وقد كانتا لخوفهما من المسلمين قد اتحدتا، وانضم إليهما أحيانا موسى بن موسى بن قس صاحب الثغر الأعلى أى سرقسطة، وكان آل قس فى الأصل أسرة إسبانية نصرانية اعتنقت الإسلام ودخلت فى طاعة المسلمين، ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلى فى كل منطقة للثغر الأعلى، ويبدو أن هذا الاستقلال المحلى كان أمرا تحتمه الضرورات الجغرافية والتاريخية، وقد قدر أمراء قرطبة هذه الظروف، فكانوا يكتفون من أمراء الثغر الأعلى بطاعة اسمية، وفى أحيان أخرى كانوا يحاولون كسر شوكتهم.

وعلى أى حال فلم يكن من الممكن اتباع سياسة أخرى حيال أمراء ثغر بعيد كهذا يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب.

جهد بنى قسى النجبيين ثم بنى هاشم الطويل من أكبر أسباب استقرار الأحوال فى الثغر الأعلى، فقد قام على رأس هذين البيتين رجال محاربين أشداء استطاعوا الصمود للضغط النصرانى ومصانعة جيرانهم من النصارى إذا اقتضى الأمر بينهم وبين أمراء قرطبة، ولكنهم تمكنوا من حماية ثغرهم وأهله وتأمينه حتى أيام عبد الرحمن الناصر عندما تغيرت العلاقات بينهم وبين إمارة قرطبة التى تحولت إلى خلافة.

ويرجع إلى رجال هذه البيوت الإقطاعية الفضل فى تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية فى ذلك الإقليم فإنه ظل بعيدا عن الثورات الكبرى على قرطبة ورجالها وكان من أكثر نواحى الأندلس عروبة وإسلاما.

وقد اقتصر الأمير محمد على مملكتى نيرة وليون فى كل حروبه معهما بفضل قادته من أمثال عيسى بن شهيد بن أبى عبدة وعباس القرشى ثم أبناء الأمير محمد : عبد الرحمن والحكم والمنذر، وكانوا قادة ماهرين، وقد تمكنت الإمارة القرطبية من القضاء على أطماع اردونيو الأول ملك استريش وليون حتى توفى سنة ٨٦٦ (٢٥٢) وخلفه ابنه الفونسو الثالث الملقب بالكبير وهو من أعاظم ملوك إسبانيا النصرانية، وفى أيامه نقلت عاصمة المملكة إلى مدينة ليون وأصبح اسمها مملكة ليون، ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن مملكة ليون تصبح منافسا خطرا للإمارة القرطبية.

ولم يمنع الأمير محمدا من إيقاف مملكة ليون عند حدها إلا كثرة الثورات عليه فى بلاده، ولم تكن هذه الثورات ناتجة عن ضعف الحكومة أو إهمالها لواجبها، بل سببها اتساع دولة بنى أمية ووعورة أرض البلاد ثم قلة العرب وسط الجموع الأخرى من المستعربين والمولدين، وكان الظاهرون من رجال كل ناحية لا يكفون عن مناوأة الحكومة والاتجاه إلى الاستقلال، وربما كان أسلم السياسات هو أن تسير إمارة قرطبة على نفس النظام الذى كانت تسير عليه ممالك أوروبا النصرانية فى ذلك العصر وهو الاعتراف بأمراء الإقطاع فى نواحيهم فى مقابل خضوعهم الرسمى للدولة وأداء مال معين وتقديم قوات محاربة وقت اللزوم، ولكن مفهوم الدولة عند بنى أمية ورجالهم لم يكن يقبل هذا الوضع.

ثم إن وجود جماعات كثيرة من العرب فى الشرق والجنوب والغرب كان عقبة فى سبيل إقرار نظام كهذا، فقد كانت للعرب فى الكور المجندة خاصة امتيازات كثيرة، فإذا قبلت الدولة نظام

الإقطاع فقد كان أولئك العرب هم الذين سيكونون أصحاب الإقطاعات، ولم يكن هذا والصالح، لأنهم ميالون إلى الفوضى أولا، ثم إنهم كانو بعيدين جدا عن إدراك فكرة الدولة وفضائل الخضوع للنظام، ومن الغريب أن أولئك العرب الذين استقروا فى نواحى تدمير وهى مرسية، وكذلك نواحى غرناطة، وبعض كور الجنوب ظلوا متجمعين فى مراكزهم يعيشون حياتهم العربية فى مواطنهم الأولى، يقضون أوقاتهم فى أعمال الفروسية وقول الشعر والحرب فيما بين بعضهم وبعض مما كان يخرب الأرياف ويؤذى الزراع، ومعظمهم من المولدين والمستعربين، وقد بلغ من قصر نظر رؤسائهم أن لا يعنيهم مصير الإمارة مع أنها كانت درعهم الواقى وقاعدة قوتهم، وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة.

وقد تعرضت الإمارة فى النواحى العربية من بلادها فى كور ماردة وبطليوس والاشبونة وبقية ما يعرف اليوم بالبرتغال لحظر من نوع آخر، فهناك كانت تقيم جماعات كبيرة من المولدين الذين احتفظوا بشخصيتهم المحلية وبروابطهم بأصولهم الإسبانية، وأراضى القرب هذه كانت مفاوز وأراضى جبلية يصعب على الإمارة السيطرة عليها سيطرة تامة، وكانت الدولة تلجأ إلى العنف، والعنف يولد العنف.

ومن أمثلة ذلك تصرف الإمارة حيال طائفة من زعماء أهل الغرب الأندلسى كان مركزهم مدينة ماردة ويتزعمهم مسلم مولد من أهل جليقة يسمى عبد الرحمن بن مروان الجليقى، وقد طالبوا الحكومة بأن تسمح لهم بشيء من الاستقلال فى ناحيتهم، وبدلا من ذلك نجد الأمير ممن يخرج فى جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م ويستولى على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم فى قرطبة ليطمئن إلى ولائهم.

ولكن الوزير هاشم بن عبد العزيز أساء التصرف مع عبد الرحمن بن مروان الجليقى وأهانه

فهرب من قرطبة وتحصن فى ماردة ثم فى بطليوس، وعبثا حاولت الإمارة إخضاعه دون جدوى، فتحالف مع الفونسو الثالث ملك ليون، وأرسل محمد لحربه سنه ٢٦٢هـ/ ٨٧٦م ابنه المنذر ومعه الوزير هاشم بن عبد العزيز، وكان هاشم رجلا عجولا عاجزا عن مراجعة عبد الرحمن بن مروان الجليقى وحليفه سعدون السرفياتى وكانت النتيجة هزيمة كبيرة لجيوش الإمارة فى شوال ٢٦٢هـ/ يونيو ٨٧٦م ووقوع هاشم بن عبد العزيز فى أسر السرفياتى فأسلمه لعبد الرحمن الجليقى، وقد افتداه الأمير محمد بمائة وخمسين ألف دينار وبعد حروب طويلة انتهى الأمير إلى الاتفاق مع عبد الرحمن الجليقى على إقراره على بطليوس ونواحيها ويكون من رجال الإمارة وحلفائها.

ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التى نتجت عن إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطانها المباشر على النواحى ورفضها السماح بنصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحى نراه فى ثورة عمر ابن حفصون فى ولاية ريه الجنوبية وهى تعادل ما يسمى الآن بمحافظة مالقة.

يذهب مؤرخو إسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الإسبان إلى التخلص من سلطان العرب، وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الإسبانى العام، ذلك خطأ من كل ناحية، فعمر بن حفصون أندلسى المولد، نشأ وعاش معظم حياته مسلما، وأسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموى، ووجود جماعات كبيرة من العرب فى ثور تدمير والمدية وغرناطة وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى فى تلك النواحى ومعظمهم مولدون ومستعربون، وهو لم ينزع قط إلى الانفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت حركته وأصبح يلتمس النجاة من الهلاك المحتوم بأى طريق، وهذا لا يمنع من القول إنها كانت ثورة خطيرة وإنها هزت كيان الدولة الأندلسية هزا عنيفا، وقد كان مخربا فى أيام عمر بن حفصون ولكنه كان مفيدا فيما بعد، لأن هذه الهزات الشعبية تكشف عن الكثير من العيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر على تلافيها.

والسبب المباشر لقيام هذه الثورة هو تشدد عامل ريه فى جباية الأموال المتأخرة، إن السبب الحقيقى هو أن أهل هذه النواحى الجبلية لم يظفروا قط بالعناية الكاملة من جانب الحكومة المركزية، فامتلأت نفوسهم بأسباب الغضب والشكوى وأصبحوا حطبا يابسا لنيران أى ثورة تقوم.

وقد بدأ تمرد أولئك المولدون والمستعربون من أهل كورة رية وما جاورها فى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م وحاول الأمير محمد أن يطفئ نيرانها بالقوة فلم يفلح.

وهنا ظهر عمر بن حفصون وأخذ يتزعم مطالب أولئك الناس أمام الحكومة المركزية، وهو من أصل إسبانى مسيحى فإن جده الفونسو القس، وجده الرابع هو الذى اعتنق الإسلام، ونشأ هو فى ريه رجلا عنيفا متمردا، فجمع طائفة من الأشرار ونزل بمكان منيع بجبل بيشغر شمال شرقى جبال رنده، واعتصم فى ذلك الجبل وأخذ يناوئ قوات الإمارة، وهنا أرسل محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان قد أخلى سبيله من الأسر فاستطاع استنزال عمر بن حفصون من حصنه وضمه إلى ضباط جيش الإمارة، وفعلا اشترك فى حملات قامت بها فى الشمال، ولكن ابن حفصون كان متمردا بطبعه، ثم إن هاشم بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى العصيان ٢٧١هـ/ ٨٨٤م.

وسار المنذر بن محمد لمقاتلته وضيق عليه، فلما كان على وشك الاستيلاء على حصنه الأخير بلغه الخبر بموت أبيه الأمير محمد فارتد المنذر إلى قرطبة فى ٢٩ صفر هـ ٢٧٣/ أوائل أغسطس ٨٨٦م ففتح عمر بن حفصون ميدان كادراه يتبدد.

ونستطرد مع تاريخ حركة عمر بن حفصون فنقول : إن الأمير المنذر خلف أباه محمدا وكان فارسا نجدا وقائدا قادرا، فسار لمحاربة ابن حفصون، وكان هذا قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل منطقة ريه بأكملها وأخذ يتكلم فى ضرورة الثورة على السلطان للتخلص من الضرائب

والظلم، ويذهب قدر من المؤرخين إلى أن عمر بن حفصون دعا إلى تحرير البلاد والتخلص من الحكم العربى، والحقيقة أن عمر بن حفصون كان مسلما وكذلك كان كل رجاله، وكان رجلا تربى فى ظلال الإسلام، فهو ثائر على سوء الإدارة وطامح إلى السلطان ولكنه لم يقصد أبداً الارتداد بإسبانيا إلى النصرانية، فهو فى كل ثورته لم يحاول الاتصال بنصارى الشمال، بل كتب إلى الخليفة العباسى يطلب منه تقليدا بالحكم، وكاتب بنى رستم أهل تاهرت وكذلك كتب إلى بنى الأغلب. ولو أنه لقى من قرطبة بعض التسامح لربما عاد إلى الطاعة آخر الأمر.

وقد صمم المنذرى القضاء على الثائر فسار إليه وحاصره فى جبله حتى أرغمه على التسليم، فطلب عمر بن حفصون بغالا وخيلا ليسير بها إلى قرطبة، ثم نكث وعده فعاد إليه المنذر وأستمر فى الحصار، فلما كان على وشك القضاء عليه توفى المنذر تحت أسوار ببشتر بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين فى صفر ٢٧٥هـ/ يونيو ٨٨٨م وخلفه أخوه عبد الله بن محمد.

الأمير عبد الله :

وكان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد، فقد كان بارعا فى التدبير الخفى وحبك المؤامرات، ولم يكن واسع الذكاء ولا بعيد التصور، ولكن فضيلته الكبرى كانت الثبات، فإن هذا الرجل لم يكن ليفقد سوابه أو هدوءه أبدا رغما عن تواتر الثورات عليه.

ولم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة ابن حفصون فامتد أذاه إلى كل نواحى جنوب الأندلس، وخاف العرب على أنفسهم فتصدوا لحربه، وتزعمهم رجال من أمثال سوار بن حمدون القيسى وسعيد بن جودى ومحمد بن أضحى فى كورة غرناطة.

وكذلك ثار عرب إشبيلية بقيادة كريب بن خلدون وإبراهيم بن حجاج وطال النزاع بين أفراد هذين البيتين، ولم يبق فى طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحوازها.

ولم تنج الإمارة القرطبية من الزوال إلا بفضل قائد عظيم هو أبو العباسى أحمد بن أبى عبدة، فإن هذا العسكرى الموهوب استمر نحو ثلاثين سنة فى ميادين الحروب مكافحا عن الجماعة ووحدة الأندلس، وبفضل هـذا القائد وابن أخ له هو عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة استطاع الأمير عبد الله إيقاع هزيمة قاصمة بعمر بن حفصون فى ٢ صفر ٢٧٨هـ/ ١٦ مايو ٨٩١م واستولى بعدها على حصن بُلَى من أحصن معاقل ابن حفصون قرب قبرة، وقد كانت هذه المعركة هى الخطوة الأولى نحو القضاء على عمر بن حفصون، فقد طارده جند الإمارة وحاصروه فى معقله الأكبر وهو بيشتر، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء عليه لتعدد الثورات وعندما توفى الأمير عبد الله فى أول ربيع الأول ٣٠٠هـ/ أكتوبر ٩١٢م كانت قوة عمر بن حفصون ومعظم الثائرين قد وهنت وتمهد الطريق لتسليمهم الإمارة القرطبية، والفضل فى ذلك راجع لهذا الأمير عبد الله الذى استطاع رغم وجوه النقص الكثيرة فى خلفه أن يجتاز بالإمارة القرطبية المحنة وينجو بها من الأخطار.

وقد قضى الأمير عبد الله حكمه كله فى حرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين تكاثروا فى كل ناحية وازدادت جرأتهم على الإمارة، وتسمى هذه الفترة كلها بفترة الفتنة الأولى وتمتد من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الأوسط، وقد تعددت مراحلها وأدوارها، ففى دورها الأول كانت ثورة من بعض أهل النواحى على ما أسموه ظلم الإدارة القرطبية وإجحافها فى جباية الأموال وليس ذلك بصحيح، وترتبط هذه الدعوة بأسماء عبد الرحمن بن مروان الجليقى فى الغرب وعمر بن حفصون فى الجنوب.

وعندما طالت وأحس العرب فى نواحى تدمير وغرناطة وإشبيلية بضعف الإمارة بادروا هم

الآخرون إلى الثورة على الإمارة وخلصوا طاعتها، وقال شعراؤهم شعرا يطالبون فيه الإمارة بأن تترك الأندلس لهم، واستطالوا على المزارعين وأهل القرى وعسفوهم، فنجم من بين هؤلاء ثوار انضموا إلى عمر بن حفصون، ودارت الحرب بين ابن حفصون والعرب، وكان النصر عليهم لابن حفصون حتى وقع فى أسره قائدهم سوار بن حمدون المحاربى، واشتدت الفتنة بين بنى حجاج وبنى خلدون فى إشبيلية واشتعلت الأندلس كلها نارا كما يقول ابن عذارى وهذا هو الدور الثانى للفتنة.

وقد واجهها الأمير عبد الله بشجاعة ومعه قواده وقد ذكرنا اثنين منهما، ونضيف اليهما جعد ابن عبد الغافر الذى استشهد فى حربه مع بنى حجاج ولكنه فل غربهم وحطم قواهم .

واستمر الأمر على ذلك حتى استولى رجال الأمير عبد الله على حصن بلى فانكسرت شوكة عمر بن حفصون وفقد هيبته، وتخلى الناس عنه واعتصم بمعقله الحصين فى ببشتر حتى توفى الأمير عبد الله سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م.

عبد الرحمن الناصر وعصره

٣٠٠هـ -٣٥٠هـ / ٩١٢م -٩٦١م :

ومن حسن الحظ أن الذى خلفه كان عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، وكان الأمير عبد الله قد قتل ابنه محمدا لاتهامه بمؤامرة، وذلك قبل مولد عبد الرحمن بأسابيع قليلة، وقد تحول ندم الأمير على قتله ابنه إلى عطف على حفيده، ولذا فقد أحب عبد الرحمن وأسكنه معه فى القصر وأشرف على تربيته وقدمه على سائر أبنائه، ولم يكن أحد من الباقين من أبناء عبد الله أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكتوا عنه، وكان هو من جانبه شابا ذكيا بعيد النظر فكان يقوم بالوساطة بين الأمراء ورجال الدولة وجده الضعيف البخيل، فأحبه الناس ووسطوه فى حاجاتهم فنشأ محبوبا من الجميع مقربا إلى جده.

فلما توفى الجد أجمع أهل القصر على مبايعته ولم يختلف عليه أحد لأن أحوال الإمارة كانت من السوء بحيث لم يكن فيها عداء لأحد.

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن على، المعروف بالثالث أو الناصر، أمير قرطبة دون صعوبة، فى أكتوبر ٩١٢م وبدأ فى تاريخ الأندلس العصر الذهبى وهو عهد الازدهار الأكبر.

****

الأندلس

تاريخ وفكر وحضارة وتراث

تمهيد جغرافى اقتصادى:

لو أردنا برهانا على ما تميزت به الأجيال العربية الأولى من قوة وشهامة وإخلاص لما وجدنا أبلغ من فتحهم للأندلس، فإن فتح المغرب تطلب منهم جهاد نحو سبعين سنة كلها حرب وصراع وتضحيات حتى تمكنوا فى النهاية من الوصول بالعروبة والإسلام إلى المحيط الأطلسى، وبعد ذلك الجهد البالغ طوال ذلك العصر الطويل نجد أنه ما زال فى كيان العرب بعد ذلك من القوة ما مكن لهم من عبور الزقاق إلى أوروبا وفتح شبه الجزيرة الأيبيرية فتحا تاما وشاملا فى بحر أعوام قليلة.

ويكفى أن نذكر أن طارق بن زياد، وهو بربرى الأصل ومسلم مستعرب قاد بنجاح لا مثيل له جيش المسلمين، وكان معظمه من البربر، وانتصر على جيش القوطيين فى معركة شذونه، وقضى على العمود الفقرى لقوتهم فى تلك المعركة الواحدة، ومن سهل شذونة نجده يمضى بجيشه الصغير إلى الشمال، ويدخل طليطلة ويضع نهاية لسيادة القوط الغربيين على شبه الجزيرة، ويبدأ عصر الإسلام والعروبة فيها.

وليس هناك أدل على ما تميزت به أجيال العرب الأولى من ذلك المثل البليغ، فإن فتح المغرب لم يتم إلا بعد حروب طويلة مضيئة من الانتصارات، والهزائم المتلاحقة هلكت فيها الألوف من الجانبين، ولكن العرب أصروا على إدخال المغرب كله فى دولة الإسلام، ووفقوا فى ذلك، بل وفقوا إلى أكثر منه، فإن أهل المغرب أنفسهم، وهم البربر لم يخضعوا للإسلام فحسب، بل دخلوا فى أمته وأصبحوا من رجاله.

وطارق فاتح الأندلس كان منهم، وجيش الإسلام الأول إلى شبه الجزيرة كان بربريا فى غالبيته.

ومن ذلك الحين نجد أن البربر المسلمين أصبحوا قوة حقيقية من قوى الإسلام.

وقد أشاد ابن خلدون فى تاريخه (١١٠/٦) إلى أثر اشتراك البربر فتح الأندلس فى انتشار الإسلام فى المغرب واستقراره فى البربر فى عبارة تعتبر من روائع تاريخه، قال فى الفصل الذى خصصه لإيجاز تاريخ البربر بعد إسلامهم وعنوانه : « الفصل الرابع فى ذكر أخبارهم على الجملة من قبل الفتح الإسلامى وما بعده إلى ولاية بنى الأغلب ».

قال : « وذكر محمد بن أبى يزيد أن البربر ارتدوا اثنتى عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر وأمراؤهم برسم الجهاد فاستقروا هنالك حتى لدن الفتح، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الرِّدة ».

وهى عبارة غاية فى الأهمية بالنسبة لمن يدرس تاريخ المغرب والأندلس فى عصور الإسلام، فالواقع أن المغرب والأندلس بلد واحد من وجهة النظر الإسلامية وتاريخهم متكامل، فإن اشتراك البربر مع العرب فى فتح الأندلس أنعش نفوسهم وأحيى فيهم ملكات الحرب والرجولة والإيمان، وأحسوا أن الإسلام يحمل إليهم مجدا عظيما ويفتح لهم أبواب العز، فثبت إيمانهم به وتفانوا فى الإيمان به، وأصبحوا من ذلك الحين من أمم الإسلام الكبرى.

نقول إن فتنة الفتح الخارجى دبت فى صفوفهم بعد ذلك فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية، كما ذكرنا فى أخبار الخوارج، وفشت هذه البدعة وعقدها رؤوس النفاق من العرب، وجرت إليهم الظعنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر، فاختلوا فى كل جهة ودعوا قائدهم لإخضاع البربر فتلونت فيهم مذاهب كفرها وأصبحوا يلبسون الحق بالباطل فيها إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائبها، ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب فقتلوا يزيد بن أبى مسلم، والى الأندلس العربى سنة تسعين ومائة، لما نقموا عليه من بعض الفعلات.

ثم انتفض البربر بعد ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائة فى ولاية عبد الله بن الحبحاب فى أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس وأثخن فى البربر وسبى وغنم وانتهت إلى مَسُّوخة فقتل وداخل البربر منه رعب.

وبلغه أن البربر أحسوا أنهم فيء للمسلمين فانتقضوا عليه، وثار ميسرة المغفرى بطنجة على عمرو بن عبد الله فقتله وبايع له البربر وبايع لعبد الأعلى بن جريج الإفريقى وهو رومى الأصل ومولى العرب، وكان مقدم الصفرية من الخوارج فى انتحال مذهبهم، فقام بأمرهم مدة، وبايع ميسرة لنفسه بالخلافة داعيا إلى نحلته من الخارجية على مذهب العنصرية » (ابن خلدون ١١٠/٦) وتلك هى بداية الفتنة البربرية الكبرى.

ومما لا شك فيه أن اشتراك البربر فى فتح الأندلس وتكوينهم الأساس الثانى الذى قام عليه أمر الأندلس كان له أثر بعيد جدا فى الأندلس والمغرب معًا، فإن الأندلس أصبح من بداية عصوره الإسلامية بلدا عربيا بربريا، وإذا كان العرب قد أدخلوا فيه العربية والإسلام، فإن البربر قدموا له الرجال بأعداد المهاجرين منهم إليه.

ومن هنا فنحن لا بد أن نصف الأندلس بأنه الإسلامى قبل أن نصفه بالعروبة، لأن البربر كانوا مسلمين ومستعربين، ثم إن أعدادهم فى الأندلس كانت عظيمة جدا إذا قورنت بأعداد العرب، لأن هجرة البربر إلى الأندلس كانت دائمة ومتصلة وجهدهم الحضارى كان عظيما، فإن الإسلام والعروبة فتحا الأبواب للبربر لإظهار ملكاتهم الحضارية، وهى كثيرة، وهذه حقيقة أساسية ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان عند الكلام على الأندلس العربى الإسلامى لأنه كان عربيا من ناحية اللغة والثقافة، أما من ناحية الدين والجنس فقد كان بربريا أيضا، وخاصة فيما يتعلق بأجياله الأولى – كما سنرى عند كلامنا على الموشحة والزجل، وهى من عناصر الفكر الأندلسى – فإن الزجل

خاصة سيرينا أن الأندلس كان بربريا وإسبانيا بقدر ما كان عربيا، وكانت هذه الحقيقة واحدة من العناصر الأساسية فى قوته الحضارية.

وسيرى القارئ أن تاريخ الأندلس مر فى عصور يختلف بعضها عن بعض، ولكنها مترابطة ومتكاملة فى مجموعها، وتاريخه أشبه بقصة يصعب فهم حقائق بعض فصولها، فإن عصور الأندلس حتى إلغاء خلافة قرطبة فى سبتمبر ١٠٣١م تبدو كلها إيجابية وناجحة ومؤدية إلى قيام دولة عظيمة، ولكنها تدخل بعد ضياع الخلافة فى عصور محزنة وسلبية وغير مفهومة وتسير من سيئ إلى اسوأ حتى النهاية.

والسبب الرئيسى فى تلك الظاهرة هى أن المسلمين أنشأوا دولة الأندلس فى قلب أوروبا المسيحية، وكانت كلها إذ ذاك كاثوليكية خاضعة روحيا للبابوية، والبابوية لم تنس شبه الجزيرة الأيبيرية قط، وفى سعيها لتوسيع سلطانها وإجبار أوروبا المسيحية على الإحساس بها جعلت شبه الجزيرة والإسلام فيها لعبتها الكبرى، فزعمت أنها صاحبة شبه الجزيرة ومضت تحرض أوروبا على المسلمين، واتسع أمامها المجال فى ذلك بعد ضياع الخلافة الأموية الأندلسية وتفرق أمر الأندلس فى دويلات صغيرة، وأعانها القدر فتولى الإسلام أمور الدول الإسبانية المسيحية التى كانت صغيرة وضعيفة إلى ذلك الحين يتولاها عدد من الرؤساء الموهوبين الذين عرفوا كيف يستغلون ضعف المسلمين ليستغلبوا اراضيهم.

وطال حكم معظمهم فاستطاعوا أن يضعوا وينفذوا برامج واسعة على حساب المسلمين، وأظهر أمثلة أولئك الملوك الفونسو السادس، ملك ليون وقشتاله وفارسه، وعدوه فى نفس الوقت، السيد القمبيطور، وهذان الاثنان[٤] قاما بدور كبير جدا فى إضعاف شأن الأندلس والاستيلاء على أراضيه، وأعان أولئك الملوك على المسلمين أن هؤلاء الأخيرين بعد ضياع الخلافة الاموية فقدوا تاريخهم وتعاقبت عليهم الأحداث والهزائم، وفقدوا فى النهاية طريقهم جملة.

وإذا كانت مملكة غرناطة، وهى من أصغر الدول فى تاريخ الإسلام قد تمكنت من مغالبة دول إسبانيا النصرانية قرنين ونصف من الزمان، فكيف لم يستطع زعماء المسلمين فى نواح أخرى رسم سياسة إسلامية وتنفيذها ؟.

ويبدو أن أهل الأندلس أصيبوا برعب عندما ضاعت خلافتهم الأموية فلم يعرفوا ماذا يفعلون وهم فى مواجهة دول نصرانية كبرى مثل قشتالة وليون ثم نبرة وقطلونية وارغوث؟.

وقد بذل المغرب الإسلامى أقصى ما استطاع فى سبيل نصرة الأندلس، ولكن المرابطين والموحدين وبنى مرين لم يحصلوا على التأييد الكافى من أهل الأندلس الذين هاجر زعماؤهم من أهل العلم فيهم إلى المغرب والمشرق تاركين وراءهم صغار الناس والعامة ممن لا يستطيعون رسم سياسة أو إقامة دولة، وكان الأمر يحتاج إلى زعيم أندلسى كبير وموهوب يتصدى لإنقاذ ذلك البلد العظيم، ولكن ذلك الزعيم لم يظهر، وتوالت الخسائر وضاعت عواصم الأندلس واحدة بعد أخرى.

وفى تلك العصور لم تكن الشعوب تستطيع شيئا عظيما، وكان لا بد من الملوك والزعماء لقيادة الحوادث، ومن ثم فإننا لا ندهش إذا رأينا ملكا Fernando III el - Sants قليل الملكات مثل فرناندو الثالث المعروف بالقديس Fernando III el - Sants (١٢١٧ – ١٢٥٢)يستطيع دون جهد يذكر أن يستولى على اندوفر (١٢٢٥) وقرطبة (١٢٣٦) دون جهد كبير، ولكن قائد المسلمين فى أيامه محمد بن على بن هود لم يكن مؤيدا إلا من فئة قليلة من المسلمين لأن بقية زعماء المسلمين الأندلسيين كانوا أقل من أن يدركوا خطورة الظروف التى كانوا يجتازونها.

ولكن معاصره رامون بيرنجير الرابع ملك قطلونية ثم اراجون وكان رجلا موهوبا، استطاع أن يستولى على طرطوشة سنة ١١٤٨ ولارقة ١١٤٩ ثم دخل بلنسية، وهذه كلها كانت قواعد إسلامية كبرى، ولكن أحدا من زعماء المسلمين لم يتول الدفاع عنها مع سهولة هذا الدفاع فى ظروف ذلك العصر.

وسنرى عندما ندرس ذلك العصر بشيء من التفصيل أن الأندلس كان يمر إذ ذاك بفترة تدهور عام ترجع أساسا إلى عدم وجود زعماء قادرين على قيادة المسلمين ومواجهة الظروف الخطيرة التى كان الأندلس الاسلامى يجتازها، ونقول إن هذا الطراز من الزعماء كانوا غير قادرين على قيادة المسلمين، لأن المسلمين كانوا فى ذلك العصر وغيره من عصور تاريخ الأندلس أقوياء ومخلصين وغير قادرين على الصمود فى المعارك على خلاف ما يقال من أن أهل الأندلس استولى عليهم الترف ومالوا إلى الدعة والتخلف بعد ضياع الخلافة الأموية، ومن واجبنا اليوم الدفاع بمنطق الحقائق التاريخية عن الشعب الأندلسى الذى طالما ظلمه المؤرخون وأساءوا إليه، وأولهم هنا هو ابن خلدون الذى لم يجد فى بحثه الدائم عن الأسباب والأسس المنطقية ما يقوله فزعم أن شعب الأندلس استنام وسيطر عليه الترف وروح الاستسلام.

وهذا كله غير صحيح، لأن شعب الاندلس ظل قويا مناضلا وحريصا على المحافظة على أرضه حتى نهاية الصراع بين الإسلام والنصرانية على مصير شبه الجزيرة، ولكن الذى كان ينقص أهل الأندلس هى الزعامة السياسية والعسكرية القادرة على مواجهة الخطر.

فى تلك العصور كان كل شيء متوقفا على القيادة والزعامة، ومجد الأندلس كله قام بفضل زعيم سياسى وعسكرى موهوب دخل الأندلس فى الوقت المناسب وهو عبد الرحمن الداخل، وقد دخل الأندلس فى ظروف بالغة السوء عندما كانت الأحوال تتدهور بين يدى يوسف الفهرى والصميل بن حاتم، فاستطاع، اعتمادا على موالى بنى أميه بالأندلس، جمع الصفوف وإقامة الإمارة الأموية الأندلسية، فسار المسلمون فى الأندلس فى أعقابه واستطاعوا أن يحققوا نجاحات سياسية وحضارية عظيمة، ولولا هذا الرجل والأسرة التى أقامها والسياسة التى رسمها والمهارة التى إتصف بها لما تحقق للأندلس من ذلك النجاح شيء.

وأطرف ما فى تاريخ الأندلس هو أنه مر فى تاريخه بعصور يختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف، ولكنها كلها تترابط ليتكون منها بلد واحد له تاريخ متصل النجاح، ولكل عصر نظامه السياسى وحضارته من عصر الولاة التابعين من أسماء للخلافة فى دمشق إلى عصر الإمارة الأموية الأندلسية إلى عصر الخلافة، ثم عصر الطوائف، وعصور المرابطين والموحدين، ثم مملكة غرناطة.

وفى كل عصر من هذه نجد الزعماء والقادة وأعلام الحضارة وكلهم كانوا يشعرون شعورا قويا جدا بامتيازهم فى الأندلس على غيرهم من أمم الإسلام وحرصهم على تمييز أنفسهم على بقية المسلمين، كما نرى فى رسالة ابن حزم فى فضل الأندلس التى أوردها المقرى كاملة فى نفح الطيب، ثم نشرت منفصلة فى كتاب قائم بنفسه وترجمت إلى الإسبانية ولغات أوروبية أخرى. وهى فى الواقع عمل تاريخى وحضارى ممتع استطاع فيه ابن حزم أن يضع أيدينا على ما كان الأندلسيون يرونه من امتياز أنفسهم على غيرهم من المسلمين وغير المسلمين.

وقد واصل على بن سعيد كلام ابن حزم عن امتياز أهل الأندلس على غيرهم، ونشر له المقرى كلاما يفضل فيه الأندلسيين على المصريين، وقد قال ابن سعيد هذا الكلام فى مصر التى كان لاجئا إليها، ولكن أحدا لم يناقشه فيما قال.

ويبدو على الجملة أن الناس إما كانوا لا يعيرون أهمية لما يقول أو يسلمون به.

وعلى أى حال فإنه يبدو أن تشرد ابن سعيد وطوافه بين تونس ومصر والشام بعد أن خرج من وطنه الأندلس الذى استولى عليه النصارى، يبدو أن الناس كانوا يرون أنه كان يتعزى بذلك الكلام، وأن الناس كانوا يجاملونه فى الحزن على الأندلس بالسكوت على ما كان يقول.

على أى حال يبدو بوضوح أن كل ما بالأندلس طريف وممتع سواء أكان تاريخه السياسى أو الحضارى، وهذا هو الذى نريد أن نقوله فى هذا التمهيد، وقبل أن ندخل فى دراسة هذا التاريخ

الممتع حقا، ولعل أظهر نواحى إمتاعه هى نهايته التى تبدو وكأنها نهاية مأساة مسرحية، فإنه يصعب جدا أن نصدق أن بلـدا له التاريـخ السياسى والحضارى ما كان للأندلس يختفى من الواقع ولا يخلف وراءه إلا ذكريات.

ولكن الأندلس لم يختف من الواقع وما خلف وراءه أكثر بكثير من مجرد الذكريات، لأن تاريخه السياسى والحضارى كان غنيا ودسما وذكيا وحافلا بالوقائع التاريخية والحقائق الحضارية التى لا يمكن أن تموت، والذين يزورون شبه الجزيرة اليوم للسياحة والمتعة لا يقصدون الحاضر بقدر ما يقصدون الماضى الذى ما زال حيا وجميلا ومؤثرا فى النفس والواقع، وإذا نحن استثنينا كاتدرائية طليطلة التى تمثل عصـورا متواليـة من الفـن المسيحى النصـرانى، فإن تأثير الماضى الإسلامى جميل وهو ما يقصد الزائر رؤيته والاستمتاع به والإحساس بامتيازه وحيويته.

وهو من هذه الناحية لا يقل قوة وتأثيرا فيمن يشاهده عن حيوية الماضى الإغريقى فى اليونان وشرق أوروبا، وهذا هو الذى يجعل شبه الجزيرة الأيبيرية من أجمل المناطق السياحية فى الدنيا وأكثرها جاذبية وتأثيرا فيمن يراها.

ومن هنا فنحن عندما ندرس تاريخ الأندلس أو نكتبه فنحن ندرس ماضيا حيا ونكتب فيه، ومن هنا كذلك جاءت تلك المتعة التى يجدها من يدرس هذا التاريخ ويكتب فيه أو يقرأه.

وتكفى هذه السطور ـ فيما أحسب ـ للتمهيد لدراسة هذا التاريخ وحضارته.

***

جغرافية شبه الجزيرة الأيبيرية

وتاريخها

يقول ابن عذارى تحت عنوان : « ذكر صفة الأندلس وأوليتها » :

أما صفة الأندلس فإنها جزيرة مُرَكّنة ذات ثلاثة أركان قريبة من شكل المثلث، الركن الواحد منها عند صنم قادس، والركن الثانى فى بلاد جليقية، وهو مقابل جزيرة برطانية حيث الصنم المشبه بصنم قادس، والركن الثالث بناحية الشرق، بين مدينة اربونه ومدينة برذيل (بوردو) حيث هو قرب المحيط الغربى من البحر المتوسط الشامى، وكاد البحران هناك أن يجتمعا فى ذلك الموضع، فتصير فى الأندلس فى جزيرة لولا يسير ما بقى منها، وهو مسيرة يوم كامل، وفيه مدخل يقال له الأبواب، وفيه تتصل الأندلس بالأرض الكبيرة، فالأندلس كلها محدقة بالبحر « البحر المحيط الغربى، والبحر المتوسط القبلى، ويصعد منه قليل إلى ناحية الشرق، فحد الأندلس فى الشرق والغرب وبعض الجوف البحر المحيط، وحدها فى بعض القبلة والشرق البحر المتوسط، إلا أنه يتوسط الأرض كلها، وقيل : إنه فى آخر الأقاليم السبعة »[١].



(١) البيان المغرب، الطبقة الثانية بتحقيق ج. س. كولان ليفى بروفنسال. بيروت، بدون تاريخ.

وهذا التصور لشكل شبه الجزيرة واضح الخطأ، فإن هذا الجزء الهام من غرب أوروبا ليس مثلثا، ولكن هذا التصور موجود فى كل ما كتب العرب عن جغرافية الأندلس، وهو كثير جدا، حتى ياقوت، شيخ الجغرافيين المسلمين يقول : ووصفها بعض الأندلسيين بما هو أدق من ذلك وأحسن، وأنا أذكر كلامه على وجهه قال : « هى جزيرة ذات ثلاثة أركان مثل شكل المثلث قد أحاط بها البحران المحيط والمتوسط، وهو خليج خارج من البحر المحيط قرب سلا من بر البربر، فالركن الأول هو فى هذا الموضع الذى فيه صنم قادس وعنده مخرج البحر المتوسط الذى يمتد إلى الشام وهو فى قبلى الأندلس[1].

والركن الثانى شرقى الأندلس بين مدينة ارغونه ومدينة برذيل (بوردو) وهى اليوم بأرض الفرنجة بإزاء جزيرتى ميورقة ومنورقة المجاورة من البحرين المحيط والمتوسط، ومدينة ارغونه تقابل البحر المتوسط ومدينة برذيل تقابل البحر المحيط[2].

والركن الثالث هو ما بين الجنوب والغرب من حيز جليقية حيث الجبل الموفى على البحر وفيه الصنم العالى المشبه بصنم قادس وهو البلد الطالع على بريطانية[3]، والمراد رأس نهاية الأرض Fi-nistene ومن هناك إلى برديل أو بوردو يكون الضلع الثالث، وطول هذا المثلث من رأسه الضيق فى تصورهم إلى رأس كنيسة الغرب قرب طرف الغار ألف ومائة ميل، أما عرض ضلعه الأصغر، من رأس فينيسترى إلى بوردو فهو عندهم ستمائة ميل[4]. أما الضلع الثالث الذى يمتد من رأس كنيسة

(١) المراد بذلك رأس كنيسة الغراب Cabo San Vicente فى الجنوب الغربى من الأندلس.

(٢) المراد هنا الحد الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية الذى تمتد فيه جبال البرت الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا، ويحدد ياقوت طولها بيومين (ياقوت، طبعة أوروبا ج ١ ص ٣٧٨)

(٣) كذا أو الصحيح برطانية أى الجزر البريطانية، والرأس المشار إليه هنا هو المسمى بجبل نهاية الأرض Finisterre.

(٤) انظر كتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى، بتحقيق ليفى بروفنسال (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧م) ص ٧ .

الغراب إلى قادس، فهو أطول سواحل الأندلس، وعليه تقع معظم موانيه المشهورة من قادس إلى مالقة ثم المرية ثم مرسية ثم بلنسية ثم طرطوشة فقطلونية التى لم تخضع للمسلمين إلا فترات قصيرة، فلم تحدد المراجع العربية طوله.

وهذا تصور خاطئ جدا لهيئة شبه الجزيرة، اذ إنه من غير الصحيح أن يقال : إنها مثلثة الشكل ورأس هذا المثلث يمتد فى رأيهم بطول جبال البرت، وهى المعروفة بالبرانس، وبعضهم يجعل عرض هذا الرأس يوما، أى ما بين ٣٠ و٤٠ كيلو مترا، أو يومين، وهو ضعف هذه المسافة، وبعضهم يجعله خمسة أيام، أى نحو مائتى كيلو متر، أما قاعدة المثلث فهى الممتدة من رأس كنيسة الغراب (سان فيشنتى) إلى جليقية.

ولكن هذا الخطأ على أى حال خطأ فى تصور الشكل أو الهيئة وأثره التاريخى قليل، وأما الخطأ الخطير فعلا فكان فى تصوره داخل الجزيرة وسطحها، وهو الأهم والأبعد أثرا فى تاريخ الأندلس.

ذلك أن العرب بعد أن فتحوا الجزيرة جعلوا عاصمتهم فى إشبيلية ثم فى قرطبة، وإذا نحن نظرنا فى خريطة شبه الجزيرة تبينا أنه من المستحيل حكمها من قرطبة، لأن قرطبة تقع فى السهل الساحلى الجنوبى خارج الهضبة الكبرى التى تكون قلب شبه الجزيرة.

فإن شبه جزيرة أيبريا يتكون من هضبة عالية واسعة تحيط بها الجبال من كل ناحية، وهذه الهضبة العالية متوسط ارتفاعها ٢٠٠٠ متر وهى تحاط فى الشمال بالجبال اللنكبرية Nontes Cantabricos وإلى شمال هذه الجبال وحتى ساحل خليج بسكاية الذى يسمى بالإسبانية البحر الكنتابرى Nar Cantabrico تقع بلاد استورياس Astaurias التى ولدت فيها إسبانيا النصرانية بعد

= والترجمة الفرنسية التى قام بها ليفى بروفنسال وعلق عليها شروحا إضافية ونشرتها دار بريل فى هولندا سنة ١٩٣٨ ص ٤، ٥.

الفتح الإسلامى وقيام الدولة الإسلامية، ومملكة استورباس امتدت عربا فشملت بلاد جليقية Gali-cia التى تحدها من الجنوب الشرقى الكتلة الجبلية الجليقبة Naciza Gllega وتحد هده الهضبة مى الشمال الشرقى سلسلة الجبال الأيبيرية El Sistema Iberieo التى تسير محاذية لمجرى نهر الابرو وتفصل إقليم سرقسطة، وهو الثغر الأندلسى الأعلى، فتفصله عن أقاليم الشمال الشرقى من الهضبة وهى نواحى برغش وسوريا Saria ووادى المجاورة Guadalajara وغيرها من البلاد التى دخلت فيما بعد فى إسبانيا النصرانية وكوّنت معظم قشتاله القديمة Castilla Lavieja ويليها إلى الجنوب الشرقى بلاد قشتالة الجديدة Castilla La Nueva وقاعدتها طليطلة.

وهذه الهضبة تحدها من الجنوب سلسلة الجبال البيطيقية Sistema Betico التى يسميها العرب جبال المعدن، لأن فيها معادن للحديد، وقد وصف الإدريسى أحد المناجم هناك وطريقة استخراج المسلمين للحديد منه أحسن وصف وأجمله وأكثره تحديدا.

جنوبى جبال المعدن يجرى نهر الوادى الكبير أو الوادى فقط Guaduly vivir الذى تقع عليه إشبيلية وقرطبة وجيان وما إليها من البلاد التى كانت قلب الأندلس الإسلامى، وهى كما ترى على الخريطة خارج الهضبة الوسطى El Naciza Central وهو قلب إسبانيا النصرانية.

وقد حاول العرب سيادة شبه الجزيرة كله من قرطبة، وهو أمر عسير، لأن وسط شبه الجزيرة والمكان الذى يمكن أن تحكمها منه هو طليطلة على نهر تاجه، فإلى جنوبى طليطلة ببضعة كيلو مترات تجد الوسط المركزى لشبه الجزيرة بحيث انك اذا وضعت سن الفرجار او البرجل على هذه النقطة استطعت أن ترسم دائرة تمر بكل سواحل شبه الجزيرة.

وقرطبة تبعد عن طليطلة بنحو ٤٠٠ كيلو متر فى أرض كلها جبال خشنة وعسيرة، والمسافة من طليطلة إلى ساحل البحر فى الشمال حوالى ٤٠٠ كيلو متر، وبلاد النصارى كانت تقع على

الهضبة ولكى يصل إليها المسلمون كان عليهم أن يقطعوا نحو ٧٠٠ كيلو متر فى جبال عالية عسيرة خشنة، وسرعة الجيوش فى تلك العصور كانت لا تتعدى ٢٥ كيلو مترا فى اليوم.

ومعنى ذلك أن المسلمين إذا أرادوا الحرب مع ارجون - وقاعدتها بنبلونة - كان عليهم أن يقطعوا ٧٠٠ كيلو مترا لا يقطعونها فى أقل من ٢٥ يوما، فإذا خرجوا من قرطبة بالصائفة فى أوائل شهر مايو لم يصلوا إلى ما يريدون من أرض النصارى إلا فى أوائل يونيو لكى يحاربوهم، ثم إنهم كانوا لا يستطيعون المكث هناك إلا إلى ما بعد النصف الأول من شهر أغسطس لأنهم كان لا بد أن يحسبوا الوقت اللازم للانحدار من ارجون أو ليون والعودة إلى قرطبة إلا بعد ٢٥ يوما من السير، أى إنهم لن يصلوا إلى قرطبة إلا فى أوائل سبتمبر، وما كانوا ليستطيعوا التأخر أكثر من ذلك، لأن الثلوج تهبط على الجبال وتجعل السير عسيرا جدا.

ومعنى ذلك أن حكام المسلمين فى قرطبة كانوا لا يستطيعون الحرب مع ممالك النصارى أكثر من ستة أسابيع، وماذا يمكن أن يصنعوا فى تلك المدة القصيرة؟.

ثم إن ملوك النصارى عرفوا أن المسلمين لا يبقون فى أراضيهم أكثر من شهر ونصف، فكانوا من أوائل يوليو ينسحبون من بلادهم إلى الجبال ومعهم مواشيهم ومحاصيلهم، فيصل المسلمون فلا يجدون إلا القليل، ثم لا يلبث المسلمون أن ينحدروا عائدين إلى بلادهم، ويعود النصارى إلى بلادهم أيضا.

وعبد الرحمن الناصر، وكان أعظم من حكم شبه الجزيرة من المسلمين، ففى عمره كله يحارب النصارى ولكنه كان يحارب الأرض فى حقيقة الأمر.

وقد أسعدنا الحظ بالعثور على قطعة من تاريخ ابن حيان تغطى نصف حكم عبد الرحمن الناصر، وفى هذا النص العظيم نرى هذا الخليفة العظيم يقضى معظم أيام حياته متنقلا فى شبه

الجزيرة، فيقطع المسافة من بنبلونة إلى قرطبة فى ثلاثة أسابيع، ومع أنه انتصر على النصارى فى كل غزواته إلا أنه استهلك قوات المسلمين فى تلك الغزوات الكبرى لأن قرطبة لم تكن تصلح لأن تكون المركز السياسى لأى دولة تريد إخضاع شبه الجزيرة كله، وإذا كان العرب قد أرادوا سيادة شبه الجزيرة فكان لا بد أن تكون عاصمتهم فى إقليم طليطلة أى فى وسط شبه الجزيرة لكى يكونوا على بعد معقول من كل نواحيها.

ثم إن الهضبة الإسبانية ليست هضبة كاملة بل هضبة خضراء كثيرة الأمطار، ويكفى أن نعلم أن أغنى مناطق زراعة القمح فى شبه الجزيرة تقع فيما بين مجرى نهر تاجة فى وسط شبه الجزيرة، فهنا نجد ثانى مناطق القمح اتساعا فى أوروبا، ومع القمح كانت المراعى أى الألبان واللحم، أى إن بلاد النصارى كانت أغنى من بلاد المسلمين، فإن المناطق الغنية التى كانت فى أيدى المسلمين كلها مناطق ساحلية خارجة عن الهضبة، وهى تشمل منطقة نهر الوادى الكبير ومناطق مرسية وبلنسية حتى طرطوشة، فهنا كانت مناطق الأرز والبرتقال.

أما بلاد الجنوب، ونقصد بذلك ما يقع جنوبى الوادى الكبير فهى فى مجموعها فقيرة قليلة الإنتاج الزراعى، فيما عدا بعض الأقاليم الخصبة الجنوبية، مثل مالقه وغرناطة.

ولقد سيطر المسلمون فى أيام القوة على وسط شبه الجزيرة وكانت طليطلة داخلة فى سلطانهم، ولكن طليطلة وإقليمها كانت دائما مهددة من نصارى الشمال، وكان على قرطبة أن تحميها، وحتى قبل أيام عبد الرحمن الناصر نجد أن ملوك ليون يهاجمون بلاد المسلمين حتى لقد نهبوا بطليوس قبيل ولاية عبد الرحمن الناصر.

وسنرى تفاصيل ذلك كله فيما سنقص من تاريخ الدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة، ولكننا نريد أن ننص هنا على بضع حقائق لا يلتفت إليها معظم الناس، وكانت من عوامل ضعف الدولة

الإسلامية فى صراعها الدائم مع دول النصارى فى الشمال، لأن الناس يعتقدون أنه ما دام المسلمون أصحاب القوة فى قرطبة فإن ذلك يضمن لهم القوة الكبرى فى شبه الجزيرة، وهذا رأيناه فيما قلناه، والحقيقة أن الذين يتعجبون من ضياع الأندلس ومتحسرون عليه أولى بهم أن يتعجبوا من قدرة المسلمين على سيادة شبه الجزيرة، وقد ساد المسلمون شبه الجزيرة سيادة كاملة بلغت أربعة قرون خلال فترة واستمرار هذه السيادة على معظم شبه الجزيرة حتى نهاية القرن الهجرى الرابع، العاشر الميلادى، وأصحاب الفضل فى ذلك هم أمراء بنى أمية وخلفاؤهم، ولولاهم ولولا سياساتهم ورجالهم لاختفى الإسلام من شبه الجزيرة من زمن مبكر جدا.

والحقيقة أننا نحن العرب والمسلمين لا نعرف من حقائق تاريخ الدولة الإسلامية فى الأندلس إلا القليل. ونحن فى هذا التاريخ نريد أن نضع أيدينا على الحقائق لكى نعرف كيف ظل المسلمون يسودون شبه الجزيرة ذلك العصر الطويل كله، وكيف فقدوها بعد ذلك، والحادث الحاسم فى ضياع شبه الجزيرة كان سقوط طليطلة فى أيدى مملكة قشتالة وليون سنة ١٠٨٥ميلادية أيام الملك الفونسو السادس، فبعد ذلك انتقلت القوة فى شبة الجزيرة من أيدى المسلمين إلى أيدى النصارى، وبينما كان جهد المسلمين موجها قبل ذلك إلى سيادة شبه الجزيرة كله أصبح كل جهدهم الدفاع عن بلادهم فى الجنوب والغرب، وعلى الرغم من المعاونات التى قدمها المغرب لتأييد الإسلام الأندلسى، إلا أن النتيجة كانت واضحة، وهى أن المعركة بين الإسلام والنصرانية على سيادة شبة الجزيرة كان لا بد أن تنتهى بانتصار النصرانية، بل إننا هنا نعجب أشد الإعجاب بمملكة غرناطة التى استطاعت وحدها وبمعاونة قليلة من المرابطين والموحدين وبنى مرين أن تعيش قرنين ونصفا وتنشئ حضارة عظيمة فى بلادها المحدودة المساحة.

وهذه الملاحظات التى تبدو يسيرة - وما هى بيسيرة - أصل تكفى لكى تعطى القارئ العربى فكرة عن صعوبة مركز المسلمين فى شبة الجزيرة من أول الأمر، وتكفى أيضًا لكى يفهم القارئ

كيف أن مصير المعركة على سيادة شبة الجزيرة تحدد عندما استولى النصارى على طليطلة، فقد كان معنى ذلك أنهم أصبحوا سادة الهضبة كلها، ومعنى ذلك أيضًا أن المسلمين أصبحوا يسودون السهل الساحلى فحسب، وكان عليهم أن يحاربوا النصارى من نقطة الضعف، ويكفى أن نلاحظ أن المسلمين لم يستطيعوا استعادة طليطلة قط رغم ما بذلوا بعد ذلك من جهود.

بل إن القشتاليين والليوتيين والبنريين أخذوا ينحدرون إلى المناطق الساحلية، أى أراضى المسلمين، وهم أقوى من كل ناحية، ولهذا فقد كان مصير المعركة واضحا طوال بقاء المسلمين فى شبه الجزيرة بعد ذلك، وعلى خلاف ما يقال عندنا من أن المسلمين ضعفوا واستأمنوا فإنهم فى الحقيقة لم يضعفوا ولم يستأمنوا، وإنما ظلوا يقظين الوقت كله، ولكن سيطرتهم على السهل الساحلى فى الشرق والجنوب لم تدفعهم إلى إنشاء دولة إسلامية قوية واحدة تستطيع إيقاف التقدم النصرانى من الشمال، فكان المسلمون بعد خروج طليطلة من أيديهم فى حالة دفاع عن النفس بصورة مستمرة، حتى إنشائهم لدولة غرناطة فقد كان مظهرا من مظاهر ذلك الدفاع عن النفس، وقد طال هذا الدفاع، ولكن النتيجة كانت واضحة من أول الأمر خاصة وأن المسلمين لم يوفقوا بعد إلغائهم لدولة الخلافة فى قرطبة إلى إقامة دولة واحدة تستطيع مواجهة الضغط من الشمال، فظلت قواهم بعد زوال الخلافة مفرقة أو مبعثرة، وسنرى أن ذلك كان أكبر ما ساعد إسبانيا النصرانية على التغلب آخر الأمر.

وأظن أن هذا يكفى فى هذا التقديم الذى أردنا أن نعطى القارئ به نظرة عامة شاملة على تاريخ المسلمين فى شبه الجزيرة ومصيرهم المحزن فى النهاية.

والواقع أن جغرافية شبه الجزيرة لم يكن ليعين المسلمين على إقامة دولة واحدة بعد ضياع طليطلة، لأن ولاية طليطلة كانت تغطى ثلث مساحة إسبانيا الإسلامية أو الأندلس، فهم أولا لم

يقيموا دولة قوية تستطيع أن تقود قواهم فى الصراع مع الممالك والإمارة النصرانية، ثم إن جغرافية شبه الجزيرة معقدة تتوالى فيها سلاسل الجبال والهضاب من الشرق إلى الغرب، ونبدأ من الجنوب فنذكر جبال سيرا نيفادا وهى بالإسبانية Sistema Pinibetico التى تحتل معظم إقليم غرناطة.

وقد أفاد المسلمون من هذه الجبال فقد اعتمدوا عليها فى الدفاع عن أملاكهم فى غرناطة.

وإلى الشمال من مجرى الوادى الكبير - وتقع عليه إشبيلية وقرطبة وجيان - تجرى سلسلة جبال المعدن التى تسمى بالإسبانية Sistema Betico وإلى شمالها يجرى نهر الوادى آنة El Guadiana وإلى شمال نهر الوادى آنة تجرى سلسلة جبال طليطلة التى تسمى بالإسبانية Cordillera Oretana وتتكون من ثلاث سلاسل من الجبال يلى بعضها بعضا هى من الشرق إلى الغرب : جبال طليطلة Notes de Toldo ثم جبال وادى لب Gua de lupe ثم جبال سان بدرو Sa. San Padro وإلى شمال هذه الجبال يجرى نهر تاجه El tajo ، وإلى شمال التاجه، وبينه وبين نهر الدويرو تجرى سلسلة جبال وادى الرامة التى تسمى بالإسبانية Sistema Central (سلسلة الجبال الوسطى) وتتكون من سلاسل جبال كثيرة تبدأ عند الشرق بجبال وادى الرامة Sistema de Guadanena تليها جبال اغريطة Sistema de Gredos تليها سلسلة جبال غاضة Sistema de Gata وتنتهى عند ساحل المحيط الأطلسى بجبال تسمى Sierra de la Estrella، وإلى شمال نهر الدويرو تجرى سلاسل جبال شتى أهمها الجبال الكنتبرية Nontes Cantabricos، وهى ذات أثر بعيد فى الصراع بين المسلمين وممالك إسبانيا النصرانية الوليدة شمالها. ويليها إلى الشرق جبال ليون Montes de Leọn جنوبى نهر المنيو.

أما فى الشرق فلدينا سلسلة جبال ملتحمة تسير من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرق وتسمى الجبال الأيبيرية Sistema Iberico وهى تحمى وادى الأيرو وبلاد الثغر الأعلى الأندلس، وهناك جبال أخرى كثيرة.

وخلاصة هذا الكلام هى أن شبه الجزيرة عسير جدا من ناحية التضاريس، فلما فقد المسلمون إقليم طليطلة أصبح من العسير عليهم استعادة ما ضاع منهم فى الوسط والشمال، ثم إنهم عجزوا أساسا عن إنشاء دولة إسلامية قوية تحل محل الخلافة الأموية الأندلسية التى ضاعت.

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة شبه الجزيرة وجدناه حافلا بالأنهار والنهيرات مما يتصور الإنسان معه أنها فى غاية الغنى من ناحية المياه والرى، ولكن الحقيقة أن معظم ما نرى من مجارى الماء، باستثناء الوادى الكبير وشنيل والوادى آفة والدويرو والمنيو والابرو من وديان مائية صغيرة تجف فترات طويلة من السنة، والجزيرة فقيرة جدا من ناحية الماء وفيها مساحات شاسعة شبه صحراوية، وربما كان الجنوب والغرب أقل نواحي شبه الجزيرة خصبا.

ومن سوء الحظ أن العرب اتخذوا عاصمتهم فى الجنوب واتخذوا قرطبة قاعدة لدولتهم.

حقا إن قرطبة بلد جميل وموقعها على نهر الوادى الكبير ممتاز، ولكنك لا تستطيع أن تحكم شبه الجزيرة من قرطبة فإنها متطرفة جدا إلى الجنوب وشبه الجزيرة واسع وسلاسل الجبال تقسمها وتجعل الاتصال بين أجزائها عسيرا، وقد عانى المسلمون من ذلك كثيرا جدا، ولكن كان لا بد أن يخسروا المعركة فى النهاية، لأن الأعداء جعلوا قاعدتهم الكبرى فى طليطلة فى وسط شبه الجزيرة وفى قلب الأقاليم الخصبة ومناطق الأمطار.

وكان لا بد أن نقول ذلك حتى لا نلقى مسئولية فقدان المسلمين لشبه الجزيرة على المسلمين من شعب الأندلس، ونقول دائما، كما قال ابن خلدون : إن أهل الأندلس قد أضعفهم الترف فقصروا فى الدفاع عن بلادهم، وهذا غير صحيح، فسنرى أن أهل الأندلس ظلوا على أقدامهم يحاربون فى سبيل بلادهم حتى آخر المعارك فى سبيل غرناطة، وسنرى تفاصيل ذلك فى التاريخ الذى سنحكيه فى هذا الكتاب.

وجدير بالذكر أن الأخطاء التى أحاط الناس بها تاريخ الأندلس كثيرة جدا، وسنحرص فى هذا التاريخ على أن نتعرض لهذه الأخطاء ونصححها، ومن هذه الأخطاء ما يكرره مؤرخونا وكتابنا من أن شبه الجزيرة من أغنى بلاد الدنيا، فهذه مبالغة حرص على نشرها رجال مثل المقرى وابن سعيد ليزيدوا حزن الناس على الأندلس.

ثم إن هؤلاء المؤرخين والكتاب كانوا لا يعلمون عن الجغرافية الاقتصادية لشبه الجزيرة إلا القليل، ولهذا فإن أحكامهم فى الغالب خاطئة، أما نحن فنعرف شبه الجزيرة معرفة تامة، ونعرف أن البلاد التى سادها العرب لم يكن فيها إلا إقليمان غنيان حقا: بلنسية فى الشرق، وإشبيلية فى الغرب، ومع ذلك فإن ثروة هاتين الكورتين لا تقاس مثلا بإقليم قشتالة الجريزة وفيها طليطلة ومجريط وقشتالة القديمة وفيها برغش وابله وشقوبية وسورية وسنتاندير، وفى هذين الإقليمين أغنى مناطق أوروبا بالقمح بعد الاوكرايينى.

ولهذا فإننا لا ينبغى أن ندهش من أن قوة إسبانيا النصرانية فى أستورباس مكنتهم من أن يتوسعوا دون صعوبة فيستولوا على ليون وغاليشية ثم قشتاله القديمة Castilla la vieja وقاعدتها برغش Burgos ومن مدنها سوريا وشقوبية وأبله Avila وسانتا ندير ولوجرونيو Lugrono وبذلك أصبحت تملك ربع شبه الجزيرة جغرافيا وأكثر من ثلثها أقتصاديا، فإذا أضفنا إلى ذلك بلاد اليشكوتس Vas ongados وهى تضم ثلاث محافظات ثم نبرة ثم أرغون ثم قطلونية Cataluna وقاعدتها برسكونه وفيها طركونه Tarragona وجدنا أن إسبانيا النصرانيـ تملك الثلث جغرافيا والنصف اقتصاديا.

أما عندما استولت قشتالة الجديدة Castilla la Nueva وقاعدتها طليطلة وفيها وادى الحجارة Guadalajara ومجريط وكونكة Cuenca وثيوداد ريال (المدينة الملكية Ciudad Real فقد أصبحت إسبانيا النصرانية تملك ثلثى شبه الجزيرة.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يعرف اليوم بالبرتغال فقد أصبحت إسبانيا النصرانية ثلاثة أخماس شبه الجزيرة وتحدد مصيرها كما سنرى.

ولم يكن تفوق إسبانيا النصرانية هذا على إسبانيا الإسلامية انتصار رجال على رجال، فإن رجال الأندلس الإسلامية ظلوا رجالا أهل بسالة وشهامة إلى النهاية، وإنما النصر كان اقتصاديا، ولم يعد في أيدى المسلمين إلا سرقسطة وبلنسية ومرسية والأندلس.

وفى القرن الثالث عشر لم يبق بيد المسلمين إلا الأندلس، ثم بلاد الأندلس وهو مملكة غرناطة، وهى لا تصل إلى ثُمن شبه الجزيرة، ثم انتهت قصة الأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر بسقوط غرناطة فى يد النصارى سنة ١٤٩٣.

وسنرى تفصيل هذا كله فى الفصول التالية.

* * *

الفصل الأول

شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامى

إن تاريخ أى بلد ليس ماضيه، بل هو جزء حى من حياته، فشبه جزيرة أيبريا الذى ندرس الآن فترة من تاريخه يتكلم اليوم اللغة الإسبانية وأصلها لاتينى أو رومانى، والرومان غزوا إسبانيا على يد يوليوس قيصر فى القرن المسيحى الأول والعرب وفتحوها فى القرن العاشر الميلادى، وكان عليهم أن يواجهوا الحضارة التى قامت على اللاتينية، وأهم مظاهرها المسيحية الكاثوليكية التى دخلت إسبانيا ربما قبيل الرومان بقليل، فكيف يقال : إن التاريخ هو الماضى وهو لباب الحاضر؟.

ولكى نتعرف على إسبانيا التى فتحها العرب فى القرن العاشر، ولكى نقدر أهمية هذا الفتح وحجم العمل الذى قام به المسلمون لكى يسيطروا عليه لا بد إذن أن نبدأ هذا التعرف منذ القرن المسيحى الأول.

ولا بد أن يكون هذا التصرف سريعا بطبيعة الحال، فنحن سنتتبع قمم الجبال دون أن يضيع الوقت فى مدراسة الجبال نفسها وما بينها من وديان فنقول:

جاء بعد الحروب التى تلت مقتل يوليوس قيصر الإمبراطور أغسطس، وكان الحكم الرومانى قد استقر فى شبه الجزيرة واتخذ طليطلة Toledo قاعدة له، وفى أعقاب الرومان دخل رجال الكنيسة الكاثوليكية وجعلوا طليطلة قاعدة لكاتدرائية إسبانيا، ومضت المسيحية تنتشر فى البلاد متخذة اللاتينية لغة لها.

ولكن بلاد شبه الجزيرة وبقية بلاد الدولة الرومانية كانت فى القرن المسيحى الثانى تعانى الفقر، والعملة الذهبية التى كانت وسيلة التعامل الاقتصادى وأساس الاقتصاد أخذت تفقد ما فيها من الذهب حتى أصبحت فى أواخر القرن الثانى ريفا كاملا، ومثل ذلك حدث للفضة.

والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن الإمبراطورية كانت تعتمد على جيش ضخم، وإيرادات الدولة

لم تكن تكفي نفقات هذا الجيش من جنود وعتاد، والفكر الروماني كان شديد العرج من الناحية الاقتصادية، فقد ظن الرومان أن القوة تحل كل المشاكل، وإلى جانب وزن الجيوش الثقيل كان هناك حمل البيروقراطية، أي تكاليف آلاف الموظفين الإداريين والحسابيين الذين كانوا يتلقون ايرادات الدولة ويعطون الجنود رواتبهم ويرسلون إلى قاعدة الدولة ما تبقى وهو قليل، وعندما جاء الإمبراطور ماركوس أوريليوس ١٦٠م- ١٨٠م عرض ذخائر الدولة للبيع، وباع كذلك كئوس الدولة من الذهب المحلي بالجواهر لكي يستطيع تغطية نفقات الجيوش، ولا ننسى هنا أن السرقة كانت أساسا من أسس التركيبة الاقتصادية الرومانية، فإن كل موظف في السلم الإداري كان يقتطع لنفسه جزء من المال قبل أن يحيله إلى من يليه، حتى قال المؤرخون إن الدولة لم تكن تحصل على أكثر من سُدس الإيراد، وأن الرعية لم تكن تقدر إلا بسُدُس المصروفات، وهنا نجد أن كل كبار الإماريين الرومان يلجأون إلى التزييف.

ولكن أيبريا منطقة غنية زراعيا، فقد كانت أوفر غلة في الحبوب من إيطاليا، ثم إن النبيذ الإسباني غطى على نبيذ روما، هذا إلى جانب الزيتون الذي كان أكبر مصدر للزيت في الإمبراطورية، وشيئا فشيئا خربت إيطاليا وازدادت أيبريا ازدهارا رغم أن أسعار القمح والزيت والنبيذ ارتفعت ارتفاعا شديدا.

وثروة إسبانيا كان يصنعها الفلاحون الصغار وكانوا يبيعون إنتاجهم للملاك الكبار بأسعار متواضعة، وهؤلاء كانوا يرفعون الأسعار باستمرارحتى أصبح الفلاح الحر عبدا ذليلا للأرض والمالك الكبير.

وكانت التجارة زاهرة، ولكنها كانت بأيدي التجار، وهي طبقة قائمة بنفسها، طبقة تأخذ دائما أضعاف ما تعطي، وكانت روما هي العاصمة الاقتصادية للدولة، ولكن تجار الولايات وجدوا أن

الأفضل لهم أن يبيعوا بضائعهم لحسابهم الخاص، وتدهور مركز روما، وحاولت الدولة تلافى الأمر والإتيان بالبضائع إلى روما ولكن نفقات نقل البضائع بالبحر أو ما كان يسمى باسم Navicularii رفعت أسعار البضائع إلى درجة مستحيلة، وكان لا بد للدولة من التوقف، وظلت أسعار البضائع فى الارتفاع حتى جاء الإمبراطور دقلديانوس Diaclaidianus وثبتت الأسعار، ولكن ذلك أمكن تطبيقه على روما وإيطاليا فحسب، أما بقية الولايات فسارت فى طريقها غير عابئة بما قدره الإمبراطور، ولجأ المسئولون عن الاقتصاد فى روما وهم المسمون باسم Collogiatii إلى إهمال وظائفهم والعمل فى حرف يدوية ليحصلوا على نفقات بيوتهم.

وكانت الحكومة البلدية تسمى municipius وكانت لكل بلدية مدينتها الكبرى تليها مدن أصغر Urbi ، وكل مدينة تتبعها أرض territorium يعيش فيه السكان مزارعين وغير مزارعين، وهذه البلديات وما يتبعها من الأراضى سارت فى طريق الاضمحلال من القرن الرابع، وخلال هذه المدة ارتد الناس إلى التعامل على أساس المقايضة، أى استبدال ما ينتجونه بما يحتاجون إليه.

وهنا لم يعد للدولة عليهم سلطان فعلى، والدولة الرومانية أصبحت شبحا، لأن الناس أدركوا أن الزراعة وحدها هى التى يمكن العيش عن طريقها، لأنها تحصل على ما تحتاج إليه عن طريق محاصيل الأرض، وهنا يقول المؤرخون إن سكان أراضى الدولة ارتدوا إلى الفلاحة La Ruraliza-cion وهذا التحول الشامل تم فى القرن السادس المسيحى.

حتى الأغنياء وكبار الملاك ارتدوا إلى العيش على الزراعة حتى يخلصوا مما كان الإمبراطور فسبازيان (٦٩- ٧٩م) من أنهم مسئولون عن إيرادات نواحيهم وتسليمها للدولة.

وخلال القرن السادس المسيحى نشطت التجارة بسبب المقابضات بالذات لأن إقليم إشبيلية مثلا كان ينتج فضة كثيرة، فكان المنتجون يبيعونها للتجار، وهؤلاء يبيعونها ويمضون إلى قرطبة التى

اشتهرت منطقتها بالنحاس والصوف والقصدير وعسل النحل، ويمضى التجار إلى ما عرف فيما بعد بتدمير أمر مرسية حيث اشتهر الإقليم بالحديد والنبيذ ويسير طريق التجارة بعد ذلك إلى مرسية وبلنسية ويتحمل بالأرز والنبيذ ويسير إلى سرقسطة حيث تتجمع طرق تجارية كثيرة وبضائع متنوعة فيها بعض المصنوعات كالحبال والمنسوجات وعسل النحل ويعنى مصنوعات الحديد والنحاس، وهذا هو الطريق التجارى الإمبراطورى الكبير الذى يصل إلى روما، وقد عرفه العرب واستعملوه وسموه بالبلاط، والبلاط لفظ لاتينى الأصل Pilatus ومعناه الثغر أو الحصن.

وهذا واحد فحسب من طرق التجارة التى عمت شبه الجزيرة وملأتها حيوية، وبعثت الناس على استخراج ما لديهم من محاصيل زراعية ومعدنية وبيعها ليحصلوا على ما يحتاجون إليه.

ولا بد من الإشارة إلى هذه الحقيقة التى ظلت قائمة إلى أيام العرب، والذى أدخله العرب هو أنهم ألغوا الضرائب الفادحة التى كان الناس يدفعونها إلى كبار الملوك، وإن كان المهاجرون والنزلاء المسلمين تمسكوا بأن يأخذوا من الناس ثلث المحصول.

وهكذا نرى أن الإمبراطورية فشلت تجاريا وصناعيا كما سقط نظام البلديات الذى أرادت الاعتماد عليه، وظهر ذلك فى كل مراتب وظائف الدولة، فتصور الحكام أن كل وظائف الدولة الفاخرة تحولت إلى بيوت ريفية أو ما يسمه باسم الڤيلات، وفى هذه الڤيلات Villae تجمعت المصنوعات وذخائر الغنى رغم فقرها لأن أصحابها كان لا بد أن يشتروا ما يعرض عليهم بأسعار متواضعة جدا.

وكان جيش الدولة أول الأمر مكونا من مواطنين من الرومان واللاتين، ولكن الفقر وقلة الإيرادات حملت الدولة على تجنيد الزراع وأهل الريف الذين لجأوا إلى الدخول فى الجيش مرتزقين ليرفعوا مستواهم الاجتماعى والمالى، ولكن انتصار القرية على المدينة وهبوط المدن إلى مستوى القرى الكبيرة كان لا بد أن يؤثر فيهم، ومستوى الدولة هبط بهبوط مستوى جندها.

ولا بد أن نعرف ذلك لكيلا يقال : إن المسلمين عندما دخلوا الأندلس انحط الاقتصاد، لأن الحقيقة أنه كان منحطا عند دخولهم، ولكن قلة نفقاتهم هبطت بالضرائب ورفعت قيمة الدولة الإسلامية، وسنرى أن هذه الدولة الإسلامية كانت فى أيام الإمارة والخلافة أفضل بكثير من الدولة الرومانية، حتى بعد اختفاء الدولة وشيوع نظام الطوائف كان الناس أسعد وأحسن حالا لأن الإسلام، وهو القانون الأعلى فى عالم الإسلام، لم يعرف الاستغلال ولا هو أباحه.

تحول الحكومة الإمبراطورية إلى حكومة إقليمية

La Proincialización :

أما الأباطرة فقد تدهور مستواهم لأنهم أصبحوا معتمدين على الجنود، والجندى هو الذى كان يصنع الإمبراطور، ففى أوائل سنوات الإمبراطورية وبعد أيام قيصر ونتيجة لكثرة الجند الأيبيرى نجد أنفسنا أمام عدد من الأباطرة الإسبان من أمثال تراجانوس (٩٨– ١١٧م) وهادريان Adrianus (١١٧– ١٣٨م) وماركوس أوربليوس (١٦١– ١٨٠م) وكومودوس Comodus (١٨٠– ١٩٢م) ثم تغير نوع الأباطرة فأصبحوا من أصول شامية إفريقية من أمثال سيتميوس سيفيروس (١٩٣– ٢١١م) حتى أيام الإمبراطور إسكندر سيفيروس Alexandrns Severas وتسمى الفترة بينهما بعصر السيفيريين.

ثم تغيرت أصول الأباطرة بحسب نوعية غالبية الجنود فى أيامهم، وهنا يقول المؤرخون : إن الإمبراطورية فى روما غلب عليها طابع الولايات Provincias de los Emperadores، وهذا هو عصر الأباطرة سينيكا (من أصل أيبيرى) ولوكانوس، وهؤلاء كانوا من أصول عسكرية وتميز منهم بالبلاغة الإمبراطور كوينتليان Quintilianus.

بل إن اللغة اللاتينية انحطت وغلب عليها الطابع الإقليمى، وهذه هى اللاتينية المتأخرة، فى

حين أن لغة الدولة الرسمية بعد انقسام الدولة إلى شرقية وغربية أصبحت اليونانية، وبهذه اللغة كتب الطبيب الرومانى جالينوس (توفى حوالى ٢١٠م) والجغرافى المصرى بطلميوس (عاش فى القرن المسيحى الثانى) والمؤرخ ماركوس ابيانوس (عاش فى القرن الثالث المسيحى) وبلوتاركوس صاحب التراجم المشهور (توفى حوالى ١٢٥م) والمؤرخ تروجوس يومبيانوس Trogus Pompeyanus (عاش فى القرن المسيحى الأول) كان غاليا، أى فرنسيا، وترتليان صاحب التراجم (توفى حوالى ٢٤٠ ميلادية) وكان قرطاجنيا، أما المؤرخ ابوليوس Apuleyus فكان من نوميديا.

واستمر اضمحلال الدولة، وحاول بعض الأباطرة الإصلاح مثل دقلديانوس الذى زاد من عدد الموظفين الإداريين إلى درجة أرهقت الدولة وأهلها، وبينما حاول أن يعطى قيمة للإقطاعات الأرضية المختلفة المساحة أو ما يسمى يوجا iuga نجد أنه لم يحسب حساب السكان الذين يقيمون فى كل يوجا، ولم ير الظلم الذى وقع عليهم من وراء مساواة إيراد اليوجات.

أما المالية فإن دقلديانوس جعل المال الذى تدفعه كل ولاية ثابتاً لا يتغير مهما اختلفت الظروف المناخية، فأصبحت تلك الضريبة السنوية المناخية تسمى annona.

وفى سنة ٣٩٥م انقسمت الدولة دولتين : شرقية وعاصمتها القسطنطينية أو بيزنطية، وغربية وعاصمتها روما، وما كان ذلك فى أيام دقلديانوس، وجاء بعده أركاديوس إمبراطورا للغرب، وهوتوريوس إمبراطورا للشرق، وكانت النتيجة ضعف الإمبراطورية الغربية، وتشجيعا للبرابرة على غزوها.

وفى سنة ٤٠٦م وقع أول اقتحام للمتبربرين لنهر الراين على أيدى السويف والوندال.

ولكن الشيء الذى يهمنا هنا هو أن الكنيسة الكاثوليكية من روما زحفت على الدولة وأقامت مطارنة على كل ولاية، وهؤلاء المطارنة اجتهدوا فى نشر المسيحية حتى شملت معظم بلاد غرب

أوروبا، وأيبيريا التى لم تأخذ من الرومان إلا لغتهم وتقسيمهم الإدارى أصبحت ولاية كاثوليكية يسيطر على كل نواحيها الأساقفة والقسس، وفى حين كان الأباطرة ورجال الدولة يضعفون كان الكرادلة والأساقفة والقسس يقوون خاصة وأن الناس ظنوا أن الدين يعوض عليهم خسائر السياسة ومظالمها.

وتلك هى الحقيقة التى سيواجهها العرب ولن يمسوها، لأن الإسلام لا يأذن فى المساس بشئون الدين، ويقصر سلطة المسلم على إيصال الدين للناس وتعريفهم به، أما دخولهم فى الإسلام فكان أمرا من أمور الله، هو الذى يهدى الإنسان فيفتح قلبه للإسلام.

فى حين أن رجال الكنيسة حسبوا أن مهمتهم تنصير الناس بالقوة، وهذا هو الذى يعطينا الفرق بين الدينين.

وسنرى أن المسلمين سيفتحون الأندلس ويظل فيها المسيحيون أحرارا، فى حين أن النصارى عندما كانوا يستولون على ناحية من أرض المسلمين كانوا يصرون على تنصير أهلها أو طردهم منها أو قتلهم.

والدولة فى الإسلام تسير فى ظل الدين، فى حين أن الدولة كانت تسير المسيحية، وعندما زالت الدولة زعمت الكنيسة أنها صاحبة الأرض.

المتــبربــرون:

هذه تسمية خاطئة جرت بها أقلام المؤرخين من رجال الدين المسيحيين للدلالة على الشعوب الأسيوية الأصل التى استقرت فى شمال أوروبا ووسطها إلى مجرى نهر الطونة، وهو إذ ذاك الحد الشمالى للإمبراطورية الرومانية، ثم عبروا ذلك النهر ودخلوا أراضى الدولة واستقروا فى نواحيها من سنة ٤٠٩ و ٤١١ ميلادية.

والمراد بلفظ Barberians وبالإسبانية los Barbaros يراد بهـا أولئك الذين لا يتكلمـون اللاتينية، ولكن هذه الشعوب كانت بعيدة عما يفهم من لفظ متبربر، أى غير متحضر أو بدائى، لأن بعض هذه الشعوب كانت مسيحية، بل كان لها رأى فى هذا الدين، فكان القوط الشرقيون آريوسين، أى لا يؤمنون بما تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية، ثم إنهم لم يكونوا أقل تحضراً من الشعوب التى كانت تسكن أراضى الدولة وتسمى نفسها الرومانية.

وأقرب إلى الصحة التاريخية أن يقال : إن هذه الشعوب كانت مهاجرة، فالمتبربرون هم المهاجرون، بل إن أسماء بعضهم كانت لاتينية مثل قولنا : القوط الشرقيون أو الاستروجوت، وبالإسبانية los ostrogotos والقوط الغربيون، ومعنى الاسم القوط الطوال، لأنهم كانوا طوال القامة.

الونـــــدال :

وكان أول من عبر حدود الدولة واستقروا فيها الوندال the vandalo وبالإسبانية las vanda-los وكانوا كثيرى التنقل، فقد استقروا أول الأمر فى غالة وهى فرنسا ثم انحدروا فى البلاد إلى الجنوب ووصلوا طولوشة جنوبى غربى فرنسا، وفى سنة ٤٠٩ ودخلوا شبه جزيرة أيبريا عند ما يسمى اليوم بنيرة Navarra وساروا فى اتجاه جنوبى غربى وعبروا نهر دويره ثم انحدروا إلى الجنوب واستقروا فى جنوب شبه الجزيرة وأعطوه اسمهم، فأصبح هذا الجزء من شبه الجزيزة يسمى ببلاد الوندلوس الذى جعله العرب الأندلس، وأصبح هذا هو اسم شبه الجزيرة فى لغتهم.

ولم يستقر الوندال فى جنوب شبه الجزيرة بل عبروا شبه الجزيرة ودخلوا المغرب عند طنجة ثم ساروا شرقًا فاقتحموا حدود إفريقية وكانت رومانية واستقروا هناك حتى جاء القوط الشرقيون وقضوا عليهم، ولكنهم خلفوا آثاراً عظيمة فى كل ما مروا به من البلاد، وارتبط اسمهم بالتخريب.

وفى نفس الوقت من سنة ٤١١ ميلادية دخل شبه الجزيرة السويف وكانوا أقل عدداً من الوندال، فاتجهوا إلى الغرب واستقروا فيما يعرف بجليقية والبرتغال، وكان فى صحبتهم الآلان los Alanos ولكنهم اتجهوا إلى وسط شبه الجزيرة واختلطوا بالسكان واختفوا.

القوط الغربيون:

وأما أقوى أولئك المهاجرين وأكثرهم عدداً فكانوا القوط الغربيين، وهم أبناء عمومة القوط الشرقيين، وقد استقروا أولاً فى جنوب غرب غالة أو فرنسا وكان يعرف ببلاد بروفنة Proveneia، ومن هناك دخلوا شبه الجزيرة واحتلوا برشلونة، ثم اتجهوا إلى طليطلة واحتلوها وولاية أيبيريا الاسبانية أصبحت بلاد القوط الغربيين وكانوا مسيحيين على المذهب الاريوسى فخاصمتهم الكنيسة وأوقعت بينهم وبين السكان.

وفى الوقت الذى وقعت فيه روما فى يد القوط الغربيين وأصبح تيودوريك الكبير ملكاً على شمال إيطاليا ساد القوط الشرقيون شبه الجزيرة وتحول ملكهم كلودافيوس إلى الكاثوليكية، وتصادق القوط الغربيون مع الكنيسة والسكان وبدأوا فى تاريخ شبه الجزيرة عصراً جديداً، فقد أنشأوا فى شبه الجزيرة دولة تعارض الحكم الرومانى وأصبحوا يرون أنفسهم أصحاب شبه الجزيرة واتخذوا القانون الرومانى وكانت عاصمتهم طليطلة.

وكان دخول القوط الغربيين فى الكاثوليكية وتركهم الاريوسية حادثاً فاصلا فى تاريخ شبه الجزيرة، فقد ظهر منهم المؤرخ ايزيدور الإشيلى صاحب كتاب الأصول اللغوية Etim ologios وهو من أعاظم الكتب فى التاريخ الثقافى لشبه الجزيرة، وظهر منهم قساوسة كبار منهم القديس الفونسو San Ildefonso ويوليانوس الطليطلى Julian de Toledo.

وبفضل هؤلاء ساد شبه الجزيرة فى القرن السابع المذهب المسيحى الأسبانى el rito his-panico وبدأ فعلاً عصر ثقافى جديد فى تاريخ إسبانيا وارتبط بالقوط الغربيين، وظهر أساقفة قوطيون إسبان من أمثال القديس يوحنا دى بانيوس San Juan de Binos وسان فروكتووسد دى فتليوس San Fructuoso de Montelius وغيرهما.

وأنشأ الملوك مجمع طليطلة الكاثوليكى الذى أصبح من ذلك الحين أقوى هيئة ثقافية دينية إسبانية وأصبح ممثلاً للمذهب الكاثوليكى فى شبه الجزيرة قبل الفتح العربى بقليل.

لـذريـق = رودريجـو Rodrigo :

لم يكن استقرار القوط الغربيين فى إسبانيا بداية خير، فقد اعتبروا أنفسهم أرفع من أهل البلاد الأصليين الذين كانوا يسمون بالأميبيريين الرومان Los Ibero-ramanos وأبعدوهم عن السلطان واختاروا ملكاً قوطيّاً لإسبانيا قاعدته طليطلة، وقيام الملكية القوطية كان بداية للتنافس الدموى على العرش، وكما كان الملوك يقولون بمؤامرات معقدة كانوا يقتلون أو يبعدون عن العرش بسهولة محيرة، وبعد كل ملك تقوم حرب أهلية.

وتدخلت عناصر خارجية فى شئون الملكية، فالروم أو البيزنطيون أيدوا الملك أتانا جيلدو Atana gildo الذى حكم من سنة ٥٥١ إلى سنة ٥٦٧م، وأعانه على أجيلا Agila الذى سبقه واحتل عرش طليطلة من ٥٤٩ إلى ٥٥٤، وفى ظل اتانا جيلو احتلوا كل شواطئ أيبريا على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى أو بحر الظلمات، من الليفانتى el Levante أى المشرق وإلى الغرب el Algarbe، ولم يستطع القوط التخلص من الروم إلا بعد ستين سنة، وتولى الملك سوينتيلا Suintila ٦٢١ – ٦٣١ مستقلاً عن الروم.

ولكن هؤلاء عادوا فتدخلوا فى شئون شبه الجزيرة فى أيام الملك ليوفيجيلدو Leovigildo ٥٧٣ - ٥٨٦ وابنه هيرمينجلدو Hermenegildo، وتدخل الغاليون وهم من الكلت فى شئون إسبانيا من الشمال وتمكنوا من احتلال سرقسطة (= معسكر قيصر Costro de Agosto) وبالإسبانية Zargoza.

ومرة أخرى تدخل الغاليون وأيدوا الملك بولس Pablus بالإسبانية Pablo ضد منافسه وامبا Wamba ٦٧٢ - ٦٨٠.

ولا بد أن نلاحظ أنه عندما دخل القوط الغربيون أيبريا بدأ شبه الجزيرة يأخذ صورة بلد واحد شيئًا فشيئًا، وعندما نصل إلى وامبا نجد أن ذلك قد أصبح حقيقة، والملك القوطى فى طليطلة كان يحكم بلدًا واحدًا يضم ولايتين كبيرتين من الولايات التى حكمها يوليوس قيصر فى شبه الجزيرة وهى إسبانيا الشرقية المسماة إسبانيا الطركونية Tarraconenais وإسبانيا الجنوبية التى تسمى البيطية Betíca والعرب يسمونها بيض.

أما القسم الغربى وهى لوزيتانيا Lusitania ويسميها العرب لجدانية فقد سارت فى طريقها وأصبحت البرتغال.

وطليطلة تمتاز بميزات كبرى، فهى فى وسط شبه الجزيرة والمسافة بينها وبين كل طرف متقاربة بين ٤٥٠ و ٥٠٠ كيلومتر، وهى تقع على صخرة عند منحنى من منحنيات نهر تاجة فلا يسهل الاستيلاء عليها .

وكان القوط قد أصبحوا إسبانًا، وقد حارب القوط كثيرًا حتى تستقل إسبانيا بشخصيتها، وحاربوا تيودوريك ملك القوط الشرقيين، واستطاع أحد قواد القوط الغربيين بمساعدة جستنيان إمبراطور بيزنطة أن يصل إلى العرش ويقوى نفسه.

وعندما تولى ريكاريدو سنة ٥٨٧ وأقر مجمع طليطلة الثانى ذلك سنة ٥٨٩ اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته وترك الآرية فتركها كل القوط.

وبذلك توحدت إسبانيا دينيا وأصبحت كاثوليكية، بل أصبحت إسبانيا معقلا من معاقل الكاثوليكية، واعتبر القوط اللغة اللاتينية ـ وهى لغة الكنيسة الكاثوليكية - اللغة الرسمية لإسبانيا، وازدادت أهمية أسقفية طليطلة ومجمعها الدينى الذى كان ينعقد كل عام فى بلد من بلاد إسبانيا، واختلط الشعب القوطى بالشعب الأيبيرى الرومانى .

ومن ذلك الحين اشتهر بعض ملوك القوط واعتبروا من بناة اسبانيا مثل شيشبرت Sisiberto ٦١٢ - ٦٢١ الذى ألغى التفرقة بين أفراد الشعب وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه بين القانون الرومانى الذى كان قد سنه الملك الأريك الثانى، والقانون القوطى الذى كان قد وضعه يوريك Eurico وهو الرئيس القوطى الذى غزا اسبانيا واحتلها بقومه.

وامبا الذى نتحدث عنه ربما كان أكبر ملوك القوط ٦٧٢ - ٦٨٠ فقد كان ملكًا عظيم الهمة أن يقرر سلطانه على كل إسبانيا ويضم لها ما بقى للقوط شمالى جبال البرت Porte أى الباب أو الأبواب وقضى على ثورة خطيرة قام بها زعيم قوطى غربى هو هندريك أمير نيمة Nimes فى فرنسا، وقضى على ثورة دبرها باولوس أمير سيستمائية للانفصال عن إسبانيا وحكم البلاد حكمًا رشيدًا حازمًا فأحبه الناس.

وقد كثر أعداء وامبا ودبروا له المؤامرات، ومنها مؤامرة سقوه فيها دواء مخدرًا فغاب عن الوجود وكادوا يدفنونه، فلما عاد إلى رشده زهد فى الملك وترك العرش.

وعندما تولى العرش غيطشة Witiza فى نوفمبر ٧٠٠م كانت الأمور قد اضطربت بسبب كثـرة المؤامـرات واجتهـد هـو فى إقـرار الأمـور وعفا عمن كان ابوه اخيكا (بالإسبانية Ebica)

أو اباركا، وعندما كبرت سنه عجز عن مقاومة أعدائه الكثيرين واستطاعت زوجته أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبي وقله (اخيلا Achila) وأقامه حاكماً على ولايتي النربونية والطركونية تحت وصاية أخيه رخشندش Rajachindo ويبدو كذلك أنه قسا على اليهود الذين كانوا لا يكفون عن التآمر على العرش وطردهم من طليطلة فاتجهوا إلى المغرب.

ومات غيطشة ميتة طبيعية سنة ٧٠٨ م أو أوائل ٧٠٩ ووقع الخلاف بعد موته لأن أرملته كانت طامعة في العرش وكان أخوه أبه Oppa لا يقل عنها طمعًا وكذلك أبناؤه الثلاثة ومنهم أخيلا (رمله عند المقرى وابن القوطية وصحته وقله) واولموندو Olmundo واردبست Ardobosta (عند العرب: ارطباس).

وتضيف المراجع شخصاً آخر يسمى سيسبرتو (ششيرت عند العرب) وتزعم المراجع الإسبانية أنه كان اخا لغيطشة، ويذهب المؤرخ ساقدرا Saavedra - وهو أول إسباني أرخ لفتح العرب إسبانيا - إلى أنه لم يكن من العائلة الملكية أصلاً وإنما كان مجرد طامع في السلطان.

في هذه الظروف يظهر رودريجو الذى يسميه العرب لذريق وأصله نبيل قوطي كان يحكم نواحي مختلفة من إسبانيا، وقد أيده الناس لأن زوجة غيطشة وابنه فرا من الميدان وتركا العرش واجتمع أنصاره وكونوا مجلس شيوخ وانتخبه المجلس ملكاً وخليفة لغيطشة.

وتجمع النصوص على أن الجماعة التى أيدت لذريق كانت من كبار القوط وأعيانهم، والظاهر أن أهل البلاد من الأيبيرين الرومان ثاروا على القوط بعد أن حاول رخشندش أن يستعين بهم.

ومن هنا نستطيع القول : إن السبب في تأييد لذريق ووصوله إلى العرش كان خوفه - ومعه نفر من زعماء القوط - من زوال سلطانهم وتغلب الأيبيربين الرومان عليهم.

وكان لذريق رجلاً قادراً وحاكمًا حاسماً وكانت مبايعته سنة ٧١٠ أى قبل دخول المسلمين

بعام ـ السنة الخامسة من حكم الوليد بن عبد الملك فى دمشق - وقد سار إلى طليطلة وهزم رخشندش وقتله، وفر منه أبناء غيطشة إلى المغرب.

وقد ظل لذريق طوال حكمه القصير خائفًا من أولاد غيطشة، وكان حريصاً على أن ينفر الناس منهم، ومع هذا حرص طوال حكمه القصير على أن يستنصر بالكنيسة ويستخرج منها الأحكام القاسية على غيطشة وأولاده وأنصارهم وخاصة اليهود.

وحقيقة كان أولاد غيطشة أعداء له وكذلك اليهود، ولكن أعداء الرجل غير هؤلاء كانوا كثيرين جدا، فقد كان قبل أن يثب على العرش دوقًا لقرطبة وخلفًا لتيودوفريدو، وعندما أخذ العرش أصبح معظم القوط أعداءه، أما أهل البلاد من الأيبيريين الإسبان فكانوا لا يحبونه، ومن ثم فقد كان الرجل فى عناء دائم، وكان أكبر أعدائه اوبه Oppas أخو غيطشة وأسقط إشبيلية والنبلاء ششيرت ورخشندش، وكان معه بلايه (بلاى) الذى فر بعد هزيمة القوط إلى كنتيرية، وهناك بنى نواة دولة القوط التى ستستعيد ملك إسبانيا.

وكان الرجل على عداء شديد للبشكونس أو الباسك وأهل نبرة وقاعدتهم بنبلونه. وهذا هو الذى جعله فى حاجة دائمة إلى المال، وهذه الحاجة إلى المال هى التى دفعته إلى اقتحام غرفة فى القصر كان الملوك يدخرون فيها ذخائر العرش، وقد حذره القسس من ذلك، والمؤرخون العرب يقولون إنه عندما فتحها وأخذ بعض ذخائرها وجد لوحة تقول له : إنه عندما تفتح هذه الغرفة وتمس ذخائرها يدخل البلاد فاتحون جدد، ويقولون : إنه وجد صورة أولئك الفاتحين وهم العرب.

وعلى أى حال فقد كانت مملكة القوط فى أيام لذريق قد تدهورت تمامًا وافتقرت إلى حد بعيد وانتشر الخلاف بين أهلها، وقام أهلها من الأيبيريين الرومان على القوط، أى إن ظروفها كانت تدعو الطامعين فيها من الخارج إلى غزوها والفوز بخيراتها، وعندما دخل العرب الجزيرة كان الرجل يخمد ثورة فى بلاد البشكونس ونبرة، ومن هناك أسرع ليلقى العرب.

في نفس الوقت كان اليهود وأعداء لذريق من أبناء غيطشة وأقاربه قد لجأوا إلى العرب وحفزوهم على حربه، وكانوا يرون أن العرب فئة ضعيفة غازية تدخل إسبانيا وتزيل لذريق ثم تمضى عنها، فهم يستغلونهم في حربهم مع لذريق دون أن يخسروا كثيراً.

وهناك كان خطؤهم الكبير، وقد يكونون أحسنوا التفكير ولكن الظروف أضاعت عليهم ما كانوا ينتظرونه.

قائمة ببيان أهم أحداث أيبيريا داخلها وخارجها قبل الإسلام

السنة	أهم حوادث أيبيريا	أهم الحوادث خارجها
٦٤ - ٦٤	فترات نشاط القديس بولس في الدعوة المسيحية فى إسبانيا	
٦٥		موت الفيلسوف يمينيكا فى إيطاليا
٦٩		فسباسيان يجعل القانون اللاتينى ius latinis حقا شائعا لأهل الإمبراطورية جميعا
٩٨ - ١١٧		قيام حكم تراجان
٢١٢		حكم هادريان Adrians
٢٨٤ - ٣٠٥		حكم دقلديانوس
٣٠٩	المجمع الدينى الكاثوليكى فى (غرناطة) البيرة	
٣١٣		دخول قسطنطين المسيحية
٣١٥		مجمع نيقية
٣٧٩ - ٣٩٥		حكم نيودسيوس

أهم أحداث أيبيريا وخارجها

السنة	أهم حوادث ايبيريا	أهم الحوادث خارجها
٣٩٥		انقسام الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية بابوية القديس اغسطس
٤٠٩	ابتداء غزوات المهاجرين: المتبربرين	
٤١٠		استيلاء الاريك الأول على روما
٤١٤	قيام ملك اتاولفو فى برشلونة	
٤١٨	قيام دولة القوط الغربيين فى تولوز	
٤٦٦	قيام مملكة يوريك القوطى الغربى وامتداده فى إسبانيا	
٤٧٦		سقوط الإمبراطورية الغربية
٤٨١		قيام حكم كلوفس Clodovius فى فرنسا
٤٩٧		تيودوريك الكبير ملكا على إيطاليا
٥٠٧	دولة القوط الغربيين تقتصر على ايبيريا	
٥٣٦	بازليوس يغزو إسبانيا باسم جستينان	
٥٦٠	طليطلة عاصمة لإسبانيا	غزو اللومبارد لإيطاليا

السنة	أهم حوادث ايبيريا	أهم الحوادث خارجها
٥٩٠ - ٦٠٤		بابوية جريجوريوس الكبير
٥٩٩	ايزيدور الإشبيلى يصبح أسقفا	
٦٧٢ - ٦٨٠	قيام حكم وامبار	
٧١١	دخول المسلمين الاندلس. معركة Batalea du Guadalata معركة وادى لكه وبداية تاريخ الأندلس الإسلامى	

الفتـــح الإســـلامى

كثيراً جدا ما نقول : إن الفتوح الإسلامية كانت معجزات إسلامية، وهى فعلاً معجزات، ويكفى أنها كانت ضربات متلاحقة كلها انتصارات أزالت دولة الفرس الساسانيين نهائيا وانتزعت من الدولة البيزنطية، أو دولة الروم، بلاد الشام ومصر وليبيا وإفريقية، ثم توجت أخيراً بفتح الأندلس.. والجميل فى هذه الفتوح أنها كلها كانت فتوحاً إسلامية، فكل البلاد التى فتحها العرب أصبحت بلاداً إسلامية، وظلت إسلامية إلى يومنا هذا.

والسبب فى هذا الفتح والإسلام هو أن الإسلام نفسه الذى كان يحارب وينتصر، وميزة العربى أنه كان حاملاً موفقًا للإسلام، ومع أن الإسلام يقول إن كل ما يستطيع الإنسان أن يفعله هو إيصال الإسلام للناس وتعريفهم به، أما الإسلام فهو من عمل الله، هو سبحانه إذا رضى عن إنسان فتح له قلبه فأسلم، لأن الهدى هو هدى الله، والله وحده هو الهادى، ومن هنا نفهم المعنى العميق فى قوله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى ديـن الله أفواجًا * فسبـح بحمـد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ [سورة النصر] والمعنى أن الإنسان ينتصر، ولكن الذى فتح القلوب هو الله سبحانه، فالفتح هو الباب الأول، ثم يجىء الإسلام ويدخل الناس دين الله أفواجاً، وهنا لا يكون أمامنا إلا أن نسبح لله ونستغفره إنه هو التواب.

غير أن أعجب فتوح المسلمين هو فتحهم للمغرب من إفريقية التى تسمى اليوم تونس إلى المحيط، فإن فتح المغرب استلزم من المسلمين سبعين سنة من الجهاد المتصل الذى استشهد فيه عشرات الألوف، منهم : عقبة بن نافع وزهير بن قيس من كبار القادة، ولكن العرب ظلوا يقاتلون حتى دخل المغرب كله فى دولة الإسلام، ثم فتح الله أبواب الهدى لأهل المغرب فدخلوا فى أمة الإسلام وانضموا إلى جيوشه وأصبحوا فاتحين، واجتهدوا فى تعلم العربية ليقرأوا القرآن الكريم، ثم

اشتركوا فى فتح الأندلس، بل كان قائد أول حملة إسلامية على الأندلس هو طارق بن زياد البربرى الأصل المستعرب.

وهناك خلاف على أصله فابن خلدون يسميه طارق بن زياد الليثى، أما الرازى فيقول إن اسمه كان طارق بن زياد بن عبد الله ويقول إنه كان قادسياً من همذان، ويقال إنه يسمى بمولى موسى وإنما هو رجل من صدف، وقيل : إنه كان مولى مغربيا.

وقد كان عقبه فى الأندلس ينكرون ولاء موسى إنكارا شديداً، ويقال إنه بربرى من وهذا هو الأصح فيما نرى.

ويعطينا ابن عذارى فى البيان المغرب (ج ٢ص ٥) اسمه الكامل ونسبه وهو :

طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم بن نيزغاسن بن ولهاص بن يطوفق.

ويقال : إن طارق جاز إلى الأندلس برهائن البربر سنة ٩٣هـ.

وتجتمع الآراء على أن موسى بن نصير وصل فى غزواته إلى طنجة وافتتحها وجعل فيها طارق ابن زياد، اما سبتة فكان بليان، ونحن لا نعرف عن بليان هذا إلا القليل، بل قد يكون اسمه بليان أو بليان أو جيحان، ولكن الذى رجح قراءة بليان هو المستشرق راينهارت دوزى، والمؤرخون العرب يقولون : إنه كان مولى ملك للأندلس من القوط.

قال ابن عذارى : (ج ٢ ص ٦)وما بعدها :

وذكر غير هؤلاء (أى غير عيسى بن محمد الرازى وابن حيان والمقرى فى فتح الطيب) أن السبب فى ذلك أن طنجة وسبتة والخضراء وتلك الواحى كانت فى مملكة صاحب الأندلس على نحو ما كانت السواحل كلها بالعدوة، وما قرب منها للروم يسكنونها، إذ كان البربر يرغبون عن

سكنى المدن والقرى، وإنما بعيتهم سكنى الجبال والصحارى، إذ كانوا أصحاب إبل وسوائم، وكان النصارى فى صلحهم

ثم ذكر ابن عذارى باختصار قصة لذريق مغتصب عرش القوط وهروب ششتر وأبه ابنى غيطشة إلى المغرب وقصة إرسال بليان ابنته إلى قصر لذريق وكيف اعتدى عليها لذريق، فأرسلت إلى أبيها، ووشت إليه، فلما بلغـه ذلك أحفظـه وكتمه وارتصد به الأيام، حتى كان من دخول العرب المغرب ما كان، وأرسل لذريق إلى بليان فى بزاة وطيور وغيرها فأرسل إليه : « لأوردن عليك طيرا لم تسمع قط بمثلها، وهو ينوى الغدر به، فحينئذ دعا طارق إلى ما كان من جواز البحر » وكما أن هناك خلافا فى أمر طارق فإن هناك خلافا فى أمر موسى

قال ابن القوطية فى تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٣) :

« وأصله من علوج أصابهم خالد بن الوليد - رحمه الله - فى عين التمر (من مدن غربى الفرات) فادعوا أنهم رهن، وأنهم من بكر بن وائل ـ أى من كنانة - وزعم بعضهم أنه من لخم، فهو يسمى أحيانا موسى بن نصير اللخمى، وذلك كله قليل الأهمية لنا فى هذا الكتاب.

إنما المهم أن نصيرا أبا موسى خدم خالد بن الوليد ثم انتقل إلى خدمة معاوية، وولد ابنه موسى فى بلاط معاوية، وكبر وخدم فى حرسه حتى أصبح كبير الحرس، وشغل نفس المنصب أيام يزيد بن معاوية.

وفى أيام عبد الملك بن مروان أرسل إلى الحجاز ليعاون الحجاج بن يوسف الثقفى، فاعتدى على المال فغضب عليه الحجاج وأراد قتله ففر إلى عبد العزيز بن مروان والى مصر واحتمى به، وكان هناك تنافس شديد بين الفاتحين العرب فى العراق وإيران والفاتحين العرب فى الغرب، وكان

والى مصر يتولى ما فتحه العرب من الغرب، وكلما فتح العرب فى المشرق فتحا سارع الفاتحون فى الغرب إلى فتح ما يعادله.

وإذا كان الفتح فى المشرق يزدان باسم قتيبة بن مسلم الباهلى فقد أراد موسى بن نصير أن يكون هو قتيبة الغرب، وأيده فى ذلك عبد العزيز بن مروان وأرسله واليا على المغرب فترك القيروان وأخذ فى حرب البربر، ولكنه لم يكن مولى مخلصا لقتيبة، بل كان طامعا فى الأموال، فكثر سبيه من رؤوس الأسرى ورؤوس الأنعام حتى إنه كان يقتل الألف نعجة ليأخذ فرو أولادها الصغار، وكان عظيم الليونة، ليرسل تلك الفراء إلى عبد العزيز بن مروان وأخيه عبد الملك، حتى استعظم الناس ذلك منه وأنكروه وقالوا : إن موسى بن نصير ظالم ظلم نفسه وكلفها ما لا يطيق.

وغزا جبال المغرب الاقصى غزوة مخرية وصل بها إلى أقصاه جنوبا وخافه البربر ودخلوا فى طاعته، فجند منهم جندا وأرسل منهم اثنى عشر ألفا إلى المشرق، وولى على جنوب المغرب، وكان يسمى سجلماسة طارق بن زياد مولاه، وجعل ابنه عبد الله بن موسى واليا على طنجة، وسئم عبد الله ولاية طنجة وشكا لأبيه، فاستقدمه إليه واستدعى طارقا فجعله والى طنجة ومعه اثنى عشر ألف من جنود البربر.

واجتهد بليان فى تحميس العرب وتشجيعهم على الفتح وخاصة عندما بلغه أن لذريق ذهب بجيشه إلى الشمال للقضاء على ثورة قامت عليه فى برشلونة، وبلغ من حماس بليان أن ذهب بنفسه إلى القيروان للكلام مع موسى بن نصير، ورحب موسى بذلك لأنه كان بطبعه ميالا إلى الغزوات والغنائم، وقد فهم من كلام بليان أن الأندلس بلد غنى فأمل بهذا أن يفوز بغنائم ضخمة، فاقترح على بليان أن يقوم بنفسه بغزوة لإسبانيا وذلك لكى يتأكد من أنه مع المسلمين وضد لذريق، فقام بها، وأرسل موسى إلى الوليد بن عبد الملك الخليفة فى دمشق، فوافق عبد الملك، ووافق كذلك على اختبار الأندلس بالسرايا.

الغزوة الاستطلاعية التى قام بها طريف بن أبى زرع :

وهنا أمر موسى مولاه طارقا بالعبور إلى الأندلس، ولكنه فضل أن يبدأ بإرسال حملة صغيرة لتغير على الشواطئ، فبعث مولى آخر من مواليه من البربر يسمى أبا زرعة، طريف بن أبى زرع، ويقال إن أبا ررعة كان عربيا، ونلاحظ أنه كان رجلا قادرا، فقد قام بهذه الحملة الاستطلاعية بنجاح، وسنراه بعد ذلك بقليل يقوم بأعمال أخرى.

وعبر طريف إلى الأندلس فى أربعمائة رجل، منهم مائة فارس والباقى رجاله، وكان نزولهم أيبريا فى رمضان ٩١هـ/يوليو٧١٠م، وقد نزلوا بجزيرة صغيرة جنوبى شبه الجزيرة تسمى Palomas وقد سميت من ذلك الحين بجزيرة طريف، وما زالت فى جنوب ألاندلس بلدة صغيرة تسمى Tarifa إلى اليوم، وقد غنم طريف وأصحابه كثيرا ثم عادوا إلى المغرب، وأرسل طريف إلى موسى بنصيبه من الغنائم ووصف له غنى الأندلس، فتشجع موسى وقرر فتح الأندلس، فاختار للقيام بهذه المهمه مولاه طارق بن زياد

طارق بن زياد :

وقد تعودنا أن ننظر إلى طارق على أنه مجرد قائد، وقد آن أن نقول : إنه قائد عظيم حقا، فقد عرف كيف يستفيد من الظروف التى وجد فيها أحسن فائدة، وتمكن من أن يسيطر على الأرض سيطرة تامة، وقد عبر إلى الأندلس ومعه سبعة عشر ألفا كلهم من البربر - من غمارة ومطغرة - ولكن كان فى الجيش عدد قليل جدا من العرب، ولكنهم كانوا ممتازين فعلا، وأهمهم عبد الملك ابن أبى عامر المعافرى (الجد البعيد لمحمد بن أبى عامر المستبد بملك الاندلس) ومغيث الرومى

(فاتح قرطبة) وهو مولى الوليد بن عبد الملك وعلقمة اللخمى، وكان فى الجيش عدد من البربر الذين سيرتفعون إلى مستوى القيادة مثل مونوسة البربرى الذى سيكون حاكما لمنطقة جبال البرت وسيكون له شأن كبير.

وكان مع طارق بليان الذى ذكرناه، وكانت مهمته معاونة طارق والقيام بدور الدليل له، وبالفعل قام بليان بذلك.

وبعد أن استقر طارق فى الأندلس بلغه أن لذريق فى الطريق إليه ومعه قوة كبيرة يقدرها العرب بمائة ألف، فاستغاث طارق بموسى فأرسل له خمسة آلاف آخرين.

والذى يستوقف النظر هو أن طارقا عرف كيف يسود هذه القوات بمهارة ونجاح، بل حدث أنه بعد انتصار المسلمين الأول الكبير أن تدافع البربر إلى العبور إلى الأندلس للاشتراك فى المعارك والإفادة من الغنائم، وكان هؤلاء ألوفا كثيرة، ولكن طارقا سيطر عليها أيضا فلم تقع فى الفتح فضائح نهب أو غارات أو سرقات لأن القيادة كانت حكيمة.

ومن أكبر دلائل مهارة موسى أنه عبر أولا إلى شبه الجزيرة الطويل الصخرى الذى أصبح من ذلك الحين يسمى جبل طارق Gibralltor وبعد العبور قام طارق بتحصين هذا الجبل حتى يصبح مركزا لأعمال المسلمين، ولم يضيع وقتا بعد ذلك فصعد إلى الشمال حتى بلغ قرطبة الداخلة فى إقليم قرطاجنة الأندلس Qarteya Tore de Cartagina واستولى عليها ثم سار إلى الجنوب فاستولى على المدينة التى تسمى الجزيرة الخضراء Algeciras وولى عليها عبد الملك بن عامر المعافرى، والجزيرة تواجه جبل طارق ومعنى ذلك أن المسلمين أصبحوا يسيطرون على مدخل الجزيرة من الغرب، وكان عبور طارق فى رجب ٩٢هـ/ابريل ٧١١م.

ووصل طارق إلى طريف فاستولى عليها وحصنها ثم واصل سيره إلى الشمال حتى أدرك نهير

البرباط الذى يصب في بحيرة كبيرة اصبحت من ذلك الحين تسمى الخندق La Janda وعبر نهر البرباط إلى السهل الواسع الممتد غرب النهير، وهو سهل كبير تقع إلى شماله مدينة شذونه medi-na Sidonia وإلى جنوبه الشرقى قادش Cadiz ، وهنا نظم طارق عسكره وحصن نفسه وانتظر قوات لذريق ليلقاها فى الموضع الذى اختاره هو.

والسبب فى نجاح طارق إلى الآن أنه لم يكن طامعًا فى غنائم أو ثروات، بل كان كل جهده مركزا فى خدمة الإسلام، وهو نفسه كان رجلا بسيطا قنوعا لا يطمع فى شيء.

وكان طارق شديد التركيز على عمله، فدرب رجاله ومن عبر معه من المغرب تدريبًا عظيمًا، وأرسل العيون إلى كل ناحية ليبلغوه أى خبر يصلهم عن لذريق وأى تصرف يصدر عن النصارى.

ويذكر ابن عذارى أن لذريق أقبل على المسلمين فى جيش ضخم يضم من الفرسان والخيل فوق ما كان يخطر ببال العرب حتى كانت هناك أفراس لا تحمل إلا أقوات الرجال التى أتى بها لذريق ليشد أزر المسلمين، ولكن طارقًا لم يفقد ثباته.

وكان بدء اللقاء يوم الأحد ٢٨ رمضان ٩٢ هـ/ ١٩ يوليو ٧١١م، وكان طارق قد قرر أن تدور المعركة فى سهل شذونة كله، وذلك حتى يرهق فرسان النصارى، واستمرت المعركة ما بين ثمانية وعشرة أيام، وكان معظم المسلمين رجالة.

وقد أظهر فرسان القوط ثباتًا فى أول المعركة، ولكن ضغط المسلمين كان شديدًا، ثم إن كلا من ششبرت وأبه انخذل بمن معي من القوات فانكشف جانب من معسكر النصارى، وانكشف قلب الجيش وفيه لذريق، وانهار خط دفاعه واضطرب نظامه ولاذ من بقى منه بالفرار.

وكان طارق قد قسم رجاله أقسامًا تطـارد أقسـام جيـش القـوط فى كل اتجـاه، وبعض القوط اتجه نحو البحيـرة أو نحو وادى لكّة (= تكملة البرباط) أو نحو وادى شريش.

وقد قتل في المعركة عدد كبير جدا من القوط، ولكنهم لم يعثروا إلا على أثر لذريق، فقد عثروا على حذائه، ثم قيل : إنه غرق في النهر، ولكن اتضح بعد ذلك أنه فر إلى الشرق حتى لحق به بعض المسلمين عند لورقة في كورة مرسية وقتلوه.

وقد استشهد من المسلمين ثلاثة آلاف، مما يدل على ضراوة المعركة.

وقد دار القتال في السهل كله، ولذلك عرفت المعركة بأسماء شتى، فهي معركة شذونة ومعركة البحيرة ومعركة وادى لكه وبكه ووادى البرباط وشريش والسواقي أو السوانى، ولكن اسمها الغالب في المراجع الإسبانية معركة وادى لكة أو وادى ليت Guaolalete وهي من أعظم الانتصارات في تاريخ فتوح المسلمين.

وأعظم ما فعله طارق هو أنه اختار مكان المعركة ودرسه ورتب جنوده وقواده واضطر العدو إلى أن يقطع شبه الجزيرة من بنبلونة في الشمال الشرقي إلى شذونة وهذا كان أساسًا عظيمًا من أسس نصر المسلمين.

وسنلاحظ أن عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ سيخطئ عندما يسير في طلب العدو الذى اختار مكان المعركة عند بلاد الشهداء وانتظر عبد الرحمن الغافقي ومزق جنده وقتله.

ووادى لكة اتى من لفظ Lago ومعناه البحيرة، واللفظ الإسبانى محرف عن Lacus أي البحيرة.

ومن أعظم نتائج هذا النصر أن المسلمين حصلوا على كثير من الخيل حتى لم يبق واحد منهم إلا ركب.

وأعقب هذا الانتصار اضطراب في شئون الأندلس كلها، ويبدو أن منظر العرب والبربر بسمرة جلودهم ـ وفيهم نفر من السودان ـ أخافت أهل البلاد، فارتفعوا إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا

من السهل ولحقوا بالجبال كما يقول الراوى (رواه المقرى فى نفح الطيب ١/ ١٦٣) ويقول لذريق الطليطلى : إن الملك لذريق قبل هربه عمل على أن يخلفه غيره حتى لا يضيع الملك إلى الأبد. ورأى طارق، وهذا من دلائل عبقريته العسكرية Rodricus Toletanus, De Pebus His-panidi Lib III Cap. 20 .

ورأى طارق – وهذا من دلائل عبقريته العسكرية – أن يستغل هذا كله فى الصمود إلى طليطلة رأسًا، فسار فى الطريق القديم الذى كان يسمى طريق هانيبال ومر بقرطبة، ولم يشأ أن يضيع الوقت فى الاستيلاء على مدن على الطريق، فأرسل مغيثا الرومى لفتحها، وسار هو إلى جيان، ومنها سار فى طريق هانيبال المؤدى إلى طليطلة.

ويبدو أنه سار مسرعًا، فقد دخل طليطلة مفاجئًا لأهلها قبل أن يغلقوا الأبواب، واستولى على الكنوز الزاخرة التى وجدها فى قصور القوط وفى كنيسة طليلطة الكاتدرائية بوجه خاص.

ولم يسهب المؤرخون المسلمون الذين كتبوا تاريخ الفتح مثلما أسهبوا فى الكلام على ما حصل عليه طارق، فقد أخذ المسلمون مثلاً مذبح الكاتدرائية، وكان مزينًا بالجواهر الكريمة، فسموه مائدة سليمان بن هود.

ومن المحقق أن هذا المذبح كان درة من درر الفتح، فقد كان محلى بأغنى ما لدى القوط من الذهب والجواهر، وقد كان الأساقفة قد حاولوا الهرب بها، فلحق بهم المسلمون وأخذوها فى قلعة هنارس Alcalà de Henares التى تعرف بقلعة عبد السلام.

وقد قال عنها ابن حيان : « وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة إلى سليمان النبى عليه السلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم، وإنما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الفخمة من

الموائد والكراسى وأشباهها من الذهب والفضة، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت فى أيام المناسك، ويضعونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها.

ووصفها عند نفر كبير من مؤرخى العرب غير واضح، فهى عندهم كانت من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها.

وفى نفس الوقت كان مغيث الرومى ومن معه قد فتحوا قرطبة، ولم تكن إذ ذاك مدينة كبيرة، وإنما كانت معسكرا يحرس القنطرة التى تعبر الوادى الكبير، وكانت تسكنها جالية قوطية، ومن حسن حظ العرب أن الجزء الذى كان يقابل القنطرة التى تقوم بينها وبين شقندة Secunda على الضفة الجنوبية للوادى الكبير هو الجزء الذى كان الأهلون من الأيبيريين الرومان يسكنونه، وفيه الكاتدرائية، وقد وجد هؤلاء بالعرب لأنهم كانوا لا يحبون القوط، وهؤلاء الأيبيريون الرومان أسلم معظمهم واستعربوا جميعا.

ولم تكن الحامية القوطية فى البلد لتزيد على ٤٠٠ فارس، وقد ريع هؤلاء، ففروا مع الحاكم إلى قرية تسمى كنيسة القديس ايسكلو San Aciscla يجعلها العرب كنيسة شنت اجلحو أو شنت اجلح، وحاصرها المسلمون ثلاثة أشهر حتى استطاع المسلمون قطع الماء على المحصورين، وكان الماء يجرف إلى الكنيسة فى مجرى تحت الأرض، فلم يفطن إليه المسلمون حتى اكتشفه رجل من السود ممن كانوا مع المسلمين، وكان القوط قد ظنوا أن هذا الاسود صبغ نفسه، فلم يكونوا قد رأوا رجلا أسود إلى ذلك الحين، فغسلوه بالماء مرة بعد أخرى ثم أطلقوه.

وقد وقع ذلك الحاكم أسيرا بأيدى المسلمين، وكان هو القائد القوطى الوحيد الذى أسره المسلمون، وقد أراد مغيث أن يأخذه معه إلى المشرق ليعتز به أمام الخليفة، فنازعه فيه موسى، فأخرج سيفه وقتله.

ونزل مغيث مقر الحاكم فعرف باسم بلاط مغيث، أى مقر مغيث، وسيصبح هذا القصر مقر حكام قرطبة وولاة إسبانيا وأمرائها فيما بعد.

وكان اليهود قد انضموا إلى المسلمين من أول الأمر لأن لذريق كان قد أنزل بهم أذى شديدا، ولهذا نجد أن المسلمين يجعلون بعض اليهود مع الحامية المسلمة التى كانوا يتركونها فى كل بلد يفتحونه، لأن اليهود كانوا يعرفون لغة البلد ونواحيه.

وتقدم أبناء غيطشة من طارق وطلبوا إليه أن يترك لهم ملك شبة الجزيرة حاسبين أن المسلمين إنما أتوا للغنائم فحسب، فلم يجبهم طارق إلى ما طلبوا، وقال : إنه أتى إلى البلاد للفتح الثابت ونشر الإسلام، فلم يجدوا بدا من القناعة بما أعطاهم من ضياع أبيهم، وكانت كثيرة جدا، وحاولوا نفس المحاولة مع موسى ولكن موسى أيد طارقا فيما فعل، ثم لجأ القوط إلى الخليفة الوليد فى دمشق فأيد طارقا وموسى، فقنعوا بما صار إليهم وعاشوا مع المسلمين وأصبحوا من أنصارهم، ومنهم كان ارطباس Ardabast الذى سيصبح شيئا كالمنشار لحكام الأندلس، وقد جعله المسلمون حاكما لقرطبة، وقد سعد القوط بما صار لهم من الضياع، فقد صار لكل منهم ألف ضيعة.

عبور موسى إلى الأندلس:

وعندما بلغ موسى ما وفق إليه طارق حسد طارقا على ما بلغه من نصر وقرر العبور إلى الأندلس ليكون له نصيب من المجد.

وقد كنا ندافع عن موسى ونستبعد منه الحسد، ولكن لا معنى لهذا الدفاع فإن الحسد طبيعى، ثم إن موسى لم يكن - من الناحية الأخلاقية - أرفع من الحسد، وابن حيان نفسه - نقلا عن الرازى - يقول : إنه رفض أن يعبر إلى جبل طارق، وعبر إلى موضع من ساحل الأندلس يسمى إلى الآن جبل موسى، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لاسلك فى طريق طارق، ولا أقفو

أثره، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب بليان: نحن نسلك بك طريقا هو أشرف من طريقه، وندلك على مدائن هي أعظم خطرا وأوسع غنما من مداينه، لم تفتح بعد، يفتحها الله على يديك إن شاء الله تعالى، فملئ سرورا.

نزل موسى الأندلس وسار به أدلاؤه من رجال بليان إلى إشبيلية فاستولى عليها، وتبع ذلك دخول غرب شبه الجزيرة في الإسلام فطاعت له نبلة Niebla ويابرة Eoora وبطليوس Badajoz وعند سلمنقه Salamanca اعترضت موسى قوات من القوط ودارت بينهم بمعركة عنيفة انتصر فيها موسى، وكذلك وجد ماردة merida محصنة تحصينا شديدا فحاصرها واستولى عليها، ومات في الحصار عدد من رجاله، وأخيرا وصل إلى مجرى نهر تاجه Tagus وهنا خرج طارق من طليطلة ذهب إلى طلبيرة Talaoera حيث لقى موسى.

وتذهب بعض المراجع إلى أن موسى أهان طارقا ولامه على الاسترسال في الفتح دون إذنه، وهذا أمر مستبعد، وإن كان من الممكن أن يكون قد لامه في هذا.

على أى حال فقد تصالح الرجلان وسارا معا إلى طليطلة، ورسما خطة لفتح بقية شبه الجزيرة، فأما طارق فقد اتجه إلى سرقسطة وفتحها ثم استولى على وشقة ووصل إلى جبال البرت (البرانس خطأ.

وأما موسى فقد اتجه شمالا بقرب واستولى على سمورة Zamora وبرغش وليون وأبيط Oviedo والتقى به طارق وانما فتح شبه الجزيرة ودخله خيخون على ساحل بسكاية، وبذلك يكونان قد أتما فتح شبه الجزيرة.

وهنا لحق بهما مغيث الرومى فاتح قرطبة ونصح موسى ألا يهين طارقا، فانتدبه موسى للذهاب إلى دمشق لإبلاغ الخليفة الوليد بفتح الأندلس، وذهب مغيث، ويبدو أنه كان غير مرتاح إلى موسى

لأنه ذكر للخليفة استبداده بالأمر وقسوته على طارق وطمعه فى الأموال، فكلفه الوليد بأن يحمل إلى موسى وطارق الأمر بالعودة إلى دمشق خوفا على المسلمين من الاسترسال فى الفتوح فى تلك الاصقاع النائية.

وحاول موسى أن يبقى ولكم مغيثا شدد عليه وكان ذلك فى أواخر سنة ٩٥هـ/ منتصف صيف ٧١٤م.

وبذلك يكون المسلمون قد فتحوا كل شبه الجزيرة فى ثلاث سنوات أو أربع، وتلك مأثرة عظيمة لموسى وطارق، ولكن الحقيقة أن الذى كان يفتح وينتصر هو الإسلام، لأن قلوب المسلمين كانت عامرة بالإيمان، فكان لا يثبت لهم أحد، ويكفى أن نذكر أن طارقا هزم لذريق وبدد جيشه الضخم فى معركة واحدة.

وقد هرب لذريق مع بقايا القوط إلى الشمال، ثم التقوا بموسى وقواته عند سلمنقه فانهزم القوط للمرة الثانية، وفر لذريق إلى مرسية حيث لحق به نفر من المسلمين وقتلوه عند لورقة Lorca.

وبعد استقرار موسى وطارق فى الأندلس سك موسى أول عملة إسلامية فى شبه الجزيرة سنة ٩٧هـ، وكانت مكتوبة باللاتينية وإن كانت إسلامية لأن الذى رسم العملة وكتب نصها كان إسبانيا لا يعرف العربية فكتب النص:

بسم الله	In nomine Domir:
لا إله إلا الله	Non Deus mici Deus
هو وحده العالم بكل شيء	Solus Sapcens
ولا يشبهه أى إله آخر	Non Deo Similis aluis

وفى الناحية الثانية من العملة

دينار كامل ضرب فى إسبانيا Solidus feritus an spania

وكان لا بد أن يطيع موسى أمر الخليفة، ولكنه رأى قبل أن يعود أن يفتح شمال غربى الجزيرة فأتم فتح حوض الابرو واستولى على ما فيه من مدائن، وتقدم جيش موسى قائد بربرى هو محمد ابن إلياس المغيلى، وقد استولى هذا القائد على بلدة وادى الحجارة Guadalajara وكان رهبان النصارى فى سرقسطة قد رعبوا وقرروا ترك البلد والهجرة إلى خارج الجزيرة فطمأنهم موسى واستبقاهم فاستقروا، وقام التابعى حنش بن عبد الله الصنعانى السبئى بإنشاء مسجد سرقسطة، وقد أصبح مسجد سرقسطة من أعظم مساجد شبه الجزيرة لأن منشئه تابعى.

وأراد موسى فتح بلاد البشكونس (الباسك) ولكن المسلمين كانوا قد تعبوا فرجوا موسى الاكتفاء، ويبدو أن لغة البسكه روعتهم، وأيدهم فى ذلك حنش الصنعانى، وهنا فقط اقتنع موسى بضرورة التوقف عند هذا الحد الآن، فعاد إلى طليطلة وأخذ يستعد للعودة إلى دمشق، ولكن فرتون Fortunius صاحب بلاد اليشكونس صادق المسلمين بل دخل فى الإسلام، ومنه تسلسل بنو قسى أصحاب الثغر الأعلى الذين كان لهم دور عظيم فى تاريخ الأندلس.

أما طارق فقد استولى على مدن هامة فى وسط وغربى شبه الجزيرة مثل أماية واشترق، وكان موسى قد فتح لك Lucus Astoruns قريبا من أبيط، وقد حاولت المقاومة ولكن المسلمين غلبوا أهلها وهدموها حتى سووها بالتراب.

وفتح المسلمون بلاد كنتيرية وأدركوا ساحل خليج بسكاية عند خيخون Gigon كما قلنا، ثم استولوا على صخرة بلاى Péna de Pelayo .

ولا شك فى أن فتح المسلمين للأندلس يعتبر عجيبة، فبعد ما بذل المسلمون من جهود

وتضحيات لا تصدق لفتح المغرب على طول سبعين عاما (من ٢٧هـ إلى ٩٢هـ/ ٦٤٧م-٧١٠م) يفتحون الأندلس كله على هذا النحو البطولى العظيم، ويستوقف النظر أن الأيبيريين الرومان وهم أهل البلاد استقبلوا المسلمين بالترحاب لأنهم كانوا غير مرتاحين للقوط، وكذلك وقف إلى جانبهم اليهود كما رأينا.

ومن ذلك الحين يصبح الأندلس جزءاً من دولة الإسلام، وقد سعد به المسلمون وتهافت عليه نفر من خيرتهم، وأخلصوا فى العمل فى خدمته، فلم يلبث الأندلس أن أصبح من أعظم مراكز الإسلام والحضارة الإسلامية فى الدنيا.

ومع أن مؤرخين إسبانيا من أمثال ادواردو سافدرا Edouardo Saavedra قد سلموا بهذا الفتح واعتبروه أمرا عاديا بالنسبة للمسلمين ولأحوال القوط إذ ذاك إلا أن نفرا من الإسبان المعاصرين من أمثال غرسية غومس Garcia Gomez استنكروا هذا الفتح وتعجبوا من أمره واعتبروه إهانة لإسبانيا، وقد اجتهدنا فى إفهامه أن الفتح الإسلامى مفخرة لإسبانيا، وأظن أننا أقنعناه بذلك.

وهذا لا يمنع من القول بأن الكثيرين من الإسبان يعتبرون الفتح الإسلامى كارثة أصابت إسبانيا، ومن هؤلاء مننذذ بيدال Menendez Pidal الذى تصور أن الفتح الإسلامى أخرج إسبانيا من أوروبا وأضرها، وهذا أيضاً ناقشناه مرة بعد أخرى.

ولكن المهم أن الإسبان اليوم، وبعد تطور الفكر العالمى أصبحوا الآن يعتبرون الفتح الإسلامى حادثا سعيدا فى تاريخ إسبانيا، ويفخرون معنا بحضارة الأندلس.

عودة موسى وطارق إلى المشرق ومصيرهما:

بارح موسى وطارق الأندلس فى ذى القعدة ٩٥هـ/ سبتمبر ٧١٤م، وبلغا دمشق فى السادس عشر من يناير ٧١٥م، أى قبل وفاة الوليد بأربعين يوما، وكان سليمان بن عبد الملك، ولى

عهد الخلافة، قد استشعر أن أخاه المريض ربما اشتد به المرض فكتب إلى موسى يطلب إليه التريث، لكي تصير إليه الذخائر التى كان موسى يحملها، ولكن موسى لم يعبأ برجاء سليمان وترك الأمر لله، وسار سيره العادى، وكان يرى أنه إذا وصل دمشق والوليد حى كانت الذخائر له وإلا فهى لسليمان.

على أى حال فقد كان ركب موسى ركبا عظيما، وفى الطريق من الأندلس كان يقيم السرادقات ليستقبل الناس ويعطيهم مما عنده، حتى إننا لا نعلم أن أحدا من الفاتحين المسلمين لم يتمتع بهذا البهاء ولا بلغ ذلك المبلغ من الكرم.

ولكن عندما وصل موسى دمشق كان الوليد قد مات وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك، وطبعا لم يتوقع موسى على يده خيرا.

ويذهب نفر من المؤرخين أن سليمان عذب موسى، ولكننا نستعبد ذلك ونقول : إنه اكتفى بإهماله، ولام أيضاً طارق بن زياد، وربما يكون قد اشتد عليه فى مطالبته بأموال المغانم التى فرقها.

وقد لقى موسى إكراما من نفر من العرب وأعطوه مالا أعطاه لسليمان، وحاول سليمان أن يسترضيه فطلب إليه أن يصاحبه فى رحلة الحج سنة ٩٧ أو ٩٩هـ/ ٧١٧ أو ٧١٨م) وقد توفى موسى أثناء هذه الرحلة وكانت سنه قد قاربت الثمانين، فمات ودفن فى طريق الحجاز فى الغالب.

أما طارق فقد اختفى تماما ولم نعد نسمع به بعد خروجه من الأندلس فى طريق العودة إلى المشرق.

ولا شك فى أن هذين الرجلين يعتبران من عظماء الفاتحين المسلمين، وموسى بالذات كان له دور عظيم فى تاريخ فتح المغرب والأندلس.

أما طارق فقد رأينا دوره العظيم وخلقه الكريم، وسليمان بن عبد الملك على أى حال أساء إلى قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم، فتلك المعاملة التى لقيها موسى وطارق من ناحية طبيعية، وهو

أيضا الذى استرجع مسلمة بن عبد الملك من محاولته فى فتح القسطنطينية، وأن كان الذى نفذ ذلك حليفته عمر بن العزيز

ومعاملة الخلفاء ليست هى التى تعين أقدار الناس، لأن الأعمال وشهادات أمة الإسلام هى التى تضع كل إنسان فى مكانه.

***

عصـــــر الولاة

الولاة التابعون لدمشق فعلا أو اسما:

١ - **طارق بن زياد** من رجب ٩٢هـ/ أبريل - مايو ٧١١ حتى رمضان ٩٣هـ/ يونيو ٧١٢

موقعة وادى شريش من ٢٨ رمضان ٩٢ حتى ٥ شوال ٩٢/ ١٩-٢٦ يوليو ٧١١.

فتح قرطبة شوال ٩٢/ أغسطس ٧١١

مغيث الرومى يستولى على كنيسة قرطبة وأسر قائدها محرم ٩٣هـ أكتوبر نوفمبر ٧١١.

فتح مالقة وغرناطة وطليطلة ووادى الحجارة.

٢ - **موسى بن بن نصير** من رمضان ٩٣ / يونيو ٧١٢ إلى صفر ٩٥/ أكتوبر - نوفمبر ٧٧٣

فتح إشبيلية وقرمونة وإقليم الغرب.

فتح مرسية ٤ رجب ٩٤ .

واوريون ٦ أبريل ٧١٣

فتح ماردة وسرقسطة وقطلونية.

رجوع موسى إلى المشرق، صفر ٩٥/ أكتوبر - نوفمبر ٧١٣.

٣ - **عبد العزيز بن موسى** : خلف أباه واليا على الأندلس.

مقتل عبد العزيز بن موسى رجب ٩٧/ مارس ٧٦١

٤ - **أيوب بن حبيب اللخمي** من مقتل عبد العزيز حتى ذى الحجة ٩٧/ أغسطس ٧١٦

٥ - **الحر بن عبد الرحمن الثقفي** : ذو الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠ هـ أغسطس ٧١٦ - مارس أبريل ٧١٩.

إخضاع بلايه فى اشتورياس.

٦ - **السمح بن مالك الخولانى** : رمضان ١٠٠/ مارس - أبريل ٧١٩.

فتح زبونة.

استشهاد السمح فى موقعة طولوشة : ذو الحجة ١٠٢/ يونيو ٧٢١.

٧ - **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى** : حتى صفر ١٠٣/ أغسطس ٧٢١.

٨ - **عنبسة بن سحيم الكلبى** : صفر ١٠٣/ أغسطس ٧٢١.

قوات بلاى تزداد فى اشتورياس.

هزيمة علقمة حاكم جليقية.

فتح المسلمين قرقشونة وتيم فى فرنسا.

فتح اوتان فى فرنسا سبتمبر ٧٢٥.

استشهاد عنبسة : شعبان ١٠٧/ يناير ٧٢٦.

٩ - **عذرة بن عبد الله الفهرى** : حتى شوال ١٠٧/ فبراير مارس ٧٢٦.

١٠ - **يحيى بن سلمة الكلبى** : حتى ربيع الأول ١١٠/ يونيو - يوليو ٧٢٨.

١١ - **حذيفة بن الأحوص القيسى** : حتى شعبان ١١٠/ نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨.

١٢ - **عثمان بن أبى نسعة الخيثمى** : حتى المحرم ١١١ هـ/ أبريل ٧٢٩

١٣ - **الهيثم بن عبيد الكلابى** : حتى ذى القعدة ١١٢/ يناير - فبراير ٧٣٥.

١٤ - **محمد بن عبد الله الأشجعى** : حتى صفر ١١٢/ مارس - أبريل ٧٣٠م.

١٥ - **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى** : (ثانية).

ثورة موخوسة وموته : رمضان ١١٤/ أكتوبر ٧٣٢م.

معركة بواتييه وموت عبد الرحمن الغافقى.

١٦ - **عبد الملك بن قطن الفهرى** : حتى شوال ٧١٦/ نوفمبر ٧٣٤.

١٧ - **عقبة بن الحجاج السلولى** : حتى ٧٢٢/ ٧٣٩.

ثورة إلبربر فى صفر ١٢٢/ يناير ٧٤١.

موت عقبة.

١٨ - **عبد الملك بن قطن الفهرى** : (ثانية).

حتى ذى القعدة ١٢٣/ سبتمبر ٧٤١.

عزل عبد الملك بن قطن وقتله.

١٩ - **بلج بن بشر القشيرى** : حتى شوال ١٢٤ هـ/ أغسطس ٧٤٢ وموته.

٢٠ - **ثعلبة بن سلامة العاملى** : حتى رجب ١٢٥/ مايو ٧٢٣.

٢١ - **أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى** : حتى رجب ١٢٧/ أبريل ٧٤٥.

٢٢ - ثوابة بن سلمة الجذامى ، حتى المحرم ١٢٩/ سبتمبر - أكتوبر ٧٤٦

خلت الولاية واختار أهل الأندلس عبد الرحمن بن كثير

٢٣ - يوسف بن عبد الرحمن الفهرى : ربيع الثانى ١٢٩/ ديسمبر إلى ٢ يناير ٧٤٧

ثورة أبى الخطار وقتله ١٣٠/ ٧٤٥ - ٧٤٨.

مجاعة شاملة فى الأندلس.

البربر الذين كانوا يحتلون شمال إسبانيا يتركونها

إخراج المسلمين من جليقية ١٣٣/ ٧٥٠ - ٧٥١

النصارى يستولون على اشترقة ومعظم قشتاله القديمة ١٣٦/ ٧٥٣ - ٧٥٤

ثورة البشكونس ١٣٧/ ٧٥٥.

نزول عبد الرحمن الداخل الأندلس : ربيع الثانى ١٣٨/ سبتمبر - أكتوبر

دخوله المنكب.

فى اليوم التالى موقعة قرطبة وإعلان عبد الرحمن نفسه واليًا على الأندلس ١٠ ذو الحجة ١٣٨/ ١٤ مايو ٧٥٦.

* * *

نرى من هذا البيان أن فترة الولاة استمرت أربعًا وأربعين سنة، من ٩٢ إلى ١٣٨ هـ/ أبريل - مايو ٧١١ حتى ١٠ ذى الحجة ١٣٨/ ١٥ مايو ٧٥٦، وهى فترة قصيرة يخيل للإنسان أنها قليلة الأهمية خاصة وقد حكم الأندلس فيها ٢٣ واليًا بما فيهم طارق وموسى أى بمعدل سنتين للوالى، ولكن الحقيقة أن هذه المدة تعتبر من أهم عصور تاريخ الأندلس لأن الله سبحانه أتى أولئك العرب

الأول - عرب القرنين الأول والثانى - مهارة وكياسة وفهما لا نعرفها فى غيرهم، فعلى الرغم من قصر الولايات واضطراب الأحوال إلا أن هؤلاء الولاة عرفوا كيف يغرسون بذرة الإسلام والعروبة فى شبه الجزيرة، ثم إنهم كانوا عرباً أصلاء اجتذبوا الناس بعروبتهم وشهامتهم فدخل الناس فى الإسلام ودرسوا العربية.

ولعل أكثر ما اجتذب الناس إليهم هو أن الضرائب التى وضعوها على الناس كانت قليلة لا تزيد على عشرة فى المائة من الدخل، يدفعها الإنسان ويستريح، ومما جذب الناس إلى العرب أن العرب استخدموا رجالاً من أهل الأندلس للكتابة وجمع المال، وهؤلاء كانوا متساهلين مع بنى جنسهم.

* * *

عبد العزيز بن موسى - ثالث فاتح للأندلس:

عندما خرج موسى من الأندلس والمغرب إلى الشرق ترك ابنه عبد العزيز بن موسى واليًا على الأندلس وابنه عبد الله واليًا على المغرب.

وكان عبد العزيز بن موسى رجلاً شهمًا ومسلمًا عظيمًا، وقد اجتهد فى فتح شرقى الجزيرة وغربيها، ولهذا فنحن نعده ثالث فاتحى الأندلس.

ولم يجد عبد العزيز صعوبة فى فتح غربى شبه الجزيرة فوصل إلى الأشبونة وشنترين، وفى الجنوب الغربى وصل إلى فارو وهى شنتمرية الغرب وأوكشونبه Ocsonuba وهى الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة وفيها طرف الغار Trafalgar.

أما فى شرقى شبه الجزيرة فقد واجه عبد العزيز أميرًا من القوط يسمى تيودمير Teodmir كان يتولى بلنسية ومرسية والمرية، فحاصره عبد العزيز، فلما اشتد به الحصار ولم يكن عنده ما يكفى من الجنود فألبس النساء ملابس الجنود وأوقفهن على السور فحسب العرب أن لديه جندًا غفيرًا وفاوضوه على هذا الأساس، وانتهوا معه على أن يدخل شرقى الأندلس فى طاعة المسلمين ولكن جنوده لا تدخله.

وبعد هذا التعهد تبين للعرب أن الرجل خدعهم فأرادوا التخلى عن الصلح، ولكن إيمانهم أبى، فظل تدمير أميرًا على بلنسية ومرسية، بل سميت مرسية تدمير، واسم مرسية لم يظهر إلا فيما بعد.

وتدمير هى الناحية الوحيدة التى وصل إلينا نص معاهدة تسليمها، وقد قدمه العينى والرازى، وأهم ما يهمنا فيه أن تدمير تعهد بأن يدفع أهل ناحيته دينارًا كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد

شعير وأربعة أقساط خل وقسط عسل وقسط زبدة، وعلى العبد نصف ذلك، كتب فى رجب من سنة أربع وتسعين للهجرة.

وقد عاهد تدمير العرب على طاعة سبع مدن هى : أوربولة Oribuela وبلنتلة، وهى قرية قديمة كانت توجد على مقربة من بليدة Aleantaria الحالية على خمسة كيلومترات من مرسية، وقد أسماها العرب وادى العين وهى اليوم †Guadalentin ولقنت وهى Alieante ومولة Mula وبجسترة Begestra وهى بليدة على مقربة من Sedgim وأنه وهى Anaya ولورقة Lorca.

وقد ظلت تدمير على هذا الوضع حتى جاء عبد الرحمن الداخل، وكان تدمير قد مات فألغى الاتفاق وضم مرسية إلى دولة الإسلام.

وكان عبد العزيز رجلاً لطيفاً حسن الصورة فتزوج زوجة لذريق وكانت تسمى ايلونة Egilona وأنجب منها ولداً فسميت أم عاصم، ويقال : إن التى تزوجته كانت ابنة لزريق عانسا، وقد أحبته وأخرجت جواهرها وصارت تحليه بها فى خلوته، ودخلت عليهما امرأة إسبانية كان قد تزوجها زياد بن النابغة التميمى فحسبته قد لبس التاج على رأسه، فأبلغت زوجها وهذا أبلغ العرب فقالوا: تنصر.

وهذه قصة تحكى، والمهم أن الرجل قتل، ويقال : إن الذى دبر قتله الخليفة سليمان بن عبد الملك.

على أى حال لقد مات الرجل بعد أن قام بدور عظيم فى تاريخ الأندلس.

قال ابن عذارى : « إلا أن مدته لم تطل لوثوب الجند عليه وقتلهم له لأشياء نقموها عليه، وكان قتله صدر رجب سنة ٩٧ هـ بمدينة إشبيلية - رفينة، وكانت عاصمته ».

وكان مقتل عبد العزيز فى ناحية من كنيسة رفينة فى إشبيلية وكانت قد حولت إلى مسجد.

ولما بلغ سليمان خبر مقتل عبد العزيز حزن عليه، وولى على إفريقيه عبيد الله بن يزيد القرشي وأمره سليمان بأن يحقق فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد بن النابغة، وكانا من المشتركين في قتل عبد العزيز وإرسالهما إليه

وولى عبيد الله بن يزيد الأندلس الحر بن عبد الله الثقفي

وقد ظل الحر بن عبد الرحمن الثقفي واليا على الأندلس ثلاث سنوات، من ٩٩ هجرية إلى ١٠٢هـ/ ٧١٦م إلى ٧١٩م ولا يذكر المؤرخون له عملا إلا نقله عاصمها الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة، ولا يجد مؤرخونا في ذلك ضيرا، ولكن الحقيقة أن هذا الرجل كان ينبغي أن ينقل عاصمة الأندلس إلى طليطلة. وقد كانت عادة المسلمين أن يجعلوا عاصمتهم في البلد يفتحونه في نفس البلد الذي كانت فيه العاصمة قبلهم، وهي هنا طليطلة وكان ينبغي أن ينقل المسلمون العاصمة إلى طليطلة، ولو أنهم فعلوا ذلك فربما كانوا أقوى في شبه الجزيرة، لأن أحسن عاصمة لإسبانيا تكون في طليطلة في وسط شبه الجزيرة، أما قرطبة فمتطرفة إلى الجنوب ولا يمكن سيادة شبه الجزيرة منها إلا بجهد بالغ، وفي الخريطتين اللتين عملناهما ونشرناهما مع هذا الكلام يرى القارئ هذه الحقيقة بشكل ملموس

ولاية السمح بن مالك الخولاني:

وقد كان عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي قد فكر في إخراج المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية وتركها بسبب بعدها واتساع مساحتها، فقال الناس له إن المسلمين قد كثروا فيها وليس من صالح المسلمين التخلي عنها، فصرف نظره عن ذلك، ولكنه فصلها عن المغرب وجعلها ولاية قائمة بنفسها

وجاء بعد الحر بن عبد الرحمن الثقفي السمح بن مالك الخولاني

وكان السمح بن مالك من خيرة ولاة الأندلس، وقد أمره الخليفة عمر بن العزيز ببناء قنطرة قرطبة بصخر السور وبناء سور قرطبة باللبن وأمره بإخراج خمس قرطبة فخرج من الخمس البطحاء المعروفة بالربض، فأمر عمر بن عبد العزيز أن يتخذ بها مقبرة للمسلمين فتم ذلك.

وقتل السمح بن مالك بطرسونة، وذلك أنه غزا المروم سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م فاستشهد، رحمه الله، يوم عرفه، فكانت ولايته أربعة أو ثمانية أشهر.

ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي على الاندلس واستشهاده:

لا نزاع فى أن عبد الرحمن الغافقى يعتبر أقدر قائد عسكرى عرفته الأندلس فى عصر الولاة، وقد كانت هزيمته فى معركة بلاط الشهداء أليمة الوقع عند المسلمين فأوجز المؤرخون الكلام عنه إيجازا شديدا، وأصاب الايجاز سيرة عبد الرحمن نفسه فتعمدوا الاكتفاء بمجرد الإشارة إليه مع عظيم تقديرهم له.

وقد كان عبد الرحمن شجاعا عظيم الخبرة بميادين القتال، فقد قضى معظم أيامه فى ميادين القتال، وكان متصوفا قريبا من الله، فقد غنم فى حروبه أشياء عظيمة جدا، ولكنه لم يستمتع بشيء منها، فقد كان همه منصرفا إلى الجهاد دون غيره.

وإذا كنا قد قلنا : إنه كان مجاهدا ماهرا فينبغى أن نضيف إلى ذلك أنه لم يكن قائدا عسكريا ماهرا، فقد خرج من الأندلس إلى غالة (فرنسا) وكانت فى أيامه تنقسم إلى أربعة أقسام: سبتمائية، فى جنوبى فرنسا وحتى نهر الرون، وإمارة اكوتين وعاصمتها بوردو، ثم مملكة الفرنجة، وكان يتولى عرشها القرنجة، وكانت تحكمها أول الأمر أسرة الميروفنجيين، وكان قارله مستشار مملكتها، وكان يرجو أن يحل هو وأسرته محل الميروفنجيين، ولهذا فعندما استغاث أولاو، وهو أمير أقطانية بقارله أسرع هذا فلبى لأنه رجا أن ذلك يعينه على الوصول إلى العرش.

والإدارة الرابعة التي كانت أمام المسلمين هي ولاية فريزيا في شمال غربي فرنسا وهي التي أصبحت بعد ذلك تسمى لومبارديا.

ويبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان قد قرر أن يفتح فرنسا فتحا تاما، ولهذا فإنه كان ـ خطأ منه - أقسر نشاطه غير العادي في هذه الحملة على غالة، فقد خرج من الأندلس إلى غالة أوائل ١١٤هـ/ ٧٣٢م، وكانت عدة جيشه لا تزيد في الغالب على سبعين ألفا، وكان معظم هؤلاء من البربر، وإذا كان بينهم عرب فقد كانت أصول هؤلاء يمنيين، وعبد الرحمن الغافقي نفسه كان يمنيا من غافق.

وقد عاقت عبد الرحمن الغافقي عن الوصول إلى غالة التي قصدها المسلمون ثورة رجل بربري مسلم يسمى مونوسة كان المسلمون قد ولوه على ولايات البرانس، فاتفق مونوسة مع الدوق أودو وتزوج ابنته.

وقد رأى عبد الرحمن الغافقي أنه لا بد أن يقضي على مونوسة البربري الذي تحالف مع الدوق أودو دوق اكيتين حتى يستطيع أن يدخل في صراع مع القوى النصرانية في غالة وهي فرنسا.

ونحن نرى بوضوح أن الرجل كان شجاعا ونشيطا، ولكننا نرى أنه لم يكن بالقائد العسكري الماهر، فقد أراد أن يفتح فرنسا ويجعلها بلدا مسلما، ومن الواضح أنه تأثر في خطته العسكرية بطارق ابن زياد الذي فتح الأندلس في غزوة واحدة، وقد رأيناه يعبر من المغرب إلى الأندلس عن طريق جبل طارق، ثم يستمر إلى مدينة الجزيرة الخضراء ويفتحها، ثم يسير بجنوده إلى سهل شذونة ويفتحه، ومن هناك يسير إلى طليطلة ويفتحها ولا يسترسل منها إلى الشمال إلا بعد أن يصل إليه موسى بن نصير والي المغرب ورئيسه فيخرج طارق بن زياد إلى طلبيرة ليقاه.

ويقال إن موسى كان غاضبا على طارق ان زياد الذى فاز بهذا الفتح العظيم، بل هناك من يقول : إنه ضربه وأهانه، ثم اشترك الاثنان فى إتمام فتح شمال شبه الجزيرة قبل أن يخرجا إلى المشرق، وقد كان الوليد بن عبد الملك قد مات فكان عليهما أن يلقيا خليفته سليمان بن عبد الملك، ولا ندرى ماذا حدث لطارق بن زياد، ولكن المراجع تقول : إن سليمان بن عبد الملك أساء إلى موسى بن نصير ثم صالحه وجعله من أتباعه، وصار يجعله من أتباعه فى رحلاته بعد أن أساء إليه وأرغمه على أن يدفع إليه غرامة كبيرة، وقدحكم سليمان بن عبد الملك أقل من ثلاث سنوات هجرية من ١٥ جمادى الآخرة ٩٦ إلى ١٠ صفر سنة ٩٩هـ/ ١٤ أبريل ١١٧٤م.

وقد كانت قاعدة المسلمين فى الغزو فى غالة فى نربونه فى جنوبى غالة، ولم تخرج من أيدى المسلمين إلا بعد ثلاثين سنة من هزيمة البلاط، أى سنة ٧٥٩م.

ولكننا لن نسترسل فى الكلام عن أعمال المسلمين فى غالة إلا إلى معركة البلاط واستشهاد عبد الرحمن الغافقى سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م مع أن المسلمين ظلوا يحكمون جنوبى فرنسا إلى سنة ٧٥٩م بعد ذلك، وقد ذكرت تاريخهم هناك فى كتابى فجر الأندلس[1] (ص ٢٧٣ وما بعدها).

ويلاحظ أن الأندلس كان حسن الحظ فى الولاة، فالولاة الممتازون الذين عرفهم الأندلس فى عصر الولاة كانوا كثيرين، وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر فى إخلاء الأندلس من العرب لبعدها وصعوبة حكمها، ولكن الناس أفهموه أن تلك خسارة كبيرة على الإسلام، لأن الناس قد كثروا فيه وأصبح بلدا إسلاميا كبيرا، ومن ذلك الحين أصبح ولاة الأندلس خاصين به.

ورواية ابن عذارى تقول : إن والى الأندلس بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقى كان عبيد الله ابن الحبحاب، وكان الخليفة قد عين على مصر والمغرب عبيد الله بن الحبحاب، وكان يحكم مصر والمغرب.

(١) فجر الأندلس، الطبعة الثانية ص ٢٧٣ وما بعدها

وربما يكون هو الذى اختار عبد الملك بن قطن الفهرى لولاية الأندلس، فإذا صح ذلك أصبح عبيـد الله بـن الحبحـاب واليـا على نصف دولة الإسلام إذ ذاك، وهنا قد يكون هو الذى اختار عبد الملك بن قطن الفهرى.

وقد كان الذى ولى عبيد الله بن الحبحاب على مصر هو الخليفة هشام بن عبد الملك، فلما استشهد عبد الرحمن الغافقى اختار سليمان بن الحكم عبد الملك بن قطن الفهرى، وكان بيت عبد الملك بن قطن الفهرى من بيوت كبار موالى بنى أمية المشارقة، وكانوا يختارون الولاة منهم، فلما استشهد الغافقى اختار الخليفة سليمان بن عبد الحكم عبد الملك بن قطن الفهرى منهم وأرسله إلى الأندلس فظل يحكمه خمس سنوات.

وقد صرف النظر عن الاسترسال فى الفتح فى غالة، واختار نربونه وجعلها مركز أعمال المسلمين فيما كان بيدهم فى غالة.

وكان قارله قد نجح فيما كان يريده من حكم فرنسا وحلت أسرته، وهى أسرة الكارولنجيين، محل بين الميروفنجيين فى غالة، ولم يهتم بيته باستعادة ما كان بيد المسلمين من جنوب غالة فظلوا يحكمون هناك حتى سقطت نربونه وما تبعها من الأرض، وخلفه عقبة بن الحجاج السلولى سنة ١١٦هـ/ ٧٥٩.

وكان بيت عقبة بن الحجاج السلولى من بيوت بيت عبيد الله بن الحبحاب السلولى، وكان بيت عبـد الله بن الحبحاب، كما قلنا، حاكما على غربـى دولة الإسلام كله، ولكنهم لم يولوا عبد الملك بن قطن جنوبى فرنسا، فيذكر ابن عذارى أن أولاد عبيد الله بن الحبحاب أرادوا من أبيهم أن يعزله فرفض عبيد الله بن الحبحاب ذلك وزاد فى كرامة بيت عقبة بن الحجاج السلولى، فقد كانوا مواليه.

وأضيفت إليه الأندلس تأييدا لشرقة، وقد كان مركز المسلمين العسكرى فى غالة قد ساء، وكانت مملكة الفرنجة مملكة قوية عسكريا.

وقد قلت فى كتابى (فجر الأندلس ص ٢٨٣) إننا نجد هنا مبالغات كبيرة من قساوسة ورهبان غالة، لأن أهل غالة كانوا غير راضين عن قارله لموقف العداء الذى وقفه منهم، فأراد قارله الانتقام من أهل غالة ليعزى نفسه عن فشله أمام حصون أرجونه فأساء إلى أهل جنوب غالة وخرب حصون بيزييه وأجدة ونسيمه.

وقد لقيت أرغونه شيئا كبيرا من التخريب على أيدى قارله فهدمت أسوارها وأطلقت فيها النيران، فعل قارله مثل ذلك بمجلونه، وكانت إذ ذاك من المدن الزاهرة فى هذه الناحية، وعاد قارله بعد ذلك إلى الشمال ومعه عدد كبير من أسرى المسلمين وعدد من كبار الغاليين أخذهم معه كرها ليضمن بأخذهم دفع أهل نواحيهم - وهم إلى جنوبى غالة - إلى التخلى عن عون العرب، وكان أهل جنوبى غالة يفضلون العرب وينصرون المسلمين على حرب الفرنجة، وذلك طبيعى لأن الفرنجة كانـوا إذ ذاك أجلافا قسـاة بعيدين عن الخط الحضارى الذى كان يعيش فيه أهل جنوبى غالة، ولا عداوة أصلا بينهم وبين المسلمين فى مسائل الحكم والتنظيم.

وكان أهل جنوبى غالة غاضبين على قارله لأن العرب عندما دخلوا الأندلس استولوا على ممتلكات الكنائس فلما جاء قارله أخذ هذه الأملاك، وعندما فقد السلطان من غالة لم يعد هذه الممتلكات إلى الغاليين فتفرقت فى الناس وزاد غضب الناس على قارله.

ولدينا حادثة الأب فيليكاريوس الذى كان أسقفا لمدينة فيين Vienne الذى حاول بعد خروج العرب أن يستعيد أملاك كنيسته، فلما وجد أن ذلك مستحيل ترك أسقفيته ولجأ إلى دير القديس يادريكيوس (سان موريتز الآن).

ولم تصلح هذه الأخطاء إلا خلال الأعوام التالية [illegible]

ولم يكن القوط قوطا عند التحرير وإنما هم كانوا يتكونون من السويف والآلان والوندال، وكان الرومان قد احتلوا شرق إسبانيا ما عدا منطقة صغيرة فى الشمال الشرقى احتلها الفيزيقوط.

القــوط الغربيــون - الفيزيجــوت:

ثم دخل شبه الجزيرة القوط الغربيون، وكان القوط أكبر مجموعات المتبربرين عددا، وكان هناك قوط شرقيون يحكمون إيطاليا، وقوط غربيون يحكمون إسبانيا، وقد خاض العرب معركتهم لفتح شبه الجزيرة الأيبيرية مع القوط الغربيين، وقادهم طارق بن زياد، وكان رجلا بربرى الأصل ولكن جده الذى أسلم واستعرب أصبح عربيا.

والعروبة كلها تفخر بطارق بن زياد، فقد فتح شبه الجزيرة الأيبيرية فى غزوة واحدة، ولكنها تدل على عبقرية عسكرية كما رأينا، ولا نعرف ماذا فعل طارق بن زياد عندما ذهب إلى المشرق بعد استدعاء هشام بن عبد الملك له هو وموسى.

وقد أشرنا إلى مصير موسى بن نصير، ولكننا لا نعرف عن مصير طارق بن زياد شيئا، ولكنه على أى حال كان قد استعرب واستسلم، وربما يكون قد عاد إلى وطنه وفيه مات، ولكنه ما زال حيا فى تاريخنا نحن العرب والمسلمين، ونحن إذا ذكرنا الأندلس ذكرنا طارق بن زياد، وليس هذا بالشىء القليل، فإن فتح الأندلس شىء عظيم فى تاريخنا، هذا وطارق بن زياد كان مغربيا وعربيا ومسلما وكذلك كان.

وتولية عبد الرحمن الغافقى، ثم عقبة بن الحجاج السلولى الذى خلف الغافقى فى شوال ١١٦هـ - ديسمبر ٧٥٩م تحتاج إلى دراسة، لا لأن فيها شكا، بل كيف وقعت؟.

وقد جاء من عاصمة الخلافة الأموية فى دمشق لأن بيته كان من بيوت بنى أمية، ولكن عمر ابن عبد العزيز شعر بمسئوليته أمام الرجل وبيته، فأرسله إلى عبيد الله بن الحبحاب والى مصر والمغرب كله والأندلس.

وكان بيت عبيد الله بن الحبحاب مواليه، فرحب به عبيد الله بن الحبحاب وطلب إليه أن يختار ولاية من الولايات التى فى عهدته ليحكمها، ويبدو أن الرجل كان شهما مقاتلا فاختار الأندلس، وحمله عبيد الله بن الحبحاب إلى الأندلس، وكان يتولى حكمها عبد الملك بن قطن الفهرى، وكان من رجال عبيد الله بن الحبحاب، ولكنه لم يستطع إلا أن يجعل عقبة بن الحجاج السلولى مكانه واليا للأندلس.

وكان موسى بن نصير رجلا عظيم المكانة، وكان أول ظهور موسى بن نصير قد جعله والى خيله فلم يقاتل معه عليا، فقال له سليمان بعد عزله عن الأندلس : ما منعك من الخروج مع معاوية على عليّ؟ فقال : لم يمكنى أن أشكره بكفر من هو أولى بشكرى، فقال : ومن هو ؟ فقال : الله عز وجل، فأطرق سليمان مليا ثم قال : أستغفر الله، وعفا عنه.

وقد حكى ابن عذارى ما وقع من الجوارى والأسرى فى حكم عقبة بن الحجاج، وذكر ذلك مفصلا، ثم قال ابن عذارى : فبلغ الخمسين أو ستين ألفا.

وقد قال ابن عذارى الذى روى أخبار موسى : « فلم يسمع بمثل سبايا موسى فى الإسلام ».

والحقيقة أن الولاة الآخرين لم يحدثونا بصدق عما صار لهم من السبايا، فالغالبية العظمى منهم أخفت هذه الأخبار لأسباب شخصية معروفة، ولكن هذا تكلم.

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير على الاندلس :

وكان موسى قد خرج من الأندلس سنة ٩٥هـ/٧١٣م وخلفة على الأندلس ابنه عبد العزيز ابن موسى، وكان عبد العزيز من خيرة من قرأنا عنهم من الولاة، وهو يعتبر من فاتحى الأندلس، فقد فتح شرقى الأندلس وغربه، أى إنه أتم فتح الأندلس، وكان رجلا رضى الخلق حسن الصفات، وكان قد تزوج ايلونا أرملة لذريق - أو رودريجو - وأنجب منها، ومن سوء الحظ أنه لم يحكم إلا سنة وعشرة أشهر، وقد تسرب الجند إلى المسجد الذى كان قد اتخذه مسكنا، وكان الرجل يقرأ القرآن بعد أن صلى فجاء زياد بن عذرة البلوى وضربه بالسيف فقتله.

ويقال : إن سليمان بن عبد الملك، الذى خلف عمر بن عبد العزيز فى خلافة الأمويين، هو الذى أمر جنده بقتله عند سخطه على أبيه موسى بن نصير، وقد حز القتلة رأسه، وكان الذى حمل الرأس إلى سليمان بن عبد الملك هو حبيب بن أبى عبدة الفهرى، وقد عرف موسى بن نصير هذا الخبر وكان فى أسر سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا.

وأسرع أهل الأندلس فأقاموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمى، وكان رجلا صالحا قويا، وفى أيامه نقلت قاعدة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة، وكان مغيث الرومى وهو من رجال أبيه قد افتتحها.

وأيوب بن حبيب هذا هو أول من اتخذ قرطبة عاصمة له، وقد سار إليها من إشبيلية، وكان يقيم بقصرها فاتحها مغيث بن حبيب وكان يسكن قصر الإمارة فيها فصرفه عنها، ونزل هو قرطبة فكانت ولايته ستة أشهر، وكانت الأندلس وطنجة وسبتة إلى والى إفريقية، وكان إذ ذاك عبيد الله

ابن الحبحاب، فلما انتهى أمر ابن الحبحاب خلفه محمد بن عبد العزيز فعين لولاية الأندلس الحر ابن عبد الرحمن الثقفى فدخلها سنة ٩٩هـ/٧١٧م، ثم ولى عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولانى على الأندلس، فجاءها من دمشق فى الشام، وكان قد خلف ابن الحبحاب على إفريقية يزيد بن أبى مسلم، فولى يزيد على الأندلس بشر بن صفوان.

وعندما فتح قرطبة تولاها مغيث الرومى، وتولى المغرب بعد ابن الحبحاب السمح بن ملك الخولانى وخلفه على إفريقية يزيد بن أبى مسلم مولى الأنصار فولى على الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبى فدخلها فى صفر ١٠٢/ أغسطس ٧٢٠م فظل واليا على الأندلس وظل فى الولاية أربع سنين وثمانية أشهر.

وفى سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م خرج عنبسة غازيا للروم فألح على الروم فى القتال والحصار حتى صالحوه، وتوفى عنبسة سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م.

وبعد وفاة عنبسة ولى أهل الأندلس على أنفسهم رجلا يسمى عذرة، ولا نعرف من اسمه إلا ذلك، وقد حكم الأندلس سنتين وستة أشهر، وخلفه يحيى بن سلمة الكلبى، وقد جاء من قبل هشام بن عبد الملك وقد دخل الأندلس سنة ١٠٩هـ/٧٢٨م، وكانت ولايته، كما قلنا، سنتين وستة أشهر.

وخلف عذرة على الأندلس حذيفة بن الأحوص الأشجعى، ولاه عليها عبيدة بن عبد الرحمن السلمى عامل إفريقية، وهو من رجال هشام بن عبد الملك فى سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م، وكانت ولايته على الأندلس ستة أشهر.

وفى تلك السنة تولى أمر الأندلس عثمان بن أبى نسعة الخثعمى، ولاه عليها والى افريقية

عبيدة بن عبد الرحمن بن أبى الأعور السلمى، وكانت ولايته على الأندلس خمسة أشهر أو ستة، ثم عزل وانصرف إلى القيروان فمات بها.

وخلفه الهيثم بن عبيد الكنانى فى صدر سنة ١١١هـ/٧٢٨م، وقد تنبه هذا الرجل إلى خطورة موخوسة البربرى الذى اقامه المسلمون على منطقة الحدود بين إسبانيا وفرنسا.

وجاء بعده محمد بن عبد الرحمن الأشجعى ولم يحكمها إلا شهرين، ثم خلفه عبد الرحمن الغافقى، وقد دخل الأندلس سنة ١١٢هـ/٧٣١م، وكان هذا الرجل طموحا، أراد أن يخلد اسمه بفتح غالة وإدخالها الإسلام.

وقد روينا تاريخه واستشهاده فى رمضان ١١٤هـ/ نوفمبر٧٣٢م.

وهنا نريد أن نحيى هذا الرجل الذى أراد أن يفتح غالة فتحا تاما ويدخل أهلها فى الإسلام، ومن سوء حظه أن قامت دولة الكارولنجيين فى أيامه وكانت أسرة طموحة وحّدت فرنسا، وكان بيتهم، وهو بيت الكارولنجيين، بيتا خالدا فى تاريخ فرنسا، فهو الذى كونها ووضع حدودها السياسية والتاريخية، ومن ملوكها قارله (شارل مارتل) وشارلمان وهما من بناة أوروبا.

ولم يستطع عبد الرحمن الغافقى أن يهزم شارل مارتل واستشهد، وخلفه على الأندلس عقبة ابن الحجاج السلولى وقد دخلها فى شوال ١١٤هـ/نوفمبر ٧٣٢م، ورغم انهزام عبد الرحمن الغافقى واستشهاده فى موقعة البلاط فينبغى أن نقول هنا : إن عبد الرحمن الغافقى كان من كبار الرجال فى تاريخ الغرب الإسلامى، وكان من سوء حظه أن تعاصر مع شارل مارتل، لأن هذا كان من رجال التاريخ الأوروبى، وكان على رأس دولة طموحة.

وقد ظهر الغافقى وعمل بعيدا جدا عن مركز الخلافة الأموية فى دمشق، ولكنه استطاع مع

ذلك ان يجمع جيشا كبيرا، ولكن جيشه كان لا يمكن أن يصل إلى مائة ألف، إنما المهم أنه استطاع أن يجمع جيشا كبيرا، وقد هزمه شارل مارتل لأنه كان على رأس بيت طموح نشيط.

ثم إن عبد الرحمن الغافقى كان - كما قلنا - يعمل فى بلد بعيد جدا عن مركز الخلافة فى دمشق، ثم إن عدوه الأكبر هنا كان قائدا عسكريا عظيما وهو شارل مارتل أو قارله، وكان قارله يحارب إذ ذاك عن بلده، فقد أصبحت دولته الكاروانجية قاعدة قلب غرب أوروبا، وأيدته البابوية وكل أوروبا، ضد المسلمين.

وقد انضم البربر إلى العرب اليمنيين فى غربى أوروبا إذ ذاك لاتفاق المصالح.

وقد استمر استبداد العرب الشاميين والبربر على المغرب والأندلس حتى سنة ١١١هـ/٧٣٠م وهى السنة التى انتهت فيها سيادة العرب الشاميين فى الأندلس، وفى نفس هذه السنة ... وأسرعت الحكومة المركزية بعد عزل الهيثم بإقامة والٍ من لديها على الأندلس، وكان هذا الوالى هو عبد الرحمن الغافقى الذى استشهد فى بلاط الشهداء فى رمضان ١١٤هـ/ أكتوبر ٧٣٢م.

وقد تحدثنا بكفاية عن عبد الرحمن الغافقى وحروبه فى كتابنا « فجر الأندلس » وقلنا : إن العداوة للمسلمين فى الغرب الإسلامى كله كانت شديدة ولا نعرف الأسباب الحقيقة لتلك العداوه ولكن مظاهرها كانت كثيرة، فمثلا بعد « بلاط الشهداء » وقبل دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس نجد أن المسلمين قد تخلوا عن الربع الشمالى الغربى لشبه الجزيرة، وهنا نجد أن الوالى، وكان عبد الملك بن قطن، يتعرض لعداوة شديدة من قبل البربر، وكان بلج بن بشر وأصحابه من العرب قد انهزموا فى المغرب وتحصنوا من البربر فى سبتة، وطلب قائدهم بلج بن بشر إلى عبد الملك بن قطن أن يجيره فى الأندلس، ورفض عبد الملك بن قطن ذلك، ولكن هجوم البربر عليه جعله يوافق على أن يعبر بلج بن بشر إلى الأندلس، وعبروا ودخلوا واستطاعوا ان يهزموا البربر.

وكان عبد الملك بن قطن قد اشترط على بلج وأصحابه أن يعودوا إلى المغرب، ولكن بعد أن انتصر العرب بقيادة بلج بن بشر وأصحابه فى الأندلس رفضوا أن يعودوا إلى المغرب ووقعت الحرب بينهم وبين والى الأندلس، وانتصروا عليه وقتلوه، وتولى بلج بن بشر أمر الأندلس، ولكنه انهزم وقتل بعد ذلك، وخلفه فى الولاية على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى فى شوال ١١٦هـ/٧٣٤م.

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الرجل (عبد الرحمن الغافقى) كان مقاتلا فاتحا، وأتينا بقول ابن عذارى فيه وأنه كان فاتحا مجاهدا، وأنه كان الذى مدّن ارجونه واتخذها قاعدة لفتوحه فى جنوب فرنسا، وظل على الأندلس حتى سنة ١٢١هـ/٧٣٨م، وكان هشام بن عبد الملك خليفة بنى أمية وقد ندب كلثوم بن عياض بحرب البربر فى الأندلس.

وكان البربر مختلفين على العرب وثائرين عليهم فى الأندلس، وكان يتولى أمر الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى، وقد دارت حروب شديدة بين كلثوم بن عياض والبربر وهزموه وقتلوه، وكان ابن أخيه بلج بن بشر حاكم إفريقية قد هزم فى الحروب بين العرب والبربر ولجأ إلى سبتة واحتمى بها واستعان به عامل الأندلس عبد الملك بن قطن، فعبر إليه وحارب البربر وقتل كثيرا منهم فاضطر عبد الملك بن قطن إلى الاستجابة لرجاء بلج فسمح له ولمن معه بالعبور إلى الأندلس، فعبروا وقاتلوا البربر وهزموهم.

وبعد النصر طلب منهم عبد الملك بن قطن أن يعودوا إلى المغرب حسب الاتفاق فرفضوا وتحاربوا معه وقتلوه وأصبح بلج بن بشر صاحب الأندلس فى صدر ذى القعدة ١٢٣هـ/ نوفمبر٧٤٠م، ومعظم الأقوال القديمة تقول إن بلجا حكم الأندلس سنة هجرية.

وخلف بلج بن بشر فى ولاية الأندلس بعد كلثوم بن عياض وبلج بن بشر، عبد الملك بن قطن الغمرى وهو عم بلج بن بشر ثعلبة بن سلامة العاملى فى شوال سنة ١٢٤هـ/ أغسطس٦٤٢م.

وجاء بعد ذلك واليا على الأندلس أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، وقد بدأ حكم الأندلس سنة ١٢٥هـ/ أغسطس٧٤٤م، وكان حاكما قادرا مفكرا، فرأى أن سبب الاضطراب فى الأندلس هو تجمع العرب فى قرطبة وما حولها، ففكر فى أن يفرق الشامية، ففكر فى توزيعهم على نواحى الأندلس هكذا .

أهل دمشق فى إلبيرة.

أهل الأردن فى ريه.

أهل فلسطين فى شذونه.

أهل حمص فى إشبيلية.

وأهل مصر فى باجة وبعضهم فى تدمير وهى مرسية.

وأهل قنسرين فى جيان.

وكان إنزالهم على أموال العجم من أرض ونعم.

واستمر حكم أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى إلى أن ثار عليه البربر وقبضوا عليه، ولكنه فر منهم، وتولى أمر الأندلس رئيسا عربها : يوسف الفهرى والصميل بن حاتم، ولم يكن هناك بأس بحكومتهما، فإن القوة كانت بيد الصميل بن حاتم، أما يوسف الفمرى فكان ضعيفا أسلم الأمر كله للصميل، فظل الاثنان يحكمان الأندلس معا حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية الأموى الأندلس وتوليه حكمه.

دخول عبد الرحمن بن معاوية الأموى الأندلس وقيـــام الدولـــة الأمـــويـــة الأندلسيـــة :

ولم يكن من الممكن أن تستمر الأمور على هذه الصورة، حقا إن حكومة يوسف الفهرى والصميل بن حاتم كانت طيبة واستطاعت إنقاذ البلد من الضياع من أيدى المسلمين، ولكن السبب فى ذلك يرجع إلى أن يوسف الفهرى كان رجلا ضعيفا وقد أسلم الأمر كله للصميل بن حاتم فكان هو صاحبها الفعلى قبل دخول عبد الرحمن، وعبد الرحمن بعد أن انتصر على الصميل صارت إليه الإمارة، وقد ذكر ابن عذارى أن يوسف الفهرى حكم الأندلس مع الصميل بن حاتم تسع سنوات.

وقد أنزل العباسيون مذبحة بالأمويين بعد انتصارهم عليهم فى المعارك العسكرية، ومن المذابح مذبحة دير حسنية غربى الفرات، وفيها قتل معاوية بن هشام بن عبد الملك، والد عبد الرحمن، وكان لمعاوية بن هشام أولاد كثيرون منهم عبد الرحمن هذا، وأخ أصغر له، وقد فرا معا وخاضا نهر الفرات لينجوا إلى الشام، ولحق بهما الجند العباسى، وجعلوا ينادوهما وهما فى الماء ويطلبون إليهما العودة ويؤكدون لهما أنهم لن يفعلوا بهما شيئا.

فأما الأخ الأصغر فقد صدق كلام الجند واستدار عائدا، فلم يكد يصل إلى الساحل حتى أخذوه وقتلوه.

وأما عبد الرحمن فقد وصل إلى الشاطئ الغربى من الفرات واتجه مسرعا إلى دمشق، فلما قرب منها أرسل إلى أختيه فى دمشق يذكر أنه لن يقصد دمشق خوفا من العباسيين، وطلب إلى أختيه

مالا، فأرسلتا إليه مالا ليستعين به في رحلته، ووصلته الجواهر والذهب والفضة، واتجه مباشرة من الشام إلى مصر مستخفيًا، ومن هناك دخل المغرب، وكان فى الطريق إليه، وفى المغرب وربما قرب وهران، كانت قبيلة نفزة البربرية، وهى قبيلة أمه، وربما يكون قد وصل إلى سبتة، وبقربها كانت منازل لقبيلة نفزة، وعلى أى حال فقد استقر عبد الرحمن عند هذه القبيلة، ومن هناك تصل بموالى بنى أمية فى الأندلس وتفاهم معهم على أن يعبر إلى الأندلس، ودخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس من ميناء المنكب فى ولاية غرناطة، ومنها سار إلى طرش Torox.

وقد ولد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فى الشام بموضع يسمى دير حسنة، من قرى دمشق فى سنة ١١٣ هـ/ ٧٣١م، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ١٧٣ هـ/ يوليو ٧٨٩م فكأنه عاش قرابة ستين سنة هجرية.

واجتمع عليه اليمنيون كراهة فى الصميل بن حاتم وكان يحكم الأندلس بالاشتراك مع يوسف الفهرى. وقد انتصر عبد الرحمن على الصميل الذى خرج للقائه، وكان جيشه على الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير، وكان عبد الرحمن وجنوده على الضفة الجنوبية، وظل الاثنان متناظرين على ضفة النهر حتى استطاع عبد الرحمن أن يعبر بجنوده ويلقى الصميل فى معركة حاسمة فى المصارة، جنوب غربى قرطبة، وبويع له على الأندلس فى قرطبة فى يوم الأضحى سنة ١٣٨ هـ/ مارس ٧٥٦.

وقد أمن الأمير عبد الرحمن الصميل ويوسف فأسلما نفسيهما إليه وعاشا فى قرطبة آمنين، ولكن عبد الرحمن قتلهما بعد سنوات إذ إنه شك فى ولائهما له.

وفى ٤ شوال سنة ١٣٩ هـ/ مارس ٧٥٦ ولد له ابنه هشام – الذى سيخلفه – وأقبل عليه

موالى بنى أمية من أول إعلانه ولايته على الأندلس فجعل منهم أصحاب كبار الوظائف لكى تكون له فى الأندلس عزوة، ولكن بعضهم خانوه فيما بعد واضطر إلى قتلهم.

موالـــى بنـــى اميـــة :

ولكن الذين صدقوا فى خدمته وكانوا قوة لدولته ولكل أمراء بيته هم موالى بنى أمية، وكانوا من أصول مختلفة، ولكنهم كانوا مخلصين للبيت الأموى الأندلسى، وسنذكر الكثيرين منهم فى تاريخنا هذا، وقد تكلمنا بكفاية عنهم فى كتابنا «فجر الأندلس» (ص ٣٩٦ - ٤١٢).

وكان طبيعيا أن تقوم الثورات على معاوية، ومن أكبر من ثار عليه العلاء بن مغيث الجذامى، وكان رجلاً قويا انضم إليه كل الغاضبين على معاوية، ولكن عبد الرحمن انتصر عليه وكان العلاء ابن مغيث قد نشر أعلام العباسيين وقال : إنه يحارب تحت اسم دولتهم، ولكن معاوية انتصر عليه وقتله وأرسل رأسه ورؤوس أصحابه إلى القيروان، وكان يعلم أن المنصور سيعرف بذلك من هو معاوية ابن هشام.

وفى سنة ١٤٩ هـ/ ٧٦٦م ثار عليه سعيد اليحصبى، المعروف بالمطرى، بكورة نبلة Niebla فى غرب شبه الجزيرة، وكان رجلاً عنيفاً، ولكن عبد الرحمن انتصر عليه وقتله.

وفى نفس السنة انقلب على عبد الرحمن أبو الصباح بن يحيى القرطبى، وكان معاوية قد ولاه إشبيلية ثم عزله عنها، فجمع إليه أهل الخلاف وثار عليه، فوجه معاوية لحربه أحد مواليه، فتلاطف معه واستصلحه وقدم به إلى قرطبة فى أربعمائة رجل من رجاله بدون عهد، فلم يكد يصل قرطبة حتى قتله عبد الرحمن، وكان القتل هو العلاج الحاسم لغدر الرجال، ومن يدرى كيف كانت الأحوال فى أيامهم؟ وعلى أى حال فقد كان هذا هو التفكير الذى صار به عبد الرحمن بن

معاوية صاحب الأندلس وبه وضع أسس الدولة الأموية الأندلسية التي عمرت حوالى ثلاثمائة سنة، وهو أطول عمر لدولة إسلامية بما فى ذلك الدول العثمانية.

وفى سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م خرج الأمير عبد الرحمن إلى محمد بن يوسف الفهرى فقتل من أصحابـه من أدرك، ثـم مات محمد بـن يوسـف الفهـرى وتفـرق رجالـه فقضـى عليهم عبد الرحمن.

بناء مسجد قرطبة الجامع :

وفى نفس السنة أمر الأمير عبد الرحمن بالبدء فى بناء مسجده فى قرطبة، وقد تم بناء هذا الجامع بعد سبع سنوات واشترك فى زيادته بعد ذلك بقية أمراء بنى أمية الأندلسيين فأصبح مسجد الأندلس الأول وواحد من أكبر مساجد الإسلام.

ولم يكن عبد الرحمن بن معاوية رجلاً سياسيًا فحسب، بل كان رجلاً حضاريا، وكان شاعراً حسن التصرف، وهو دون شك من أعاظم أمراء المسلمين فى الشرق والغرب، وقد استطاع بذكائه وملكاته أن يصل إلى الإمارة ويستولى عليها، وقد أكبره المنصور خليفة العباسيين، وقال غير ذلك نفر آخر من أهل مجالسه فقال المنصور: ذاك صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية أمير الأندلس.

وقد عبر البحر وقطع القطر ودخل بلداً أجنبيا منفرداً بنفسه فمصّر الأمصار وجنّد الأجناء ودوّن الدواوين وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته.

إن معاوية (بن أبى سفيان) نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه، وعبد الملك (ابن مروان) ببيعة أبرم عقدها وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن

منفردا بنفسه مؤيدا برأيه، مستصحبا لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين، فقال الجميع: صدقت والله يا أمير المؤمنين(١).

والحقيقة أن عبد الرحمن كان عبقريا من عباقرة الحكم بالأندلس، وربما كانت فضيلته الكبرى فى ذلك المجال أنه أدرك أهمية موالى بنى أمية لدولته التى أقامها، وقد ظل طوال حكمه فى الأندلس يحتفظ بولائهم له، فقد كانوا موهوبين أساسًا واحتفظ الرجل بهم واعتمد عليهم وأبقاهم ليكونوا عونًا لبيته، فقد كانوا يعرفون الأندلس وما ينبغى له وما لا ينبغى، ولولاهم لكان لدولته تاريخ آخر.

ولم يكن الرجل عنيفًا مطلقًا كما كان العباسيون، وإنما كان مفكرًا بعيد النظر.

ولم أقرأ فيما قرأت من أصول التاريخ الإسلامى فى الغرب شيئًا كهذا، وإن كان لا بد أن نقول إن الرجل كان ذكيا جدا ونشيطًا جدا، فما كان يؤخر الخروج للقاء ثائر عليه يومًا واحدًا، وإنما هو كان دائمًا متفتح الذهن سريع الحركة حاسمًا فى أموره، وقد أحسن بناء دولته فى ظروف عصره، وفى كتاب نفح الطيب للمقرى صفحات كثيرة من تاريخه، لأن البلد كان غريبًا عليه، ولكن موالى بنى أمية وقفوا إلى جانبه وأقاموا قوته، وقد تولى الرجل الأندلس وهو فى حدود الثلاثين من عمره وتوفى فى حدود الستين. ولم يوص لأحد من أولاده – وكانوا كثيرين – بخلافته.

كان ابنه هشام، ولكنه لم يوص له بالإمارة من بعده، لأن هشامًا لم يكن أكبر أولاده بل كان ثامنهم، أما ابنه الأكبر فكان سليمان، وكان سليمان محاربًا، وكان قائدًا كبيرًا، ولهذا لم يوص له، ولكنه رأى أن يترك الأمر للظروف، فنادى ابنه الأصغر عبد الله، وكان سليمان وهشام بعيدين عن قرطبة عندما حلت به الوفاة، فنادى ابنه عبد الله وقال له: من جاءك قبل الآخر من الأخوين فأعطه

(١) ابن عذارى ٢ / ٦٠.

كتابى بولاية العهد، وكان سليمان محارباً عنيفاً، فى حين كان ابنه هشام ليِّناً، ولكنه كان مريضاً، فكان الذى وصل إلى قرطبة أولا هو هشام بن عبد الرحمن فصارت إليه خلافة أبيه.

وينبغى أن نقول : إن هشاماً إذا كان قد استطاع الحكم فالفضل لأبيه ولموالى بنى أمية، فقد وقفوا إلى جانبه وأيدوه.

ولاية هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل :

كنيته : أبو الوليد.

مولده : ١٣٩هـ / ٧٥٦م.

أمه تسمى جمال.

نقش خاتمه: بالله يثق عبده هشام وبه يعتصم.

صاحب شرطته: عبد الغافر بن أبى عبدة.

وزراؤه ثمانية.

كتَّابه اثنان: فطيس بن عيسى، وخطاب بن زيد.

قاضيه: المصعب بن عمران.

صفته: أبيض مشرب بحمرة، بعينيه حول.

حاجبه: عبد الرحمن بن مغيث.

بنوه الذكور ستة، والإناث خمس.

بويع له يوم الأحد مستهل جمادى الأولى من سنة (١٧٣هـ/ أكتوبر ٧٨٩ بمدينة ماردة،

فوافاه الخبر فطرق، ووصل قرطبة بعد ستة أيام فبايعه الخاصة والعامة وكان أخوه بطليطلة، وكان أكبر سنا منه، فلما بلغه خبر أبيه حشد الحشود، وجند الجنود يريد قرطبة مخالفا لأخيه، فلما حصل بجيان، وخرج إليه هشام فى أجناده، والتقى معه بجهة بلج، فوقعت بينهم حرب شديدة، فانهزم سليمان وأسلم عسكره وفر على وجهه، وقفل هشام إلى قرطبة ظافرا فى أجناده.

وتوفى هشام ليلة الخميس لثلاث خلون من صفر ١٨٠هـ/ فكان عمره أربعين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام، وكانت مدة خلافته وولايته سبع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام.

وقال ابن عذارى: قال الرازى: ولما صار الأمر إلى هشام واتصل ذلك بسليمان أخيه أخذ بيعة أهل طليطلة وما جاورها لنفسه وغلب عليها، وشغله أمر أخيه ثار سعيد بن الحسين الأنصارى بساغنت من إقليم طرطوشة وسار إلى سرقسطة وأخرج منها وإليها، وضرب بين الناس ودعا إلى نفسه، فأرسلها يمانية ومضرية، وحشد موسى بن فرتون إلى سرقسطة فأخذها، وكان على دعوة المضرية فالتقى مع الأندلسيين، وكانت بينهم حرب فقتل منهم جماعة ودخل سرقسطة، ثم دخل مطروح بن سليمان الأعرابى على دعوة أبيه من برشلونة، فتغلب على وشقة وسرقسطة والثغر كله ١٧٣هـ/ ٧٨٩م.

وفى سنة ١٧٣ طمحت نفس عبد الله اليلنسى أخى هشام إلى الإمارة، وهى كانت فى يده أولا، ولم يرض منه إلا بمشايحته، وذلك بعد سبعة أشهر من وفاة والدهما وكان هشام يبره ويترضاه، ويفضله على الكثير من إخوته، فلم يقنعه ذلك وخرج يريد أخاه سليمان بطليطلة، فلما بلغ الأمر إلى هشام اشفق من ذلك وأرسل إليه من يرضيه ويرده، فلم يدركه ومضى عبد الله حتى قدم طليطلة.

وأستمر هنا فى نقل كلام ابن عذارى، فهو مهم جدا هنا فى هذه المناسبة، قال: وخرج هشام

إلى أخيه بطليطلة، فلما نزل عليه خرج سليمان مستخفيا وخلف أخاه عبد الله وابنه داخل المدينة، ونهض يريد انتهاز الفرصة، فطوى المراحل حتى احتل بشقندة، فخرج أهل قرطبة مدافعين له، وبلغ هشاما خبره، فلم يكترث لذلك ووجه ابنه عبد الملك يقفو أثره، فلما قرب منه ولّى سليمان منهزما وقطع على غير وجهه حتى خرج متعسفًا إلى ناحية مارده، وكان عاملها حدير المعروف بالمذبوح فخرج إليه فهزمه، وتمادى الأمير هشام فى حصار طليطلة شهرين وأياما ثم قفل عنها(١).

وقد كانت متاعب هشام مع أخوته كثيرة لأنهم استكثروا عليه الخلافة، وقد استمرت ثوراتهم عليه معظم خلافته القصيرة.

ولكن قائده يوسف بن بخت، وكان من كبار أبناء الموالى، غزا إلى جليقية سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م وهناك التقى مع ملك ليون برمودو الكبير وواضعه الحرب، فانهزم برمودو وانتهب المسلمون عسكره، وقتل فيهم مقتلة عظيمة وحز من رؤرسهم عشرة آلاف، سوى من لم يتمكن منه ممن قتل فى الوعر، وإلى هذا الفتح ضمت قرطبة بعد فتح أبى عثمان، ذكر ذلك الرازى وغيره.

وفى سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٢م أغزى الإمام هشام بن عبد الملك عبد الواحد بن مغيث بالصائفة إلى أرض الروم، وهى غزوة شهيرة الخبر، جليلة الخطر، انتهى فيها إلى إفرنجة فحاصرها وثلم بالمجانيق أسوارها، وأشرف على بلاد المجوس وجال فى بلاد العدو، وبقى شهورا يحرق القرى ويخرب الحصون، وأوقع بمدينة أربونه، وكان فتحا عظيما بلغ فيه خمس السبى إلى ٤٥ ألفا من الذهب.

وفى السنة التالية (١٧٨هـ/ ٧٩٣) هاجت الفتنة بتاكرنا (جنوب قرطبة وهى مالقة) وخالف بربرها وأغاروا على الناس وقتلوا وسبوا، فأعذر إليهم هشام ثم بعث إليهم الأجناس فقتل أكثرهم وفر سائرهم إلى طلبيرة ترجيه وظلت بلاد مالقة بعد ذلك سبع سنين خربة غير مسكونة.

---

(١) ابن عذارى ٢ /٦٢–٦٣.

وفى السنة التالية ١٧٩هـ/ ٧٩٤م أغزى الإمام ابن عبد الرحمن عبد الكريم بن مغيث بالصائفة، فسار حتى انتهى إلى استورجا مغيث داخل جليقية فبلغه أن ملك ليون حشد بلاده بالجند واستمر البشكوس وأهل تلك النواحى التى تليه من المجوس فى اشتورياس وهى بالإسبانية Los Picos de Eusopa وأنه غزاهم ما بين حيز جليقية والصخرة وأنه أذن لسكان السهل بالتفرق فى شواهق جبال السواحل فقدم عبد الكريم بن فرج بن كنانة فى أربعة آلاف فارس ثم رحل فى أثره فلاقى أعداء الله فقاتلهم حتى انهزموا ووقع الكثيرون من أهلها أسرى بين يديه فقتلهم بعد الغزوة، وبث الجند فى القرى وخربت كل ما مرت من رروعهم وعمارتهم.

ثم تقدم بعد ذلك إلى واد يسمى كويّيه ولقى بها غندماره Gondomaro وهو فى ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى هزمه وأخذ غندماره أسيرا وقتل من أصحابه عدد كبير.

وكان هشام رجلا حسن الأخلاق، ولكن يبدو أن هذا كان سياسة منه ليحبه الناس ويطيعوه، لأنه فى نفس الوقت قتل اثنين من أبناء موالى بنى أمية فى الأندلس، ثم سارع باسترضاء أبويهما، كأنه خاف من أن يفسد البناء الضخم الذى شاده أبوه، ولكنه على أى حال لم يحكم إلا سبعة أعوام، وكان مريضا، وربما كان المرض هو الذى علمه الحكمة وأرغمه عليها.

وكانت للرجل عناية بالمبانى والمنشآت، وقد أعاد بناء قنطرة الوادى الكبير، لأنها كانت قد تهدمت، وأنفق فى ذلك مالا جسيما، وبعد أن فرغ من بنائها تكلم بعض الناس فيه وقالوا : إنه بناها لتصيده ونزهته، فحلف، حين بلغه ذلك، ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة[١].

قال القاضى أبو معاوية: أدركت صدرا من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدعة والعاقبة والهدوء بحيث لم يعلم لها مثل، وكان يحضر الجنائز ويزاحم فيها كأنه أحد من الناس لتواضعه.

(١) ابن عذارى، البيان ٢ /٦٦

وكان لبعض رجال هشام خصومة عن القاضى، وكانت الخصومة فى داره، فنهض الرجل إلى هشام وقال له : إن القاضى سجل علىّ فى دارى التى كنت أسكنها وأخرجنى منها، فقال له هشام: وماذا تريد منى؟ والله لو سجل على القاضى فى مقعدى هذا لخرجت عنه انقيادا منه للحق.

قصة الكنانى مع هشام بن عبد الرحمن :

كان قبل خلافته يقعد في علية مطلة على النهر، ينظر منها إلى الربض وتقع عينه على من يخطر عليه، فنظر يوما فى الهاجرة إلى رجل من بنى كنانة، وكان من صنائعه مقبلا من باديته بجيان، وكان أخوه سليمان واليا عليها، فدعا فتى له وقال له: أرى الكنانى صنيعنا مقبلا فى هذه الظهيرة، وما أحسب ذلك إلا لخطب أقلقه من أبى أيوب أخى، فإذا وصلك فأدخله على كما هو، ففعل الفتى ما أمره، وكانت مع هشام جارية له، فلما دنا الكنانى رفع سترا كان خلفه، ثم قال للكنانى بعد أن سلم عليه: يا كنانى، لا أحسبك إلا قد دهمك أمر، فقال له الكنانى: قتل رجل من بنى كنانة خطأ، فحملت الدية على العاقلة فأخذت بنو كنانة عامة، وحيف علىّ من بينهم خاصة، لما عرف أبو أيوب بمكانى منك، فعذت بك من ظلامتى، فقال له: يا كنانى، ليفرج روعك وليسكن جأشك، لا جرم، قد تحمل هشام عنك وعن قومك جميع الدية، ثم مد يده خلف الستر، فأخرج عقدا كان على جارية له ثمنه ثلاثة آلاف دينار، وقال له : خذ هذا العقد فأدّ من ثمنه، وتوسّع فى الباقى، فقال له الكنانى: لم آتك مستجديا، ولا ضاق لى مال عن أداء ما حملته، ولكنى أتيتك مستجيرا بك لما أُصبت بالعدوان والظلم فأحببت أن تظهر على من عز نصرك قال له أن يكتب الأمير أعزه الله إلى أبى أيوب فى الإمساك عن أخذى بما لم يجب علىّ وأن يحملنى محمل أهلى، فقال له هشام : خذ العقد لأهلك ولنفسك إلى أن ييسر الله ما ذهبت إليه من أمرك.

ولايـــة عبـــد الرحمـــن (الأوســـط)
ابـــن الحكـــم ابـــن هشـــام:

كنيته أبو المطرف وأمه تسمى حلاوة. ولد سنة ١٧٦هـ/ ٧٩١م وتولى سنة ٢٠٦هـ ٨٢١م فكأنه حكم وسنه ثلاثون سنة، وهو من أعقل بنى أمية الأندلسيين، وقد أراح هذا الرجل نفسه من متاعب الفقهاء فترل القضاء فى يد فقيه كبير وعاقل جدا، هو يحيى بن يحيى الليثى، وكان رجلا قويا جدا رغم هدوئه، وكان إذا لم يعجبه قاض قال له: استعف وإلا رفعت بعزلك، فكان يستعفى، وإلا أشار يحيى بن يحيى الليثى بعزله فيعزل.

وعبد الرحمن هذا كان صبورا جدا، وإن كان إذا جاء وقت الجد تجده من أشد الحكام سطوة.

وكانت العادة فى تلك العصور أن الأمير عندما يتولى ينتهز أول فرصة تتاح له ليضرب الضربة التى يعرف الناس بها من هو، وقد جاءت الفرصة لعبد الرحمن ليضرب ضربته المثيرة بعد سنتين من ولايته أى سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣، وكان أعداء الإسلام فى شبه الجزيرة قسمين: قسم فى اشتورياس شمالى الجبال الكنتيرية وهى اشتورياس التى امتدت جنوبى الجبال الكنتيرية واحتلت ليون وكانت لهذا تسمى مملكة اشتورياس وليون وتدخل فيها كولونيا، وهى الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة وفيه لوجد، التى تسمى فى نصوصنا العربية لك، وفيمو ولاكورونيا، وملوك هذه المملكة هم من بقايا القوط الغربيين وهم الذين سيعيدون بناء إسبانيا النصرانية، وقوة المقاومة الأخرى للمسلمين هى جبال البرت أو ابواب، وكانت توجد فيها ممرات تؤدى إلى فرنسا، وكانت تقع فيها إمارات كثيرة، ولهذا فقد كانت أخطر من استورياس وليون.

وقد بدأت المعركة بين الأندلس، وهو الأندلس الإسلامى، وبقية شبه الجزيرة بعد سنتين من ولاية عبد الرحمن أى سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م.

ومعظم الأمراء الأمويين الذين ذكرناهم فيما مضى كانوا سمرا، وبعضهم كان شديد السمرة، ولا أعرف من أين جاءهم ذلك الدم الأسود.

وقد أرسل عبد الرحمن غزاة إلى الناحية الشرقية أى ما نسميه نحن جبال البرت، وكانت مملكة المسلمين فى غربى هذه الجبال تسمى ألبة والقلاع A'lava los Castillos.

وقد أرسل عبد الرحمن إلى هذه الناحية قوة يقودها عبد الكريم بن عبد الواحد (ابن مغيث) وهو قائد الصائفة فى تلك السنة فأسرع واحتل بالثغر وهو منطقة جبال البرت والثغر هنا كان يسمى أربونه، وكانت قبل المسلمين قرية فى جنوب غالة وهى فرنسا، ولكن المسلمين مدنوها واعتبروها قاعدتهم العسكرية فى جبال البرت وهم يسمونها أربونه، وتوفت عليه الجنود، واختلفوا من أى الممرات ينفذون إلى غالة وهى فرنسا، ثم استقر رأيهم على أن يكون العبور من باب ألبة A'lava أى من غربى الجبال.

وابن عذارى يقول إن ذلك الباب كان «أنكى للعدو وأحسم لدائه».

فاقتحموا من فج أو ممر يقال له فج جرنيق El paséode Garnicos وكان يؤدى إلى سهل فى جنوب غربى غالة، فوقع جنود الإسلام على هذا السهل وما فيه من خزائن وذخر فاستأصل المسلمون تلك البسائط وأقفروها وانصرف المسلمون منتصرين.

وقد كثرت الثورات فى شرق الأندلس فى أيام عبد الرحمن الأوسط، ووقعت معركة بنى المضرية واليمنية فى مرسية تشبه يوم المصاره، وقد كثرت الوقائع قرب مرسية وكان النصر فى معظم هذه الوقائع للمضرية.

ويقول ابن عذارى هنا: وذلك أحد عجائب الدهر.

وفى سـنة ٢١٠هـ/ ٨٥٢م أمـر الأميـر ببنـاء مسـجد جيان، وفى نفس هذه السنة كتب عبد الرحمن إلى عامل تدمير بأن ينزل بمرسية (بدلا من تدمير) ويجعلها قاعدته، وأمر بهدم مدينة آله Allo (ولم أتعرف عليها) وكان عامل جيان يسمى، مرة، وورث ولايتها عنه ابنه فرج.

وفى سنة ٢١١هـ/ ٨٢٦ ثار طوريل متاكرنا فأرسل إليه الأمير عبد الرحمن بن معاوية ابن غانم فقضى عليه.

وفى السـنة التاليـة (٢١٢هـ/ ٨٢٧م) أرسل الأمير عبد الرحمن بن معاوية عبيد الله بن عبد الله البلنسى من كبار قواده بالصائفة، فجال فى هذه الناحية وانتسفها حتى غزا برشلونة وتردد فى تدويخها ستين يوماً.

وفى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م تمكن قواد عبد الرحمن من أن يقطعوا الفتنة بتدمير واستنزال شيوخ العرب مثل أبى الشماخ وصاروا من رجال الأمير عبد الرحمن.

ويبدو أن العرب كانوا منبع الثورة والفساد فى الأندلس، وقد تزعمهم فى أول أيام عبد الرحمن رجل سمى بالضراب لأنه انتهز فرصة خروج عبد الرحمن من قرطبة ليدخلها، وكان معه ألوف الرجال معظمهم من العرب وضرب منطقة الحدادين، وأصل هذا الرجل - الضراب - من طليطلة وهو من أهل البلاد، وقد حارب العرب والبربر وانتشر صيته، وخرج إلى طليطلة وثار بنفر من أهلها، وقد أوقع هذا الرجل بالبربر فى شنت برية الغرب فأخرج إليه عبد الرحمن بن معاوية محمد بن رستم فحاربه طويلا، واستمرت الحرب بين محمد بن رستم وهاشم الضراب إلى سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م - ٢١٧هـ / ٨٣٢م وقد انهزم هاشم الضراب أمام محمد بن رستم وقتل فى سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م.

وفى سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م كانت نهاية حركة هاشم الضراب، قضى عليه محمد بن رستم كما قلنا، وكذلك حاصرت قوات الأمير عبد الرحمن ماردة فى غرب الأندلس حتى فر منها الكثير من أهلها وقتل منهم كثير.

ويذكر ابن عذارى كسوف الشمس فى الأندلس سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م.

يقول ابن عذارى : وفى سنة ٢١٨هـ كان الكسوف العظيم الذى توارت معه الشمس وبدا الإظلام، وكان ذلك قبل زوال الشمس فى أواخر رمضان.

وفيها استوزر الأمير عبد الرحمن ابن شهيد واستحجبه.

عبد الرحمن الداخل يزيد مساحة مسجد قرطبة الجامع :

وفيها قامت الزيادة فى المسجد الجامع بقرطبة من الأرجل التى بين السوارى إلى القبلة.

وفى سنة ٢١٩هـ / ٨٣٤م غزا بالصائفة أمية بن الحكم إلى طليطلة وحاصرها، ثم قفل العسكر بعد أن أتلف زروعهم وقطع ثمارهم وأبقى بقلعة رباح ميسرة الفتى لمحاصرة طليطلة فخرج جمع عظيم من طليطلة يريدون قلعة رباح، فبلغه خبرهم، فجمع الجموع وكمن الكمائن، فلما قربوا منها وفرقوا خيولهم فى الغارة، خرجت عليهم الكمائن فقتلوا منهم كثيرين وحزت رؤوسهم، فجمعت بين يدى ميسرة، واجتمعت منها جموع كثيرة، فلما رأى ذلك ارتاع وداخله الندم، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى مات ندماً وأسفاً.

وفى سنة ٢٢٠هـ /٨٣٥م خرج عبد الرحمن غازيا، فجعل صدر وجهته على طليطلة، وولى أبا الشماخ قلعة رباح، وابقى عنده خيلا كثيفة ورجالا كثيرة لمناهضة طليطلة، وتقدم هو إلى كور الغرب، وكان سليمان بن مرتين قد تحيل عليه يحيى الماردى، فأخرجه من ماردة، فكان فى

قنن الجبال حينا، فحل عليه الأمير فى هذه الغزاة وحاجره حتى ضاق سليمان بن مرتين فى الحصن، فخرج ليلا، فبينا هو يمشى إذ وافق صخرة ملساء على وجه الأرض، فزلق به الفرس فسقط ومات ووجده رجل فاحتز رأسه وادعى قتله ثم عُرف آمره.

وفى سنة ٢٢٠هـ /٨٣٦م افتتحت طليطلة وكان السبب فى ذلك أن ابن مهاجر خرج عنها ونزع إلى قلعة رباح، واستدعى القواد فخرجوا إليه فنهض بهم إلى أبواب المدينة، وقطع عنهم مرافقتهم، فكان ذلك أقوى الأسباب فى افتتاحها، وكان الأمير قد بعث عبد الواحد الإسكندرانى، فوجدهم قد بلغ بهم الجهد فافتتحها قهرا، ودخلها على حكمه، وأمر بتجديد القصر الذى كان عمروسى قد بناه فى أيام الحكم على باب الجسر، وقيل : إن الذى افتتح طليطلة الوليد بن الحكم، وجهه إليها أخوه عبد الرحمن.

وفى سنة ٢٢٤هـ/٨٤٠م أغزى الأمير عبد الرحمن ابنه الحكم إلى دار الحرب، وأمره بالتجول فى جهات الثغور ليتعرف أخبارها ومصالحها، وأمر بإصلاح قنطرة سرقطة، ودخل الأمير الحكم (ابن عبد الرحمن) إلى دار الحرب بالصائفة فدوخها وقتل من المشركين ما لا يحصى، واجتمع من رؤوسهم كالجبال، حتى كان الفارس يقف من ناحية فلا يرى صاحبه من الناحية الأخرى.

وهذه الحروب كلها قام بها عبد الرحمن الأوسط وهو لم يشتهر بالحرب، وإنما هو اشتهر بأنه رجل سلام وجهود أدبية، أو قل معنوية، وإنما هذا هو الأندلس لا يسوده ويستقر فيه أحد إلا بمثل هذه الأعمال.

وسنرى ماذا سيحدث للأندلس الإسلامي عندما يتولى أمره أمراء لا تجرى فى شرايينهم أنهار الدماء، وإن كانوا هم عباقرة فكر مثل هشام بن عبد الرحمن.

هذا ونقطة الضعف الكبرى هنا أن الأمراء لم يجتهدوا في أن يكون الأندلس وطنا للعرب

والمسلمين، وليس من الضرورى أن يكون الأمير فى هذه الحالة فارسا بيده السيف فحسب بل يحتاج الأمر إلى عقل وقلب، وهذان لا يستقيمان أن تكون لهما السيادة والدماء تجرى، والحق أن المسلمين لم يعرفوا قط كيف يحكمون الأندلس، ولو عرفوا كيف يحكمونه ما فقدوه، لأن الأندلس النصرانى كان مركز اهتمام البابوية، وكان كل غربى أوروبا يتبع البابوية، ولو قتل الحاكم المسلم نصف سكانه من النصارى لتجددوا من الغد من كل غرب أوروبا، ولم يكن الأندلس أو إسبانية النصرانية ولاية لأحد، ولكنه كان ملك البابوية وحصن غربى أوروبا كله، وكانت أوروبا إذ ذاك فى عصور البناء، وكان غرب أوروبا بلدا واحدا أمام الإسلام وما كان ليدوم إسلاميا إلا إذا نقل المسلمون إليه مليونا من أهل المغرب الأبطال ليعمروا كل ركن فيه بالناس والجند.

ومن سوء حظ المسلمين أن المغرب نفسه استهلك نفسه فى الدفاع عن الإسلام فى الأندلس، ولكن هذا لم يكف، لأن أوروبا لو خسرت معركة الأندلس لكانت هى الضائعة، وفى التاريخ أشياء ممكنة وأشياء غير ممكنة، وشبه الجزيرة المسلم كان من الأشياء غير الممكنة، وكان لا بد أن يضيع فى معركة التاريخ الطويلة، وقد بذل المسلمون جهدا عظيما للحفاظ على الأندلس، كما ترى، ولكنهم خسروا فى النهاية، لأن أوروبا لو كانت قد خسرت معركة بلاط الشهداء لما كانت موجودة اليوم وهذا كان مستحيلا، وإنما أردت أن أقول ذلك وأنا أؤرخ لأمير عظيم من أمراء الأندلس الإسلامى، وقد رأيت ما فعل، وهو ليس بالقليل أبدًا.

والحقيقة أن عبد الرحمن الداخل ما كان ليستطيع أن ينشئ دولته المصرية التى أنقذت البلد من الضياع إلا بهذا العنف، لأن المصريين القدماء لم يكونوا بالشعب المسالم أو المطواع، وجغرافية بلادهم تساعدهم على ذلك، فإن عدد سلاسل الجبال فى شبه الجزيرة أكثر من عدد الأنهار، وهى تسير موازية لها تقريبا، فإن بين كل نهر ونهر جبلا، والجبال جنان الثوار.

ولا تظن أن الدولة الأموية الأندلسية عندما سقطت سنة ٤٢٣هـ /١٢٠٢م لم تعد قادرة على إنجاب الأمراء القادرين على الحكم، لأن الحقيقة أن الأندلس ظلت ترى الأمراء الأقوياء، ولكنها كذلك لم تعجز عن إنجاب الثوار، فإذا كان الأمراء يسعدون فى وديان الأنهار فإن الثوار يولدون فى الجبال.

وأنا أقول هـذا ليعلم القارئ قـدر عبـد الرحمـن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم وابنه عبـد الرحمن الأوسط، فقـد كان هؤلاء رجالا فى الغاية من المهارة، ولكن شعب الأندلس فى أيامهم كان شعبا ضخما قويا، وكذلك كان شعب المغرب.

أما بعد سقوط الخلافة فقد انتهى ذلك كله، وأصبح شعب الأندلس الإسلامى ضعيفا قليلا وغير قادر على سيادة شبه الجزيرة، وقد انتصرت قشتالة وليون ودول جبال البرت وأهمها وأكبرها نبرة Navarra وعندما تزوجت إيزابلا ملكة ليون من فرناندو الثالث أكبر ملوك البرت وظهرت قوة إسبانية النصرانية وتمكنت من التغلب على المسلمين دون صعوبة وظهرت إسبانية النصرانية بكل قوتها.

المجوس فى الأندلس:

ثم إن موقع شبه الجزيرة الأيبيرية الجغرافى نفسه يستدعى الأعداء، ويكفى أنه فى ذلك العصر دخل المجوس مجرى الوادى الكبير، وإنما سماهم المسلمون المجوس لأنهم كانوا يسرفون فى استعمال النار فكانت سفنهم تدخل مثلا مجرى الوادى الكبير حتى تصل إشبيلية ثم ينزل المقاتلون إلى الشواطئ ويشعلون النار، إلى جانب القتل والسلب والنهب أما المجوس أنفسهم فكانوا نورمانا من أهل شمالى أوروبا، ومعظمهم كانوا من شبه جزيرة جوتلاند وشواطئ إنجلترا وشبه جزيرة السويد والنرويج، ولم يكونوا قد تحضروا بما فيه الكفاية بعد.

والمهم عندنا هنا هو أن نقول : إن المسلمين حتى فى أيام هؤلاء الأمراء الأقوياء كانوا - من عاصمتهم الجنوبية قرطبة - عاجزين عن السيطرة على شبه الجزيرة سيطرة تامة، كان لا بد لهم من نقل عاصمة دولتهم الإسلامية إلى طليطلة ليكونوا فى موقع يستطيعون منه السيطرة على شبه الجزيرة، والنصارى أنفسهم فعلوا ذلك وسيطروا به على شبه الجزيرة، فما كاد فرناندوا السادس يستولى على طليطلة من يد أمير طوائف ضعيف سمي نفسه بالمأمون حتى نقل إليها عاصمة دولته، دولة قشتالة وليون سنة ١٠٨٦م، وبهذا أصبح أقوى ملك فى شبه الجزيرة.

وأنقل لك هنا خبرا من أخبار غارات المجوس على الأندلس، إنه خبر طويل، ولكنه يغنينا من جهد كبير بعد ذلك.

قال ابن عذارى : فخرج المجوس فى نحو ثمانين مركب كأنما ملأت البحر طيرا وحوتا كما ملأت القلوب شجوا وشجونا، فحلوا بأشبونه ثم أقبلوا إلى قادس ثم إلى شذونة ثم قدموا على إشبيلية فاحتلوا بها احتلالا، ونازلوها نزالا، إلى أن دخلوها قسرا، واستأصلوا أهلها قتلا وأسرا، فبقوا بها سبعة أيام، يسقون أهلها كأس الحمام، واتصل الخبر بالأمير عبد الرحمن (الأوسط ابن الحكم) فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب، واتصل به المسلمون اتصال العين بالحاجب، وتوجه بالخيل عبد الله بن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد، واحتل (الأمير عبد الرحمن الأوسط) بالشرف وكتب إلى عمال الكور فى استنفار الناس، فحلوا بقرطبة، ونهض بهم نصر الفتى، وتوافت المجوس مراكب على مراكب، وجعلوا - يريد المجوس - يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون الصبيان، وذلك بطول ثلاثة عشر يوما، ذكر ذلك فى « بهجة النفس » وفى « درر القلائد » سبعة أيام، كما تقدم، وكانت بينهم وبين المسلمين ملاحم.

ثم نهضوا إلى قبطيل، فأقاموا بها ثلاثة أيام، ودخلوا قورة Cora على اثنى عشر ميلا من

إشبيلية، فقتلوا من المسلمين عددا كثيرا، ثم دخلوا إلى طليطلة (فيها مطار إشبيلية اليوم) على ميلين من إشبيلية، فنزلوها ليلا، ونهضوا بالغداة بموضع يعرف بالفخارين، ثم مضوا بمراكبهم، واعتركوا مع المسلمـين، فانهـزم المسلمـون وقتل منهم ما لا يحصى، وذلك بعد أن وجه الأمير عبد الرحمن قواده فدافعهم ودافعوه فنصبت المجانيق عليهم وتوافت الأمداد من قرطبة إليهم، فانهزم المجوس وقتل منهم حوالى خمسمائة علج، وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها، فأمر ابن رستم بإحراقها بما فيها، وبيع ما فيها من الفيء.

ثم كانت الواقعة عليهم بقرية طلياطة يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر من السنة (٢٣٠هـ/ أكتوبر٨٤٤م) وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركبا، وعلق من المجوس بإشبيلية عدد كثير، ورفع منهم فى جذوع النخل التي كانت بها، وركب سائرهم مراكبهم وساروا إلى نبله، ثم توجهوا منها إلى الأشبونه فانقطع خبرهم.

وكان احتلالهم الأشبونة يوم الاربعاء لأربع عشرة ليلة من سنة ٢٣٠هـ/ ٢٤مارس سنة ٨٢٥م وكان بين دخولهم إلى إشبيلية وخروج من بقى منهم وانقطاعهم اثنان وأربعون يوما، وقتل أميرهم كثيرين جدا وجاءهم العقاب نقمة من الله وأبادهم، عذابا من الله وجزاء بما كسبوا وعقابا.

ولما قتل الله أميرهم وأفنى عديدهم وفتح فيهم فرجت الكتب إلى الأفاق بخبرهم، وكتب الأمير عبد الرحمن (الأوسط) إلى من بطنجة من صنهاجة يعلمهم بما كان من صنع الله فى المجوس، وبما أنزل فيهم من النقمة والهلكة، وبعث إليهم برأس أميرهم وبمائة رأس من أنجادهم[١].

الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط وابناه : عبد الله والمنذر :

وفى السنة التالية (٢٣١هـ/٨٢٦م) غزا بالصائفة جليقية محمد ابن الأمير عبد الرحمن

(١) ابن عذارى ٢ /٨٦ – ٨٨.

(الأوسط) فحصرها وحصر مدينة ليون ورماها بالمجانيق، فلما أيقنوا بالهلاك خرجوا ليلا، ولجأوا إلى الجبال والغياض، فأحرق ما فيها، وأراد هدم سورها فوجد سعته ثماني عشرة ذراعا، فتركه، وأنزل بالروم وبلاد الشرك قتلا وسبيا.

وفي السنة التالية (٢٣٢هـ /٨٢٧م) قحطت الأندلس قحطا شديدا وكانت فيها مجاعة عظيمة حتى هلكت المواشي واحترقت الكروم وكثر الجراد.

سوء الإدارة في أيام الأمراء: محمد وعبد الله والمنذر:

وهذه القحوط والمجاعات التي نقرأ عنها في كتب تاريخنا تأتي دائما نتيجة لسوء الإدارة، وسوء الإدارة هذا إنما يأتي من تركيز الأمراء كل السلطات في أيديهم، فلا شيء يعمل إلا بأمرهم، وذلك يأتي من خوف الأمراء من رعاياهم، فإن الأمير ما كان يترك سلطة بيد أحد موظفيه حتى يسيء استغلالها، وكأن المفروض أن الأمير لا بد أن يعمل كل شيء بنفسه حتى يطمئن على عرشه.

ومن هنا فإننا سنرى أنه بعد أن سقطت الخلافة الأموية الأندلسية لم يستطع أمير آخر أن يعيد الدولة إلى سابق قوتها، وليس ذلك لضعف الأمراء فحسب، بل لأنه كان مستحيلا أن يجد الأندلس أميرا يجمع كل السلطة في يديه كما كان الأمر في الماضي.

وفي بلاد الإسلام الأخرى كانت أزمات الحكم كثيرة وكانت الدول الإسلامية الأخرى تقوى وتقوم بسد الفراغ وتسيير الأمور، ولكن الأندلس كان ثغرا والأعداء يحيطون به من كل جانب، وإسبانيا النصرانية لم تكن شبه الجزيرة فحسب، بل كانت أوروبا كلها والبابوية معها، ولهذا لم تكن أمام الأندلس فرصة لإعادة بناء الخلافة، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، وكان لا مفر من ذلك، ولا مفر من ضياع الأندلس أيضا، لأن أعداء الإسلام هناك كانوا كثيرين.

وفي سنة (٢٣٤هـ / ٨٢٩م) أمر الأمير عبد الرحمن (الأوسط) بغزو جزائر البليار،

فتوجهت العساكر إلى أهل جزيرة ميورقة لغزو بلادهم ومعاقبتهم على نقض العهد وإضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين، فغزتهم ٣٠٠ مركب ودخلت جزائر البليار فى دولة الأندلس ثم إسبانيا النصرانية من بعدها، وهنا فصل حاسم من تاريخ شبه الجزيرة.

وفى تلك السنة (٢٣٤هـ / ٨٢٩م) توفى يحيى بن يحيى الليثى فاستراح القضاة من همه - كما يقول ابن عذارى - وهو على حق فى هذه العبارة، لأن يحيى بن يحيى كان فقيها عظيما ولكنه كان - بصفته قاضى قرطبة - رئيس كل القضاة أو شيئا شبيها بوزير العدل، وكانت عينه دائمة النظر فى أمر القضاء، فكان كل منهم يخاف منه، لأنه كان إذا أراد من قاض أن يستقيل لعدم صلاحيته أو لخطأ جسيم ارتكبه كان يأمره بالاستعفاء أو رفع أمره إلى الأمير فأقاله.

وفى سنة ٢٣٥هـ / ٨٣٠م جاء ناس إلى الأمير يشكون مما فعل بهم المسلمون عند خروجهم من الجزائر حاسبين أن المسألة مسألة احتلال، ولكنها كانت فى الحقيقة كانت ضما للجزر إلى الأندلس، وقد طمأنهم الأمير وأعاد إنذارهم، ولكن الجزر لم تخرج قط من التبعية إلى شبه الجزيرة، وما زالت على ذلك إلى اليوم، وكانت قبل أن يقوم عبد الرحمن الأوسط بغزوها مطلقة قائمة بأمرها، وتحول الحكم الإسلامى فى الجزائر إلى ضمها نهائيا لشبه جزيرة أيبريا، وهذه من الخدمات الكبيرة التى قام بها المسلمون لإسبانيا.

وفى نفس السنة كان هناك سيل عظيم بمجرى الوادى الكبير، وقد خرب هذا السيل القنطرة القائمة على نهر شنيل، وهو نهر غرناطة، وذهب السيل أيضا بقوسين من حنايا قنطرة استجة، وخرب السيل أسداد الأنهار وذهب بست عشرة قرية من قرى إشبيلية على النهر الأعظم (وهو اسم كان يطلق أحيانا على الوادى الكبير) وذهب بقنطرة قرطبة، وصار عرض هذا النهر ثلاثين ميلا، مما يدل على أن نهر الوادى الكبير كان فى العصور الإسلامية أضخم بكثير مما هو عليه اليوم، وفى

السنة التالية تنبأ رجل من أهل الأندلس وأعلن الخروج على الإمارة واتبعه كثير من الناس، وأصبح شرا كبيرا فأرسل إليه الأمير عبد الرحمن الأوسط واحدا من كبار أمراء بنى أمية وهو يحيى بن خالد فذهب إليه وقص عليه وأتى به إلى الأمير.

ومن غرائب المتنبى ذلك أن دعا الأمير إلى اتباعه، فأمر الأمير بصلبه، ولم يتنازل الرجل عن نبوءته وهوعلى خشبة الصلب، ولكن يبدو أن الذين اتبعوه لم يكونوا كثيرين لأن يحيى بن خالد لم يجد صعوبة فى التغلب عليه.

وفى ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٨هـ /٢٤أغسطس ٨٥٢ توفى الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد حكم طويل وعمر قصير، وهو يعتبر من عظماء أمراء البيت الأموى الأندلسى.

امير الاندلس هشام بن الحكم:

والأمير عبد الرحمن الأوسط واسطة عقد بنى أمية الأندلسيين، وكان - كما رأينا - نشيطا ذكيا، وقد خُلق ليكون أميرا، ومنحه الله من الصفات ما يسر له أن يكون أميرا صالحا، وكان - كما يقول المقرى فى نفح الطيب - شاعرا أديبا ذا همة عالية وكانت له أشياء ينشدها الناس.

وقد مرت الأندلس فى أيامه بأزمات عنيفة كثيرة ولكنه خرج منها سالما، وكان عبد الرحمن واسع النشاط فى الميدان العسكرى، وكان يخرج للجهاد فى العدد الجم من المقاتلين، وكان مع طيبة أخلاقه وبياض قلبه كان فى مغازيه يخرب فى ديار الأعداء ويعفى آثارهم، ولم يلق المسلمون معه بؤسا أو هزائم نكراء لشدة اعتداده بالجهاد وعظيم نفقته فيه.

قال ابن عذارى ضمن كلام كثير فى صفات عبد الرحمن (الأوسط) : وكان شاعرا أديبا ذا همة عالية، وكانت له غزوات كثيرة وفتوحات فى دار العدو شهيرة، يخرج إليها فى العدد الجم

والعسكر الضخم، يخرب ديارهم، ويعفى آثارهم ويقفل ظاهر الاعتلاء قاهر الأعداء، لم يلق المسلمون معه بؤسا، ولم يروا فى مدته يوما عبوسا، وهو أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكُسِيَ أبهة الجلالة فشيد القصور وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف، وبنى المساجد الجوامع بالأندلس، وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطراز، واستنبط عملها، واتخذ السكة بقرطبة وفخم ملكه.

وفى أيامه دخل الأندلس نفيس الوطاء، وسيق إليه ذلك من بغداد وغيرها، وعندما قتل محمد الأمين ابن هارون الرشيد، وانتهب ملكه سيق إلى الأندلس كل نفيس غريب من جوهر ومتاع، وقصد بالعقد المعروف بعقد الشفاء وكان لزبيدة أم جعفر(١).

وتؤثر عن هذا الرجل حكايات تدل على سعة عقله منها حكاية الفتى الذى دخل عليه فى جماعة من الفتيان يحملون مالا فى خرائط أو أكياس، وبعد أن تسلم عبد الرحمن أكياس المال وعده خرج الفتيان إلا فتى من خصيانه، خلا بالأمير والمال، وقد نعس الأمير وأغفى إغفاءة حسب معها الفتى أنه نام فامتدت يده فى حرص وأخذ كيسا دسه فى ملابسه وأسبغها على الكيس، وعاد الخدم ليأخذوا المال، فلما عدوه تبينوا نقص الكيس واختلفوا واتهم بعضهم بعضا، وكان الأمير قد لحظ الفتى وهو يسرق الكيس فقال عبد الرحمن : اسكتوا عن هذا فقد أخذها من لا يردها وعاينه من لا يقولها .. قال ابن عذارى فكان هذا مما عد من كرمه وفضله(٢).

وقد كان الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) محبوبًا جدا فى أيامه لأنه كان شديد الاهتمام بسلامة بلاده، وكان ـ كما رأينا - لا يقعد عن إعداد الحملات وإرسالها إلى بلاد العدو أو السير إليها بنفسه، وكان شجاعًا جدا فى غزواته، فكان لا يدع ناحية من بلاد الأعداء إلا غزاها،

(١) ابن عذارى، البيان المغرب ٢ / ٩١.

(٢) ابن عذارى، البيان ٢ / ٩١ ، ٩٢.

وكانت لديه فكرة صحيحة وواضحة جدا عن بلاد الثغر، فكان إذا أرسل حملة إلى مملكة ليون وبعض نواحيها من بلاد كوروبيا أعقبها بحملة على دول جبال البرت مثل تولوز أو برشلونة أو مرسيليا، وكان ينتصر دائما، هذا إلى كرمه الواسع على جنوده.

وقد كان حكمه هو المدرسة التي تربى فيها عبد الرحمن الثالث، وهو ابن عبد الله بن محمد، ومن حسن الحظ أن حكمه طال حتى استطاع أن يفعل شيئا عظيما (٢٠٦هـ /٢٣٨هـ).

ومن أفضاله أنه جعل الأندلس الإسلامي مركزا عظيما في أوروبا، وكان مثالا للحاكم الإسلامي كيف يكون، وكان إلى جانب فضائله السياسية والعسكرية شاعرا حسن الشعر، وقد روى ابن عذارى والمقرى الكثير من شعره، وهو طيب يستحق الرواية.

إمارة محمد بن الحكم بن هشام
(يوم الخميس ٤ ربيع الآخر ٢٣٨ - ١٥ صفر ٢٧٥ هـ / مارس ٨٥٢):

هذا هو أول الأمراء الثلاثة الذين حكموا الأندلس بين عبد الرحمن الثاني (الأوسط) وعبد الرحمن الناصر، وقد قلنا إنهم أمراء صغار، لا لأنهم كانوا صغارا أو قليلي النشاط، فإنهم في الواقع في غاية النشاط، ولكنهم لم يكونوا يستمرون في العمل إلى نهايته الحقيقيه، فيقوم الواحد منهم بغزوات كثيرة ولكنها لا تصل إلى شيء هام.

كانت سنه حين تولى ثلاثين سنة وخمسة أشهر، وقد تكوّن في عصر عبد الرحمن الأوسط، وكان تلميذا ماهرا له، عرف كيف يسير على النظام الباهر الذى سار عليه بنو أمية الأندلسيون من قبله، وكان يعرف أنه يحكم بلدا خطرا يحتاج إلى جهد متصل لكي يستقر أمره.

وفي سنة ولايته ثار عليه أهل طليطلة وحبسوا العامل عندهم، ولكنهم رأوا في الأمير محمد أميرا نشيطا فأطلقوا الأسرى الذين كانوا بأيديهم فأطلق محمد أسرى مملكة ليون الذين كانوا عنده.

وبدأ محمد نشاطه العسكرى بحملة إلى الشمال، وكانت الحرب بينهم وبين النصارى عند اندوفر إلى الشمال الغربى من قرطبة، ووقعت الحرب بينه وبين أهل طليطلة وكانوا قد خرجوا على المسلمين ودارت حرب شديدة بين الجانبين ولم ينتصر أحد منهم على الآخر، وكانت هذه الواقعة فى شوال ٢٣٩هـ / ٨٥٢م فلما كان العام التالى خرج الأمير محمد بنفسه إلى طليطلة، فأرسل أهلها إلى اردون بن اذفونش Urduno بخبر ذلك، وكان الأمير محمد قد جعل جزءا كبيرا من جيشه كمائن بناحية وادى سليط Saledo وقد خرج الأمير اردون بن اذفونش بقلة عدد المسلمين الذين كان فيهم الأمير محمد وأسرع لمهاجمتهم، فلما اشتدت المعركة خرجت الكمائن على النصارى من كل ناحية فانهزم المشركون وأهل طليطلة حلفاؤهم « واخذهم السلاح هدًا بالسيوف وطعنا بالرماح فقتل الله عامتهم وأباد جماعتهم، وحيز من رؤوسهم مما كان فى المعركة وحواليها ٨٠٠٠ رأس، وجمعت ورتبت فصار منها جبل علاه المسلمون يكبرون ويهللون ويحمدون ربهم ويشكرون، وجمع الأمير محمد أكثرهم إلى قرطبة وإلى سواحل البحر وإلى العدوة، وانتهى عدد من فقد منهم فى هذه الوقعة إلى عشرين ألفا، وكانت فى شهر محرم من تلك السنة »[١].

وفى سنة ٢٤١هـ (٨٥٤م) شحن الأمير محمد قلعة رباح وطلبيرة بالحشم، ورتب فيها الفرسان وأقام عاملا على قلعة رباح حارث بن بزيغ.

وفى نفس السنة جدد الأمير محمد المسجد الجامع بقرطبة وأتقن نقوشه.

وفيها ايضا حشد الأمير محمد ودخل البة والقلاع وبلغ منطقتها (وفيها برغس Burgos ولجرونيو Lugrono) وافتتح كثيرا من الحصون.

* * *

(١) البيان المغرب ٢ /٩٥.

وأقف عند هذا الحد من ولاية الأمير محمد وابنيه من بعده عبد الله والمنذر، فقد رأينا أن محمدا كان نشيطا لا يتأخر عن مهاجمة العدو، ولكنه لم يكن حاسما مثل عبد الرحمن الأوسط أو عبد الرحمن الثالث أو الناصر، فهؤلاء كانوا حاسمين فى أعمالهم.

أما محمد وعبد الله والمنذر فكانت غزواتهم كثيرة ولكنها كانت سطحية مما يسمح لنا بالقول إن إماراتهم الثلاث لم تكن حاسمة، ومن ثم فإن الأمراء أنفسهم رغم نشاطهم كانوا من صغار ولاة الأندلس.

وفى سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٤م التى تلتها كتب الأمير محمد إلى الحاجب (رئيس الوزراء) موسى بن موسى بحشد الثغور والدخول إلى برشلونة، ومن خمس ذلك الحصن (برشلونة) زيدت الزوائد بالمسجد الجامع بسرقسطة، وكان الذى أسسه ونصب محرابه حنش الصنعانى التابعى.

وكان أهل طليطلة قد أخافوا الأمير محمد منهم مع وقوع عاصمتهم وإقليمها فى طاعة المسلمين إلا أنهم كانوا نشيطين فى حربهم، وكانت العلاقات بينهم وبين مملكة ليون كبيرة، وقد ضربهم الأمير كما رأينا ضربات وجعة فى السنوات الأولى من حكمه، وكان ينتظر الفرصة ليضربهم الضربة الحاسمة، ولكنه اكتفى فى هذه السنوات الأولى من حكمه بغزو بنبلونه Panplo-na (من بلاد منطقةجبال البرت) وهى من كبار بلاد نبرة Navarra إلى شمال شرق لجروفيو وجنوب غرب تولوز.

قال ابن عذارى (٩٧/٢) إنه « خرج فى هذه الغزوة خروجا لم يخرج قبله مثله جمعا وكثرة وكمال عدة وظهور هيبة وكان غرسية (ملك نبرة) إذ ذاك متظافرا مع اردون صاحب جليقية وليون، فأقام القائد الذى أرسله الأمير محمد يدوخ أرض بنبلونه مترددا فيها اثنين وثلاثين يوما يخرب المنازل وينسف الثمار ويفتح القرى والحصون، وافتتح فى الحملة حصن قشتيل وأخذ فيه

فرتون بن غرسية المعروف وقدم به إلى قرطبة، فأقام بها محبوسا نحوا من ٢٠ سنة ثم رده الأمير إلى بلده وعمر فرتون ١٢٦سنة.

قال الرازى : وفى السنة التالية ٢٤٧هـ/ ٨٦٢م غزا محمد بن السليم أرض الحرب وعامل هذا الثغر إذ ذاك عبد الله بن يحيى، وكان موسى بن موسى قد كتب إلى الأمير محمد يذكر ما ناله ونال أهل بلده فى إداختهم أرض لجليقيين وما وصلهم من النَّصَبِ وسأل أن يكون دخول العسكر على غير ناحيته، فأسعف فى ذلك ودخلت العساكر على غير بلده.

وفى نفس السنة (٢٤٨هـ/ ٨٦٣م) تقدم موسى بن موسى لمقاتلة ابن سالم فى وادى الحجارة فنالته جراح منعته الركوب بعدها، وكانت سببا لهلاكه فمات فى نفس السنة.

وفى سنة (٢٥١هـ/ ٨٦٥م) كانت أكبر الغزوات التى تمت أيام الأمير محمد، وقد ولى عليها ابنه عبد الرحمن بن محمد، وقد سارت من قرطبة إلى وادى الحجارة، وقد أعدها الأمير محمد أحسن إعداد فسارت إلى وادى الحجارة ومنها إلى وادى الدويرو، وهنا تجمعت عليه الجنود فرتبها، وكان هدف هذه الحملة هو إنزال الضربات بكل نواحى مملكة ليون، فاحتل بفج بردنش Bardanos وكانت عليه أربعة حصون فتغلب العسكر عليها وغنم المسلمون كل ما فيها وخربوها، ثم انتقل من موضع إلى موضع، لا يمر بمسكن إلا خربه ولا موقع إلا حرقه حتى اتصل ذلك فى جميع بلادهم، ولم يبق لرذريق صاحب القلاع ولا لرذمير صاحب توقه Toea ولا لغنيد شلب Gundisaluo صاحب برجية ولا لغومس صاحب مساقة حصن من حصونهم إلا وعمه الخراب، ثم قصر الملاحة، وكانت من أجل أعمال رذريق فحطم ما حواليها وعفى آثارها(١).

ثم تقدم يوم الخروج على فج المركويز فصد العسكر عنه وتقدم رذريق بحشوده وعسكره فحل

(١) هذه الفقرة من كلام ابن عذارى (٩٨/٢) حافلة بأسماء الأعلام ما بين حصون وناس، ولم أستطع التعرف عليها كلها وإن كنت أقول إن هذه المواضع كانت لها أهمية فى ذلك العصر ثم اختفت.

على الخندق المجاور للمركوز، وكان رذريق قد عانى بتوغيره أعواما وسخّر فيها أهل مملكته، وقطعة من جانب الهضبة فارتفع جرفه وانقطع مسلكه فنزل عبد الرحمن ابن الأمير محمد على وادى إبره Ebro بالعسكر وعبأ القائد عبد الملك للقتال وعبأ المشركون وجعلوا الكمائن على ميمنة الدرب وميسرته، وناهض المسلمون جموع المشركين وضرب الله وجوه المشركين ومنح المسلمين أكتافهم فقتلوا ابرح قتل، وأُسر منهم جموع، واستمروا فى الهزيمة إلى ناحية الأهزون، واقتحموا نهر إبره بالاضطرار فى غير مخاضة، فمات منهم خلق كثير غرقا، وكان القتل والأسر فيهم من ضحى يوم الخميس ١٢ رجب إلى وقت الظهر، وسلم الله المسلمين ونصرهم على المشركين، وكان قد لجأ منهم إلى الوعر والغياض- عندما أخذتهم السيوف- جميع فتَتبعوا وقُتلوا، ثم هتك الخندق وسُوى حتى سهل، وسلكه المسلمون غير خائفين ولا مضغطين، وأعظم الله المنة للمسلمين بالصنع الجميل والفتح الجليل والحمد لله رب العالمين، وكان مبلغ ما حيز من رؤوس الأعداء فى تلك الوقيعة ٢٠٤٧٢ رأسا.

وفى سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦ خرج عبد الرحمن ابن الأمير محمد غازيا إلى البة والقلاع فحارب أهلها وأفسد زروعها وغادرها هشيما، وكان أهل هذا الجانب فى ضعف ووهن شديد ألجأهم إلى المنع من التجمع والاحتشاد، لما نالهم فى العام الفارط من النهب والقتل الذريع(١).

وفى السنة التالية (٢٥٣هـ/ ٨٦٧م) خرج الحكم ابن الأمير محمد وحل على حصن جرنيق، وحاصره حتى فتحه عنوة.

وفيها كانت فى الأندلس مجاعة متوالية(٢) وقد سبق أن ذكرنا أن تلك المجاعات تحدث لأن الناس يتكاسلون، أو لأن الأمراء يجمعون فى العادة الشبان لكى يعملوا فى الجيوش، لأن الأعمال

(١) ابن عذارى، البيان ٢/ ٩٦.

(٢) ابن عذارى، البيان ٢/ ٩٩، ١٠٠.

الحربية كانت هى الوحيدة التى تقاس بها قوة الأمراء وصلاحيتهم، أما الأعمال السلمية أو السلبية فما كانت الشعوب تهتم بها.

وسنرى فى هذا التاريخ قلة تقدير الناس للخليفة الحكم المستنصر الذى خلف أباه عبد الرحمن الناصر فى حكم الأندلس، مع أن الحكم المستنصر قدم للأندلس أكبر خدمة فى ميدان العلوم والآداب والفقه، والحمد لله أن خلصنا من تلك العصور التى كانت الحرب وحدها هى المقياس الذى كانت الشعوب تقيس به الحكام.

وقد رأينا كيف كان الأمير محمد مجتهدا فى ميدان القتال والفتوح لأنه كان يعرف أن الحرب والفتح والتخريب فى بلاد الكفار هى التى يقيسه بها الشعب الأندلسى.

وفى سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٧م خرج الأمير محمد من قرطبة إلى ماردة (على نهر الوادى آنة فى غربى شبه الجزيرة، وكان فى أول الأمر متجها إلى طليطلة، ولكنه نكب إلى ماردة تضليلا للأعداء، وكانت ماردة أيضا من المدن الثائرة على الإمارة، ولهذا يقول ابن عذارى (٢/ ١٠٠) وكان بماردة قوم من المنتزين أى الخارجين على الإمارة فاحتل بهم وهم فى أمن وعلى غفلة، فتحصنوا فى المدينة أياما ثم ناهض القنطرة فوقع القتال واشتدت الحرب حتى غلبوا عليها، فأمر الأمير بتخريب رحل منهـا فكان ذلك سببـا لإذعـان أهـل مـاردة فطاعوا على أن يخرج فرسانهم، وهم يومئذ عبد الرحمن بن مروان وابن شاكر ومكحول وغير هؤلاء، وكانوا أهل بأس ونجدة وبسالة، فخرج المذكورون هو مثلهم إلى قرطبة بعيالهم وذراريهم، وولى الحكم على ماردة سعيد بن عباس القرشى، وأمر بهدم سورها، ولم تبق بها إلا قصبتها لمن يرد عليها من العمال.

وفى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م خرج الحكم ابن الأمير محمد وقصد مدينة سورية Soria وكان تغلب بها سليمان بن عبدوس، وخالف فيها، فبادرته الصائفة وحلت به العساكر، وأحدقت بالمدينة

ورميت بالمجانيق حتى هتكت أسوارها، فقام أهلها على سليمان بن عبدوس، فطاع ونزل فقدم قرطبة فسكنها.

وفى السنة التالية (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) غدر عمروس عامل وشقه وملكها، وظهرت عاديته فى الثغر، فأخرج الأمير إليه قطيعا من الحشم والعدة، وقصد بها لاردة مجاهد المعروف بالتدميرى فلزمها، وحشد عبد الوهاب ابن مغيث الحشود، وقدم عليهم عبد الأعلى العريق وبعثه إلى وشقة، فلما بلغ عمروس خبره خرج إلى وشقه، وأسر بها لُب بن زكرياء بن عمروس، وكان أحد أعداء السلطان بها موسى بن غلندو، فقتل لُب وعلقه من السور.

وفى السنة بعد التالية وهى ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م. خرج فى الثغر عبد الغافر بن عبد العزيز وكان بتطيلة فقبض على زكرياء بن عبدوس وعلى أولاده وجماعة من أهل بيته، ونزل بهم على باب مدينة سرقسطة وقتلهم بها، وقفل إلى قرطبة بالرؤوس.

وفى السنة التالية (٢٥٨هـ/ ٨٧٠م) كانت فى الشغر ثورات وحركات منها أن نطرقا وإسماعيل ابنى لب وبولس ابن زنباط غدروا بعبد الوهاب بن مغيث عامل تطيلة وابنه محمد عامل سرقسطة، فتقبضوا عليها وملكوا فى هذا العام الثغر، وكان تولى حظرف فى صفر ودخل إسماعيل سرقسطة فى ربيع الأول.

وفى سنة (٢٥٩هـ/ ٨٧١م) خرج الأمير محمد بنفسه إلى الثغر، وحل فى طريقة بطليطلة فأخذ رهائنهم وعقد أمانهم وقاطعهم على قطيع من العشور يؤدونه كل عام، وهو الأمان الثانى، واختلفت أهواؤهم فى عمالهم، فطلب توم منهم تولية مطرف بن عبد الرحمن وطلب آخرون تولية طربيشة فولى كل واحد منهما جانبا، وتقسما المدينة وأقاليمها على حدود مفهومة معلومة، ثم

تنازعا وأراد كل منهما الانفراد بإمارة طليطلة، ثم غلب الداعون إلى تولية طربيشة بن ماسوية وتأخير مطرف المذكور.

وكان الأمير محمد تتلقاه فى وجهته تلك فى الارتحال والاحتلال طلائع الظفر، وبوادر النجاح والنصر، وتجول فى الثغر محاصرا لبنى موسى ومضيقا عليهم، ثم تقدم إلى بنبلونه فوطئ أرضها وأذل أهلها وخربها، ثم قفل فحل بقرطبة ومعه جماعة من الثوار الناكثين المفسدين، فلما أخذ راحته أمر بقتل مطرف بن موسى وبنيه وأمر بإطلاق كاتبهم، وكان لا ذنب له.

فلما أخرج مطرف وبنوه للقتل، وأخرج كاتبهم للإطلاق وكان يعرف بالأصبحى قال: لا خير فى العيش بعد هؤلاء، فقدم للقتل قبلهم ورفعت رؤوسهم.

وفى سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م خرج مروان بن الجليقى من قرطبة مع رجال ماردة المنزلين منها، واستقروا بقلعة الحنش فغزاه الأمير محمد وحاصره حصارا وضيق عليه مدة ثلاثة أشهر ألجأه فيها إلى أكل الدواب، وقطع عنه الماء ورماه بالمجانيق حتى أذعن وشكى ثقل الظهر وضيق الحال، فأباح له الأمير محمد الرحيل إلى بطليوس والحلول بها، وهى يومئذ قرية فخرج إليها وقفل منها إلى قرطبة.

وفى سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م خرج الأمير المنذر ابن الأمير محمد إلى ابن مروان (الجليقى) وكان القائد هاشم بن عبد العزيز، وهو الذى كان سبب هروب مروان لأنه قال له من بين الوزراء: « الكلب خير منك » وأمر بصفع قفاه واستبلغ فى خزيه فهرب مع أنصاره، وكان ابن مروان قد ابتنى لبطليوس حصنا، وجعله موطئا، وأدخل فيه أهل ماردة وغيرهم من أهل المكانفة له على الثغر، فلما انتهى إلى ابن مروان تحرك العسكر إليه من بطليوس وحل بحصين كركى، واجتمع أهل ماردة إليه فيه، فنزل العسكر بمقربة من الحصن، وكان هاشم قد بعث إلى منت شكوط خيلا ورجلا لضبطه، وكان سعدون الدمارى قد دخل إلى بلاد الشرك مستمدا، فجاء بمدد من المشركين وأظهر

أنه في قلة، فكتب بذلك عامل حصن منت شلوط إلى هاشم، فرأى هاشم أن ذلك فرصته في سعدون، فبادر بالخروج من العسكر على غير تعبئة ولا أهبة في خيل قليلة وأفحص هاشم وجاوز الوعر وأبعد عن العسكر، فأخذت المضايق عليه، وناشبوه القتال فأخذته جراح وقتل من أصحابه جماعة، وأسر هاشم المذكور.

ولما اتصل خبر هاشم بالأمير محمد وقع في جانبه وقال: هذا أمر جناه على نفسه بطيشه وعجلته، ثم رد ابنه عوضا منه، وحصل هاشم أسيرا بعد بيد ابن مروان (الجليقي) في أسره في قرطبة فبره ابن مروان وأكرمه وأحسن إليه، ولم يعاقبه بما فعل معه.

وفي سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م خرج المنذر ابن الأمير محمد واتجه إلى ماردة فلما انتهى ذلك إلى ابن مروان (الجليقي) زال عن بطليوس واحتل بها قائد المنذر وهو الوليد بن غانم فخرب ديارها وتقدم ابن مروان إلى بلاد العدو.

وفي السنة التالية (٢٦٤هـ/ ٨٧٧) حارب المنذر سرقسطة، وأفسد ما ألفى من زروعها، ثم تقدم إلى تطيلة والمواضع التي سار فيها بنو موسى فانتسفها وأجال العسكر فيها.

وفي نفس هذه السنة دخل البراء بن مالك من باب قلنبرية إلى جليقية بحشود الغرب وتردد هنالك حتى أذهب نعيمهم.

وفيها انطلق هاشم (بن عبد العزيز) من الأسر.

وفي سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م ظهرت الفتنة وظهر في جانب كورة ريه والجزيرة الخضراء وتاكرنا (في جنوب قرطبة وظهر يحيى المعروف بالجزيري فغزاه هاشم بن عبد العزيز فأذعن له وقدم به إلى قرطبة.

وفى السنة التالية (٢٦٦هـ/ ٨٧٩م) خرج الأمير عبد الله ابن الأمير محمد إلى كورة ريه (وهى مالقه) ونواحى الجزيرة الخضراء وبنى حصونا فى تلك الناحية وقفل.

وفيها أمـر الأميـر محمـد بإنشـاء المراكب بقرطبة ليتوجه بها إلى البحر المحيط، وخرج بها عبد الحميد الرعيطى المعروف بابن مغيث، وكان قد رفع إليه رافع أن جليقية من ناحية البحر المحيط لا سور لها وأن أهلها لا يستطيعون مقاومة جيش إذا غشيهم من تلك الناحية، فلما أنشئت المراكب قدم عليها عبد الحميد بن مغيث، فلما دخل البحر تقطعت المراكب محلها ولم يجتمع بعضها إلى بعض ونجا ابن مغيث.

الثائر عمر بن حفصون:

وفيها (سنة ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م) خرجت على الإمارة الحصون المنشأة بريه (مالقة) وتاكرنا (بين مالقة وإشبيلية وجهة الجزيرة الخضراء).

وفى ناحية رية (مالقة) قام عمر بن حفصون على الإمارة على الأمير محمد، فأرسل الأمير محمد إلى مالقة عامر بن عامر القائد، فهزم عمر بن حفصون عامر بن عامر وأسلم قبته فأخذها عمر بن حفصون وهى أول جهة ضربها عمر بن حفصون واستولى عليها، فتجمع إلى ابن حفصون نفر من رجال الثغر وقوى أمره، وعزل الأمير محمد عامر بن عامر عن كورة ريه وولاها عبد العزيز بن عباس فهادنه ابن حفصون وسكنت الحال بينهما، ثم عزل الأمير عبد العزيز بن عباس وتحرك ابن حفصون وعاد إلى ما كان عليه من الشر وخرج هاشم بن عبد العزيز إلى كورة رية (مالقة) يطلب كل من اشترك فى الفتنة فى تلك النواحى وأخذ رهائن تاكرنا على إعطاء الطاعة.

وقد قال ابن عذارى هنا كلاما طويلا عن زلزال غريب نزل بجنوب الأندلس فى تلك السنة (٢٦٨هـ/ ٨٨١م) وهاجت ريح عند صلاة المغرب فأثارت سحابا فيه ظلمات ورعد وبرق فصعق

ستة نفر وخر جميع الناس سجدا إلا الإمام فإنه ثبت قائما، وكان الرجلان اللذان أقرب الناس إلى الإمام، فاحترق شعر أحد الستة الذين صعقوا واسود وجهه وشقه الأيسر والآخر ظهر بشقه الأيمن سواد، والأربعة الصرعى مكثوا حتى فرغ الإمام فسئلوا عما أحسوا فقالوا : أحسسنا نارا كأنها الموج الثقيل، ووجد أهل المسجد رائحة النار، ولم يوجد للصاعقة أثر فى سقف ولاحائط، واهتزت لهذا الزلزال القصور والجبال، وهرب الناس إلى الصحارى ضارعين إلى الله تعالى، وعم هذا الزلزال من البحر المحيط إلى آخر الجوف وإلى آخر أرض الشرك.

قال ابن عذارى: لم يختلف فى ذلك مختلف، أى إن أحدا لم يشكك فى هذا الزلزال والصاعقه، وبقى أن نعرف نحن ماذا كانت حقيقة ذلك؟.

وفى نفس السنة (٢٦٨هـ/ ٨٨١م) خرج المنذر ابن الأمير محمد والقائد هاشم بن عبد العزيز فقصدا الثغر الأقصى وحطما سرقسطة وافتتحا حصن روطه، ثم تقدما إلى ألبه والقلاع، وافتتحا حصونا كثيرة وأخليا حصونا كثيرة خوفا من مضرة العسكر وتوقعاً من تغلبه، وفسد ما بين الأمير المنذر وهاشم بن عبد العزيز.

وفى سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م غزا محمد بن أمية بن شهيد إلى كورة رية (مالقة) وكورة البيرة (غرناطة) وكانوا بحالة توحش ونفار فسكن أحوال أهلها وهدن الناس بها، ونظر فى استنزال رجال بجبال رية وغيرها من بنى رفاعة وغيرهم.

وفى سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م استتم محمد بن أمية بن شهيد استنزال بنى رفاعة (من جبال مالقة) وأتاه فى هذه الغزاة كتاب الأمير محمد بتولية عبد العزيز بن العباس كورة البيرة (غرناطة) فولاه وقفل.

بقية الكلام عن عمر بن حفصون:

وفى هذه السنة (٢٧٠هـ/ ٨٨٣) غزا هاشم بن عبد العزيز كورة رية (مالقة) واستنزل عمر ابن حفصون وقدم به قرطبة، فأنزله الإمام وأوسع له فى الإكرام، ولكن عمر بن حفصون هرب من قرطبة فى العام التالى (٢٧١هـ/ ٨٨٤م) ولجأ إلى جبال بربشترو، فانتدب الأمير القواد لحربه، وحوصر فى جبل بربسترو فى العام التالى.

وفى سنة (٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) خرج عبد الله ابن الأمير محمد والقائد هاشم بن عبد العزيز وقصدا الغرب إلى ابن مروان الجليقى وهو بجبل اشبرغزه Asparagosa ؟.

وهنا نجد فى مراجعنا كلاما كثيرا عن ابن حفصون نريد أن نأتى ببعضه هنا نظرا لأهمية ابن حفصون والدور الذى قام به فى تاريخ الأندلس.

قال حيان بن خلف فى عمر بن حفصون: هو كبير الثوار بالأندلس ونسبه: عمر بن حفص، المعروف بحفصون بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذبيان ابن فرغلوش بن إذفونش، من مسالمة الذمة، من كورة تاكرنا، من عمل رنده (غربى مالقة وجنوبى اطريرة Utrera وجنوب شرقى إشبيلية) وكان الذى أسلم منهم جعفر بن شتيم فنشأ نسله فى الإسلام، وكان له من الولد الذكور عمر وعبد الرحمن، فولد عمر بن جعفر حفصا، وولد حفصون هذا عمر، هذا الثائر الملعون.

فعمر هو الذى ثار على الأمير محمد أولا ثم بلغ فى الشقاق والفتن مبلغا لم يبلغه ثائر فى الأندلس، واستوطن لأول نفاقه حصن بربشترو واتخذه قاعدة وحضرة، وهى أمنع قلاع الأندلس، وذلك فى هذه السنة، وهو تاريخ صعوده الآخر إليها الذى توطد له ملكه فيه وخالف على السلطان حتى رضى عنه بالمتاركة.

واختلفت أيامه فى ظهور وعزة حتى واجه فيها ثلاثة من خلفاء المروانيين أئمة الجماعة بالأندلس، أولهم هذا الأمير محمد وتخلف بعدهم إلى أن هلك على يد الرابع منهم وهو عبد الرحمن الناصر على ما يأتى مفسرا[1].

والواقع أن عمر بن حفصون لم يعاصر من أمراء الأندلس إلا اثنين : محمدا هذا، وحفيده عبد الرحمن الثالث، وهو الناصر، ولكنه أوغل فى الفتنة وضم إلى نفسه ثواراً آخرين كبارا، فلم يكن للإمارة فى حياته شاغل أكبر منه.

ومثلا فى سنة ٢٧٣هـ/ ٨٦٨م خرج المنذر ابن الأمير محمد إلى كورة ريه (مالقة) والقائد محمد بن جوهر فقصدا مدينة حامة غرناطة.

وفيها حارب ابن حمدون من بنى رفاعة، وكان مظاهرا لعمر بن حفصون، وكانا قد اجتمعا بالحامة فنازلهم وناهضهم وأحدق بهم من كل ناحية، وأقام محاصرا لهم شهرين، فلما وصل إليهم الضيق برزوا إلى باب المدينة خارجين مستقبلين للحرب.

وقام فيها (أى عمر بن حفصون) فنالته جراح وشلت يده ثم انهزم هو وأصحابه وصاروا بين قتيل وأسير، ودخل باقيهم فى الحامة، فبينا المنذر فى هذه الحال من السرور إذا أتاه الخبر بموت أبيه الأمير محمد ابن عبد الرحمن ليلة الخميس لليلة بقيت من شهر صفر (٢٧٣هـ/ يوليو ٨٦٨م) ودفن فى القصر وبادر له المنذر قبل موارته وصلى عليه.

تقدير الأمير محمد الأندلسى :

وكان الأمير محمد من أعقل أمراء بنى أمية الأندلسيين، وقد بلغ من الذكاء والدقة مبلغا جعله مركز الأعمال والتفكير الإدارى فى الأندلس، ولكن معظم الناس لا يعرفون عنه شيئا لأن

(١) ابن عذارى، البيان ٢/ ١٠٦.

عباد الرحمن الثلاثة الأندلسيين غطوا على من عداهم، مع أن الأمير محمد كان لا يقل نشاطا عنهم، بل كان أنشط أمير عرفناه فى الأندلس.

وقد أحصى ابن حيان المؤرخ حملات الأمير محمد فقال كانت عدة الفرسان المستنفرين لغزو الصائفة المجردة إلى جليقية فى مدة الأمير محمد مع الولد عبد الرحمن ابنه على هذه التسمية المفصلة، من ذلك:

كورة البيرة ألفان وتسعمائة.

جيـــــــان	٢٢٠٠
قبـــــــرة	١٨٠٠
بـــــاغـــة	٩٠٠
تـــاكـرنـــا	٢٩٩
الجـــزيـــرة	٢٩٠
استـــجـــة	١٢٠٠
قـــرمـــونـــة	٢٨٥
شـــذونـــة	٦٧٩٠
ريـــــــة	٢٦٠٠
فحص البلوط	٤٠٠
مـــــورور	١٤٠٠
تـــدميـــر	١٥٦
ربينـــــــة	١٠٦

قلعة رباح وأوريط، هما Santa Rufina ٣٨٧.

ويبدو أن هذه كانت أعداء المقاتلين والفرسان الذين قدمتهم البلاد والجماعات أيام الأمير محمد، وقد أخطا ابن عذارى إذ لم يحسن النقل عن ابن حيان لأن ابن عذارى يقول بعد ذلك ناقلا عن ابن حيان أيضا: ونفر من أهل قرطبة لهذه الغزوة عدد لم يوقف على قدره، وكان هذا العدد الذى غزا به بعد أن رفع الضريبة التى كانت على أهل قرطبة وأقاليمها وغيرهما من البلاد، وقطع عنهم الحشود التى كانوا يؤخذون بتجديدها فى كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب، وأسقطها منهم ووكلهم إلى اختيار أنفسهم فى الطواعية للجهاد من غير بعث، فحسن موقع ذلك منهم وتضاعف حمدهم وشكرهم واغتباطهم بدولته (ابن عذارى، البيان ٢/١٠٩).

وهذه الفقرة تلقى ضوءاً على أسلوب الأمراء فى الأندلس، فقد كان على كل ناحية من نواحى الإمارة عدد محدد مرسوم من الجنود يتجدد كل سنة عند حلول موعد الصائفة، وكان هذا العدد من الجند والفرسان يسمى الضريبة، ويبدو أن أهل قرطبة سألوا الأمير محمد أن يرفع عنهم الضريبة المقررة عليهم كل عام ووكلهم إلى اختيار أنفسهم فى الطواعية للجهاد من غير بعث أى عدد من الجنود والفرسان لا بد أن يبعثوا به، وتركهم أحرارا فى الطواعية للجهاد فاستجاب لهم، ويبدو أنهم أرسلوا عددا طيبا من المجاهدين طواعية من غير بعث، وتضاعف حمدهم له وشكرهم واغتباطهم بدولته.

وأنا آتى هنا بمعظم ما وصلنا من أخبار محمد ثم عبد الله ثم المنذر ابنه، لأن ابن حيان والرازى وأمثالهم أتونا بأخبارهم مفصلة فنجد فيها حقائق التاريخ الأندلسى، فى حين أن أخبار الدولة فى أيام غيرهم من الأمراء تأتينا مكتوبة بأقلام كتّاب الأمراء منسقة بحسب ما يرى الأمراء فيضيع علينا الكثير من حقائق الأندلس وتاريخه.

قال ابن عذارى عن عصر الأمير محمد وابنه المنذر:

بعض معلومات عن بقى بن مخلد:

قال ابــن عذارى (البيان ٢/ ١٠٩) وذكر جماعة من المؤرخين عن بقى بن مخلد أنه قال: ما كلمت أحدا من ملوك الدنيا أكمل عدلا ولا أبلغ فضلا من الأمير محمد، دخلت عليه يوما فى مجلس خلافته، فافتتح الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبى ﷺ ثم ذكر الخلفاء خليفة خليفة، فحلى كل واحد منهم بتحليته، ووصفه بصفته، وذكر مآثره ومناقبه بأفصح لسان وأبلغ بيان حتى انتهى إلى نفسه فسكت.

وفى صدر دولته سُعِى بقى بن مخلد إلى الأمير محمد، وذلك أنه لما قدم بقى بن مخلد من المشرق عن رحلته الطويلة بما جمع من العلوم الفلسفية والروايات العالية والاختلافات الفقهية أغاظ ذلك فقهاء قرطبة أصحاب الرأى والتقاليد، الزاهدين فى الحديث، الفارين عن علوم التحقيق، المقصرين عن التوسع فى المعرفة فحسدوه، ووصفوا فيه القول القبيح عند الأمير، حتى ألزموه البدعة، وشنئوه إلى العامة، وتخطى كثير منهم برميه إلى الإلحاد والزندقة، وتغالوا وأكثروا من تخطيط الشهادة عليه ، داعين إلى سفك دمه، وخاطبوا الأمير محمدا فى شأنه، يعرفونه بأمره، ويكثرون عليه بكل ما يرجون الوصول إلى سفك دمه، ويسألونه تعجيل الحكم فيه، فاشتد خوف بقى بن مخلد جدا واستتر خوفا على دمه، وعمل على الفرار من الأندلس إن أمكنه ذلك، فأرشده الله إلى التعلق بحبل هاشم بن عبد العزيز، وسؤاله الأخذ بيده، وكتب إلى الأمير محمد ينشده الله فى دمه، ويسأله التثبت فى أمره، والجمع بينه وبين خصومه، فشمر له (هاشم بن عبد العزيز) وأوصل كتابه إلى الأمير محمد بشرح حالته، واتهم الساعين به إليه فأمر بتأمين بقى بن مخلد وإحضاره مع الطالبين له، فتناظروا بين يديه، وأدلى بقى بحجته وظهر على خصومه، واستبان الأمير محمد حسدهم إياه

لتقصيرهم عن مداه فدفعهم عنه، وتقدم إلى بقى بطأطأة قدمه ونشر علمه، وأمر بإيصاله إليه فى زمرة من الفقهاء، والرفع من منزلته، فاعتلى ذروة العلم، ولم يزل عظيم القدر عند الناس وعند الأمير محمد إلى أن مات، رحمه الله.

عبد الملك بن حبيب :

وفى سنة رمضان ٢٣٩هـ/ فبراير ٨٥٣م توفى عبد الملك بن حبيب فى صدر دولة الأمير محمد، وهو : عبد الملك بن سليمان بن مروان بن حبيب بن عباس بن مرداس السلمى، أصله من كورة إلبيرة (غرناطة) ونقله الأمير محمد إلى قرطبة، بل نقله أبوه عبد الرحمن بن الحكم، وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول: عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب وعاقلها يحيى بن يحيى، وفقيهها عيسى بن دينار.

قال ابن وضاح وغيره: لم يقدم الأندلس أحد أفقه من سحنون، إلا أنه قدم إلينا من هو أطول لسانا منه، يعنى ابن حبيب.

وكان ابن حبيب أديبا نحويا حافظا شاعرا متصرفا فى فنون العلم من الأخبار والأنساب والأشعار، وله مؤلفات حسان فى الفقه والأدب والتواريخ كثيرة.

قال ابن العربى: بضاعته فى الحديث مزجاة؛ وكانت علته التى مات منها الحقى، وتوفى سنة أربع وستون سنة.

وخرج الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى الرصافه يوما متنزها، ومعه هاشم بن عبد العزيز، فكان بها صدر نهاره على راحته فلما أمسى واختلط الظلام انصرف إلى القصر، وبه اختلاط، فأخبر من سمعه وهاشم يقول له يابن الخلائف، ما أطيب الدنيا لولا الموت، فقال له الأمير : يابن اللخناء، لحنت فى كلامك، وهل ملكنا هذا الملك الذى نحن فيه إلا بالموت، فلولا الموت ما ملكناه أبدا.

وكان الأمير محمد غزّاء لأهل الشرك والاختلاف وربما أوغل فى بلاد العدو الستة أشهر والأكثر يحرق وينسف، وله وقعة وادى سليط، وهى من أمهات الوقائع، ولم يعرف بالأندلس قبلها مثلها، وقد أورد ابن عذارى (البيان ١١١/٢ ، ١١٢) إحدى قصائده، ولا بأس بها.

وفى الأمير محمد يقول أبو عمر السالمى : كانت أولى غزواته إلى بلد العدو، وقد حشد لها وجنّد، وصوّب كيف شاء وصعّد، وألقى العدو وقد ضاق بخيله الفضاء الواسع والمكان الدانى والشاسع، والمكان الدانى والواسع، وهو متأهب للقائه، متوجه إلى تلقائه، فخامر الأمير محمدا الجزع وشابة الروع والفزع، وظن أنه لا منجاة من الكفار، وأن المسلمين هناك طعن الشفار، فرأى من الحزم الأوكد والنظر الأحمد الأرشد، الرجوع عن تلك الحركة بقوله تعالى : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ... ﴾ [البقرة : ١٩٥] فقام رجل فقال : أيها الأمير، قال الله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم** ... ﴾ [آل عمران : ١٧٣] فقال له الأمير محمد : والله ما جبنت نفسى إلا أنه لا رأى لمن لا يطاع، ولست أستطيع أن أجاهد وحدى، فقال له العتبى : والله ما أراه قذف بها على لسانه إلا مَلَك، فاستخر الله فى ليلك هذا وفى يومك، فأراه الله فى مقابلة العدو الرشاد، وألهمه التوفيق والسداد، فندب الناس إلى لقاء أعداء الله ونصر دينه وأن يكون كل على حسن ظنه من الظفر.

فلما انعقدت راياتهم وتأكدت على المقارعة نياتهم قدم عليهم الأمير محمد ابنه المنذر، إذ كان مشهورا بالبأس، محبوبا إلى الناس، فسار المسلمون إلى أن التقى الجمعان والتف الفريقان، فأعقب الله لأوليائه ظفرا ونصرا، وجعل بعد عسر يسرا، ولم يؤذن الظهر إلا ومن رؤوس الأعداء جملة آلاف مقطوعة، وانتصر المسلمون وقال الشعراء فى ذلك كثيرا.

إمارة الأمير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
الأحـــد ٨ ربيــع الأول ٢٧٣هـ/١غسـطـس ٨٦٨م
السـبـت ٢٥ صـفـر ٢٧٥هـ / يـوليـو ٨٨٨م :

كما أن الناس لا يكادون يذكرون محمدا بين أمراء الأندلس، فإن عامة الناس لا يعرفون أميرا للأندلس اسمه المنذر، مع أن محمدا وابنه المنذر كانا من أعاظم أمراء الأندلس، لقد حكما بين عبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الثالث أو الناصر، لقد غطى عبدا الرحمن على محمد والمنذر، مع أن هذين الاثنين كانا من أعاظم أمراء بنى أمية الأندلسيين، وقد كانا كفأين للإمارة، وقد رأينا أن ما فعله محمد بن عبد الرحمن وابنه المنذر كان على مثاله، وقد دربه أبوه على أمور الإمارة والحكم وأحسن هو البداية، ولكن الموت كان له بالمرصاد، فقد حكم سنتين إلا سبعة عشر يوما، ومات فى أثناء حملة قام بها سنة ٢٧٥هـ، وحمل إلى قرطبة حيث دفن بقصرها.

ومن سوء الحظ أن عمر بن حفصون كان بالمرصاد، وكانت أكثر حصون ريه (مالقه) فى طاعته وكان حليفا للإمارة، ولكنه ما كاد يسمع بموت الأمير المنذر حتى انتفض على الإمارة وعاد إلى فساده الأول وراسل الحصون التى بينه وبين الساحل فأجابته وطاعت له، فنهض إلى باغه Baja وجبل شيبه فأخذ من الأموال ما لا يوصف دون جهد كبير ودون أن ينفق مالا.

يقول ابن عذارى (البيان٢/١١٤) ولكنه كان عذابا من الله ونقمة انتقم بها من عبيده، واتفق له زمان هرج، وكان يقول للناس : طالما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم.

فكان ابن حفصون لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره، فكانت طاعه أهل الحصون له

بهذا الوجه، وكان أتباعه شرار الناس وشطارهم، فكان يمنيهم بفتح البلاد وغنائم الأموال، وكان مع ذلك متحببا لأصحابه متواضعا لألافه، وكان مع شره وفسقه شديد الغيرة حافظا للحرمة، فكان ذلك مما يميـل النـاس إليـه، ولقـد كانـت المـرأة فى أيامه تجيء بالمال والمتاع من بلد إلى بلد منفردة لا يعترضها أحد من خلق الله، وكانت عقوبته الشنيعة لمن يتهم بتهمة، وكان سريع الحكم دون إضاعة الوقت فى تحقيق أو تقدير، يصدق المرأة والرجل والصبى أو من كان على ما كان، لا يطلب على ذلك شاهدا أكثر من الشكوى، وكان يأخذ من أحبه ويتخذ الرجال ويكرم الشجعان، وإذا قدر عليهم عفا عنهم، وكان يسورهم بأساورة الذهب إذا أخلصوا له، فكانت هذه الأشياء كلها عونا له، وانتهى ابن حفصون بعاديته إلى قبرة Cabra رما امامها إلى قرية الجالية، وأغار على القنداق من البيرة وعلى أحواز جيان وأسر عبد الله بن سماعة عامل باغة Beja.

وكان قد اجتمع إلى حصن آشر من حوزرية (مالقة) وبمقربة من قبرة جمع الشر من أصحاب ابن حفصون فراع أهل قبرة أمرهم وهابوهم واتصل بالأمير المنذر خبرهم، فأرسل أصبغ ابن فطيس فى خيل كثيفة نحو حصن آشر فحاصرهم حتى افتتحه، وقتل من كان فيه، وأخرج الأمير المنذر عبد الله بن محمد بن مضر وأيدون الفتى بخيل إلى ناحية لُجّانه من قبره، وكان بها مسلحة لابن حفصون، فنازلوهم وقاتلوهم حتى أفنوهم.

قال الرازى (ابن عذارى، البيان ٢ /١١٥) وفى سنة ولاية المنذر غزا محمد بن لب إلى ألبة والقلاع ومعه جموع المسلمين، ففتح الله للمسلمين وقتلوا المشركين قتلا ذريعا.

وفى هذه السنة (٢٧٥هـ / ٨٨٨م) أمر الأمير المنذر بسجن هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه وخاصته، وأمر بقتله فى جمادى الأولى، وسبب ذلك أن هاشما كان يُحسَد لمكانه عند المنذر، ويكررون ذلك عليه حتى تنافرت النفوس، فلما مات الأمير محمد وولى المنذر أراد أن يفى له ويتبع فيه فعل أبيه، فولاه الحجابة، ثم تمالأوا عليه وأكثروا، وحرفوا عليه الكلام، وتأولوا عليه أقبح

التأويل، حتى نفـــذ قضاء الله فيه، وقد فسروا للأمير المنذر بعض شعره فى رثاء محمد بأنه كان يريد به المنذر :

أعـزى يا محــــــمـــد عنــــــك نفسى
أميــــــن الله ذى المنــــــن الجســـــــام
فـهلا مـــــــات قـــــوم لم يمـــــوتـــوا
ودوفــــــع عنــــــك لى كأس الحمـــــام

وليس من المعقول أن يرثى هاشم محمدا بتمنى وفاة ابنه المنذر، ولكن هذا هو الذى كان، والحق أن هاشم بن عبد العزيز كان طماعا فى الوظائف ولم يكن متحفظا فى أعماله أو كلامه، ولم تكن هذه أول مرة يخطئ ويطرد من الحزمة، وكانت هذه النهاية الحزينة نهايته على أى حال، ومن سوء حظه أن أمير الأندلس فى ذلك الوقت الأمير المنذر، ولا يستبعد أن يكون هاشم قد أساء إلى المنذر أيام كان هذا الأخير أميرا وهاشم أقوى منه.

وقد كان المنذر يرجو أن يكون من كبار أمراء الأندلس، ولكن الله لم يرزقه عمرا، فتوفى بعلة باطنية ولم يحكم إلا سنتين إلا أياما.

وقد فعل المنذر الكثير خلال ولايته القصيرة وكان رجلا طيب الخلق محبا لأسرته بنى أمية الأندلسيين، ولا شك أن حياته لو طالت لفعل الكثير، وكان إلى جانب استعداده الكبير للعمل الإدارى والعسكرى محبا للشعراء واسع العطاء لهم، ومن كبار الشعراء فى عصره أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، والعكى كان أيضا من كبراء شعرائه، وقد قيل فيه شعر كثير، ويبدو أن أهل الأندلس تفاءلوا بولايته وأحبوه.

قال ابن عذارى – نقلا عن ابن حيان، فى الغالب : ولم يكن أحد من الخلفاء قبله مثله

شجاعة وصرامة وعزما وحزما، وقد بلغ فى سنه ذلك ما لم يبلغه غيره فى الدهر، ولقد كان أبطال الرجال وأمجادهم من أهل الفتنة يذعنون له من غير محنة ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها، وإن الرأى المستفيض عنه عن الشيوخ أنه لو عاش المنذر عامًا واحداً زائداً (على ما عاش) لم يبق بريُّه (مالقه) أحد من الثائرين وهى مركز ابن حفصون، وأخباره تدل على ذلك، وأول أخباره الدالة على ذلك أنه لما أتاه موت أبيه لم يمنعه ذلك من التعريج عن القصد واختصار الوقت فى مهاجمة ابن حفصون، ولا شغله أمر مهم ولا أمر جليل عن آخر، فجعل طريقه على ريه فهذب أمورها وولى عليها سليمان بن عبد الملك بن أخطل وعبد الرحمن بن حريش، وأدخل معهما أهل المعاقل من العرب والحشم، ثم جمع فى يوم واحد مبايعته وإعطاء الجند والنظر فيما أسقط من الأزمّة عن الرعية وما فعله من الاستحماد إلى أهل قرطبة بإسقاط العشور عنهم، واستقر فى الندب وإخراج القائد، وهكذا كان فعله فى جميع، وبحسب ذلك كان انقياد الأشياء له »[1].

إمارة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
من يوم الأحد ٨ ربيع الأول ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م
إلى السبت نصف صفر ٢٧٥هـ/ يونيو ٨٨٥م :

لا يكاد الناس يسمعون بعبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أميرا للأندلس، والحقيقة أنه هو وسالفه الأمير المنذر بن محمد ابنى عبد الرحمن بن الحكم، وهو أخوه.

وقد ورث عبد الله من أخيه رسالته (ورسالة أبيه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم) وهى حرب ابن حفصون، ولم يكن ذلك الرجل بالثائر السهل، وإنما كان رجلا ملعونا بنى على الشر والفساد، وكان كما رأينا رجلا بليغا نافذ النظر إلى الحقائق.

(١) فى هذه الجملة غموض، ولكنى أبقيتها كما هى، فهى من كلام حيان بن خلف فى الغالب.

وقد رأينا كيف اتفق الأمراء محمد وابناه عبد الله والمنذر حكمهما فى حربه، والحق أنهم لم يقضوا عليه ولكنهم أرهقوه وأضعفوه، ولم يقض عليه إلا عبد الرحمن الثالث أو الناصر وهو حفيد عبد الله بن محمد هذا.

وكان أول ما فعله عبد الله هذا أن وجه إبراهيم بن خمير لأخذ بيعة ابن حفصون ومن قبله، وكأنه ظن أن هذا الثائر اللعين قد ضعف وأصبح الآن مستعدا للطاعة، وكأنه أظهر ذلك ولكنه ظل عنيدا فى داخله، فأظهر أنه يطيع الأمير عبد الله، وأرسل مع إبراهيم بن خمير ابنه وجماعة من أصحابه ضمانا للأمير وبقى ابن حفصون فى ريه - وهى مالقة - مطيعا منتهيا عما نُهِىَ عنه واقفا عند ما أُمِرَ به، ولكنه لم يستمر على ذلك طويلا، وعاد إلى الانقلاب والثورة « فلم يدع مالا عند أحد أمكنه أخذه إلا أخذه، واستحوذ على أهل الكور فى أموالهم وأمضى نفسه على عادته الذميمة فى الفساد وقطع السبل، وذلك فى سنة ولاية الأمير عبد الله (ابن عذارى، البيان ١٢٢/٢) وتحصن فى قلعة بربشترو.

لهذا نجد أن أول ما فعله الأمير عبد الله أن خرج بنفسه إلى بربشترو وحصون ريه فانتسف معايشها وحصنها ثم عاد إلى قرطبة وأبقى على هذه الناحية محمد بن ذبتن، من أهل قرطبة، وكان من كبار رجاله، ونزل ابن حفصون من حصنه فى بربشترو وجمع معه الثائرين المفسدين هناك فاحتلوا استجه، فأرسل الأمير عبد الله رجاله، فاستولوا على حصن استبه وأخذوا يتأهبون للاستيلاء على بربشترو، وسار بعض عرب إشبيلية إلى قرمونة فاحتلوها.

وفى نفس السنة الأولى من إمارة عبد الله ثار عليه أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى المعروف بالأنقر.

وهنا نجد ابن حفصون يعود إلى الثورة ويقصد بيانة Baena فلما نزلوا إليه من جبلهم غدرهم وقتلهم وأخذ أموالهم وسبى ذراريهم.

وفى نفس السنة انتقض أهل جيان على الأمير وأخرجوا عاملهم عباس بن لقيط وتسلم البلد الثائر الكبير ابن شاكر.

وفى السنة التالية (٢٧٧هـ/٨٨٩م) ولد عبد الرحمن الثالث أو الناصر، وهو حفيد عبد الله هذا.

ويبدو ان الأندلس خرج من يد عبد الله جملة، فأرسل القائد ابن أبى عبدة إلى جيان.

وفيها ابن شاكر، وكان من كبار الثوار فسار إليه ابن أبى عبدة فحاربه وحاصره فى جيان وقتل جماعة من أنصاره وأحرق كثيرا من دور جيان.

وكذلك خرج على الأمير عبد الله بن محمد وسار إلى جيان فأغرم أهلها الأموال الجسيمة، ولكن جيان والبيرة ظلتا دون حاكم من الأمير لمدة سنتين.

وفى سنة ٢٧٨هـ/٨٩٠م خرج الأمير عبد الله إلى بلاى Peloyo من أعمال قبره وكانت من كبار حصون ابن حفصون فحوصر هو ورجاله عند جيان فأظهر ابن حفصون الطاعة.

ولكن ابن حفصون وجماعة كبيرة ممن كان معه من أهل الفساد هربوا من جيان أثناء الليل وأضروا بأهل قرطبة وضيقوا عليهم حتى أغاروا على أغنام قرطبة فخرج إليهم الأمير عبد الله بنفسه مستهل صفر من ذلك العام (٢٧٨هـ) ونجا بذلك هو ومن فروا معه من يد الأمير، فلما جاء الصباح علم الأمير عبد الله بذلك فأرسل الخيل فى أثره فلم يعلم له خبر.

ودخل الأمير حصن بلاى يوما فوجده مترعا بالنخر ملآن من العدد، وكان عدد عسكر الأمير ١٨٠٠٠ فارس، وقيل : إن ابن حفصون ألب على الإمارة حصون الأندلس كلها وأقبل على الأمير فى ٣٠٠٠٠ ووقعت الحرب بينهم فانهزم ابن حفصون وقتل أكثر من كان معه، ودخلت منهم جماعة فى محلة الأمير فأمر بالقبض عليهم فأتى بألف رجل منهم، فقتلوا صبرا بين يديه، هكذا ذكر فى كتاب «بهجة النفس» (ابن عذارى ١٢٣/٢).

ثم قصد الأمير استجه فنازل أهلها وجاء بهم وقتل لهم عددا كبيرا، فلما أخذهم الجهد رفعوا الأطفال على الأيدى فى الأسوار مستصرخين ضارعين راغبين فى العفو فعفا عنهم، وكان ذلك سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م.

وفى سنة ٢٨٠هـ/٨٩٠م توجه المطرف ابن الأمير عبد الله بالجيش إلى ابن حفصون ببريشترو فحاصرهم وهتك جميع ما حولها.

وفيها أمر الأمير عبد الله ببنيان حصن لوشه loja وأبقى عليه قائدا إدريس بن عبيد الله.

وفيها دخل إذفونش بن أردون مدينة سمورة وبناها، وهى من مدن طليطلة.

وفى السنة التالية (٢٨١هـ/٨٩١م) غزا الأمير عبد الله بنفسه، وأرسل القائد عبد الله بن عبد الملك بن أمية فتقدم إلى حصون مستنه ونازل حصن آشر (وكان فيه ابن حفصون) وحاربه الأمير وقتل من أهله عددا كثيرا وهدم حصن السهلة.

* * *

وقد وقفت هذه الوقفة الطويلة بحكم الأمير محمد وابنيه عبد الله والمنذر لكى نطلع على حقيقة الأندلس، فنحن كلنا نقرأ تاريخ الأندلس بعد فتنة سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م، ونتعجب كيف عجز أهل الأندلس عن إقامة حكومة مركزية ناجحة تعود بالدولة إلى سابق قوتها وتنقذها من الدمار، وها نحن قد رأينا من خلال عرضنا لإمارات محمد وابنيه عبد الله والمنذر أن الأندلس – أو قل : شبه الجزيرة الأيبيرية كلها – كانت موضع اختلاف، ولا يكاد أمير يتولى حتى تقوم فى وجهه الاختلافات والثورات فيقضى حكمه كله فى الدفاع عن نفسه ومركزه، وأمثال هذه الثورات كانت تقع فى حكومات عباد الرحمن الثلاثة ولكن هؤلاء الأمراء الأقوياء كانوا يخفون عنا حقائق الأحوال فى عصور حكمهم وكانوا يملون على المؤرخين تواريخهم فلا نفهم مثلا كيف أنه بعد

وفاة عبد الرحمن الثالث، وهو الناصر، بدأت البلاد تتفكك أثناء خلافة الحكم المستنصر، رغم قوته وكفايته، ولكنه كان عالما ينفق معظم وقته مع العلم والعلماء.

إن الأندلس يحتاج إلى حاكم سياسى قوى يقضى على الثوار فى أيامه ولا يحتاج إلى عالم، لأن العالم فى الغالب يكون طيب القلب حسن الظن بالناس، بل إلى حاكم سياسى إدارى يقضى بعنف وقسوة على الثورة والثوار، وسنرى أن عبد الرحمن الناصر كان من هذا الطراز.

ومثلا فى سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م غزا بالصائفة المطرف ابن الأمير عبد الله، وقاد الصائفة عبد الملك بن أمية، فلما كان بإشبيلية قبض على القائد عبد الملك بن أمية وقتله، وقدم على قيادة العسكر أحمد بن هاشم، وأقام العسكر فى الموضع أربعة أيام، وكتب أمانا لأهل أشبيلية، وأمانا لأهل شذونة فدانتا له، وقبض جبايتها ودوخ تلك البلاد، ثم رحل إلى إشبيلية وناشبهم الحرب، فانهزم أهل إشبيلية، ووقع فيهم القتل إلى سور المدينة، ثم اجتاز الوادى الكبير، فتتبع القرى بالنسف وتغيير الحكام.

ثورة بنى حجاج فى إشبيلية :

وقد مضينا فيما مضى كله دون أن نذكر بنى حجاج فى إشبيلية، وقد كانوا من أكبر منافسى بنى أمية الأندلسيين، ولكنهم كانوا يهادنونهم ويسلمون لهم، وقد سكت عنهم بنو أمية حتى لا يفتحون على أنفسهم بابا من الخلاف يعسر سده.

ولكن الأمير عبد الله فتح هذا الباب، وكأنه رأى أنه لم يعد ينفع التجمل مع بنى حجاج وبنى خلدون أصحاب القوة فى إشبيلية وقد كانا يعاملان الأمراء على أنهم أصحاب القوة فى إشبيلية.

وقد بدأ الأمير عبد الله فى سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م فقبض المطرف ابن الأمير عبد الله على إبراهيم بن حجاج وابن خلدون وابن عبد الملك الشذوتى فوضعهم عبد الله فى السجن، وأوثقهم فى الحديد وقطع لسان سحنون الكاتب وضرب ظهره.

وقد فعل عبد الله ذلك بهم لأن إبراهيم بن حجاج كان قد ترك ولده رهينة بقرطبة ورجع إلى بلده إشبيلية وقد عول على إعلان الثورة فلما صار فى إشبيلية اختار بنى خلدون وكانا ثائرين مثله فخالفهما واقتسم إشبيلية وإقليمها معهما فأخذ بنو حجاج النصف وبنو خلدون النصف وظل ذلك أعواما.

فلما كان فى سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م وكان الأمير عبد الله يسعى للإيقاع بين بنى حجاج وبنى خلدون وكان يعلم أنهما لم يكونا مخلصين أحدهما للآخر وكان يكشف لكل منهما ما يراه من حقيقة أمر صاحبه، فحدث فى تلك السنة أن كتب إبراهيم بن حجاج كريب بن خلدون إلى الأمير عبد الله بحاجاتهما وكتب إلى الأمير كذلك خالد بن خلدون، وكان ما بين البيتين قد فسد فى الباطن ولم يظهر ذلك للعيون، وخالد بن خلدون كشف سر أخيه كريب فى خطابه.

وكذلك أوقع إبراهيم بن خلدون بكريب بن خلدون إلى الأمير، وكان يرمى فى خطابه إلى الإيقاع ببنى حجاج، فوقع الخطاب فى يد أحد موظفى القصر فأسرع بإرسال نسخة منه إلى إبراهيم ابن حجاج، فعلم إبراهيم بن حجاج أن بنى خلدون قد فسدوا عليه، فلجأ إبراهيم بن خلدون بدعوة بنى خلدون إلى طعام فاستجابا، ولما اجتمع كريب بن خلدون وأخوه إبراهيم على الطعام بدأ إبراهيم ابن حجاج فى عتاب كريب بن خلدون وأخيه خالد واشتد فى ذلك وكشف لهما الخطابات التى كانا يكتبان بها إلى الأمير، واشتد فى اللوم، فما كان من خالد بن خلدون إلا أن أخرج سكينا كانت فى جيبه فضرب بها رأس ابن حجاج فمزق قلنسوته وضربه فى وجهه، فنهض إبراهيم بن حجاج وحرض رجاله فى المجلس على الإيقاع بكريب بن خلدون وأخيه خالد فقتلوهما بالسيوف وألقوا رأسيهما إلى أصحابهما فتفرقوا وتتبعهم ابن حجاج بالقتل والنهب، ومضى وكريب وخالد ابنى خلدون، وخرج الأمير عبد الله بأن بنى حجاج وبنى خلدون كانا يكتبان إليه ويقع بعضهم فى بعض، وكتب إبراهيم بن حجاج إلى الأمير يعلن طاعته ويطلب ولاية إشبيلية فولاه الأمير إياها،

فأحسن إبراهيم بن حجاج إدارتها، وارتقى فى الأحوال، وامتدت لفضائله الآمال، وحسن ذكره فى عصره، وحسنت العلاقات بين بنى حجاج والإمارة حتى طلب إبراهيم بن حجاج إطلاق ولده الرهنية عنده فاستجاب وأعظم الإحسان إلى إبراهيم بن حجاج فأظهر ابن حجاج الطاعة واستقامت أحوال تلك النواحى على يديه، كما يقول ابن حيان: فعند ذلك أعلن إبراهيم بن حجاج الانصراف عن ابن حفصون واعترف بحق أمير الجماعة، فعامله الأمير بما شهد له من الفضل فعلا مركزه عند الأمير وظل كذلك إلى آخر عمره، وتعمد الأمير عبد الله الانصراف عن بنى خلدون .

والآن وقد رضى الأمير عبد الله على إبراهيم بن خلدون وأحسن معاملته وأطلق سراح ابنه فقد استقامت لإبراهيم بن حجاج على ما كان يتمنى، وكان زينا لعصره حتى مات فجأة بعلة فى القلب، وخلفه ابنه عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج وطالت مدته ثلاث عشرة سنة، وتوفى سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م.

وكان أخوه محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونه فى حياة أبيه وبعد موته إلى أن مات أخوه، ولم يستقر بإشبيلية ولا حكمها، وقيل : إنه دس على أخيه عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج جارية فسمته فمات من ذلك.

قال ابن أبى الفياض: كان محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة بعد موت أبيه، وكانت له بها دولة حسنة وأيام صالحة، شُهِر فى الفضل ذكره، وانبسط على ألسنة الناس شكره، وقصده الناس من كل الأقطار، ومدح بجيد الأشعار، فأنال القاصدين ومنح المادحين.

ولما توفى أبوه ولى إشبيلية عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج أخاه محمدا إذ كان بالبيرة، وكان محمد يزيد على عبد الرحمن بحسنات خص بها، وظهر أثر الأمارة فى فعاله فحُمد فشُكر وحُسد، وكانت دولته بقرمونه أضخم من دولة أخيه باشبيلية وأطول، وذلك أربع عشرة سنة بعد موت أبيه وتوفى عام ٣٠٢هـ/ ٩١٤م.

قال الرازى: افتتح عبد الرحمن الناصر إشبيلية سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م، وكان سبب ذلك موت عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج المنتزى فيها بعد والده واجتماع كلمة أهلها من بعده على تقديم أحمد بن مسلمة ودفعهم لأخى عبد الرحمن وهو محمد بن إبراهيم بن حجاج فبعث الناصر إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج فقامت بينهم حرب عظيمة.

ثم بعث الأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر) عسكرا إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج وأمره بالتضييق على أهل إشبيلية وعقد له على ذلك، وأشرك معه فى ذلك البعث قاسم بن الوليد، صاحب شرطته، وكان بينه وبين محمد صداقة فحصن محمد بن إبراهيم بن حجاج، ولما طال على الناصر تمادى محمد بن إبراهيم بن حجاج على العناد بعث إليه صديقه ابن وليد طالبا منه العودة إلى الطاعة، فلم يزل به حتى أظهر الإنابة إليه فأنفذ محمد بن إبراهيم بن حجاج خاصته إلى الناصر، فوصل إليه فألحقه الناصر بنفسه وشافه بما ألقاه إليه محمد بن إبراهيم بن حجاج وأعلمه أنه ينعزل عن قرمونة ويسكن قرطبة فى شهر رمضان المعظم سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م، ووصل أقدارهم ومنازلهم عند محمد بن إبراهيم بن حجاج وأجزل لهم الصلة وأعطى محمدا العطاء الجزل وقربه من نفسه وولاه من حينه الوزارة منوها به مُرَفَّعَ الذكر، ثم خرج الناصر لدين الله غازيا فأغزاه معه وزيرا.

وكان حبيب بن عمر الوالى على قرموته من قبل السلطان (عبد الرحمن الناصر) قد امتنع بقرمونة فحاصرها الناصر ومحمد بن إبراهيم بن حجاج معه وزيرا، فسعى به عند السلطان من كان يحسده وقال له: إنما نافق ابن عمر مع محمد وبأمره، فعزله عن الوزارة وحبسه وحبس معه ابن وليد صاحب الشرطة، ثم أطلقا بعد ذلك، فلم يلبث محمد بن إبراهيم بن حجاج بعد ذلك إلا يسيرا وتوفى فى شوال سنة ٣٠٢هـ/ أبريل ٩١٦.

أعمال عمر بن حفصون فى أيام الأمير محمد:

وعندما ولى الأمير عبد الله بن محمد الإمارة (وهو جد عبد الرحمن الناصر) ووافته الكتب من جميع البلاد، واجتمعت على طاعته جميع العباد، رأى عمر بن حفصون على فرط عناده، وعتوه فى الأرض وفساده أن يدخل فى جماعته، ويلتزم بفروض طاعته، فأرسل ابنه حفصا إلى قرطبة مع جماعة من أصحابه على أن يعقدوا مع الأمير سلما منتظما وصلحا مبرما على أن يستقر عمر بن حفصون ببريشتر على الطاعة ويقيم بها على الطوع والسمع، فقبل الأمير انتزاعه وسمح بإيقافه هنالك، وأصدر ابنه ورسله إصدارا جميلا، ومنحهم برا جزيلا، ووجه معهم عبد الوهاب بن عبد الرءوف واليا على كورة ريه ومشاركا لابن حفصون، فمكثا شريكين فى الأمر والنهى إلى أن غلب ابن حفصون على عبد الوهاب وأخرجه من الكورة منبت الأسباب، واشتدت معرته، وتأكدت عاديته ومضرته حتى همت بالجلاء والناس بالجلاء، ولم يبق بالقنبانية قرية إلا غشيتها الخيل وعمتها الذلة والويل، وقد ملك اللعين استجه وارجذونة وعمها بالأسلحة وصير فيها آلات الحرب أصنافا.

فلما رأى ذلك الأمير عبد الله بن محمد بن الحكم الأموى قرر أن يقوم بعمل حاسم مع ابن حفصون فأمر بإخراج الجيش إلى فحص الربض بشقندة وتراءى الجمعان، وهجمت خيل ابن أبى عبدة على خيل ابن حفصون «فعكستهم عكسا وحمست آثارهم طمسا» كما يقول ابن عذارى (البيان ١٣٣/٢) « وأثقل ابن حفصون بالجراح وآب من النصر صفر الراح، قد ركب الأوعار، وبلغ حصن بريشتر مغلولا خاسرا ذليلا» ثم عاد إلى بغيه وفساده.

وقد كثر الثوار فى عهد الأمير عبد الله وثار سوّار بن حمدون بحصن منت شاقر Monte sae-ro فقام إلى جعد صاحب إلبيرة بمن معه فهزم جمعه وأخذه أسيرا، ثم أطلقه من إساره وعمه

بأفضاله وانصرف إلى البيرة بلده، وسار سوار إلى غرناطة وأغار على حصون ابن حفصون، فاجتمع أهل البيرة فى نحو ثلاثة وعشرين ألفا، فلقيهم سوار فى عدد قليل، فلاذ هو وجماعته بالفرار، وحلت عليهم الحتوف، وقتل منهم على ما ذكر اثنا عشر ألفا، وذلك فى سنة ٢٧٦هـ/ ٨٧٩م، وكانت بين سوار هذا وابن حفصون حرب انهزم فيها ابن حفصون وقد أثقل بالجراح، وكان جعد الثائر بالبيرة محالفا لابن حفصون فى النفاق والفساد، فأعمل جعد الحيلة فى الغدر بسوار جهده فأغار على جهته يوما وقد أكمن له هناك قوما وخرج هو بنفسه فى عدد يسير فاكتسح وأغار، وظن سوار أن ليس وراءه أجناد، فلما أوغل جعد الثائر فى بلاد سوار خرجت عليه الكمائن وأحدقت الخيل بسوار فقُتل وعاد عسكره مهزوما مغلولا، وأرسل جعد صاحب البيرة إلى ابن حفصون برأس سوار.

وثار سعيد بن جودى فى ذلك التاريخ بعرب الأندلس وعارض ابن حفصون وتصدى لجنده فأعمل ابن حفصون الحيلة للإيقاع به، وما زال به حتى قبض عليه واحتجزه ابن حفصون عنده أسيرا فى القيود ثم قبض فيه مالا جزيلا فأطلق سراحه، وما زال سوار حرا حتى قتل فى دار عشيقة له يهودية غدرا، وخلفه فى قيادة الثائرين بجانب البيرة محمد بن أضحى، فانضم ابن حفص إلى الأمير وأعلن الرضى على ابن حفصون ولكنه وقع فى أسر ابن حفصون ثم أطلق سراحه لقاء مال جسيم.

وثار العرب بإشبيلية على الإمارة وقبضوا على عاملها، ولم يتركوا إلا أهل عاملها وولده وقتلوا الكثير من أعوانه وأفسدوا فى كل مناطق الإمارة، فاجتمعت عليه العساكر من قرمونة وسائر البلاد وقتلت منهم ألوفا فى الوقعة التى عرفت بالدُّعْقَة.

وكثر الثوار فى الأندلس كله على الأمير عبد الله ومنهم عبد الرحمن بن مروان الجليقى وعبد الملك بن أبى الجواد، وكان معاقدا لعبد الرحمن بن مروان الجليقى، فقد احتل مدينة باجة

وامتلكها وتحصن بحصن ميرتله Miertula وكذلك خرج على الطاعة ابن بكر صاحب اكشوفية في الغرب.

وثار ابن السليم، وهو منذر بن محمد بن السليم بمدينة ابن السليم المنسوبة إلى جده من كورة شذونة، فاقتصد في سيرته ولم يظهر نبذ الطاعة إلى أن قتله مملوكه له يسمى غلنده Galindo وخلفه وليد بن وليد وصار إلى الطاعة عند هبوب رياحها بالخليفة عبد الرحمن الناصر.

وقد ذكر ابن عذارى بعد ذلك (البيان ١٣٢/٢) فقال: «فلما رأى الأمير عبد الله ما أحاط بقرطبة من ابن حفصون أمر بإخراج السرادق إلى فحص الربض بشقنده، فلما تم ذلك بعث ابن حفصون خيلا ترمى على شقنده لعلها تأخذ السرادق السلطاني وتهجم على البلد وتحيط بجانبه، فخرجت لهم الخيل إثر ذلك وطردتهم طردا من هنالك، ووصلت إلى ابن حفصون ودفعته عن الجهه، ومنعته من تلك الوجهة وأدت إلى حصن بلى Pelayo بقبرة، فجمع له الأمير أهل قرطبة وسار إليه في نحو أربعة عشر ألفا، وحشد ابن حفصون نحو ثلاثين ألفا فهزمهم الأمير فعملت السيوف في رقابهم حتى رويت الأرض من دمائهم، ودخل الأمير عبد الله القلاع الثائرة عليه واشكلها.

ولما رجع ابن حفصون إلى بربشتر حشد أعوانه وخرج بجمعه إلى البيرة، فهجمت خيل ابن أبي عبدة على خيل ابن حفصون فأوقعت بهم الهزيمة، واثقل ابن حفصون بالجراح، وبلغ حصن بريشتر مغلولا، ثم عاد إلى ثورته، وكان الأمير عبد الله يواصل النصر عليه حتى ضعف أمر ابن حفصون وملته أنصاره وأعوانه، فلما توفي الأمير عبد الله وولى عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر بادر ابن حفصون بالطاعة، ثم نكث وعاد إلى ثورته.

وقد ظل ابن حفصون طول حياته ثائرا، كان إذا أطاع لم يلبث أن ينقلب على الإمارة، وكان يتزعم كل الثوار الآخرين.

وقد ثار فى عصر عبد الله إلى جانب من ذكرنا عدد كبير من الثوار حتى يخيل لنا أن أمر الإمارة اقتصر على قرطبة، وهذا كان الواقع رغم كل الجهود التى بذلها الأمير عبد الله، ولكن يبدو أنه لم يكن يشتد على الثائرين حتى يقضى عليهم قضاء تاما، وهذا ما سيفعله عبد الرحمن الثالث أو الناصر.

وقد ثار على الأمير عبد الله سوار بن حمدون بحصن منت شاقر Monte sacro فقام إلى جعد عامل إلبيرة بمن معه فانتصرت جيوش الأمير عبد الله على قوات ابن حفصون، وسار سوار إلى غرناطة وأغار على حصون ابن حفصون فاجتمع أهل البيرة فى نحو ثلاثة وعشرين ألفا وأيدوا ابن حفصون فلقيهم سوار فى عدد أقل بكثير وهزمهم وقتل منهم نحو ١٨٠٠٠ على ما ذكر.

ومن أكبر من ثار على الأمير عبد الله فى أواخر أيامه ابن السليم، وهو منذر من إبراهيم بن محمد بن السليم بمدينة ابن السليم المنسوبة إلى جده من كورة شذونة، ولم يظهر منذ الطاعة إلى أن قتله مملوك له يسمى غنده Galindo وخلفه فى قيادة القورة وليد بن وليد ولكنه لم يلبث أن أطاع عندما تولى الإمارة عبد الرحمن الناصر.

وكثرت الثورات فى زواخر سنوات حكم الأمير عبد الله حتى بدا وكأن الدولة تزول، ولا ندرى فى الحقيقة السبب فى حالة الفوضى تلك التى استولت على الأندلس كله، وكما رأيت فى ثورة ابن السليم فقد كانت فى كورة شذونة أى فى قلب الأندلس، ولا يتسع المجال لذكر هذه الثورات كلها، ولكننا نقول : إن السبب الأكبر فى هذه الثورات هو وجود عمر بن حفصون مستقلا ثائرا فى حصـن بربشترو فى كـورة رية وهى مالقة، فكان هذا الرجل الثعلب كأنه أمير ثان للأندلس، ولا يكاد رجل يثـور ببلده إلا واتصل بعمـر بن حـفـصـون فـسارع هذا بإمداده بالجند والذخـائر والأموال.

وكان لا بد من تركيز الجهود للقضاء على عمر بن حفصون لكي تستطيع الإمارة حكم بلادها، ثم لكيلا يكون هناك ذلك الوكر الخطير في قلب الدولة الأندلسية، ومعظم من يذكرهم ابن عذارى والمقرى هنا من الثوار ليسوا ثوارا بالفعل، وإنما هم ناس سيئون في بلادهم يفتعلون الثورة لكي يحصلوا على العون من عمر بن حفصون، وكان لا بد من القضاء عليه خاصة وهو في جبل بربشترو من جبال ريه وهي مالقة.

ولكن الأمير عبد الله ما كان ليستطيع أن يقضي على هذه الثورات كلها واحدة واحدة خاصة ونحن نرى أن معظم هؤلاء الثوار كانوا يمتنعون ببلادهم الذين هم حكام عليها وهم من أهلها، ويتصلون بعمر بن حفصون فيرسل لهم الأموال والجيوش، ثم نجد الرجل بعد أن يتجمع له ذلك كله يعود إلى الطاعة ويكتب إلى الأمير عبد الله بذلك فيرضى عنه ويتسامح عما فعل أو عما لم يرسل من أموال الناحية للإمارة، وهذا كله يدل على سوء نفوس أولئك الناس وأنعدام شعور الوطنية فيهم.

وسنرى أن ذلك كله سيتغير أيام عبد الرحمن الناصر بعد أن يقضي نهائيا على ابن حفصون ويستولي على بربشترو قاعدته في جبل ريه ويخربها

ومن الغريب أن عمر بن حفصون كان أحيانا يرى أن الثائر لا قيمة له، فيغدر به ويقتله ويتقرب برأسه إلى الأمير عبد الله، كما نرى في حالة ثورة خير بن شاكر بحصن شوذر، فقد ظاهر عمر بن حفصون، ففتك به عمر بن حفصون وأرسل برأسه إلى الأمير عبد الله، والكثيرون منهم استنزلهم عبد الرحمن الثالث الناصر فانتقلوا إلى قرطبة وظلوا طائعين لهم حتى موتهم.

وحقيقة هؤلاء الثوار أنهم إما عرب من أهل اليمن، أو بربر، ونادرا ما يكونون من عرب الشام، فهؤلاء أهل الحكم والطاعة.

ومن غريب ما نقرأ من أخبار أولئك الثوار ما نقرأ من أخبار سعيد بن سليمان بن جودى، وهو أمير من أمراء عرب غرناطة والبيرة، يقول ابن عذارى (البيان ٢/ ١٣٦). « أمّرته عرب غرناطة والبيرة فضبط أمرهم، حتى دبر اثنان كبيران منهم بحيلة، فقتلاه بها، فلم ينتظم للعرب هناك أمر بعده ».

أولئك الثوار كانوا أمراء للعرب معترفا بهم من عربها.

قال بن عذارى: وثار ابنا مهلب، من وجوه قبائل البربر بكورة إلبيرة، وهما خليل وسعيد، ثارا ثورة نظرائهما بجهتهما، فأقام على سبيلهما إلى أن استنزل الناصر أولادهما بعد وفاتهما (البيان ١٣٧/٢).

وقد كان الأمير عبد الله يرسل حملات على ابن حفصون فى بربشترو، ولكنها كانت حملات صغيرة لا تعنى شيئا كثيرا بالنسبة لابن حفصون، وانظر مثلا فى حوادث ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م. وكانت الحالة قد وصلت فى بلاد الدولة الأموية الأندلسية إلى حالة فوضى حقيقية فإن الثوار كانوا أحيانا يثور بعضهم على بعض ويهزم بعضهم فيأخذ المنتصر حصونه ويضمها إلى أرضه.

انقلاب ابن حفصون إلى النصرانية :

ويبدو أن ابن حفصون ظن أنه إن انقلب إلى النصرانية فإنه سيجتذب إلى صفوفه أهل شبه الجزيرة كلهم، ولكن ظنونه كذبته هنا، فقد انصرف عنه الناس وبان ضعفه.

قال ابن عذارى (البيان/ ٢/ ٢٨٦) وفى سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م أظهر ابن حفصون النصرانية، وكان قبل ذلك يسرها، وانعقد إلى أهل الشرك وباطنهم، ونفر عن أهل الإسلام ونابذهم فتبرأ منه خلق كثير، ونابذه عوسجة بن الخليع وبنى حصن قنيط وصار فيه مواليا للأمير عبد الله

محاربا لابن حفصون، واتصلت عليه المغازى من ذلك الوقت، ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتى ولا ينى القواد عنه فى الحل والترحال.

قال ابن عذارى: وفيها صُلب إسحاق وصاحبه وكانا من رجال عمر بن حفصون، وفيهما جرى المثل فى الناس « غررتنى يا إسحاق » وذلك أن أحدهما قال هذه الكلمة وهو يرفع فى الخشبة (البيان ٢/ ١٣٩).

وكان ابن حفصون يعود إلى الطاعة أحيانا ويرسل رهائن بذلك، ولكنه كان لا يلبث أن يسحب رهائنه وينقلب على الإمارة، كما حدث سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م انظر (البيان لابن عذارى ص ١٣٩).

وجدير بالملاحظة أن الإمارة كانت أقوى من عمر بن حفصون بكثير، ولو أنها أصرت على القضاء عليه لتم لها ذلك، فقد انهزم عمر بن حفصون مثلا بوادى بلون Bullàn (من جيان) وكان قد توافى إليه أهل الخلاف وخرج مغيرا على المسلمين، فهزمه الله، وقتل كثير ممن كان معه وأدبره فى شرذمة قليلة، وأفنى أكثر رجاله فى ذلك المعترك (البيان ٢/١٤١).

وكانت الإمارة على قوة، ولو أن الأمير كان أقوى وأحزم من عبد الله بن محمد لقضى على ابن حفصون وكذلك كان أولاد الأمير عبد الله وهم قادة الجيوش، ومثال ذلك غزوة العاصى ابن الإمام عبد الله المعروفة بغزوة رية وفريرة Ferrera وقد أصاب العاصى هذا نصرا كبيرا ممن رجال ابن حفصون، فقد غزا نواحى رية وتجول فى كورة إلبيرة وحل بمحلة بجانة Baena ثم انتقل إلى كورة جيان (شرقى قرطبة) ونازل حصن المنتلون Montelón .

وأحيانا نرى أن عمر بن حفصون يجتمع بنفسه مع ثوار آخرين مثل عمر وسعيد ابنى مستنه وسعيد بن هذيل، فأغاروا على ناحية جيان وأصابوا وغنموا وانصرفوا إلى حصن جريشة فاتبعهم

القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة فلحقهم وهزمهم وقتل جماعة منهم (فيهم تسريل العجمى، من قواد ابن حفصون).

ويلاحظ أن عمر بن حفصون كان ينهزم دائما أمام جند الإمارة، ولكن مشكلة الإمارة فى عهد الأمير محمد وأولاده كانت فى قلعة ببشترو التى كان يتحصن بها ابن حفصون.

وفى أثناء التفاصيل الكثيرة عن الثورات التى عمت الأندلس خلال حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن وأولاده المنذر وعبد الله يذكر ابن عذارى أخبار موت الكثير من الشخصيات الرئيسية فى تاريخ الأندلس الحضارى.

ففـى سنـة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م مات إبراهيم بن محمد ومطرف بن أحمد بن مطرف ابن الأمير عبد الرحمن، وأبان بن عبد الملك ابن الأمير عبد الرحمن (الأوسط).

وفيها توفى سعيد بن عبد الرحيم الشذونى الكاتب، وأبو يحيى يزيد بن محمد التجيبى الخازن، وموسى بن العاصى بن ثعليه، وأبو مروان عبيد الله بن يحيى بن أبى عيسى، وأصبغ بن عيسى بن فطيس، وإبراهيم بن حجاج صاحب إشبيلية وهو ابن ثلاث وستين سنة وعمر بن قومس الكاتب، وريان الفتى صاحب الطراز وأفلح الوزير.

وخلال هذه السنوات حدث شر بين بنى الأمير عبد الله وهما محمد ومطرف كأنما كان هذا الفرع من بنى أمية الأندلسيين قد حسبوا أن عرش الأندلس أصبح قصرا عليهم.

ويختص ابن عذارى (البيان ١٥١/٢) الأمير عبد الله بن محمد بفقرة طويلة نرى فيها أن ذلك الأمير أنجب أولادا كثيرين ليكون الملك فيهم إلى الأبد، وفعلا كان فيهم، فإن عبد الرحمن الثالث (الناصر) كان ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط، ثم يذكر وزراءه وكتّابه وأصحاب شرطته، ونجد من بينهم عبد الرحمن بن أمية بن شهيد، وسعيد بن محمد بن

السليم، وبراء بن مالك القرشي، وعباس بن عبد العزيز القرشي، وسعيد بن محمد، من آل السليم، وعبد الملك بن عبد بن أمية.

ونجد فى هؤلاء وأيام الأمير عبد الله ثلاثة من بنى عبدة هم : عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة، وأحمد بن محمد بن أبى عبدة، وسلمة بن على بن أبى عبدة، وعبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة، وحفص بن محمد بن بسيل، ومحمد بن وليد بن غانم، وأصبغ بن عيسى بن فطيس، وعبد الله بن محمد الزجالى، وكان كاتبا ووزيرا وسليمان بن محمد بن وانسوس، وأحمد ابن هاشم، وجعفر بن عبد الغافر، وقد قاد الخيل، وقاد الخيل العاصى بن عبد الله بن ثعلبة وتمام ابن عمرو بن علقمة (وكان وزيرا لثلاثة من الخلفاء) وعبد الله بن حارث بن بزيغ، وإبراهيم بن خمير، ومحمد بن أمية بن شهيد، وولى المدينة نصر بن سلمة وولى القضاء موسى بن زياد الأمير.

وفاة الأمير ثم الخليفة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضى ابن هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ/ اكتوبر ٩١٢م الأربعاء ٢٨ رمضان ٣٥٠ هـ/ نوفمبر ٩٦١م :

كان أبوه محمد ولى عهد أبيه عبد الله وأكبر بنيه، فقتله أخوه مطرف، وقتله به، وكان مولد عبد الرحمن الناصر قبل قتل أبيه محمد بواحد وعشرين يوما، وذلك يوم الخميس لثمان بقين من رمضان سنة ٢٢٧هـ/ ديسمبر ٨٩٠م.

قال ابن عذارى (البيان ١٥٧/٢) وولى والأندلس جمرة تحتدم ونار تضطرم شقاقا ونفاقا فأخمد نيرانها وسكن زلازلها وغزا غزوات كثيرة، وكان يشبه بعبد الرحمن الداخل.

ومن يوم دخوله الأندلس سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م إلى ولاية عبد الرحمن الناصر مات من بنى أمية سبعة أمراء وعبد الرحمن ثامنهم، ومات فى المدة المذكورة من بنى العباسى ٢٢ خليفة، وكانت سنه يوم تولى الإمارة ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر و ٢٣ يوما، وكنيته أبو المطرف وأمه أم ولد تسمى مزنة، وأُخذت بيعته بقصر قرطبة وتولى أخذها له على الخاصة والعامة بدر بن أحمد مولاه، وموسى بن محمد بن حدير صاحب المدينة، وأحضر أعمامه وأعمام أبيه وطبقات قريش وصنوف الموالى وعامة الناس فبايعوا مبايعة رضى واغتباط بوجوه متهللة وصدور منشرحة وألسنة داعية شاكرة لله عز وجل على ما قلدوا من أمرهم، وقد استبشر جميعهم بيمن نقيبته واعتلاء همته ورجوا ما قد حققه الله لهم من بركة دولته وصلاح الأحوال.

وولى الخزانة أيضا محمد بن عبيدة بن مبشر، ومحمد بن عبد الله بن عبيدة بن مبشر، ومحمد ابن عبد الله بن أبى عبدة، وعزل عنها عيسى بن شهيد وولى مكانه سعيد بن سعيد بن حدير، وولى كذلك ناسا آخرين فى نفس يوم ولايته، ولم يك ذلك غريبا عليه فهو يعرف أهل الأندلس جيدا.

وكان أول ما اهتم عبد الرحمن بإخضاعه هى كورة غرناطة وكانت فيها حصون كثيرة لابن حفصون، وقد عرف عبد الرحمن كيف يحتل قواعدها، وكان عندما اقترب من غرناطة أقبل ابن حفصون يريد الإيقاع بعبد الرحمن وجنده فهزمه عبد الرحمن وقتل جماعة من رجاله وأسر عمر ابن أيوب حفيده، وجرح أحد أولاده جروحا ثقيلة أثخنته.

ومضى يستولى على حصون مقاطعة غرناطة مثل شيبلس Sapieles وكان من أوعر حصون ابن حفصون منعة وأصعبها مراما وأوعرها مكانا، وقد احتله عبد الرحمن واحتل كذلك كل حصون غرناطة، وحاصرهم عبد الرحمن خمسة عشر يوما حتى نادوا بالطاعة وضرعوا فى قبول الإنابة وأسلموا أصحاب ابن حفصون الذين كانوا عندهم، فتلقاهم بالإقبال وأخرج إليه جميع من كان فى الحصن من المشركين فأمر بضرب رقابهم وقتلوا جميعا.

ثم أتم إخضاع كل حصون إلبيرة، وضبط برجاله كل حصن افتتحه وانحسم الداء فى كل مقاطعة إلبيرة، ثم عاد إلى قرطبة عن طريق حصن اشتبين Estabien وحصن بنه فراطه Péna Ferrato وهما فى غاية الحصانة والمنعة، وهكذا، أتم عبد الرحمن فى حملته الأولى الاستيلاء على كورة غرناطة ومعها جيان.

وفى سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣- ٩١٤م توفى بإشبيلية عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج صاحبها فى المحرم فاجتمع أهلها على تقديم أحمد بن مسلمة مكانه، وكان من الشجعان فأخرج عبد الرحمن مكانه أحمد بن محمد بن حدير الوزير قائدا نحوها فحاربه وأوقع برجاله، وكان محمد ابن إبراهيم بن حجاج صاحب إشبيلية عند ذلك بمدينة قرمونة فقصد باب السدة من أبواب قرطبة لمحاربة أهل أشبيلية، فأخرجه لذلك مع قاسم ابن وليد الكلبى فحاصرها شهورا، ثم خرج إليها القائد محمد بن إبراهيم بن حجاج، ثم أخرج إليها الحاجب بدر بن أحمد فدخلها يوم الاثنين ١٩ جمادى الأولى من هذه السنة وهدم أسوارها واستصلح أمور أهلها وأخرج مع نفسه سعيد بن المنذر وجعله واليا عليها.

وفى سنة ٣٠١هـ/ ٩١٤م توفى عبد الله بن محمد الزجالى الوزير الكاتب، وكان قد جعله واليا على إشبيلية .

وفى هذه السنة أيضا قتل ببرشلونة عبد الملك بن عبد الله بن شبريط.

وفى هذه السنة وقعت ملحمة أرنيط، وهلك فيها غرسية بن اذفنش صاحب جليقية وصار الأمر إلى أخيه أروون بن إذفنش.

وفى مستهل رجب ٣٠٢هـ/ ١٠ يناير ٩١٦م كانت ولادة الحكم المستنصر ابن الخليفة الناصر.

وفى تلك السنة أمحل الناس وتوالى القحط بالأندلس فبرز إلى مصلى الربض محمد بن عمر ابن لبابة صاحب الصلاة واستسقى بالناس، وقد استسقى هذا الرجل بالناس خمس مرات فى أيام مختلفة فلم يسقط مطر، وغلت الأسعار وقلت الميرة بالأسواق، ثم برز أحمد بن أحمد بن زياد للاستسقاء بالناس فى ١٣ شوال ٣٠٢هـ/ أول مايو ٩١٦م، برز لصلاة الاستسقاء فنزل رذاذ تماسك به الزرع، ولكن معظم الزرع ضاع، وكان القحط عاما شاملا بالأندلس كله وغلت الأسعار فى كل الأندلس.

وفى تلك السنة ٣٠١هـ/ ٩١٦م قدم الناصر محمد بن عبد الله الخروبى إلى ولاية المدينة، وكان قبل ذلك على السوق، وعزل عن المدينة محمد بن محمد بن حدير، وولى السوق أحمد بن حبيب بن بهلول وعُزل عبد الله بن بدر عن الكتابة ووليها عبد الملك بن جهور، وعزل محمد بن محمد بن أبى زيد عن الشرطة الصغرى ووليها يحيى بن إسحاق.

وقد ذكرت هذه الأخبار عن الولايات لأننا نلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان دائم التنقيل والعزل والتولية والنقل لكبار الموظفين حتى إننا نستطيع أن نقول : إن ذلك كان من قواعد إدارته، وربما كان على حق فى ذلك لأن نجاحه الكبير فى إدارة الأندلس وبلوغه به إلى أعلى درجات القوة السياسية والعسكرية لا بد كانت له عنده أسباب، ولكن أهم شىء هو عبد الرحمن الثالث نفسه، فقد كان أعظم من تولى الأندلس ونهض بها من بنى أمية أو غيرهم.

وفى نفس هذه السنة توفى محمد بن يحيى النحوى المعروف بالقلفاط، وكان - كما يقول ابن عذارى - هجّاء للناس سبابة للأشراف، كثير البذاء والسفه فى شعره.

مجاعـــــة :

وفى سنة ٣٠٣هـ / ٩١٨م بدأت مجاعة شديدة بالأندلس شبهها الناس بمجاعة

سنة ٢٦٠هـ، وبلغت الحاجة بالناس مبلغا لا عهد لهم بمثله، وبيع قفيز قمح فى سوق قرطبة بثلاثة دنانير دخل أربعين، ووقع الوباء بالناس وكثر الموتان فى أهل الفاقة والحاجة إلى درجة كاد يعجز عن دفنهم، وكثرت صدقات الأمير عبد الرحمن الثالث على المساكين فى هذا العام وصدقات أهل الحسبة من رجاله، فكان الحاجب بدر بن أحمد أكثرهم صدقة وأعظمهم بماله مواساة.

ولم يمكن فى هذا العام أن تكون فيه غزاة أو إخراج جيش بسبب المجاعة وضيق أحوال الناس فيه، وبسبب ذلك أيضًا أخذ عبد الرحمن بالجد والحزم فى ضبط أطرافه والتحفظ بالمسلمين من عادية أهل الخلاف والخلعان، إذ إنهم كانوا مع استيلاء الجوع على الناس يغاورون من قرب منهم ويغدرون بمن مر بهم من رفاق المسلمين وطالبى المعاش ومستجلبى الميرة.

وتوفى فى هذه السنة القرشى العثمانى الطائى من المشرق فى أيام الأمير عبد الله بن محمد.

وتوفى يحيى بن إسحاق بن يحيى بن أبى عيسى المحدث، ولم يكن بالثقة ولكنه كان نبيلا مفوها.

وتوفى الفقيه أحمد بن عبد الله بن فرج النميرى، وتوفى أحمد بن بيطير الفقيه.

وفيها توفى بالثغر عبد الله بن محمد بن لب بن قسى، وكان من أهل البأس والشجاعة والنكاية للعدو.

* * *

وإنما وقفت هذه الوقفة الطويلة عند هذه الفقرة بسبب هذا النفر المهم من كبار رجال الأندلس، سواء فى الحرب أو السياسة أو العلم، وهؤلاء بالفعل هم بناة الأندلس، وهم الذين سيبنى عبد الرحمن الناصر عليهم قوته، وإن كان فى الواقع لم يقدرهم التقدير الصحيح، فقد كان هو نفسه من كبار رجال الأندلس وكان عظيم النشاط لا يكاد يقصر فى خدمته.

وسنرى عندما نقص بقية تاريخه أنه لم يكن من العسير عليه أن ينتقل بالبر أو بالبحر من منطقة جبال البرت إلى جنوب الأندلس.

وكان ماهرا جدا فى القيام بمسئولياته كأمير للأندلس، فقد كان بنو قسى من أكبر أسرات جبال البرت فى الأندلس، وقد مدوا نفوذهم حتى سيطروا على سرقسطة، فنحن نقرأ مثلا عند ابن عذارى (البيان ١٦٩/٢) وفى سنة ٣٠٤هـ/٩١٩م : كان إغزاء أمير المسلمين الناصر (لدين الله) أحمد بن محمد بن أبى عبدة القائد إلى أرض الحرب، وفصل يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم، وهو اليوم الثامن عشر من يوليه، وضم إليه من الموالى والأجناد عدد كثير، ودخل أرض المشركين فنكى وغنم وسبى، وخرج من أرض العدو بالمسلمين سالمين غانمين.

وفى هذه السنة ولى عبد الحميد بن بسيل الخزانة.

وفيها غزا إسحاق بن محمد القرشى إلى كورة تدمير (مرسية) فافتتح حصن أوريوالة Orihuela واستصلح أحوال أهل الكورة.

وفيها ولى فطيس بن أصبغ الخزانة ولايته الأولى.

وفيها غزا الحاجب بدر بن أحمد إلى مدينة لبلة فحاصرها وافتتحها [يوم الاثنين لعشر بقين من رمضان].

وفيها ولى إسماعيل بن بدر العرض (على الأمير).

وفيها نقل على بن حسين عن خزانة السلاح إلى خطة العرض.

وفيها ولى العرض محمد بن عبد الله بن مضر.

وفيها توفى الفقيه الزاهد أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن الزراد، وكان قد روى علم ابن وضاح.

وتوفى الفقيه المحدث طاهر بن عبد العزيز الرعينى، وكان نبيها مرسلا حسن الخط، وولى الخزانة، وكان له لسان وبيان.

وفى سنة ٣٠٥هـ غزا بالصائفة إلى دار الحرب أحمد بن محمد بن أبى عبدة الوزير القائد، وخرج معه طبقات الناس من المجاهدين وأهل الديوان، وحشد إليه رجال الثغر فدخل أرض العدو فى جمع كثير ونازل حصن قاشتر مورش Castro Moros وجد المسلمون فى محاربة المشركين حتى كانوا قد أشرفوا على الظفر بمن كان فى الحصن، فانحشدت النصرانية من جميع جهاتها محدين لكفرتهم، ومجلبين على المسلمين بخيلهم ورجلهم، فتادعى بعض أهل المهدانة فى الدين من أهل الثغر إلى إظهار الهزيمة وجروها على المسلمين فانهزم كثير منهم، وأثبت القائد أحمد بن محمد بنفسه وأظهر الصبر ودافع مدافعة الموطن، وقيل : إنه كان قد اعتقد مذهبا فى طلب الشهادة فاستشهد القائد المذكور لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، واستشهد من المسلمين معه من أثر الشهادة ورغب عن خزى الفرار، ولم يول المشركين دبرا ولا أراهم نكوصا ولا فرارا، وانعقد سائر أهل الجيش وصاروا يدا واحدة فسلموا، وخرجوا إلى أرض المسلمين بدوابهم وأثقالهم وأبنيتهم.

وفيها غزا إسحاق بن محمد الوزير إلى مدينة قرمونة وحاصر فيها حبيب بن عمر وضايقه وأخذ بمخنقه، ثم خرج إليها الحاجب بدر بن أحمد فتمادى على حصارها حتى فتحها قسرا ودخلها.

موت عمر بن حفصون :

فى أوائل هذه السنة (٣٠٤هـ/٩١٦م) كان عبد الرحمن الثالث (الناصر) فى عدد من أحفل سنوات حكمه بالجهاد، فقد أغزى أحمد بن محمد بن أبى عبدة إلى أرض الحرب، وبارح قرطبة فى ١٦ محرم ٣٠٤هـ/ ١٨ يوليو ٩١٦م، وقد ضم إلى جيشه الكثير جدا من الأجناد فنكب وغنم وسبى وخرج بالمسلمين من أرض العدو سالمين غانمين.

وفيها ولى عبد الحميد بن بسيل الخزانة.

وفيها غزا إسحاق بن محمد القرشى إلى كورة تدمير (مرسية) فافتتح حصن أوريولة Aureola واستصلح أحوال أهل الكورة.

وفيها ولى فطيس بن أصبغ الخزانة ولايته الأولى.

وفيها غزا الحاجب بدر بن أحمد إلى مدينة نبلة Niebla فى الغرب، فحاصرها وافتتحها يوم الاثنين ٢٠رمضان ٣٠٤هـ/٩١٧م.

وقد أعيد عبد الملك بن جهور إلى الكتابة فى نفس السنة.

وفى هذه السنة أيضا ولى إسماعيل بن بدر العرض.

وفيها نقل على بن حسين عن خزانة السلاح إلى خطة العرض.

وفيها ولى العرض محمد بن عبد الله بن مضر.

ومن بداية عام ٣٠٦هـ/٩١٩م نجد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله يبدأ سلسلة غزواته الضخمة التى جعلت له ذلك المكان الكبير فى تاريخ الأندلس.

والسبب فى ذلك أن أردون بن إذفونش وشانجه بن غرسية ملك ليون وجليقية طمعا فى المسلمين لطول سكونهم وخرجا فى جموعهم إلى مدينة ناخرة Najera بالثغر الأعلى فنزلا بها فى عقب ذى الحجة أى فى محرم ٣٠٧هـ/٩٢٠م وأقاما عليها ثلاثة أيام وعاثوا فى ذلك الثغر وافسدوا الزروع ثم انتقلوا إلى تطيلة Tudela وبلغوا إلى نهر كالس (من أنهار الأبرو فى الغالب) وجزائر مسفيرة ووادى طرسونة Tarasona وترك شانجه نهر الأبرو وراءه وقاتل حصن بلتيرة وقهره على أهله وأحرق المسجد الجامع، فأحس عبد الرحمن أنه أمام أعداء أقوياء، وأنه لا بد له من

مواجهتهم، والحق أنه كان سيتحرق للحرب ولا شك، ولكن عدوان شانجه ذلك هو الذى حركه إلى سلسلة من الغزوات لم يسمع بمثلها قبل ذلك فى تاريخ الأندلس، والواقع أن المسلمين لم يكونوا قد فتحوا الأندلس فتحا تاما، وإنما كان طارق قد افتتح الأندلس سريعا ودخل طليطلة وقضى على دولة القوط.

وكان عبد العزيز بن موسى قد بدأ فى فتح جهات الأندلس فتحا تاما عندما خلف أباه موسى ابن نصير، ولكنه قتل، كما رأينا، وبعده لم يتجه الولاة إلى الاستمرار فى الفتح الكامل لداخل لأنهم كانوا ضعفاء ولا يستطيعون الاضطلاع بالفتح الشامل، وقد رأينا الأمراء عبد الله بن الحكم الأول وابنيه المنذر ومحمد وكيف كانوا طوال حكمهم فى حرب دون أن يستطيعوا فعلا أن يتمموا الفتح لأنهم كانوا ضعفاء، فطمع النصارى في بلاد المسلمين، وهذان هما أردون بن إذفنش ملك نبرة وشانجة بن غرسية ملك ليون وجليقية يغزوان نافرة فى الثغر الأقصى ويعيثون فيها ويفسدون الزروع ثم ينتقلون إلى تطيلة وخلفا نهر ابره وراءهما ويغزوان حصن بلتيرة Valterra ويحرقون مسجدها الجامع، فأحس عبد الرحمن الثالث بأن عليه أن يقوم بغزو بلاد النصرانية غزوا تاما يوقف مثل هذا العدوان.

ففى نفس هذه السنة ٣٠٦هـ/٩١٩م بدأ الناصر سلسلة من الغزوات الحاسمة لبلاد النصرانية فقام بإرسال حملة كبرى سنفصل أمرها فيما بعد، هذا مع العلم بأن كل غزواته كانت كبرى، لأنه كان يتحرى اختيار قادة كبارا للحملات إلا فى حالة ما إذا قاد الحملة بنفسه، وهذ هو الذى وصل به إلى المكانه الكبرى التى وصل إليها فى تاريخ الأندلس، وسنضرب أمثلة لبعض حملاته الكبرى فيما بعد، وجدير بالذكر أنه كان نشيطا جدا، وكان لا يستكثر عملا فى سبيل دولته، وسنرى ذلك بأنفسنا فيما بعد.

وقد بويع للأمير عبد الرحمن وجلس على عرش الإمارة يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة ٣٠٠/ ١٦ أكتوبر ٩١٢، وكانت سنه ٢٣ سنة و٥ أشهر و٢٣ يوما، ولم يكن شيء في هذه الولاية جديدا عليه، فقد عاش طول عمره في القصر إلى جانب جده الأمير عبد الله، وكان عبد الرحمن بطبعه محبا للعمل وقادرا عليه، وقد قضى حكمه كله - فوق الخمسين سنة هجرية - يعمل بحب وقدرة ووصل إلى ما لم يصل إليه أى أمير أو خليفة في الأندلس، وكان يعمل بشرف وصدق، ولم يخطر بباله أن يفعل شيئا من النوع الأناني الذى لجأ إليه محمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور، وقد حقق المنصور كثيرا ولكن كل ما حققه كان لنفسه وكام سيئ النية، ولهذا فعلى رغم كل ما فعله فإن الأندلس لم يكسب كثيرا بل خسر، لأن المنصور أثار أحقادا كثيرة، وكان مكروها رغم ما كان الناس يتظاهرون به نحوه من حب، وكانت أنانيته تدفعه إلى قتل النابهين والموهوبين من رجال البيت الأموى، ولا نجد شيئا من هذا عند عبد الرحمن الثالث.

ثم إن المنصور كان يريد أن يقال : إنه غزا خمسين غزوة، وعندما ندقق نجد أن الكثير من غزواته كانت مجرد حملات صغيرة قصيرة المدى، وهذا لا ينكر فضله، ولكن مهما تسامحنا في حساب جهوده فإن المسافة بينه وبين عبد الرحمن الثالث تظل كبيرة جدا، وبينما كان المنصور لا يتمتع بحب حقيقي في أيامه، وكان الناس يضمرون له الكراهيه نجد عبد الرحمن كان محبوبا مهيبا من أول يوم تولى فيه الإمارة ثم الخلافة، وكان في حقيقة الأمر أميرا على الأندلس في ظل جده عبد الله، فقد كان جده عبد الله قد قتل أباه محمد إذ بلغه أنه يتآمر عليه « ثم أسف عليه بعد موته واتجه حبه كله إلى ابنه عبد الرحمن (الثالث) هذا، فنشأ وعاش في القصر إلى جانب جده متمتعا بالمهابة الخاصة بني أمية، وكان له نصيب من ولاية الأمور وتصريفها في الأندلس.

فلما توفي جده عبد الله بن محمد في غرة ربيع الأول ٣٠٠هـ/١٦ أكتوبر ٩١٢م دخل في الإمارة دون أي صعوبة، وقد تولى أخذها له على الخاصة والعامة بدر بن أحمد مولاه، وموسى بن

محمد بن حدير صاحب المدينة، وأحضر بدر بن أحمد اعمامه وأعمام أبيه وطبقات قريش وصنوف الموالى وعامة الناس، فبايعوا مبايعة رضى واغتباط بوجوه متهللة وصدور منشرحة وألسنة داعية شاكرة لله عز وجل على ما قلده فى أمرهم وأصاره إليه من رعايتهم والذب عن حرماتهم، وقد استبشر جميعهم بيمن نقيبته واعتلاء همته، ورجوا ما قد حققه الله لهم من بركة دولته، وصلاح الأحوال على يديه وتجرده للاستئصال علقة الفتنة والتمهيد للطاعة.

وكان الخلاف قد عمم أقطار الأندلس، وطبق القاصى والدانى منها، واستولى أهل النفاق على كورها ومعاقلها بفترة طاولتهم، وقد تراخت أيامه بهم، فحسم الله عز وجل منه على يديه ما سيأتى الخبر وتتصل الحكاية له » (ابن عذارى، البيان ١٥٨/٢).

وهذا فى ذاته يدل على أن كل ما فعله الأمراء محمد وابناه المنذر وعبد الله لم يكن حربا حقيقية حاسمة للخلاف وأهله، وإنما هى كانت ضربات سطحية غير حاسمة، وكل الخارجين على الدولة ظلوا خارجين عليها، وكل ما فعله هؤلاء الثلاثة هو المحافظة على ما ورثوه من الأندلس دون قدرة حقيقية على القضاء على الثوار، وهذا هو عمر بن منصور ظل على قوته أثناء حكمهم حتى جاء عبد الرحمن الثالث وقد عرف كل شىء كان، واستقر رأيه على كل شىء لا بد أن يكون للمحافظة على الأندلس والنهوض به، وكان يعرف أنه لا بد من الإتقان حتى ينتهى أمر الفتنة ورجالها، ومن حسن حظه أن بيوت أمراء بنى أمية الذين أشرنا إليهم أخرجت فى أيامه عددا من خيرة رجالها، فكان الرجل يتصرف - من أول يوم - تصرف أمير أموى عارف بطبع الأندلس وواجب البيت الأموى نحوه.

وقد بدأ الرجل فى العمل فى يوم توليه بعد موت جده عبد الله «وولى فى يوم مبايعته بدرا مولاه الحجابة مع الوزارة وخطة الخيل إلى ما كان إليه من خطة البرد، وولى موسى بن محمد

الوزارة إلى ما كان إليه من خطة المدينة، وكان على الكتابة عبد الله بن محمد الزجالى فأقره عليها، وأقر أحمد بن محمد بن أبى عبدة على القيادة، وأقر قاسم بن وليد الكلبى على الشرطة العليا، وكان مع ذلك خازنا فصرف الخزانة عنه وولاها عبد الملك بن جهور، وولى الخزانة أيضا محمد بن عبيدة بن مبشر، ومحمد بن عبد الله بن أبى عبدة، وعزل عنها عيسى بن شهيد وولى مكانه سعيد بن سعيد بن حدير، وولى عمر بن محمد بن غانم، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى، ومحمد بن سليمان بن وانسوس خطة العرض، وولى محمد بن عبد الله الخروبى خزانة السلاح مع العقل، وحسين بن أحمد الكاتب خزانة السلاح أيضا، ويحيى بن إسحاق، ومسلمة بن عبد القاهر، المعروف بابن الشرج، ثم ولى عيسى بن أحمد بن أبى عبدة الشرطة العليا، وصرف عنها قاسم ابن وليد الكلبى، وولى فطيس بن أصبغ خطة البيازرة، وصرفها عن الحاجب بدر بن أحمد، إلى أعمال وخطط ولاها من استحق عنده من مواليه ووجوه مواليه» (ابن عذارى البيان، ٢/١٥٩)

وكان عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (الثالث) يعرف بالضبط قدر السلطة التى كانت فى يده، ويعرف أيضا ما كان ينبغى عليه أن يفعله ليصل بالأندلس إلى قمة أوروبا، وكان يعرف أن نصارى الأندلس الذين يقفون أمامه إنما هم أوروبا كلها، فقد قامت دولة الإسلام فى الأندلس فى قلب أوروبا النصرانية ومعها البابوية، وكان يعرف أن البابوية كانت تدعى ملكية شبه الجزيرة الأيبيرية وتجند أوروبا المسيحية كلها للقضاء على الأندلس ولهذا فقد حرص على أن يكون دائما فى أقصى قوته، وحرص دائما على أن يعود بالنتيجة التى رجاها مهما كان أعداؤه.

وكانت أولى الحملات الكبرى التى أرسلها فى أول سنة لولايته وكان همه القضاء على قوة البربر من أهل المغرب سواء فى كركى Caracuel أو جبال البرامس أو فى كورة قبرة جنوبى الوادى الكبير، لمعاجلة من كان فى هاتين الجهتين من أهل الشر والفتنة، فالتقى عباس بن عبد العزيز

بالفتح بن موسى بن ذى النون بقلعة رباح (شمال شرقى جيان) فهزمه وقتل كثيرا من كان انضوى إليه.

وورد كتاب القائد عبيد الله بن فهر عامل قلعة رباح يذكر ظفره بمحمد بن ارذبيش Ardaboles بناحية عمله، وكان من العصاة المفسدين، فقتله وبعث برأسه، وكان أول رأس رفع لمارق فى دولة عبد الرحمن الثالث، وذلك لعشر خلون من ربيع الآخر « وبدت تباشير الصنع (الإلهى) ودلائل الإقبال على أوائل نظره ».

وكان عبد الرحمن يعرف قيمة رجال بيوت الموالى ويحرص على الاستفادة منهم وتكثير عددهم، ومن ذلك ما فعله بعد سنوات قليلة من إمارته من رفع عبد الرحمن وعبد الله ابنى بدر الحاجب إلى مرتبة الوزارة، ورفع رزق كل منهما إلى ثلاثين دينارا وازنة، وكان هذا هو راتب الوزير، وولى فى نفس الوقت إسماعيل بن بدر كتابته الخاصة، وولى جهور بن عبد الملك الوزارة، وولاها أيضًا عبد الله بن مضر، وولى عبد الرحمن بن بدر الخيل، وعبد الله بن محمد بن عبد الخالق بن سوادة قضاء كورة إلبيرة، وهو أول قاض خرج إلى كورة فى أيامه.

ولم يكن عبد الرحمن يترك وزيرا فى وزارته فترة طويلة، بل كان دائم العزل والتنقيل لهم، كأنه كان يرى فى ذلك تقوية للحكومة المركزية، وكانت معظم مدن الإمارة خارجة على الطاعة متصلة بعمر بن حفصون، وكان إذا استولى على مدينة من مدن الإمارة ضبطها وأخرج منها واليها وأسرته إلى قرطبة ليعيشوا فيها.

وأول مدينة كبيرة افتتحها وفعل بها ذلك استجة، ودخلها الحاجب بدر بن أحمد، والوزير أحمد بن محمد بن حدير، فضبطت المدينة وهدم سورها وبقى أحمد بن محمد الوزير قائدا بها ومسكّنا لأحوال أهلها، وولى عمالتها حمدون بن بسيل يوم السبت ٢٣ جمادى.

وكان عبد الرحمن الثالث يرى أن ملكه لن يستقيم إلا إذا قضى قضاء نهائيا على ابن حفصون، وكان أمر هذا الرجل قد اشتد وقوى أيام الأمراء محمد وابنيه المنذر وعبد الله، فقد كان هؤلاء الأمراء دائمي الاشتغال بالحرب والغزو كما رأينا، ولكنهم كانوا جميعا أقل من عمر بن حفصون، فقد كان هذا الرجل متمركزا فى حصن بريشترو ولكن يده كانت متمكنة من معظم نواحي الدولة جنوبى الوادى الكبير، وكان يمد يده بالمساعدة لكل خارج على الدولة قريبا منه، ولهذا نجد الأمير عبد الرحمن الثالث يهتم بأن يفتح حصون الجنوب ومدنه، وكان الأندلس فى أيامه كثير الرجال فكانت حملاته ضخمة قوية، وكان قواده رجالا ممتازين.

وقد رأينا أن أول حملات كانت إلى جيان ومعاقلها، وكانت يوم الخميس ١٣ شعبان سنة ٣٠٠هـ/ ٢٦ مايو ٩١٣م، واستخلف فى القصر موسى بن محمد بن حدير الوزير صاحب المدينة ومعه عبد الرحمن بن بدر، فلما احتل بحصن مارتش Martos من عمل جيان بلغه الخبر بمضايقة عمر بن حفصون لأهل حاضرة ريه (مالقة) وطمع فى جيان فوجه لتلافى ذلك سعيد بن عبد الوارث فى قطيع من الجند وأمره أن يغذ السير حتى يحتل مدينة مالقة ويقطع عمر بن حفصون فيها فنجح فى ذلك، وبعد ذلك نهض عبد الرحمن إلى حصن المنتلون El- Mantelón.

وقد طاع له كل حكام المواضع التى مر بها ونزلوا عن معاقلهم إليه، وكل منهم مذعن بطاعته، فأوسعهم عبد الرحمن فضله، واستقدمهم وعائلاتهم إلى قرطبة ليعيشوا فيها آمنين، واستعمل عبد الرحمن على الحصون ثقات رجاله، واستنزل عبد العزيز بن عبد الأعلى من حصن الشارة ثم انتقل هذا القائد إلى كورة البيرة فاحتلها وأسلم حكامها من كان عندهم من رجال ابن حفصون وشدوا وثاقا ثم قتلوا بعد ذلك، ونزل عمر بن حفصون من بويشترو لمضايقة جند الأمير ولكنهم هزموه وقتلوا جماعة من رجاله وأسروا عمر بن أيوب حفيده وجرح أحد أولاده جراحا كبيرة.

ثم احتل عبد الرحمن حصن شبيلس Supieles وكان من أعظم حصون ابن حفصون وأصعبها مراما، وإليه كان انضوى من تفلت من الحصون المتقدمة فاحتلته العساكر وقطعت ثمارهم واستهلكت زروعهم ومعايشهم وحوصـروا خمسة عشر يوما حتى نادوا بالطاعة فقبل ذلك منهم عبد الرحمن واستسلموا، وقد قطعت رقابهم فيما بعد.

وكان عبد الرحمن الثالث يعرف ماذا هو فاعل، فلم تكن المسألة مسألة أى حرب، ولكن الرجل كان يقصد أول الأمر إلى تحقيق طاعة كل ما هو جنوبى الوادى الكبير، وعليه تقع ثلاثة من مدن الأندلس الكبرى، وهى إشبيلية وقرطبة وجيان، وهنا نجد غزوات عبد الرحمن الثالث الكبرى التى انتهت فعلا إلى تهدئة الجنوب وإقامة الحكم فيه على الأسس الأموية المعروفة، وفى هذه الغزوات نجد أن عبد الرحمن يرسل أكابر قواده ليشغلوا الأعداء ثم يلحق هو بهم ويتمم الغزو، وكان لا يكتفى بمجرد الطاعة، كما كان السابقون الثلاثة عليه، وهم : محمد وعبد الله والمنذر، وكانت غزواتهم كثيرة ولكنها لم تكن حاسمة، أما عبد الرحمن فكان يلح على الموضع حتى يستسلم وينزل إليه قواد الثورة به فيرسلهم هم وأسراتهم لى قرطبة وينتهى أمرهم.

ففى نفس السنة التى تولى فيها الأمر بعد وفاة جده عبد الله خرج عبد الرحمن لحرب ابن حفصون، وكان قد جرؤ على البيرة، وهى غرناطة، فهزمه عبد الرحمن الناصر وقتل جماعة من رجاله، وأسر عمر بن أيوب حفيده، وجرح الكثير من رجاله، ثم قصد مدينة شلوبينية Slovenia، وفى طريق عودته إلى قرطبة عن طريق حصنى اشتبين Estapien وحصن بنة فراطة Péna Farrata وهزم كل قوة أراد ابن حفصون الوقوف فى وجهة بها.

وكان إذا فتح حصنا استنزل رجاله، كما قلنا، ونقلهم إلى قرطبة معززين مكرمين، وقد ضيق فى معاملته لهؤلاء الناس، وكانت بعض غزاوته تصل إلى ٩٢ يوما من الحرب الشرسة الضروس، وكان لا يقيم بقرطبة دون حركة إلا لمجرد الراحة.

ففى سنة ٣٠١هـ/ ٩١٢م وهى السنة الثانية من حكمه لم يقم فى قرطبة إلا شهرا للراحة، دخلها فى شوال وخرج منها للغزو فى ذى القعدة، وفى هذه الغزوة بعث فى قاسم بن وليد الكلبى وكانت وجهته مورور، وفى الطريق مر بقرمونه فاحتلها مستهل ذى الحجة، وكان يتولاها حبيب بن سوادة ولاية خيانة فأخذ بمخنقه حتى استسلم فنقله مع أسرته إلى قرطبة، وبعث إلى قرطبة أيضاً محمد بن إبراهيم بن حجاج، ومحمد بن وهيب وعبيد الله بن محمد الرقبانى، وسكن بن جديدة، وكلهم من الحكام المنكرين، وأعاد إلى إشبيلية قائدها القديم عباس بن أحمد بن أبى عبدة، واستقود عيسى بن أحمد بن أبى عبدة، وأعاده قائدا إلى إشبيلية.

وتوفى فى تلك السنة عبد الله بن محمد الزجالى الكاتب فولى مكانه عبد الله بن بدر، وكان سكن بن إبراهيم وعمر بن تاجيت كاتبى بدر الحاجب يقيمان خدمة الكتابة.

وتوفى فى تلك السنة محمد بن يحيى النحوى المعروف بالقلفاط وكان من العلماء الحفاظ والشعراء الفصحاء، ويقول ابن عذارى «وكان هجاء للناس كثير البذاء والسفه فى شعره» (البيان ٢/ ١٦٧).

وفى هذه السنة (٣٠١هـ) نُقل على بن حسين عن خزانة السلاح إلى خطة العرض فى شهر صفر منها.

وفيها ولى العرض محمد بن عبد الله بن معز.

وهـذه الأمـور العسكريـة لم تشغـل عبد الرحمن الثالث عن الأمور الداخلية المدنيـة، فكان لا يتوفى قاض أو كاتب إلا عين مكانه من يصلح للأمر.

وفى سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م توفى عمر بن حفصون فى حصن بوياشترو، عميد الكافرين ورأس المنافقين وموقد شعل الفتنة وملجأ أهل الخلاف والمعصية، كما يقول ابن عذارى، وبعد وفاته مباشرة استطاعت مدينة أبذه Ubeda وكانت من ركائز الإمارة تابعه لمدينة البيرة وهى غرناطة.

والتفاصيل التى يأتى بها ابن عذارى هنا تبدو غير مهمة، وقد تكون كذلك لولا أن الحوادث هنا، فى أيام عبد الرحمن الثالث كانت متصلة وهذا يعطيها أهمية كبرى.

وفيها، أى فى سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م، ولى الوزارة عبد الملك بن جهور.

وفيها توفى سعيد بن عثمان بن سليمان الفقيه العناوى (أو الأعناقى) فى عقب المحرم بفرّيش Firrich ، وفيها توفيت البهاء بنت الإمام عبد الرحمن بن الحكم فى رجب، فلم يتخلف أحد عن جنازتها (لماذا؟ فى الغالب أنها كانت كريمة جدا فى أمور الدين معتنية بالمساجد).

وفيها توفى سعيد بن عبد الوارث الأيسر، وكان من أهل الشجاعة والعناء فى الخدمة، وتوفى الفقيه المحدث الحجازى، وتوفى عمر بن أحمد بن فرج، وكان كاتب الرأى، وولى السوق (ابن عذارى، البيان ٢/ ١٧١).

وفى هذه السنة حشد أردون Ordono بن إذفونش وشانجه بن غرسيه صاحب النصرانية بجليقية وبنبلونه وخرجا فى جموعهم واحتفال من كفرتهم إلى مدينة ناخرة Nàgera بالثغر الأقصى، فنزلا عليها فى عقب ذى الحجة، وأقاما عليها ثلاثة أيام، وعاثت النصرانية فى ذلك الثغر وأفسدت الزروع ثم تنقلت إلى تطيلة Tudela وبلغ العدو إلى نهر كالس وجزائر مسفيرة ووادى طرسونه، وخلف شانجه نهر ابره (وراءه) وقاتل حصن بلتيرة Veltierra وقهره على أهل الربض وأحرق المسجد الجامع، فكان ذلك مما أحفظ الناصر وحركه لمجاهدتهم والانتصار منهم، على ما سيأتى ذكره.

ولم يكن الناصر بحاجة إلى ذلك التحريض من جانب النصارى، فقد كان قد عقد العزم على الجهاد.

وهنا ندخل فى غزوات عبد الرحمن الثالث الكبرى المعروفة بأسمائها، ونذكر هنا غزوة قطونية،

ولم يقم بها عبد الرحمن بنفسه وإنما قادها بدر بن أحمد، وقد زوده عبد الرحمن بآلة حرب عظيمة وظل يؤازرة حتى انتصر بعد أن خسر كثيرا جدا.

وقد انتهى بدر بن أحمد من هذه الغزاة فى ربيع الأول سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م.

وفى نفس السنة فى شهر ذى الحجة منها وهى غزوة «بلدة» Bleda من كورة رية (مالقة) وقد خرج لها فى شهر ذى الحجة منها.

قال ابن عذارى (البيان ٢/١٧٣) : « وتخلف فى القصر بقرطبة ابنه وولى عهده وقبلة الآمال من بعده أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله، أبقاه الله، ومن الوزراء موسى بن موسى بن محمد بن حدير.

فلما اقترب الناصر من « بلدة » وجد أن أهلها قد جمعوا زرعها فاتجه رأسا إلى فحص رُعَين وأمر بابتناء صخرة غوزان، أو غوجان، لتكون موفيه على بسيط « بلدة » ثم انتقل إلى حصن دوش أمانتس Dos Amantes فنازله حتى افتتحه، ومن هناك عاد إلى مدينة « بلدة » فافتتحها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذى الحجة، وقد تداعى من كان بها من المسلمين الخارجين إلى النزول بأنفسهم إليه فآمنهم وأكرمهم وقاتل الكفرة المنغلقين فى المدينة حتى ظفر بهم وقتلهم عن آخرهم، ثم انتقل إلى حصون رية (مالقة) يتقراها معقلا معقلا، وكل هذه كانت معاقل ابن حفصون قرب ببشترو، ثم عاد إلى قرطبة فى المحرم سنة ٣٠٧هـ/ ٩١٩م.

وقد قضى فى هذه الغزوة أربعين يوما، وفى هذه الغزوة احتل عبد الرحمن حصن ببشتر، معقل ابن حفصون، وبعد ببشتر افتتح عبد الرحمن حصن طرش Torox وكان فيه عبد الرحمن بن عمر ابن حفصون، ولم يكن رجل حرب وإنما رجل علم.

قال ابن عذارى عنه : « وكان حسن الخط ضعيف العقل ».

قال عريب بن سعد: وقد صار بعد ذلك وراقا، أى تاجر أدوات كتابية وكتب.

وفى السنة التالية ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م كانت غزاة مويش، وقد خرج من قرطبة لهذه الغزاة فى ذى الحجة من السنة السابقة عليها، وفى هذه المرة كانت وجهته مدينة طليطلة وكانت على طاعة غير مأمونة «وخرج إليه لب بن الطربيشة، ومن طليطلة انتقل إلى مدينة الفرج (الكالا دى اينسارس) فاحتلها ثم انتقل إلى مدينة سالم» فى جيوش تغص بها السبل ويضيق بها الفضاء الأوسع، وأظهر أنه يريد التوجه إلى سرقسطة ولكنه عرج بالجيوش إلى طريق ألبة والقلاع، وطوى من نهاره ثلاث مراحل حتى احتل بوادى دويره ثم دخل مدينة ونشمة (قرب بنبلونه) وكان العلج الذى يلى أمورها قد كتب إلى عبد الرحمن الثالث مكايدا له فى إزاحته عن بلده بمواعيد وعدها من نفسه، وأظهر عبد الرحمن أنه قبل ذلك منهم وأضمر الكيد لهم، فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة وأصابوا نعمهم وسوامهم ودوابهم مسرحة فاكتسحوا جميع ذلك وانصرفوا إلى العسكر سالمين غانمين.

ثم رحل عبد الرحمن (الأحد إلى حصن قاشترو مورش وهى شنت اشتين) بيضة الكفرة وقاعدتهم والموضع الذى كانوا تعودوا فيه الاستطالة على من وردهم، فلما رأوا أن أنصار دين الله قد أظلوهم وأولياءه قد صمدوا نحوهم أخلوا الحصن وخرجوا هاربين عنه، فدخله المسلمون وغنموا جميع ما فيه، وخربوا حصن القبيلة المجاور له، ولم يترك لأعداء الله فى تلك الجهة نعمة يأوون إليها.

واضطرب العسكر بشرقى حصن قاشترو مورش Castro Moros ، وبات المسلمون ليلة الأحد بأسر ليلة كانوا بها، والحمد لله.

ثم انتقل أمير المومنين فى صبيحة اليوم الثانى من مكان المضطرب شرقى الحصن إلى غربيه،

ولم يكن بين الموضعين إلا قدر ميل، فكسر العسكر فى ذلك المكان يوم الأحد متقصيا لآثار الكفرة ومستبيحا لنعمهم.

ثم ارتحل إلى مدينة لهم أولية تعرف بقلونية Colono وكانت من أمهات مدنهم، فلم تمر الجيوش إليها إلا على قرى منظمة وعمارة بسيطة فغنمت جميع ما كان بها، وقتلت من أدركت فيها حتى وفت العساكر على المدينة، فألفيت خاليه قد شرد عنها أهلها إلى الأجبل المجاورة لهم، فغنم المسلمون جميع ما أصابوا فيها، وعملت الأيدى فى تخريب ديارهم وكنائسها، وكسر عبد الرحمن عليها ثلاثة أيام مطاولا لنكاية المشركين وانتساف نعمهم.

ثم ارتحل، رحمه الله، من مدينة قلونية يوم السبت لخمس بقين من صفر إلى ثغر تطيلة Tu-dela لغياث صريخ المسلمين به إذ كان العلج شانجه، ثم قدم الخيل مع محمد بن لب عاملها إلى حصن قلهرة الذى كان اتخذه شانجه على أهلها، فلما قصدته الجند أخلاه من كان فيه وضبطه المسلمون، ثم نهض، رحمه الله، إلى حصن قلهرة وكان شانجه قد اتخذه معقلا وتبوأه مسكنا، فلما فجأته العساكر أخلاه العلج، وزال عنه وغنمه المسلمون بأسره، وكسر الناصر عليه يومين حتى خرب جميعه وانتسف كل ما كان حواليه، ثم رحل بالجيوش يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول إلى ذى شره وأجاز إليها وادى إبره، فخرج شانجه من حصن أرنيط Arnedo فى جموعه وكفرته متعرضا لمن كان فى مقدمة العسكر فتبادر إليه شجعان الرجال تبادر رشق النبال، فانهزم الكفرة وركبتهم الخيل تقتل وتجرح حتى تواروا فى الجبال ولاذوا بالشعاب وأيقنوا بالدمار والهلاك، وحيز كثير من رؤوس المشركين، فتلقوا بها أمير المؤمنين، رحمه الله، ولا علم عنده للمعركة التى دارت بينهم وبين أعداء الله، واضطرب العسكر بهذا الموضع، وبات المسلمون ظاهرين على عدوهم، ومنبسطين فى قراهم ومزارعهم.

وورد الخبر على الناصر باجتماع العلجين اردون وشانجه واستمداد بعضهم ببعض طامعين فى اعتراض المقدمة أو انتهاز فرصة فى الساقة، فأمر الناصر بتعبئة العساكر وضبط أطرافها، ثم نهض بها موغلا فى أراضى الكفرة فتظللوا على كدى مشرقة وأجبل منيعة، ثم تعرضوا من كان فى أطراف الجيش، وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا من قلوب المسلمين، فعهد الناصر بالنزول والاضطراب وإقامة الأبنية، ثم تبادر الناس إلى محاربة الكفرة، وقد أسهلوا من تلك الأجبل فواضعوهم القتال، واقتحم عليهم حشم أمير المؤمنين ورجاله وأبطال الثغر وحماته يضعون أسلحتهم فيهم، ويمطرون رماحهم عليهم، حتى انهزم المشركون لا يلوون على مكان مضطربهم، ولا يهتمون لوجه منقلبهم، والمسلمون على آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم.

ولجأ عند الهزيمة أزيد من ألف علج إلى حصن مويش ورجوا التمنع فيه فأمر الناصر بتقديم المطل وأبنية العسكر إلى الحصن فأحيط به من جميع جهاته، وحوربوا من داخله حتى تُغُلِّبَ عليهم، واستخرج جميع العلوج منه وقدموا إلى الناصر، رحمة الله، فضربت رؤوس جميعهم بين يديه، وأصيب فى الحصن والمحلة التى كانت للكفرة بقربه من الأمتعة والأبنية والحلية المتقنة والآنية ما لا يحصى كثرة، وأصيب لهم نحو ١٣٠٠ فرس، وكسر أمير المؤمنين، رحمة الله، بهذه المحلة أربع أيام، يغير جميع ما حواليها من نعم المشركين وثمراتهم ومرازعهم.

ثم انتقل أمير المؤمنين يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول إلى حصن كان اتخذه شانجه على أهل بقرية، فألفاه خاليا، قد فر عنه أهله فعهد بهدمه، ولم يبرح القاهر من محلته هذه حتى انتقل إلى حصن بقيرة من أطعمة الكفرة أنف (ابت) مدى تقوية لأهله.

ثم انتقل إلى حصون المسلمين يسكنها وينظر فى مصالح أهلها، فكلما ألفى بقربها معقلا للمشركين هدمه وأحرق بسيطه، حتى لقد اتصل الحريق فى بلاد المشركين عشرة أميال فى مثلها،

واجتمع عند الناس من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عن حمله، ولم يجدوا لها ثمنا تباع به، وكان القمح فى العسكر يباع ستة أقفزة بدرهم فلا يوجد من يشتريه، فجمعت الأطعمة فأحرقت عن آخرها.

وقفل الناصر إلى قرطبة يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ربيع الأول حتى انتهى إلى مدينة أنتيشه Antesa فكسر رحمه الله بها يوما ووصل رجال الثغر وكساهم وحملهم وأذن لهم فى الرجوع إلى مواضعهم، وبعث إلى قرطبة من رؤوس الكفرة التى أصيبت فى المعارك المذكورة أعدادا عظيمة حتى لقد عجزت الدواب عن استيفاء حملها.

ودخل، رحمة الله، القصر بقرطبة يوم الخميس ١٣من ربيع الآخر، وقد استكمل فى غزاته هذه تسعين يوما.

وفى هذه السنة بعد عزل الناصر محمد بن محمد بن أبى زيد عن الشرطة العليا وولاها دريا مولاه.

وفى هذه السنة قتل جعفر بن عمر بن حفصون بجبل ببشترو، قتله أصحابه غيلة، ودخله أخوه سليمان وضبطه، وافتتحت المندات بحذر قرطمة من كورة رية وبنى حصن قاشترو ذكوان وألزمه الرجال والقوة.

وفى هذه السنة توفى أبو سعد معاذ بن عثمان بن حسان بن يخامر الشيبانى، الفقيه بقرطبة، وكان معظما فى أهل العلم.

وفيها توفى عبد الغافر بن هاشم بن عبد العزيز.

وفى سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م كانت غزاة الناصر إلى كورة ريه (مالقة) وهى غزوة طرش Torox وبرز لها الناصر يوم الخميس لسبع خلون من ذى الحجة سنة ٣٠٨هـ وهو اليوم

العاشر من أيار (مايو) وفصل الناصر غازيا من قصر قرطبة يوم السبت لثمان من المحرم سنة ٣٠٩هـ وهو اليوم العاشر من حزيران بعد بروزه إلى أحد وثلاثين يوما وتخلف في القصر ولي عهده المستنصر بالله (أطال الله بقاءه) فسار في احتفال من جيوشه وطبقات من رجاله حتى احتل على حصن طرش وكانت النصرانية قد انحشدت إليه، فأحدقت العساكر به من جميع جهاته، وعهد بمحاربتهم والتضييق عليهم ونصب المجانيق على مرتقى تصل منه حجارته إلى الكفرة.

وكانوا في أول المنازلة لهم يبرزون للحرب ويظهرون المدافعة حتى مزقتهم الحرب وقللت من عددهم وفلت حدهم فعادوا بالاستغلاق في داخل حصنهم، ثم تمادى التضييق عليهم والحصار لهم حتى أخذهم الجهد وأشرفوا على الهلاك، فخاطبوا أمير المؤمنين ضارعين إليه في تأمينهم على أن يسلموا الحصن ويخرجوا عنه فأجابهم إلى ذلك، وقبل إنابتهم، ودخل رجاله الحصن وخرج عنه جميع من كان به من النصرانية داخله، وهدمت قصابه وألقيت أحجارها في النهر وبنى في موضع الكنيسة مسجد جامع.

ونظر الناصر أيام محاصرته لحصن طرش في توجيه القواد والأجناد إلى حصن ببشترو وحصن أقوط Aeudo وجبل الحجارة لمحاربة سليمان وحفص ابني عمر بن حفصون والتضييق عليهم والانتقاص لعددهم، ثم عاد الناصر من محلته إلى حصن طرش يوم الاثنين ليلة ١٥ ربيع الأول، وقد استتم في غزاته هذه ٦٩ يوما.

وكان محمد على مهتما أشد الاهتمام بالقضاء على كل المعروفين بالتغير على مصر من رجال السودان، وكان معظمهم من حلفاء عمر بن حفصون ثم أولاده من بعده، فاستنزل بني سعيد ابن ناصح بن مستنه من حصون باغة المعروفة بعاليه وربرش، واستنزل موسى بن يزيد أخا حمصى من الصخرة التي كان بها، واستنزل بني مهلب من حصونهم المعروفة بقرذيرة واشبرغيرة وغيرها، وهدمت كل حصونهم.

وفي هذه السنة (٣٠٩هـ/٩٢١م) أمر الناصر بقتل العاصى ابن الإمام عبد الله، ومحمد بن عبد الجبار ابن الإمام محمد، إذ شهد كل واحد منهما على صاحبه بمطالبة الخلافة ونقض البيعة، وكثرا فى ذلك.

وليلة الجمعة لست خلون من رجب مات الحاجب بدر بن أحمد، وولى الحجابة موسى بن أحمد بن حدير.

وفيها مات محمد بن عبد الله بن أمية، الوزير، وعبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى فى شوال.

وفيها توفى الفقيه محمد بن أحمد المعروف بابن الزواد.

وفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م كان غزو الناصر إلى كورة البيرة وهى غزاة منب روبى، وبرز لهذه الغزاة يوم الخميس لثلاث خلون من ذى الحجة سنة ٣٠٩هـ وهو الرابع من نيسان، وفصل غازيا من قصر قرطبة يوم السبت لعشر خلون من المحرم، وتخلف فى القصر ولى عهده الحكم المستنصر بالله، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير.

وغزا معه فى هذه السنة الحاجب موسى بن محمد فسار (رضه) حتى احتل بحصن منت وولى يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم، وكان جبلا متعمق بعيد المرام كثير السكان من عجمه قد لاذت به واجتمعت فيه، وهو متوسط بين كورة البيرة وكورة جيان، وعلى طريق مدينة بجانه، فكان من سلك تلك السبيل من وارد أو صادر لا يسلم من عادية ذلك الحصن، وكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال ويخيفون السبل، فأقام عليهم الناصر ٣٥ يوما محاصرا حتى أباد كثيرا منهم وقطع ثمراتهم وغير نعمهم.

ثم أبقى على الحصن من رجاله وأحفاده من استمر على محاصرتهم حتى كان لا يدخل

عليهم داخل ولا يخرج منهم خارج وتقدم عنه إلى حصون كورة البيرة فعم جميعها بالنكاية، ثم عرج منها إلى كورة ريه ونزل على جبال ببشتر يوم السبت لسبع خلون من ربيع الأول فحاربهم أشد محاربة ونكاهم أبلغ نكاية، وقطع ما كان بقى فى أسناد الجبل من الثمار ورتب لمحاصرتهم أكابر القواد، وقصد كورة تاكرنا فاستصلح أحوال أهلها واستوثق من طاعتهم، ونقل من رأى نقله إلى قرطبة من وجوههم، ثم وصل نظره فيها بالنظر إلى كورة موررو، وطالع فى طريقه كورة إشبيلية وقرمونة وقفل بعد إحكامه جميع الأمور فى تلك الجهات، فاحتل فى قصره يوم السبت لست خلون من ربيع الآخر وقد استكمل فى غزواته هذه ٨٥ يوما.

وفى هذه السنة ولى الوزارة أبو سعيد عبد الملك بن محمد الشذونى يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر، وولى فيها الوزارة أيضا يحيى بن إسحاق، وكانت بيده الشرطة الصغرى، فوليها مكانه محمد بن محمد بن عبد الله الخروبى أياما يسيرة ثم أعيد إليها أفلح.

وفيها ولى أحمد بن موسى بن حدير، ونمارة بن سليمان الخزانة فى شوال.

وفيها ولى أحمد بن عبد الله الخروبى العرض.

وفيها مات سالم بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن أبّا الفقيه، وعبد الله بن أبى الوليد ابن أخت محمد بن الصفار الفقيه، وكانت له رواية عن سحنون، ومحمد بن عبد الحكم.

وفى سنة ٣١١هـ/٩٢٣م كان غزو الناصر إلى مدينة ببشتر وحصون رية ففصل لغزاته هذه يوم الخميس لست خلون من ذى الحجة سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م.

وفى سنة ٣١١هـ/٩٢٣م وهو اليوم السابع عشر من آذار (مارس) بادر سليمان بن عمر بن حفصون بمكانته راجيا ليصرفه بغزوة عنه فاعرض الناصر عن مجاوبته وقبول ما يعرض له من مكايدته، وأخذ بالجد والحزم فى محاصرته وقطع باقى ثمره وكرماته واصطلام معائشه، وأقام عليه

سبعة أيام يصل الغدو بالرواح فى التغيير والتدمير والنكاية والاستبلاغ، وفعل كذلك فيما بقى من حصونه فحصن كرذارش وحصن بخارش وحصن الجشى بيفر فخرج إليه حفص بن عمر بن حفصون وتبرأ من حصن قامره فأمنه أمير المؤمنين الناصر وأقره فى بعض حصونه لما رآه من السياسة ووجه المصلحة فيه وفى سليمان أخيه.

ثم تقدم إلى مرسى شاط والمنكب وحصن فشكرين ونهض بعساكره فى وعر لم يقتحمه جيش قبله فاستنزل جميع أهل تلك الحصون واستصلح تلك الجهات، ثم قصد جبل ببشترو، وقد كان أهله قد أرادوا الفتك بسليمان بن حفصون وضبطوا الوقيعة دونه وأطلقوا من كان فى حبسه وانتبهوا أكثر أمتعته، ثم إنه احتال مع بقية أصحابه حتى دخلوا المدينة وفتحوا له بابها فدخل منه متلثما وأطمع السواد فى أموال القائمين عليه، فثاروا معه، وبادروا إلى قتل من ظفر به منهم، فأفنى أكثرهم، وسلط الله بعض الكفرة على بعض ليمحوا آثارهم.

وبقى سليمان بجبل ببشترو مشغولا بنفسه مرتابا ممن حوله، فاحتل به أمير المؤمنين مرة ثانية فى غزاته تلك، وذلك ليوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول، فلم يكن لأحد من الكفرة إطلال عند اضطراب العسكر على ما كانوا تعودوا من قبل، وأرتب أمير المؤمنين على الجبل من وثق به من رجاله وألزمهم مواقع فى جميع جهاته، ثم قفل ودخل القصر بقرطبة يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول، وقد استتم فى غزاته تلك ٦٩ يوما.

وفى هذه السنة كانت وقيعه بقيره ومجاهرة أهل بنبلونة لعبد الله بن محمد بن لب حتى تغلب عليه وعلى من كان معه، وأسرهم العلج شانجه ثم قتلهم، وكان مع ابن لب فى حصن بقيرة مطرف ابن موسى بن ذى النون، ومحمد بن محمد ابن عمه ووجوه رجالهم، فذهبوا فى هذه الوقيعة بأجمعهم وشنيع الحادث فيها على الناصر، فأخرج عبد الحميد بن بسيل قائدا إلى الثغر الأقصى

وبعد أن استوزره، وكان على خزانة المال، فنهض حتى احتل الثغر بجيوش كثيفة أُخرجت معه، وحُشدت إليه من الثغر وغيره، فدخل مدينة تطيلة وملكها.

وفيها افتتحت قصبة مورو Moror.

ونحن الآن ندخل فى العمل العسكرى العظيم لعبد الرحمن الثالث، والواقع أنه كان أقدر الأمويين فى الشرق والغرب على الحرب وأمهرهم فيها، وكان كأنه لا يعرف التعب فهو يقطع المسافة من نربونه إلى إشبيلية دفعة واحدة ولا يكاد يستريح حتى نجده قائما على قدميه متجها من إشبيلية إلى استراما دورة إلى قصر اش، ومن خلفه جنوده الكثيرون وهم يتعبون وهو لا يتعب.

الغزوات الكبرى لعبد الرحمن الثالث:

ونحن ندخل الآن فى الغزوات الكبرى لعبد الرحمن الثالث، لأن هذا الرجل الذى عاش حياته كلها فى القصر إلى جوار جده عبد الله دخل فى الإمارة عقب وفاة جده دخولا طبيعيا سهلا، وكانت سنه إذ ذاك ثلاثا وعشرين سنة، وكان يعرف ما لا بد أن يفعله، فإن الأندلس، كما قلنا، كان جزءاً من دولة الإسلام الكبرى، ولكن الشعب لم يكن مسلما خالصا، خاصة وأن عمر بن حفصون – وهو رجل فى غاية القدرة والذكاء – أفسد الأندلس الإسلامى من موطنه بقمة جبل ببشترو بتأييده لكل من خرج على الإمارة، وكان معظم رؤساء النواحى خارجين عن الإمارة.

وكان عبد العزيز بن موسى بن نصير قد بدأ فى إتمام إسلام الأندلس وعروبته وقام بجهود عظيمة فى هذا السبيل، ولكن سليمان بن عبد الملك دبر قتله خوفا منه، وبهذا حرمنا من الرجل الوحيد فى ذلك العصر الذى كان يستطيع تحويل الأندلس إلى بلد عربى إسلامى فعلا.

وكان تدبير سليمان بن عبد الملك قتله جريمة فى حق الإسلام، وتوقفت عملية التعريب

وإدخال البلاد فى الإسلام، وأصبح رؤساء النواحى أصحاب السلطان ولم يكونوا بمستعربين ولا بمسلمين صادقين، وإنما استقل كل رئيس بناحيته، وإن ادعى الدخول فى العروبة والإسلام.

فلما جاء عبد الرحمن الثالث كان عليه أن يبدأ من حيث وقف عبد العزيز بن موسى بن نصير، وبدأ فى سلسلة من الفتوح الصادقة القيمة لبلاد الأندلس، ثم شمل بجهوده كل بلاد الأندلس، كما سنرى، وقام بفتوح أصيلة وأساسية، كما سنرى فى تفاصيلها.

غـزوة بنبلونـه :

ففى سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م قام عبد الرحمن الثالث بالغزوة المعروفة بغزوة بنبلونه، فنهض لها مبكرا قبل ميقات الصوائف إذ أحفظه ما دار على بنى لُب وبنى ذى النون بحصن بقيرة.

وقد خرج لها يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة ٣١١هـ/ ٢٧مارس ٩٢٣م، فاحتل لأول خروجه بمحلة بالش وكسر بها يومين متلوما على المجاهدين معه من أجناده ورعيته والمحشودين من أقطاره.

وتخلف بقصره بقرطبة ولى عهده الحكم المستنصر، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير.

وأم الناصر فى أول خروجه كورتى تدمير وبلنسيه واستصلح أحوال أهلها، واستنزل عبد الرحمن ابن وضاح، ويعقوب بن أبى خالد التوبرى، وعامر بن أبى جوشن، وغيرهم، من مواضعهم التى كانوا متآمرين فيها ومتعاصين عن النزول منها، وأرتب القواد والجيوش على محمد بن عبد الرحمن ابن الشيخ، إذ تمنع عن النزول إليه والغزو معه، وكان بمدينة العسكر من أحواز بلنسية، ثم نهض فى عسكر كعدد الحصى حتى دخل ثغر تطيلة، وخرج إليه التجيبون وغيرهم وتلقاه عمال الثغر فى جنود عظيمة وعدة كاملة.

فدخل عبد الرحمن بلاد المشركين يوم السبت لأربع خلون من ربيع الآخر بأنفذ عزم وأوكد حزم وأقوى نية فى الانتقام لله ولدينه من الأرجاس الكفرة الأنجاس، فحل من أول بلادهم حصن قلهرة، وكان العلج شانجه قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه وحوله، ثم انتقل إلى موضع يعرف ببطره آلتة، وكانت حوله حصون مانعه فأخلاها الكفرة، وتخلفوا فى بسيطها جميع أمتعتهم وأطعمهم إذ عوجلوا عن انتقالها ولجأ علوج منهم بأهلهم وولدهم إلى ثلاثة غيران فى شفير جرف على النهر، فلم يزل أهل العسكر يتعلقون إليهم فيها ويتسورون عليهم من أعاليهم حتى فتح الله تلك الغيـران عليهم فقتـلوا العلوج وسبـسوا الذرارى، وغنموا الأمتعة، وكان ذلك أول ما أفاء الله، عز وجل، على أهل العسكر وغنّمهم إياه وهُدمت حصون الكفرة التى كانت فى تلك الجهة ولم يبق منها صخرة قائمة.

ثم انتقل، رحمه الله، من هذه المحلة، بعد أن كسر فيها يوما، إلى حصن فالجش فأضرمت أرباضه نارا، واستقصيت زروعه ونعمه انتسافا وتغييرا، ثم انتقل إلى حصن تفاية وكان من حصونهم الشريفة، فألفيت الأطعمة به كثيرة، والنعم فيه فائضة، فانتهب المسلمون جميع ذلك ودأبوا فى تخريب الديار وتغيير الآثار، ثم انتقل منه إلى حصن قرشتال على وادى أرغون، ثم استعزم الناصر على الأبغال فى بلدهم والتوصل إلى موضع قرارهم ومجتمع كفارهم ونكايتهم فى عقر دارهم ومكان أمنهم، فأخذ فى الحزم وأمر بضبط مجنبات العسكر، وتقدم من فج المركويز فى أتم تعبئة وأهذب ترتيب وذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة من ربيع الآخر، فدخلت الجيوش مواضع لم تدخل من قبل، وأحرقت الحصون، وهدمت الديار، حتى نزل بقرية بشكونشة، التى ينسب العلج إليها، ومنها أصله، وهدمت مبانيها، وأحرق كل شىء كان فيها.

فجمع العلج شانجه كفرته واستمر بنصرانيته من كل مكان طمعا فى أن يغاث منهم، حتى توافى له جمع رجا أن يكافح المسلمين به، فتطلعت له خيل على تلك الأجبل المنيفة على

العسكر، فأمر الناصر بالتغيئة للرجال وشك العسكر وإتقان النظر وصابح النهوض والتقدم لوجهته، فسلكت الجيوش بين أجبل شامخة وشواهق مرتفعة منقطعة.

ورجا أعداء الله مع ذلك بانتهاز الفرصة والاعتراض للمسلمين فى مجنبة أو ساقة، فلما توسط الجيش بعض تلك المواضع المتضايقة على واد يعرف بوادى هيغة هبطت للمشركين خيل من الأجبل، فحالت بينهم وبين أهل العسكر مناوشة يسيرة، وعهد الناصر برفع المظل والتعبئة للحرب، ونهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود، فعبروا النهر إليهم وصمموا بالحملة عليهم حتى اقتلعوهم عن مواضعهم وهزموهم، ووضعوا سيوفهم ورماحهم فيهم حتى اضطروهم إلى مرتقى وعر وجبل منقطع، فتقحم المسلمون عليهم، وسهّل الله وعره لهم، فقتلوا جملة منهم، وبسطت الأرض بأجسادهم، واستمرت الخيل المغيرة فى بسيطهم فأصابت الغنائم والسوام وضروب النعم، وانصرفوا سالمين لم يصب منهم غير يعقوب بن أبى خالد التوبرى ونفر يسير من الحزم فازوا بالشهادة، وختم الله لهم بالسعادة، واجتمع من رؤوس المشركين عدد عظيم منع من البعث بهم إلى قرطبة بعد المسافة.

ولم يكتف الناصر بذلك فى هذا الخروج بل نجده يتجه إلى محلة لُنبيرة، ثم إلى محلة لغين، والجيوش لا تمر بموضع إلا وتعلقت زروعه وهدمت قراه وحصونه إلى أن بلغ الناصر بنبلونه فوجدها خالية وقفرة، فدخلها وجال بنفسه عليها وأمر بهدم جميع بنيانها وتخريب كنيسة الكفرة بها التى كانت بيعتهم موضع نسكهم، حتى لقد جعلت قاعا صفصفا.

ثم انتقل منها إلى صخرة قيس وكانت بها كنيسة قد شيدها العلج وأتقنها وطاول الأيام بالتأنق فيها والتحصين لها، فلما حلت بها الجيوش وأخذت فى هدمها تطلع الكلب من جبل كان قد أسند إليه، طامعا فى حمايتها فداخله أولياء الله بأسرع من لحظة الطرف، حتى اقتلعوه مهزوما موليا،

وصرع من فرسانه ووجوه أصحابه من كان عنه محاميا ودونه مستهلكا، وأخربت الكنيسة وما أحاط بها وعادت القرية نارا موقدة.

ثم انتقل منها إلى محلة أساريه، وكان فى الممر إليها فج يقال له : هرقلة، ضيق المسلك وعر المجاز، فرام الكفرة انتهاز فرصة من المسلمين فيه فأمر الناصر بالتعبئة والاحتراس، ونهض على أتم التحفظ والضبط حتى جاوزت العساكر ذلك المضيق وخرجت عنه، وتظاهر أعداء الله لأهل الساقة متسنمين لأعلا جبـل، فنهضت الخيـل إليهـم وهزمتهم وقتلـت طائفة منهم، وانقشعوا مدبرين لا يلوون ولا يعرجون، وتقدم المسلمون بعزة القهر وسرور النصر حتى نزلوا محلة أسارية.

ثم انتقل الناصر منها إلى محلته بقرية منيير Munier ثم انتقل إلى محلته بذى شره المجاورة لشنت استبين Santo Estabien وكان موضع استرواح العلج شانجه ومكان طمأنينته، فحلت الجيوش بهذه المحلة يوم الأربعاء لثمان من ربيع الآخر ٣١٢هـ / أبريل ٩٢٥م.

وتظاهر الكلب على الجبل قد جمع جموعه وحشد رجاله واستجاش بمدود أتته من ألبة والقلاع طامعا فى معارضة المسلمين يقيم بها عذره عند كفرته وأهل ملته، فناشبهم المسلمون الحرب والتحم بينهم القتال، فهزم الله جموع المشركين وانقبضوا إلى أعلا جبلهم وتحركوا فى شعراء متصلة بهم، وبات أهل العسكر فى محلتهم، وانبسطت فانتسفت ما فيها.

ثم انتقل الناصر إلى محلته بموضع يعرف بربية سُرِتَّه، وهو يريد قلهرة، وتظاهر العلج بجموعه مرة ثانية فى الموضع الذى كان مشرفا فيه ومعتصما به، فتبادر إليه الفرسان فانهزم أقبح انهزام، وقتل له رجال، وعقرت له خيل.

وانتقل الناصر إلى حصن قلهرة فألفاه خاليا، وأمر بهدمه، ثم انتقل إلى حصن بلنيرة، وهو من حصون المسلمين المجاورة للمشركين، فأمر بادخار الأغذية عندهم وتفريق الأموال فيهم، واحتل بمدينة تطيلة وكسر بها، وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من ربيع الآخر ٣١١هـ / يونيو ٩٢٣م.

غــزوة البيــرة :

كانت البيرة (غرناطة) من بلاد المسلمين ولكنها كانت ـ كما قلنا ـ تحت سلطان رؤساء محليين غير مخلصين للإمارة أو للإسلام، فأراد الناصر أن يتم إسلامها فخرج إليها سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م، ونازل حصن اشتين، وأصلح الأحوال بالكورة، وكذلك بكورة جيان وما والاها، وكان ذلك فى نفس السنة.

وقد خرج لها يوم الخميس ٨ صفر ٣١٢هـ / ٧ أيار (مايو) ٩٢٤م، وترك فى القصر ابنه وولى عهده الحكم، ومن الوزراء أحمد بن محمد بن حدير، وأقام على مدينة جيان محمد بن عبد الله الحزوبى، واستقدم الوزير سعيد بن المنذر من كورة تدمير ليغزو معه، وأخرج محمد بن إسحاق إلى تدمير ليكون حاكما بها محل أحمد بن محمد بن حدير.

ثم احتل فى طريقه حصن المنتلون ليكون مكان سعيد بن المنذر، واستعمل على الجميع عبد العزيز بن مسلمة عبد الله بن عمرو بن مسلمة، وهدم أكثر حصون جيان وقصابها « إذ كانت مسترعىً لأهل الشر والخلاف، وكانت ضررا على أهل الطاعة والاستقامة » وفعل مثل ذلك بحصون البيرة (غرناطة) « حتى احتل بقصر اشتين، وكان أهله على مكايدة باطنة وإظهار طاعة تحتها مداهنة، فعرض عليهم عبد الرحمن النزول عن حصنهم إلى البسيط حوله، فاضطربوا فى أمرهم ولاذوا عن رشدهم، فاحتلت العساكر بهم وأخذ بالجد والحزم فى محاصرتهم، وأُحيط بهم من جميع جهاتهم، وبنيت عليهم ستة حصون يقابل بعضها بعضا حتى غدوا فى مثل حلقة الخاتم ضيقا وحصارا، وبقى على محاصرتهم ٢٥ يوما، وهو يدأب مع ذلك فى استصلاح أمور رعيته

وتأمين شملهم وقطع المخاوف عنهم، ويشخص بنفسه إلى كل جهة من جهاتهم » وقد استتم عبد الرحمن فى غزوته تلك ٥٠ يوما.

غزوة مويش:

ورد اسم هذه الغزوة عند عريب بن سعد : غزوة مونش، وربما يكون هذا خطأ والصحيح مويش، وهى من دار الحرب، ولم تكن من بلاد المسلمين بعد.

وقد خرج لها عبد الرحمن يوم الخميس ١٣ ذى الحجة سنة ٣٠٧هـ/ وكان ذلك فى شهر أغسطس ٩١٩م، وقد انتهز فرصة خروجه من قرطبة أعداؤه من النصارى، وقد هاجموا حصن الفرج وهو وادى الحجارة فى جمع كثير فأغاروا على ما ألفوه من بلاد وحصون تابعة للمسلمين.

وكان المغيرون من أهل جليقية، وأغاروا على كل ما مروا عليه من الزروع والدواب والسوائم حتى وصلوا إلى حصن يعرف بالقيلعة، فأحدقوا به طامعين فى التغلب على المسلمين « فانحشر إليهم جميع أهل البلد، فارسهم وراجلهم وواضعوهم القتال، فأثبتوا بصائرهم فمنحهم الله أكتافهم وأطال أيديهم عليهم، فقتلوا وأسروا كثيرا منهم واتبعوهم من أول النهار إلى آخره والسيف يعمل فيهم، وبعثوا بجملة من رؤوس أكابرهم » (المقتبس جزء ٥ وقد حققه المعهد الإسبانى للثقافة بمدريد ونشره يدور شالميتا وفدريكو كورينتى ودكتور محمد صبح وغيرهم) مدريد ١٩٧٩م.

فلما كان يوم الجمعة ١٣ صفر ٣٠٨هـ/ يونيو ٩٢٠م فاستبشر الناصر بما ورد عليه من ذلك وتفاءل باسم المحلة ونهض آمًّا لوجهه والحشود والعساكر تتلاحق به من أقطار الأندلس وجميع جهاتها، فعدوه يكثر وعدده يجم، ونزل باب مدينة طليطلة فخرج إليه صاحبها لب بن الطربيشة مبادرا إلى إرادته وغازيا معه، وهو فى ذلك مداجن، يظهر طاعة تحتها معصية، فمضى معه على سقم سريرته.

وتنقل، رحمه الله، بالعساكر فى مناقله حتى نزل بمدينة الفرج المسماة وادى الحجارة، وأهلها منقادون للطاعة، فنظر فى شأنهم وتحرى مصالحهم فعزل بنى سالم عنهم إذ شكوا إليه بهم، واستعمل عليهم مكانهم سعيد بن المنذر القرشى القائد ثقته، وقدمه فى محلته هذه إلى خطة الوزارة فأناله الذروة وأخذه بالغزو معه، فاستخلف الوزير سعيد مكانه على وادى الحجارة ابن غزلان القرشى، صهره، واستقضى الناصر على وادى الحجارة الفقيه محمد بن مبسور (أو مسور) فصلحت أحوالهم وعم الرضا جميعهم وخرج للجهاد أكثرهم.

ونهض عبد الرحمن الثالث عن وادى الحجارة فى جيوش تغص بها السيل ويضيق عنها الفضاء الأوسع حتى احتل بثغر مدينة سالم، فأظهر التقدم إلى الثغر الأقصى كيادا للعدو، وقدم المقدمة لسبيله، ثم خرج بالجيوش على سنته إلى طريق ألبة والقلاع، وأغذ السير فطوى من نهاره ثلاث مراحل حتى احتل بوادى دويره، فاضطربت العساكر به وباتت عليه، ثم أخرج فى صباح تلك الليلة الوزير القائد سعيد بن المنذر القرشى فى جرائد الخيل، وسرعان الفرسان، إلى حصن وخشمه، فأسرى مغذا السير حتى قرب من الحصن، وسرح الخيل المغيرة بمنه ويسره، والمشركون بحال غرة فى سكون وغفلة، إذ كان العلج المتآمر عليهم قد كاتب الناصر لدين الله مكايدا له يسأله تنكب بلده لمواعيد وعده بها عن نفسه، أظهر له الإصغاء إليه منطويا على مثل الطوية، وأرسل الخيل المغيرة عليه فغشيته وقومه على غرة فوطئتهم أثقل وطأة، وأصابوا سوامهم ودوابهم سارحة مهملة فاكتسحوا جميعها وحووا ما للكفرة من معيشة ونعمة، وانصرفوا إلى العسكر سالمين أعزة (المقتبس ٥ ص ١٦٢، ١٦٣).

ثم رحل عنها فى اليوم الثانى إلى حصن قاشترو مورش Castro Moros وهو شنت اشتبين Santo Estabien بيضة الكفرة وقاعدة ثغرهم والموضع الذى تعوذوا فيه، وتعودوا هذه الاستطالة على مَن أمهم ومَن طرقهم فلما راوا أولياء الله قد صمدوا لهم بعد إظهاره لهم على من

قبلهم نخبت قلوبهم فأخذوا الحصن وخرجوا عنه هاربين على وجوهم، فدخله المسلمون وغنموا جميع ما أصابوا فيه وخربوه، وخربوا حصن القلعة المجاورة له، فلم يتركوا لأعداء الله فى ذلك الصقع نعمة يأوون إليها، واضطرب العسكر بشرقى حصن قاشتره مورش، وبات المسلمون فيها بأسر حيلة كانوا بها.

ثم انتقل عبد الرحمن الثالث صبيحة اليوم التالى من مكان المضطرب بشرقى الحصن إلى غربيه، ولم يكن بين الموضعين إلا قدر ميل، فكسر العسكر من هذا المكان يوم الأحد متقصياً لآثار الكفرة معفياً على ما بقى لهم من بقية نعمة.

ثم ارتحل إلى مدينة لهم أولية تسمى قلونية Colona كانت من أمهات مدنهم القديمة، فلم تمر الجيوش بها إلا على قرى منتظمة وعمارات منبسطة، فغنمت جميع ذلك ودمرت عليه، وقتلت من أدركت من عامريه، حتى أوفت على المدينة وألفتها خالية قد شرد عنها أهلها وفروا على الأجبل الشمخ المجاورة لها، فقسم المسلمون ما غادروه منها، واجتمعت أيديهم على تخريب ديارها وكنائسها، وكسر الناصر لدين عليهم ثلاثة أيام مطاولاً لنكاية المشركين من انتساف بقيتهم.

غـــــزوة طـــــرش :

وفى سنة ٣٠٩ هـ/ ٩٢١م كانت غزوة طرش، وهى فى صميمها غزوة لأهل الخلاف فى كورة ريه (مالقة).

بدأها عبد الرحمن يوم الخميس لسبع خلون من ذى الحجة ٣٠٩ هـ/ ١٠ أيار ٩٢١م، وقد سار الناصر حتى احتل حصن طرش، وكانت النصرانية قد نقضت عهد الذمة وانحشدت إلى هذا الحصن وتحصنت فيه، فأحدقت به عساكر المسلمين من كل جهاته، فأمر عبد الرحمن الثالث بمناهضتهم والجد بهم والتضييق عليهم، فأبلغوا فى ذلك ونصبوا المجانيق على مرتقى لهم تصل منه

حجارتها إلى الكفرة، وكانوا فى أول المنازلة لهم يبرزون إلى الحرب ويظهرون المدافعة عن حريمهم حتى عضتهم الحرب فمزقتهم وقللت عددهم، فبادروا إلى الاستعلاق فى داخل حصنهم، وتمادى التضييق عليهم والإحاطة بهم حتى اخذهم الجهد، وأشرفوا على الهلاك فاستغاثوا عبد الرحمن الثالث ضارعين إليه فى تأمينهم على أن يسلموا الحصن، ثم هدمت قصابه وحطمت أسواره وألقيت فى النهر.

وأمر الناصر فبُنى موضع الكنيسة مسجد جامع، ونظر الناصر فى ذلك أيام مقامه على محاصرة حصن طرش فى توجيه القوات فى عدد كثيف من الأجناد إلى حصن بيشترو، قاعدة الضلالة، وحصن أقوط وجبل الحجارة وما بينها من أعمال الناكث سليمان بن عمر بن حفصون الناصب للتضييق عليهم والانتقاص من أعدادهم فاجتهدوا فى ذلك.

ثم قفل عبد الرحمن الثالث يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول منها، وقد استتم فى غزوته تلك ٦٩ يوماً.

غزوة منت روى:

هذه الغزوة أساسًا كانت غزوة لإلبيرة، وهى غرناطة، خرج لها الناصر يوم الخميس ٣ ذى الحجة ٤ نيسان (أبريل) ٩٢٣م (فى الأصل ١١ آزار) ومن روى كانت حصنًا عظيمًا من حصون البيرة، وهو يقع على الطريق من جيان إلى البيرة وكان «منيع المنال بعيد المرام، كثير السكان من أعاجم نصارى الذمة، نبذوا العهد وسارعوا فى الخلاف وانحاشوا إلى المراقى وأشاعوا الفساد فى الأرض، وامتنعوا بجبلهم هذا الأشب وهو متوسط بين كورتى إلبيرة وجيان وعلى قارعة طريق بجانة فرضة الأندلس الجنوبية، فكان من سلك هذا الطريق من صادر ووارد لا يسلم من عادية ذلك الحصن، وكانوا يضيقون السبيل ويسفكون الدماء ويسلبون الأموال، فجثم عليهم عبد الرحمن

بجموعه وناهضهم فى حصنهم من جميع جهاته بالمجانيق، وأمر بالبنيان عليه والشد لمحاصرته حسب ما فعله بحصن طرش شبيهه، فأخذ بمخنق أهلها وحبسهم محبس خسفٍ فى جوفه، فأقام عليه ٣٥ يومًا محاصرًا مضيقًا حتى أباد كثيرًا منهم، وقطع أشجارهم وغير نعمهم، ثم تقدم عنهم فى جموعه بعد أن أذلقهم بالحجارة، وأبقى على صلة حربهم وشدة حصرهم سعيد بن المنذر القرشى الوزير القائد فى طائفة من الجند للإجهاز عليهم، فواصل سعيد بعد ذهابه حصرهم ووالى حربهم، فكان لا يدخل عليهم داخل ولا يخرج عنهم خارج، فجهدوا وعيل صبرهم، ودعوا إلى الطاعة قمأة صغيرة، وحكموا الوزير سعيدًا فى أنفسهم، فخاطب عبد الرحمن فى تأمينهم، فأذن لهم فى ذلك، فأمنهم سعيد بأمانه واستنزلهم من معقلهم، فوفى لهم عبد الرحمن بما أعطاهم سعيد وألحق فى الجند من استحسن منهم وهدم الحصن كما فعل بطرش أخيه.

وكان عبد الرحمن الثالث قد تقدم من هذا الحصن منت روى إلى حصون كورة البيرة المخالفة، فعم جميعها بالنكاية ثم عرج منها إلى كورة موروو، ثم إلى كورة شذونة، فوطئ ديار أهل الخلاف فيها ودوخها، واستنزل كثيرًا ممن كان تآمر هناك بالباطن وصدع عصا الجماعة، ثم نزل إلى كورة ريه فقصد قلعة ببشترو، عش النفاق، فنزل بساحتها يوم السبت لسبع خلون من ربيع الأول منها، وقطع ما كان بقى فى أسناد جبلها من الشجر، وحطم ما نجا فيها من أسباب المعيشة، ورتب لمحاصرة أهلها عدة من كبار القواد النازلين فى الحصون التى اتخذها عليهم.

ثم قصد كورة تاكرنا واستصلح أحوال أهلها بالنظر، واستوثق من طاعتهم، ونقل من رأى نقله إلى قرطبة من وجوههم، ثم وصل نظره فيها بالنظر فى كورة أشونة فوطن أرضين واسعة وأبرم أمورًا فارعة فرززها بجميل نظره، فضم بها الله نشر الأمة، وقفل إثر إحكامه جميع ذلك إلى حضرته قرطبة، فاحتل قصره فيها يوم السبت لست خلون من ربيع الآخر من هذه السنة، وقد استكمل فى غزاته هذه ٨٥ يومًا.

وفى أيام محاصرة عبد الرحمن لحصن منت روى ما استنزل صاحب مدينة مرشانة المعروف بأبى الحكم، وولى عليها مكانه أحمد بن مؤمل.

وفيها أيضًا افتتح قصر بنيرة، من حصون الخلاف بكورة ريه، فانحاز إليه أهل الطاعة وولى عليها يحيى بن زكريا بن انتله، وندب عنده رجالاً من ثقات الحشم فترددوا من تبله على مغاورة مدينة ببشترو، قاعدة الخلاف، وضويقت من كل جهة.

وفى هذه الأيام صار أهل بجانة البحريين إلى الطاعة والانحياش إلى ظل الجماعة والتحكم فى أنفسهم ووالوا فى ذلك كتبهم ورسلهم، فانعقد أمانهم وقدرت مغارمهم، وولى عبد الرحمن أحمد ابن أبى طالب الأصبحى القرطبى ببلدهم.

وفى هذه السنة (٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م) ولى عبد الرحمن الثالث أبا سعيد عبد الملك بن محمد الشذونى الوزارة للنصف من ربيع الآخر منها.

وفيها ولى الوزارة أيضًا يحيى بن إسحاق الطبيب، وهى أول ولايته لها، نقله إليها من الشرطة الصغرى، وولى هذه الشرطة مكانة محمد بن محمد بن أبى زيد المعزول من الشرطة العليا.

غزوة شاط:

وفيها غزا عبد الرحمن الثالث مدينة ببشترو وحصون ريه لمنازلة المارق سليمان بن عمر بن حفصون، وهى غزوته المعروفة بغزوة شاط، فبرز لغزاته هذه يوم الخميس لست خلون من ذى الحجة سنة ٣١٠ هـ وهو اليوم السابع والعشرون من آذار الشمسى، وفصل غازيا يوم الاثنين غرة المحرم سنة ٣١١ هـ، وهو اليوم الثانى عشر من نيسان بعد بروزه بخمسة وعشرين يومًا، فطوى المراحل حتى نزل على مدينة ببشترو، فبدأ المارق سليمان بن عمر (بن حفصون) لمكاتبته وملاينته راجيًا لصرف معرته عنه لهوى كان لديه وقته ذلك، من خلاف كان بينه وبين أصحابه، فأعرض عبد الرحمن

عنه، ولم يذهب عليه ما أراد من مكايدته، وأخذ بالجد والعزم فى منازلته وشدة الحصار عليه، وقطع باقى اشجاره وكرومه واصطلام معايشه، فأقام عليه سبعة أيام يصل الغدو بالرواح والمساء بالإصباح فى التغيير والتدمير والنكاية فى سمت العمارة وإعمال صنوف النكاية.

ثم تقدم من مدينة ببشتر مستقربًا لحصونها حولها، مبيحًا حماها كحصن فرذارش وحصن بمارش وحصن الجش وحصن شنت بيطر وأخواتها، فهتكها واشتدت وطأته عليها، فخرج إليه حفص بن عمر بن حفصون، وتجرد من حصن قامرة، فأمنه أمير المؤمنين الناصر، وأقره فى بعض حصونه لما رآه من السياسة ووجه المصلحة فيه وفى سليمان أخيه.

ثم تقدم إلى مرسى شاطر والمتكب وحصن مشكربل، ونهض بعساكره فى وعر لم يقتحمه جيش قبله، فاستنزل جميع أهل تلك الحصون، واستصلح تلك الجهات ثم قصد جبل ببشتر، وقد كان أهله قد أرادوا الفتك بسليمان بن حفصون، وضبطوا القصبة دونه، واطلقوا من كان فى حبسه، وانتهبوا أكثر امتعته، ثم إنه احتال مع بقية أصحابه حتى دخلوا المدينة، وفتحوا له بابها، فدخل منه متلثما، وأطمع السواد فى أموال القائمين عليه فثاروا معه، وبادروا إلى قتل من ظفر به منهم، فأفنى أكثرهم، وسلط الله بعض الكفرة على مقصى، ليمحوا آثارهم.

وبقى سليمان بجبل ببشترو مشغولا بنفسه مرتابا ممن حوله، فاحتل به أمير المؤمنين مرة ثانية فى غزاته تلك، وذلك يوم الأحد لاربع خلون من ربيع الأول، فلم يكن لأحد من الكفرة أطلال عند اضطراب العسكر على ما كانوا تعودوه من قبل.

ورتب أمير المؤمنين على الجبل من وثق به من رجاله، وألزمهم مواضع فى جميع جهاته.

ثم قفل بجيشه فدخل القصر بقرطبة يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول، وقد استتم فى غزاته تلك ٦٩ يومًا.

وقيعـــة بقيـــرة:

وفيها كانت واقعة بقيرة من قاصية الثغر الأعلى على المسلمين من أهل بنبلونة مع أميرهم شانجه لمحمد بن عبد الله بن لب القسوى أميرها فيها، حتى تغلبوا عليه وصار فى يد أميرهم شانجه، فقتل وهو فى إساره، وقد كان دخل معه فى حصن بقيره مطرف بن موسى بن ذى النون ومحمد ابن محمد بن ذى النون وأحمد بن محمد بن ذى النون، ويحيى بن فتح بن ذى النون ووجوه من رجالهم، فأسرهم شانجه وصاروا فى قبضته، فحملهم إلى حصن بنبلونة وصيرهم فى سجنه.

ثم إن مطرف بن موسى بن ذى النون [تميز] من بينهم لصدق بسالته وشدة جرأته، وكسر وثاق كبوته وكبول الموكلين به، وفر من الحبس الذى كان فيه، فظفر خارجه بفرس ركبه فنجا عليه، فحزن العلج شانجه بن غرسية لنجاته وأسف لفوته.

وبسبب هذه الوقيعة وشنعة الحادث فيها على المسلمين، وجه عبد الرحمن الثالث عبد الحميد ابن بسيل مولاه إلى الثغر الأقصى فى جيش أكثف عدته، أغاث به أهله على شغله بما بين يديه من حرب أهل الخلاف بالموسطة، فجرد عبد إلى ذلك الفرج، وقوى عدته واستقوى على الجيش الذى ضمه إليه، وشرفه بتقديمه إلى خطة الوزارة، نقله إليها من خطة الخزانة للمال وصرفه فمضى لوجهه ذلك منصلتا حتى دخل الثغر الأعلى، واجتمع إليه من أهل الثغر فنال منهم وقطع سبيلهم وضم أطرافهم، فقاتله الوزير عبد الحميد من مكانه تطيلة، وبث بأرضه الغارة، فأوقع به وفله، فارتدع بذلك المشركون وانبسط المسلمون.

نهايـة امر بنى مـروان الجليـقى :

وفيها قتل عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الجليقى، صاحب بطليوس، المنتزى فيها على الخلاف للجماعة وراثة عن آبائه، وكانوا أولى شأو بعيد فى المعصية، وذوى حوادث عظيمة، قتله أصحابه فى اختلاف وقع بينهم، فرفع الله به عن المسلمين شرا شديداً.

موت اودون بن اذفونش وولاية اخيه فلويرة بن اذفونش :

وفيها هلك الطاغية أودون بن أذفونش ملك الجلاقة وولى مكانه أخوه فلويرة بن أذفونش.

غـــزوة إشـــتبيـــن :

كانت سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م، وهى من حصون البيرة، وقد أراد عبد الرحمن أن يقضى فى هذه الغزوة على كل مقاومة لألبيرة وضمها نهائيا إلى أراضى الطاعة للإمارة، وكان أهلها على مكايدة باطنة وإظهار طاعة تحتها مداهنة، فعرض عليهم عبد الرحمن النزول عن حصنهم، وقد اشتد فى الحصار وأطال عبد الرحمن محاصرتهم حتى بلغ الحصار ٢٥ يوما، وهو يدأب مع ذلك فى إصلاح رعيته وتأمين سبلهم وقلع الأذى والخوف عنهم ويشخص بنفسه إلى كل جهة من جهاتهم.

وقد كانت القلعة حصينة جدا فلم تستنزل، واشتاق عبد الرحمن إلى ابنه الحكم، وكانت سنه إذ ذاك ١٠ سنوات و٨ أشهر ونصف شهر، فاستقدمه من قرطبة وأنس به، وطال الحصار، واشتاق عبد الرحمن إلى قصره بقرطبة فترك على حصار القاعدة الوزير القائد عيسى بن أحمد بن أبى عبدة فى قطيع من الحشم وأضاف إليه صاحب الشرطة درى بن عبد الرحمن مولاه قائدا من الجانب

الآخر، فيمن ضمه إليهما من الرجال وما وضعه لديهما من العدة وعاد إلى قرطبة، وقد استتم فى غزاته هذه ٥٠ يوما، وقد شدد القائدان فى حصار شنت إشتبين حتى فتحاه.

ثم صلب عبد الرحمن على الرصيف بباب قرطبة الرامى العجمى المعروف بأبى نصر من أصحاب المارق ابن حفصون، وكان ماهرا جدا فى الرماية، وكان موكب تعليق جسده حافلا، وقد ترك أياما بعد موته على الخشبة ثم أنزل وأحرق.

وفى هذه السنة (٣١٣هـ) هلك الطاغية قلويره فتولى مكانه أذفونش أخوه، ولم يلبث هذا أن ترهب واعتزل الأمر فولى أخوه رذمير مكانه سنة ٣١٩هـ/٩٣١م.

غـــزوة سُـــرتـــه :

ولم يستطع عبد الرحمن الخروج بنفسه فى السنة التالية (٣١٤هـ/٩٢٦م) فأغزى الوزير القائد عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى الذى فيه بنو ذى النون، وكانوا مصرين على الخلاف مكثرين فى الفساد فى الأرض والاستطالة على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة، فأوقع ببنى ذى النون وقتل منهم من استحق القتل، وقتل كبيرهم محمد بن محمد بن ذى النون وعدة من رجالهم وأراح بلدهم شنت برية، وافتتحت مدينة سرته فدخلها وولاها عاملا للسلطان وفارق أهلها ما كانوا عليه من الخلعان، ودرت جباية شنت برية من ذلك الوقت وصارت ضمن سائر الكور المنحاشة إلى الطاعة.

وكانت وقيعة عبد الحميد بن بسيل بذى النون فى المحرم سنة ٣١٤هـ/ مارس ٩٢٦م وكان بنو ذى النون خلف ابن عبدوس المعروف بابن قطين صاحب سرته فأسروه رجاء فى تملك الحصن ثم قتلوه فى الحبس، فملكت أخته الحصن ودافعت بنى ذى النون عنه، وخاطبت عبد الرحمن

تدعوه إليها فأخرج عن ذلك الجيش إلى بنى ذى النون مع عبد الحميد بن بسيل فأوقع بهم وملك سرقه ودوخ بنى ذى النون فاستقامت على يديه الناحية.

غــــزوة ببشـــتر:

وبعد أن فرغ عبد الحميد بن بسيل من تلك الغزوة فأخرجه عبد الرحمن فيمن كان معه من الجيش ليجامع من اجتمع هناك من القواد على مناهضة المارق سليمان بن عمر بن حفصون صاحبها لما كشف وجهه فى نبذ العهد وجاهر بالمعصية، وأغزى إلى ببشتر أيضا مولاه أفلح، صاحب الخيل، فيمن ضم إليه من الجيش الكبير، ففصل سائرا إليها يوم السبت ١٥ ربيع الأول ٣١٤هـ/١٢ أكتوبر ٩٢٦م فنازل هؤلاء القواد الخبيث سليمان بداره ببشتر، ووالوا التضييق وشدوا حصره، وقطعوا أوجه المعيشة عنه واقتحموا حصن مونت روبى من أمهات حصونه ومانعات معاقله ففلوا به غربه وأوهنوا قيده.

وفى هذه السنة ٣١٤هـ أهلك الله المارق الغوى سليمان بن عمر بن حفصون، وأباح للمسلمين فيه جليل الفتح، على يدى الوزير القائد عبد الحميد بن بسيل، وكان السبب فى ذلك أنه خرج من قلعته ببشترو يوما يرجو انتهاز الفرصة من أصحاب السلطان المكتنفين له بالحصار، فكان هو المفترض عليهم، وتبادرت إليه الخيل من الجهة التى كان فيها الوزير القائد عبد الحميد بن بسيل، فقتله الله بأيديهم، وذلك يوم السبت غرة ذى الحجة/ ٣من شهر مارس ٩٢٦م، وافقته من يد محمد بن يونس بن العريف ورجل من بنى مظاهر العجم ضربات، فصرع من فرسه واحتز رأسه سعيد بن يعلى العريف، المعروف بالشفه.

وكان ابن مظاهر قد ضربه بالسيف، وهو الذى قطع يده، وتولى نزع خاتمه من إصبعه محمد ابن يونس العريف، فعجّل به إلى الوزير، ونقلت أعضاؤه إلى عبد الحميد جزءاً جزءاً، فأرسل بها

عبد الحميد إلى عبد الرحمن الثالث كما أتته مفصلة مفرقة مع هامته، فأمر بتأليف جثته ورفعه مصلوبا على باب السدة من قصر قرطبة، فرفعت هنالك فى خشبة عالية، وكان الفتح فيها جامعا لشمل الدين.

وكان القحط فى هذا العام شديدا والمحل عاما، واستسقى للناس فيها أحمد بن بقى بن مخلد صاحب الصلاة، وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى الكور فى الاستسقاء، فوافق بقرطبة نزول غيث مغيث.

وفى هذه السنة ورد الخبر بهلاك الطاغية شانجه ملك البشكنس بينبلونة دار الحرب إثر صلب جثة سليمان بن عمر بن حفصون، وكان فى ذاته أذى للمسلمين ونكايتهم كسليمان موافقا فى وروده حوض المنية، وكان السبب فى مهلكه أنه قفل من غزاة كانت له إلى بعض أعدائه من الأمم خلفه، وقد فتح وغنم، فلما صار بأرضه وعاين ما فتح الله له وأفاء عليه من الغنائم والأسرى لحقته أريحية أشد فانطلق مالئا فروجه فرداه فى مهداة أقحمه إليها فصرعه ورضه وأخرج منها ميتا، فاقتربت بذلك النعمة وتضاعفت المسرة.

وفيها أمحل الناس بقرطبة وما يليها فغلا سعرهم وضاقت معايشهم، وبرز صاحب الصلاة أحمد بن بقى من مخلد فاستسقى لهم فى مصلى الربض، وكتب عبد الرحمن إلى عماله فى الكور بالاستسقاء، ففعلوا ذلك مرات حتى من الله عليهم بالغيث.

وفيها عزل عبد الرحمن أسلم بن عبد العزيز عن قضاء الجماعة بقرطبة لضعفه عن العمل، وولى القضاء مكانه أحمد بن بقى بن مخلد إلى ما يتولاه من الصلاة.

وفيها ولى عبد الرحمن محمد بن عبد الله الزجالى خطة الوزارة للنصف من جمادى الأولى منها.

وفيها ولى أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف خزانة المال، وولى عبيد الله بن عبد الله الزجالى العرض، وولى خزانة السلاح.

غـــزوة ببشـــتر ســـــنة ٣١٥ هـ/٩٢٧م:

وفيها غزا الناصر لدين الله بنفسه إلى مدينة الضلال وعش النفاق لمنازلة شيطانه حفص بن عمر ابن حفصون المستمسك بحبل الغواية، فبرز لغزاته يوم الخميس ١٣ صفر/١٩ أبريل سنة ٩٢٧م، وفصل غازيا يوم الخميس ١٣صفر/ ١٩ نيسان (يونيو) وقد وصلها فى ٢٢ يوما واصطحب معه ابنه وولى عهده الحكم، وكانت سنه ١٢ سنة و٩ أشهر ونصف، إذ كان قد عوده الخروج معه فى غزواته من أول سنة ٣١٣، وكان على قرطبة فى القصر عبد العزيز شقيق الحكم، ومعه من الوزراء أحمد بن محمد بن حدير، المعتاد المقام هنالك، وعلى المدينة أحمد بن عيسى بن أبى عبدة خليفة لأبيه الوزير عيسى بن أحمد بن أبى عبدة، فاحتل عبد الرحمن بجيوشه وخيله ورجله وعدده على ببشتر نزول اعتلاء يوم الثلاثاء لسبع بقين من ربيع الأول منها فوطئها بكلكله وداسها بقدمه وملك مخلفها بيده وتضاعف عزمه فى نظم البنيان عليها، والجد فى محاصرتها، فانتهى من ذلك مراده، فرتب عليها من جلة قواده من يلازمها فى طوائف من رجالها.

ثم انتقل منها فى جمهور عسكره إلى حصن ألجش فى حصن من حصون الخبيث حفص الأشبه، فافتتحه واستنزل من كان فيه، وأخرج إليه أهله مع جعفر بن مقسم العجمى، فتلقوه بالإذعان للطاعة، فقبلهم وأمنهم، وأخلى الحصن الطويل بلاؤه على المسلمين من ساكنيه، وأمر بهدم ما كان شيد من البنيان فيه ودك أسواره وتعفية آثاره، فجمعت الأيدى عليه وصيّر دكا، وباشر ذلك ابنه وولى عهده الحكم والحاجب موسى بن حدير، وكانا الموجهين لاقتحام خبر ذلك الحصن ومباشرة خبره، فتوليا إخلاءه من أهله والوقوف على تخريبه حتى هدمه خلا قصبته الشاهقة

وحدها، فإنها تركت بحالها وأدخل فيها من الحشم من يضبطها، ثم أمّ عبد الرحمن الثالث حصن شنت بطرو وما قرب منه من حصون الكفرة فنازلهم وقطع أشجارهم واجتث كرومهم وحطم معايشهم.

ثم انتقل بجيوشه إلى مدينة مالقة قصبة كورة رية الملتزمة للطاعة، فاحتل ساحتها وكسر فيها ثلاثة أيام فى مثل ذلك فى الحصون المجاورة لها من حصون الفسقة، وولى مدينة مالقة عبد الملك ابن العاصى، وألزم معه فيها كتيبة من الحشم لمغاورة تلك الحصون المتربصة، وأمرهم بحمل السيف على كل داخل عليهم أو خارج عنهم، وأجريت السفن فى بحرها بين يديه، وافتتح حصن أبرش وما اتصل به من حصون حفص بن عمر بن حفصون وتحيف أطرافه.

ثم عطف على مدينة ببشتر ورأى أن البنيان بها من أنكى الأمور على الفساق فأمر ببناء صخرة هناك للأوائل تعرف بالمدينـة، ووكل بذلك أحمـد بن محمد بن إلياس فصرف إلى كورة تاكرنا وما اتصل بها من لماية قوة على لزوم مكانه، وألزم عبد الحميـد بن بسيل مكانا يشرف منه على جميع الطرق إلى مدينة اللعين ويحترس فيه بالمنتشرين من أهل العسكر فى العلاقات وطلب المرافق والمختلعين من العسكر إليه من كل المواضع وأقام فى محلته هذه لإحكام ذلك وتقريره سبعة أيام لم يدع فيها للأعداء مرتفقا ولا معاشا، وضايق حفص بن عمر ومن معه من أهل ببشتر بأخذه لسوائمها وانتساف زروعها وأهلها وعطف معايشهم.

ثم انتقل إلى محلة طلبيرة إلى جانب قلعة ببشتر، وقد كان عهد أيام نزوله الأول بالبنيان فيها أخذا بمخنقها، فجمعت الأيدى عليه حتى سما شخصه، ثم مكث عليه حتى كمل بنيان حصن أشب ألزمه سعيد بن المنذر القرشى، فأخذه به بكظم حفص بن عمر بن حفصون ومجامعه اللائذين بحصانة معاقلهم، واستيأسوا من المقام معه، فاستتم سعيد بناءه وأسكنه الرجال، وقواده بالميرة وعمره

بالأسواق، فصار السبب فى فتح مدينة ببشتر بعد مديدة، ثم أعاد ابنه الحكم إلى قرطبة وألزمه رجالا يبلغونه إليها فيهم مولاه درى بن عبد الرحمن صاحب الشرطة العليا، والعارض أحمد بن محمد ابن حدير، وسارا معه حتى أوصلاه قصر قرطبة وانصرفا من فورهما عن باب السدة راجعين إلى العسكر من غير أن يلم أحد منهما بمنزله أو يرى أحدا من أهله، فعجب الناس من موقع طاعة السلطان من نفوسهم.

وقفل السلطان إلى قرطبة بعد قليل بعد أن أخذ بكظم دار الضلالة ببشتر، وقد ترك مكايده مبثوثة حولها وأشراعه عالقة بها، وقد استكمل فى غزاته تلك أربعة أشهر.

فتـــح مدينـــة ببشـــتر:

لما اشتدت المحاصرة على حفص بن عمر بن حفصون بمدينة ببشتر وأحيط بالبنيان عليه من كل جانب ورأى من الجد والعزم فى أمره ما علم الإبقاء معه فى الشاهق الذى تعلق به مع حد أسباب المعيشة عنه كتب إلى عبد الرحمن يسأله تأمينه والصفح عنه على أن يخرج من الجبل مستسلما لأمره راضيا بحكمه، فوافق عبد الرحمن على ذلك وأخرج إليه الوزير أحمد بن محمد ابن حدير فتولى هو والوزير سعيد بن المنذر القرشى العاكف على حصاره شأن تأميمه ومعاناة استنزاله، فاستنزلاه وآله وجميع النصارى الذين كانوا معه وأخلوا مدينتهم، فدخلها الوزيران أحمد وسعيد فى رجال السلطان وحشمه يوم الخميس لسبع بقين من ذى القعدة من هذه السنة ٣١٤هـ/ ديسمبر ٩٢٧م وملكاها للسلطان ورفعا أعلامه بسورها، وصار حفص بن عمر وآله وأصحابه فى قبضتهما فوقيا بأمانهم، وقدم بهم الوزير أحمد بن محمد بن حدير إلى قرطبة يوم الجمعة ١ ذى الحجة من تلك السنة، ووفى له عبد الرحمن بأمانه وأوسعه ومن معه صفحا ووسع

نزله وصيره فى أعلا منازل حشمه وجنده وأقام الوزير القائد بعده مديدة بمدينة ببشتر، فأزال الله بزوالها ملك الضلال آل حفصون وجُبّ بقهرهم غارب الفتنة.

وأنفذ عبد الرحمن أيضا صاحب الشرطة القائد درى بن عبد الرحمن مولاه إلى ابن الزيات المنتزى بالجزيرة (الخضراء) وكان بعيد الشأو فى الضلالة حليفا لآل حفصون الفسقة، فلما أن وافى عليه درى بعسكره خرج هاربا قدامه لائذا من خوفه، فدوخ درى ناحيته وظفر فى وجهه هذا بهابل، قائد كان لابن حفصون، وبأصحاب له سبعة من النصارى كانوا أتوا ابن الزيات ممدين له فعلقوا بوقوعهم فى يد القائد درى فأسرهم وأوثقهم بالحديد، وقدم بهم قرطبة فصلبوا بالمرج بالشط أسفل باب القصر لسبع خلون من شهر رمضان وأقيموا على جذوعهم مصلبين.

وفيها ولى فطيس بن أصبغ الوزارة فى صدر شوال منها.

ضبط ببشتر:

وفى العام التالى (٣١٦هـ/٩٢٨، ٩٢٩م) خرج الناصر إلى ببشتر عن طريق استجه فنزل ببشتر يوم الأحد لعشر بقين من المحرم منها ورأى من حصانتها ومنعة واتساع قرار، واجتماع منافع ما أيقن معه ألا نظير لها بأرض الأندلس، فأكثر حمد الله تعالى على ما أتيح له منها، والتزم الصوم أيام إقامته فيها وأنعم تصفح آثار الطواغيث الذين اقتعدوها، ماحيا آثارها طامسا أعلامها، ومشى إلى مسجدها القديم وأمر أن توصل فيه الصلوات المفروضة التى كانت ممنوعه فيه.

وقد وجدت جثة عمر بن حفصون الذى مات نصرانيا مدفونًا دفنة نصرانية، عاينه على تلك الحالة الخلق من أهل العسكر وغيرهم، وشهد ذلك منه عامة الفقهاء الغازين مع عبد الرحمن، وأيقن جميعهم بهلاك المشرك على دين النصرانية، فهتك الله بذلك ستره وفضح شركه.

القضـــاء على ببشـــتر :

ثم عنى الناصر بعد ذلك بتخريب ببشتر، وقد أورد ابن حيان فى المقتبس (٥/ ٢٣٠، ٢٣١) نصا لكتاب لعبد الرحمن فى ذلك، وهو نص طويل جدا يهمنا منه قوله :

« وأمرنا بعد ذلك بتخريب مدينة ببشتر وحط أسوارها وإنزال جدرانها، وهدم كل قائم فيها من قصورها ودورها ومخازنها ومبانيها وإعادتها جبلا أجرد على ما كانت عليه لأول خلقها وقديم أمرها، محوا لمحلة الكفرة الظالمين وخسفا لقرارة المشركين المعتدين، وطمسا على دار الشرك، فأصبحت كالصريم، ثم استقدمنا حفصا اللائذ بالتوبة على ما تفضلنا من التأمين والتمكين، وعدنا عليه والتضمين، وأخذنا فيه بالفضل المبين الذى جعلنا الله أهله، وغلب على مذهبنا إيثاره، وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به وسكن إليه، وتاريخ هذا البيان يوم الخميس ٥ ذى الحجة ٣١٥هـ/٧ ديسمبر ٩٢٨م ... ووكلنا الوزير محمد بن عبد الله بن حدير مولانا لمشاهدة خروجهم واستيعاب نزولهم حتى خرجوا عن آخرهم إلى بسيطهم الذى كانوا وأسلافهم فيه نازلين على قديم الدهر، وخلت تلك الأجبل المانعة منهم، وأقفرت من جميعهم وأمست خرابا على أيديهم ».

استمرار الفتوح :

وفى هذه السنة (٣١٦هـ/ يناير ٩٢٩م) استمرت الفتوح بشرقى الأندلس واستُنزل من كان فيها من المخالفين واستوسقت بها الطاعة، فكان مما افتتح منها قليوشة على يد الوزير القائد أحمد بن إسحاق القرشى ومدينة لقنت، وجميع الحصون المنضوية إليها والقصاب التى كانت حواليها من قواعد بنى الشيخ، واستنزل فيها بنو الشيخ المنتزون بكورة تدمير (مرسية) ثم افتتحت مدينة الجزيرة المنسوبة إلى شقر وضربت رقابهم مع نفر غيرهم بقرطبة، واستُبقى بنو الشيخ فى نصف شعبان

وافتتحت فيها أيضا مدينة شنتجيلة وحصن شنت بيطر وذواتها من كورة تدمير وانتشرت الطاعة بشرقى الأندلس.

فتـح مدينــة مــاردة وما يليـــها :

قد يتعجب القارئ من استعمالنا هنا لكلمة « فتح » والواقع أنها فى مكانها، لأن ماردة كانت من كبار بلاد غرب الأندلس، وكانت مدينة مسلمة، ولكن البلاد فى ذلك العصر كان قد سادها الاضطراب وسوء الداخل، فأرسل لها عبد الرحمن الثالث قائده الوزير أحمد بن محمد بن إلياس، فدخلها دون حرب واستنزل عنها مسعود بن تاجيت وأهل بيته فأسكنوا قرطبة، ودخل عبد الملك بن العاصى عامل عبد الرحمن مدينة ماردة فملكها، واستوسقت بها الطاعة، ولكن نفرا من أهلها كرهوا ذلك، إذ كانوا أهل معصية، فتجرد القائد أحمد بن محمد بن إلياس لحربهم ونكايتهم والتضييق عليهم، ثم جمع حشده وجيشه وقصد حصن الحنش من أهل ماردة، فانتصر عليهم أحمد بن محمد بن إلياس فانتصر عليه وطلب صاحب البلد مسعود بن تاجيت وأمر عبد الملك بن العاصى بالخروج إليهم واليا عليهم، فدخل عبد الملك ماردة بقوة وعدة وضبط قصبتها المنيعة وأرغم أهلها على الطاعة فقويت قواعدها لديهم.

اتخاذ عبـد الرحمـــن الثالـث لقـــب أميـــر المؤمنـــين :

فى يوم الجمعة ١ ذى الحجة ٣١٦هـ/ يناير ٩٢٩م اتخذ عبد الرحمن الثالث لقب الخلافة وتلقب بأمير المؤمنين الناصر، وهو يستحق ذلك فعلا، فقد عاصره الفاطميون فى مصر والمغرب كله، وكانوا من أول الأمر يتخذون لقب الخلافة.

وهكذا أصبحت من ذلك الحين إمارة الأندلس خلافة.

وفى نفس السنة عزل عيسى بن أحمد بن أبى عبدة عن الوزارة فقل عدد الوزراء وأصبح عددهم ستة، يرأسهم الحاجب موسى بن محمد بن حدير، وأخوه أحمد بن محمد بن حدير، وسعيد بن المنذر القرشي، وعبد الحميد بن بسيل، وعبد الملك بن جهور، وفطيس بن أصبغ، وولى أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف المدينة، وعزل عنها عيسى بن أحمد بن أبى عبدة.

وقبل ذلك عزل الناصر جميع خزان المال وكانوا خمسة وهم :

سعيد بن سعيد بن حدير، وأحمد بن موسى بن حدير، وأحمد بن عبد الوهاب، المنقول إلى المدينة، وخالد بن أمية بن شهيد، وعيسى بن فطيس.

وولى الناصر مكانهم أربعة خزان وهم :

محمد بن جهور، وأحمد بن عيسى بن أبى عبدة، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى، وأحمد بن محمد بن أبى قابوس.

اتخــاذ دار الســـكة :

اتخذت داخل قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حرير يوم الثلاثاء ١٧ رمضان، وقد أجاد ابن حدير القيام عليها والاحتراس من أهل الدلسة فأضحت دنانيره ودراهمه عيارا محضا.

وفى سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٢م أصبح على دار السكة يحيى بن يونس القبرى، ثم محمد بن فطيس سنة ٣٢١هـ، ثم سعيد بن جساس ٣٢٢هـ، ثم عبد الله أخوه، ثم أعاد إليها سعيدا فخان أمانته واستفشه وامتحن عياره فكشف غشه فسخط عليه وسجنه وقلد السكة خالد بن قاسم صاحب العيار الجيد المضروب به المثل إلى اليوم ثم قتل ابن قاسم بأيدى عبيده فى ذى القعدة سنة ٣٣٢هـ،

فولى الناصر لدين الله مكانه ابن عمه عبد الرحمن بن يحيى الأصم، ثم أحمد بن محمد بن حدير، ثم عبد الله بن محمد الخزوبى.

ثم نقل الناصر دار السكة إلى مدينة الزهراء الجديدة عند سكناه بها وعطل دار السكة بقرطبة، وقلدها عبد الرحمن بن يحيى فاتصل الغرب بها بقية حياته وحينا من الدهر بعده.

غزوة إلى كور الغرب:

كانت بلاد الغرب الأندلسى فى حاجة إلى هذه الغزوة، وقد خرج لها الناصر فى قوة عسكرية كبيرة، وقد برز لها يوم الخميس لعشر خلون من ربيع الأول ٣١٧/ أبريل ٩٢٩م، وأخذ معه ولى عهده الحكم وأخاه المنذر ابن الناصر، وتخلف فى القصر ابنه عبد العزيز شقيق الحكم، ومعه أحمد ابن محمد بن حدير، وعلى المدينة أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرءوف.

وقد كان قدم إلى الغرب قبل خروجه أمناءه إلى جماعة الثوار بكور الغرب المستمسكين بالخلاف، صدر هذه السنة قبل خروجه وحمل على المنتزين.

وقد بذل الناصر غاية جهده فى إخضاع الغرب خاصة وأن بطليوس كان يتولاها آل عبد الرحمن الجليقى، وكان من أعلام الغواية، حتى كان قريبا جدا من عمر بن حفصون فى الغواية والضلال، وكان يتولاها يومئذ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن مروان الجليقى، وهو من الجيل الرابع من آل عبد الرحمن بن مروان الجليقى.

وقد حاول عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن مروان الجليقى الثبات للناصر ولكنه لم يستطع، وانتهى أمره بالانهزام أو الاحتماء بحصنهم بطبيوس، وقد عضتهم الحرب وأدهشهم الخوف وقتل جماعة من فرسانهم.

ثم جد الناصر فى حربهم وقطع أشجارهم وتحريق ما أخلوه من ديارهم وإفساد معايشهم، وولى الناصر عليهم قائده أحمد بن إسحاق القرشى، فاحتل قواد الناصر بطليوس ثم ماردة، وولى على الغرب محمد بن إسحاق القرشى أخا أحمد بن إسحاق القرشى، واستسلم أهل العصيان ثم انتقل إلى باجة، وفيها يومئذ عبد الرحمن بن سعيد بن مالك فولى عليهم الناصر عبد الله بن عمرو بن مسلمة فى أول رجب من تلك السنة، وقد أقام الناصر على باجة ١٥ يوما.

ثم انتقل إلى مدينة أكشونية قرب الساحل الغربى من البحر المحيط، وكان فيها المنتزى خلف ابن بدر، وكان له حصن يسمى حصن الرقاع فافتتحه الناصر وأصاب فيه مالا وسلاحا وعدة، وقد رغب خلف بن بكر فى الطاعة وأرسل رسلا محكما فى نفسه فقبل الناصر طاعته وتركه على بلده، وبعد إدخال أكشونية فى الطاعة عاد الناصر إلى قرطبة وقد قضى فى غزوته تلك ٩٣ يوما.

وفى هذه الغزوة افتتحت مدينة شاطبة وذواتها من كورة بلنسية واستنزل منها عامر بن أبى جوشن المنتزى فيها، وولى الناصر عليها ذرى بن عبد الرحمن، صاحب الشرطة العليا ثم افتتح الناصر ببشتر واحتل فيها ودخلت فى الطاعة.

شـــدة كبيـــرة . أسـبـاب المـحل :

وهؤلاء المنتزون شغلوا الناصر عن العناية بعمارة البلاد، فكثرت المجاعات، فى هذه السنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) وهكذا تم إخضاع الغرب كله، وهكذا يكون الناصر قد غير من حكام البلاد واطمأن إلى طاعتها، وقد أورد ابن حيان قائمة بأهمهم (المقتبس ٢٥٣/٥) وأهمها :

طرطوشة القاصية وثغرها : عثمان بن عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة.

إلبيرة : موسى بن سعيد بن حدير، بعد أن خزلت عنه باجة وأحوازها ومواضع بنى مهلب وبنى حمصى لأحمد بن قاسم الكلبى.

كورة إشبيلية : أحمد بن محمد الزجالى.

كورة شذونة : عبد الله بن فهر.

كورة استجه : أمية بن محمد بن شهيد.

كورة تاكرنا : عبد الله بن محمد بن بخت.

كورة قبره : طرفة بن عبد الرحمن، بعد أن خزل عنها حصن بلاى وأحوازه لسعيد بن القاسم، الخال، وحاضره بيانه، وما يليها لأحمد بن شراحيل.

كورة الجزيرة الخضراء : عبد الله بن إسحاق.

كورة نبله : شهيد بن مفضل.

كورة أشونة : دلهات بن محمد.

كورة مورور : عبد الوهاب بن محمد، ومحمد بن بدر معاً.

كورة رية : عبد الله بن محمد بن أمية، بعدما فرق أعمالها على عدة من العمال.

كورة جيان : محمد بن أحمد بن أبى عثمان .

كورة بسطة : عبد الله بن أحمد بن أبى عبدة.

كورة تدمير : أحمد بن محمد بن إلياس.

كورة بلنسية فشاطبة، معا : عبد الله بن أحمد محمد بن عقيل.

كورة شنت برية : يحيى بن أبى الفتح بن ذى النون.

كورة طلمنكة : غرسية بن أحمد.

كورة قلعة رباح : شبيب بن أحمد.

كورة طلبيرة : عبد الملك بن مروان بن الشماس القرشى

كورة مجريط : عبد الله بن محمد بن عبد الله .

كورة أنتيشة : إسماعيل بن لب.

كورة مدينة الفرج : أرزاق بن ميسرة.

كورة مدينة بريشتر وبريطانية والقص وأحوازها من الثغر : عمروس بن محمد.

قصر ابن أدانس بالساحل الغربى وما يليه من الجبل : يحيى بن أدانس وعبد الله بن عمر بن أدانس ابن أخيه معا ببلدهما المنسوب إليهم.

مدينة ماردة : محمد بن إسحاق .

مدينة ترجيلة : أحمد بن سكن.

كورة أكشونية : خلف بن بكر، المقدم عليها عند دخولها فى الطاعة.

مدينة شنترين : خطيب بن أيوب العريف، إلى أصاغر من الأعمال يطول اختصاصها.

الناصر لدين الله ودولة العلويين فى المغرب:

وكان الناصر لدين الله ينظر إلى العلويين المستبدين بالمغرب كله على أنهم كفار، لأن مذهب الشيعة الذى كانوا يعتنقونه كان خروجا على لة السنة والجماعة التى كان يعتبر نفسه ممثلها وناصرها، وكان الشيعة قد أنشأوا لأنفسهم دولة كبيرة فى المغرب، وكانوا يؤمنون بالمذهب الشيعى الذى دعا إليه أهل هذا المذهب فى اليمن، وكانوا أقوياء فعلا، فقد انضم إليهم نفر من دعاة الفتنة

فى المغرب، فلما كان عهد الناصر نظر الناس في مذهبهم الشيعى وخرجوا عنه واعتقدوا فى الناصر واعتبروا الطاعة له دخولا فى السنة.

وابن حيان فى الجزء الخامس من المقتبس (ص ٥٢٤- ٢٦٩) يعطى تفاصيل هامة جدا عن المغرب وما كان فيه، واعتبار الناصر لدين الله وبنى أمية فى الشرق والغرب ممثلين لمذهب السنة، ويذكر كيف امتدت همة الخليفة الناصر لدين الله إلى محاربة المذهب الشيعى، وقد أكد لذلك بالاهتمام بدولته الأموية.

وقد كان إيمان الناصر بها عظيما، وامتدت همته إلى استدعاء أكابر أمراء البربر بالعدوة إلى ولايته وفصله لهم عن ولاية الدعى عبيد الله الشيعى المنتزى على بلد إفريقية، المضلل للناس بما شرعه من بدعته الغالبة وإطفاء من نور السنة، وما تهيأ لهم من استجابة كثير منهم لدعوته، وتصييره لهم حزبا لعبيد الله عدوه، وتزرعه بذلك إلى عبور بحر الجزيرة المعروف بالزقاق القريب المرام، الحاجز بين بلد الأندلس وبلدهم العريضة، واستيلائه قريبا على مدينة سبتة، فرضة المجاز إلى بلده من قبلهم، ومصيرها فى مملكته وانبساطه بذلك فى أراضهم، واحانة من مكروههم الذى لم يتهيأ لأحد من سلفه أملاك الأندلس ومن قبلهم منذ افتتحت، وكيف توجهت أسباب ذلك واضطرد تدبيره إلى أن استوى وسنى الله بقدرته تمامه.

ولم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله منذ استولى على أمر الملك وتسلط على أهل الخلاف، وقدر الله به رجع الائتلاف دؤوبا على ما سخر له من ذلك طموحا إلى درك أقصاه متخطيا موسطته إلى نهايته معملا فيه رويته، فتأمل مكان هذا القزج البحرى، بساحل البحر الرومى المفيض لأنكر فرق الإسلام ومجاورة جيل البرابر الحاليين بلاد المغرب لملكتهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس، تكاد عدوتاهما تتراءى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان

ريم ركوبه فمنه طرقت الأندلس فى أول الزمان واكتسب أهلها المخافة، فدعته همته العلية وفكرته المصيبة إلى التوغل إلى تلك الناحية المرهوبة والسمو لتلك العورة المكشوفة، وملك مفتاح الجزيرة الخضراء فرضة الأندلس الدنيا الراكبة فتح ذلك البحر المرهوب المحاذية لعزتها مدينة سبتة، فرضة المجاز من بلد العدوة.

وكان الناصر يرى بذلك أنه يواصل سياسة بنى أمية فى الشرق والغرب، وكان يستعمل قوته على مدافعة بنى عبيد الله إمام الشيعة المقتحم عليه أرضه ودولته، فاستوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدولته وغاظوا عبيد الله الشيعى، ولكنه لم يستطع لهم شيئا، واكتسب الناصر لناحيته كثيرا من فرسان البرابر، وتمكن بذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادى البربر فمتنت بذلك أسباب ملكه، وجل مقداره وبعد صيته وهابته ملوك الأمم حوله.

وظهرت نتيجة ما عاناه من مواصلة أمراء البربر، وسعى له سعيه لصدر دولته الفاضلة من سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م وما يليها وترددت له كتب محمد بن خزر، عظيم أمراء زناتة فى وقته وأنفرهم عن عبيد الله الشيعى وأدناهم من داره، وأول من تناوله الناصر لدين الله من جماعتهم بمكاتبته واجتذبه بوصلته، إذ كان جده الأعلى صقلاب بن وزمار - أو وزومار - الزناتى، أسلم على يدى عثمان بن عفان بزعمهم، فتولاه الخلفاء من بنى أمية من بعده، وترك ولايته وصية من بعده فى عقبه، وقد قام محمد بن خزر وقته هذا بحفظها فهوى على الناصر لدين الله بقلبه ودولته، واستبطر فى حرب الشيعة حسبة لله.

ومفرادة كانت من الطبقة الأولى من زناتة، وكانت محلاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبال مدبولة وما إليها، ولهم مع إخوانهم بنى يفرن اجتماع واختراق فى أحوال البدو، وكان لمغراوة هؤلاء فى بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام فأقره لهم وحسن إسلامهم،

وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان فتلقاه برا وقبولا لهجرته، وعقد له على قومه ووطنه وانصرف إلى بلاده محبورا مغتبطا بالدين، مظاهرا لقبائل مضر.

وقيل : إنه وقع أسيرا بيد الفاتحين العرب، فى بعض حروب العرب مع البربر، قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فمن عليه وأسلم فحسن إسلامه، وعقد له على عمله فاختص صولات هذا من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته بن بنى أمية، وكانوا خاصة لهم دون قريش، وظاهروا دعوة المروانية بالأندلس رعيا لهذا الولاء.

وكان الناصر لدين الله لا يزال ينفذ إليه، والسفير بينه وبينه محمد بن عبد الله بن أبى عيسى، وهو الذى حمل من عند محمد بن خزر إلى الناصر لدين الله أنه أخرج أخاه عبد الله بن خزر إلى موضع يقال له : المدينة.

وكان الشيعى - ويسميه اليهودى فى كتبه - قد بنى فيه مدينة، وترك فيها رابطة من أصحابه قدّم عليهم قائدا من ثقاته، رجلا أصله من الأندلس، من قلعة يحصب، افتتن به فغوى بعد رشده اسمه على اشتهر بالأندلس، فلما قدم عليه عبد الله حاد عن لقائه وطلع إلى القلعة، وانقاد من حوله من القبائل بالطاعة، فأخذ رهائنهم وأقام فى جيشه بسوق ابن ماها مغادرا لأهل مدينة شيهرت قاطعا للميرة عنهم حاجزا بين إفريقية وبينهم.

وكان الخير بن محمد بن خزر يكاتب الناصر معرفا له بما يجرى من الأخبار على يده فى الجهة التى يقوم بها، ويتوخى إلطافه ومسرته حسبما يفعل بأبيه محمد وبنى بخشبة وصخره حصنا منيفا بالموضع المعروف بهندوج، شحنه بالرجال والعدة وقدم عليهم الفاسق محمد بن مهدى (ربما كانت سندى) وكان من أضل من صحبه من البربر وأشدهم شكيمة، وهو يذكر فى بعض كتبه

أنه زحف على البربر الفاسقين وخرج للقائهم عندما اقتربوا منه والتقى بهم على أميال من حصنهم فشد عليهم أولياؤه كشدة رجل فولوا منهزمين نحو حصنهم، والسيف يأخذ مأخذه فيهم، فاقتحمنا الحصن بعدهم وقتلنا من لاذ به منهم، وسبينا ذراريهم وأحرقنا الحصن، فطهر الله الأرض من دنس الفاسقين، وأخلى الناحية منهم، فليس لهم اليوم فى الساحل مكان ولا منبسط ما خلا مدينة تاهرت دار المشركين ومأوى الملحدين، وانتصرنا عليهم، وقتل الله بأيدينا فى هذه الوقيعه محمد بن مهدى وولده فى مائة رجل من رجال الشيعة، ثم عدا أهل تنس على عامل الشيعى الذى كان ولده عبد الرحمن استخلفه عليهم.

وممن كسب الناصر من زعماء رفاقه بالمغرب منصور بن سنان، وكان ابتداؤه فى ذلك فى سنة ٣١٦هـ، وكتب يمت بالولاية ويخطب القبول، وازدلف بهدية حسنة من خيل وإبل وغزلان، حسن موقعها من الناصر وسجل له على أعماله فصار أسوة أوليائه، فأضعف له المكافأة وأسجل له على عمله، وألحقه بأهل ولايته، فاستقام على الطاعة والطريقة بقية عمره.

ومنهم موسى بن أبى العاقبة وقد فتح باب الولاية بمكاتبة الناصر لدين الله ومهاداته فى سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، فأسجل له على أعماله فصار أسوة أوليائه بأرض العدو، واتصلت المكاتبة منه إلى الناصر.

ومنهم صالح بن سعيد، وكان ممن انحاش إلى الطاعة ولحق بأهل الولاية وناغاهم فى الألطاف والهدية على تأخرهم عنه فى سعة العمل وإسعاد القدرة.

الأشــــراف الحســـــينيون فى المغـــــرب :

وكان يعاصر الناصر لدين الله فى المغرب عصابة الأشراف العلويين الصرحاء من ولد إدريس بن

عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب، وقد خصص ابن حيان فى المقتبس (٢٦١/٥- ٢٦٥) فقره قال منها:

وكان إدريس هذا قد نجا من وقعة فج الجارية بينهم وبين ولد العباس بن عبد المطلب أيام موسى الهادى بمكة، المسيطرين على الشمال الإفريقى كله، المتهيئة له عندهم الإجارة والإمارة، وقد توارثها ولده دهرا، وشاركهم فى طرف منها بنو عمهم ولد سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على، الناجى من تلك الوقعة منجاة أخيه إدريس، فأوطنوا بلاد المغرب ودعوا سكانها البرابرة إلى رأيهم واستألفوهم فتهيأت لهما ولأعقابهما الإمارة عليهم، وتداولوا قطعا بين مدينة فاس عليا هذه العدوة فسفلاها مدينة سبتة، فرضة المجاز إلى الأندلس الراكية شفاها ما كان معظم ذلك للأدارسة، ولد إدريس، السابق ذكره.

وكان جدهم إدريس الأول وهو الذى شرع فى تبوئ هذه الناحية والتمهيد لإمارته على أهلها لولده من بعده، إلى أن اختلفوا وتقاطعوا وتفرقوا أوزاعا.

ثم تغشت بلدهم المسماة الآن طنجة دولة الضلالة، دولة عبيد الله الشيعى الناجم بإفريقية الشهير الدغوة، الغالى الدعوة، مسامى جماعتهم بالحسينية المستخلصة لديهم، لحق الأمانة دون أخوتهم الحسنية، فجاء بأمر جلل قلقل به البلاد وضلل العباد وأشاع الفساد، فهوى إلى دعوته الضالة أكثر هؤلاء الأمراء الأدارسة نصرا للعصبية، وإغماضا على الدنية، وإيعادا فى الأذية، وانحرافا عن هوادة بنى أمية للأحقاد القديمة، على علم منهم بما يحققونه من الجراية، استهدف بعضهم بذلك إلى الناصر لدين الله، فاكتسب منه ومن ولده بعده أحقادا طويلة حنت عليهم بعد حين فأحلت بهم الفاقرة.

وناقضهم فيه يومئذ ابن عمهم، إدريس بن إبراهيم السليمانى الحسنى، أمير ارشقول، من أرض

العدوة، بالانحراف انعطافا وبالقطيعة وصالا، فصار من أربحهم صفقة وأجملهم عاقبة، فإنه انحرف عن عبيد الله الشيعى وعاداه، ووالى الناصر لدين الله وتوخى رضاه، وابتدأ مكاتبته فى سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م.

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين سيدى مباعدتى للكلب السوء اليهودى الخنزير المبدل لدين الله، المعلن الكفر، الجاحد للتنزيل، وقيامى مع ابن خزر ولى أمير المؤمنين عليه وخروجهم عن جميع الحسينيين قومى فى منابذته واجتنابه ونكايتى لشيعته وقتلى لرجاله ومقتى لذوى محبته، وأرجو عند قيامى بدعوة الإمام سيدى ونهوضى برأيه أن تكون كلمتى العليا ويدى الطولى بنعمة الله ومنته.

وورد على الحاجب موسى بن محمد بن حدير كتاب آخر سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م لإدريس بن إبراهيم هذا السليمانى يصف له فيه منابذة بنى عمه الحسينيين له، وما ارتكبوه منه قال فيه:

كنا - أعزك الله - نفرا من قريش فى هذا الصقع من بلد البربر، الذى رمت بنا الأقدار إليه، أبناء رجل واحد، هو محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب، صالحا ذات بيننا، لا مدخل لأحد فيه إلا من طريق الإصلاح إلى أن فرق الله ملأنا بقيام هذا الداعى الغوى، صاحب إفريقية، وافتتان أكثرنا بالتعصب له، فلما أن نجانى الله من دلالته، وعصمنى بولاية أمير المؤمنين سيدى، وحبانى بمحبته، تسامع بذلك بنو عمى، وبلغهم ما صنعته فى ذاته، أيده الله، فتبرأوا منى وتمالأوا علىّ، ورمونى عن قوس واحدة، وقالوا: ليس هذا الرجل منا، إذ فارق دعوتنا إلى ضدها، وخرج من عترة على بن أبى طالب إلى عدائها، وعادى أهل بيته واستجاش عليها بصاحب جزيرة الأندلس شانئنا، وهذا شيء لم يرض به قط أحد من أهل بيته، ولا فعله جده ولا أبوه، وصاروا لى حربا، وآذونى جدا، كما أنى بعدت زمانا عنهم قبل استحكام البصيرة فيك، فكفوا عنى ورضوا بذلك منى، حتى رأيت أمرهم قد علم الناس شره، وقد حاولوا أن يطفئوا نور الإسلام

بما كادوا به أهله، فاستخرت الله في جهادهم، وقمت أدعو ربى فى جوف الليل فى التوفيق والتسديد وأن يخير لى وللمسلمين فى مناهضتهم ويكشف عنا ما أغمنا من غيهم وشرهم، وفكرت فى إمام أعتلق حبله من بنى العباس.

واستدعانى أخي المقيم عندهم بمصر، وأتتنى كتب تكين التركى، صاحبهم بمصر، فى أول الأمر يروم ثنيى إليهم واستجلابى نحوهم، فعصمنى الله من ذلك باتباع الحق، وأخذى برأى الناصح المرشد وإصغائى إلى ما أوضح من الأمر، حتى علمت يا أمير المؤمنين أنك أحق الناس بالخلافة، إنها بيدك ميراث لا ينازعك فيها إلا من دفع الحق وعصى الله ورسوله.

ثم يذكر بعد ذلك كيف اتجه إلى الإيمان بأمير المؤمنين الناصر، وأن يعزنا الله - معشر رفاقه - بهذه الدعوة الحق المنصورة حتى ترفعنا على جميع الناس بها، فنكون أولياء دعوتك وأنصار دولتك، فإنك يا أمير مولى كل بربرى على الأرض، إذ بينى أمية هداهم الله للإسلام، وعساكرهم هى التى أدخلتهم فيه وأخرجتهم من المجوسية، فمن كفر منهم هذه النعمة فهو كافر بالله وبرسوله موليها، ثم لا يقبل الله له صرفا ولا عدلا، ووالله ما حابيناك يا أمير المؤمنين بالإقرار لك إذ وجدنا الحق فى يدك والإجماع من الناس على أنك أولى بالخلافة من كل من ينتحل اسمها معك.

كذلك يشهد لى كل من تقدم إلينا من المشرق من نواحى إفريقية، فكلهم يشكر فعلى، ويقر لى بأن الحق معى، وبه أحمد رأى من نصحنى، وبالحق عرفنى وعليه حضنى حتى تكين صاحب مصر.. فالحمد لله على هذه النعمة الذى جعلنى من أهلها ووفقنى لقبولها.

وأهدى محمد بن خزر إلى الناصر لدين الله هدية عظيمة فيها عشرة نجب مخصية عجيبة الخلق متخيرة فى جنسها بسروجها وأرسانها وأزمتها وأجلالها وأرجواناتها وقراميسها معلقا عليها عشر درقات من نفائس درك اللمط و٢٠ ناقة حوامل عشارا معها فحل لها جليل الخلقة رفيه البنية،

و١٨ فرسا من جياد الخيل العربية، منها فرس أصفر، أسود العرف والذيل مهضوم، وفرس كميت أزرق العينين بذيله سواد، وفرس أشقر خماسى أغر مخضب بأذنيه وطرف ذنبه وردة، وأربعة من عتاق الخيل، قيود للعيون بزت مقودات الناصر لدين الله ببراعة الحسن وغرابة الخلقة، فلم يكن لها مثيل فى جميع خيل ركابه أشباه لها، آثرها على جميع الهدية، وقرن بذلك من غريب الحيوان ببلد الأندلس أسدان ضاريان مع سباع يسوسهما وأربع نعائم.

فتح مدينـــة بطليـــوس:

كانت بطليوس من أولى ما فتح المسلمون فى الأندلس، وهى من فتوح عبد العزيز بن موسى ابن نصر، ولكنها كغيرها من تلك البلاد التى كانت داخلة فى دورة الإسلام فى الأندلس مفتوحة شكلا، أما موضوعا فكانت من البلاد التى يحكمها منافقون، يتظاهرون بالطاعة وقلوبهم كلها غش ونفاق، وهذا كلام لا يعجب الناصر لدين الله فهو رجل جاد متقن، والطاعة عنده ينبغى أن تكون ظاهرة وباطنة، أما نصف الطاعة فلا يرضيه، ولهذا نجده يتجه إلى بطليوس ويقرر أن يفتحها تماما.

وهذا البلد- بطليوس- كان بلد واحد من أكابر المنافقين وهو مروان الجليقى، وكان شبيها بعمر بن حفصون، ولهذا نجده هنا يرسل قواته إليها ليضعفها بالمطاولة والموالاة بالتضييق والمحاصرة حتى نالتهم معرة الجيوش ولزهم الحصار وطاولتهم الحروب ففلت حدهم وقللت عددهم واستبيحت نعمهم وقطعت أشجارهم، ورأوا حزما لا فترة فيه، وجدا لا بقاء لهم عليه، وتوجهت للأولياء آخر ذلك عليهم وبقة شديدة بددتهم قتلا وذللتهم أسرا، وأرسل منهم إلى باب السدة بقرطبة نيف على سبعين أسيرا من فرسانهم، ضربت رقابهم بالمرج بين يدى الباب، فاستكان إثر هذه الحطمة أميرهم الفظ عبد الرحمن بن عبد الله بن مروان الجليقى، إذ عن بطاعة السلطان ذلة وصغارا، وأرسل يطلب

الأمان، فأجابه السلطان إليه، وأوسعه عفوه وأعطاه أمانه هو وأهله وذوى الشوكة من رجاله، فأسكنه حضرته قرطبة، وأوسعهم من إحسانه ما أوسع أمثالهم قبلهم، وألحقهم بالملاحق الحسنة.

وملك مدينة بطليوس وعملها، فسيرها بسبيل الكور الموطوءة، وقدم على عمالتها يوم ملكها عثمان بن عبد الله، ثم تداولتها العمال وانضمت إلى الجماعة.

الناصر لدين الله وطليطلة:

قال عيسى بن أحمد الرازى: كان الذى بنى مدينة طليطلة وسبق إلى اختيارها واهتدى لبديع خلقتها وقوة حصانتها ومنعتها درنيقيوس، الملك الجاهلى، وذلك قبل أن يستكمل العالم من تاريخ آدم البشرى خمسة آلاف سنة بيسير شرفها واتصلت عمارتها وشهر اسمها.

فلما ملك قواد رومة أرض الأندلس أصابوا دار مملكة الأفارقة فيها مدينة طالقة من بلد إشبيلية، فلم يستحبوا نزولها لبعدها عن بلادهم التى منها قوتهم، ونقلوا الملك عنها إلى مدينة طليطلة فجعلوها أم مدائن الأندلس وقاعدتها ودار مملكتها، دانت لهم مدائن الأندلس وأذعنت لأميرهم واجتبوا كور الأندلس مدة من قبلها.

ثم إنها على قواد رومة قبل دولة القياصرة بمدة، وقام عليهم قائم من لجدانية **Lusitania** ماردة المسمى برباط، ملكها على القائد الذى كان بالأندلس من قبل رومة، ودفعه ورجال رومة عنها فكانت أول ثروة كانت لأهل طليطلة منذ بدأت ثورة برباط هذا، وصارت بعد لأهلها ديدنا وعادة، فلم يزل قواد رومة يتكررون بصوائفهم عليها عام بعد عام، وبرباط مستظهر عليهم عال فى الحرب على عساكرهم، إلى أن غدر به بعض قواده فقتله بداخل المدينة بعد سبعة أعوام من ثورته فيها.

وقد أحسن حمايتها، وأشجى أهل رومة المنازعين له ملكها، وقتل العدد الجم من رجالهم،

وعلا ذكره في الآفاق، وقام رجل من أهله بعد قتله مكانه فضبط طليطلة وسلك سبيل برباط في مدافعة قواد رومة ومحاربتهم، وكانوا قد قصدوها إثر مقتل برباط في جموعهم لحصارهم، فأعجزهم منالها وقاومهم بأس أهلها، وأخذ قائد رومة يرغبهم في العطاء ويعدهم الإعلاء والإحسان، فقاموا في تشتيت أهلها، وأمكنت بعضهم الفرصة في الثائر الذى ملكها فقتله وأنفذ رأسه إلى قائد أهل رومة، ودعاه هو ومن مالأه إلى دخولها، فتعجل إليها ودخلها ليلا فصار فيها ملكا لها، وأدخل فيها رابطة رومة فاستقروا بها على عادتهم، واستقام لهم ملك الأندلس باحتوائهم على طليطلة الغراء.

وقد كانت مضطربة الحال جدا طول أيام خلافها عليهم، فاستقام أودها وأعتدل ميلها، واستوسق ملكهم بعد ارتجاعهم لطليطلة مائة سنة في تواريخهم محصلة، ثم إن طليطلة خالفت بعد على أهل رومة ودفعت طاعتهم، وأخرجت قائدهم، فصارت سببا لشتات أهل الأندلس عليهم وفرقتهم، واتخذ بعضهم الحصون على بعض وانهمكوا في الحروب والغارات حتى قلت أعدادهم ودرست عمارتهم، وضاقت معايشهم لقلة الزراعة عندهم، وعدموا الأقوات، وأشرفوا على الهلاك، وصارت إمارتهم إلى رجل منهم يسمى انتيش (أو أنيش) فأحسن فيهم واعتنى بعمارة مدينتهم، فابتنى سورها العظيم الشأن وعقد قنطرتها المنقطعة النظير.

وغزاها يوليوش، ملك رومة الأكبر، أول القياصرة، الذى قطع أسماء القواد وتسمى قيصر فتوالت بعده القياصرة، وخرج بعد اجتماع أهل رومة عليه من أرض رومة في جموعه الكبار إلى الأندلس، فألفاها على شفا هلكة، وقد شمل أهلها البلاء، وقتلتهم الفتن وانحجزوا في الحصون، فقصد دار الملك طليطلة وأحاط بها محاصرا أميرها انتيش فيها وقد امتنع بحصانتها، فأطال الثواء عليها فأعيا عليه شأنها، ونبا به مكانها، وفنى ما كان استعد به ولم يجد ما يعتاضه، فرجع إلى بلده خائبا خاسرا دون أثر في غزوته، فاستقصر أهل رومة سعيه ونسبوه إلى العجز وقلة الجرأة، ولم يزل

طليطلة شجى على القياصرة بعد يوليوش وقبل مبعث المسيح عيسى ابن مريم، فقل ما دانت لهم بل تمادت غضبته عليهم إلى أن انقرضت من الأندلس دولتهم.

وما كان الناصر ليترك طليطلة وشأنها، فهى قلب مملكة الإسلام فى دولته، واستيلاؤه عليها يقوى دولته، وهو من دلائل الفتح على أعدائه.

وكان آل خزر من الخارجين على السلطان المعلنين لطاعة عمياء، فلم يسترح حتى ملكها، وكان يعتز بالقوة فيها نفر من أهل النفاق مثل محمد بن خزر، وكان من طراز عمر بن حفصون، ولكنه كان كبير زناتة، وموسى بن أبى العافية ومنصور بن سنان، وزاكلة بن سراج صاحب مدينة طنجة والمؤيد بن عبد السميع صاحب نكور ونعزة، وقد قصد الناصر إلى القبائل الموالية له من البربر، فكان منهم سمجون بن مقود زعيم أهل لمسة وانجرة، وكتب إليه أيضا محمد بن قادم الطنجي وقبيلة مصمودة، ومجلسة مع ياسين بن مدارا منهم، وكتب إلى كتابة الهبط مع حسن بن سليمان منهم وإلى لواتة مع عايش بالله بن خيار وإلى هوارة مع عروس بن براء منهم.

نفور أمراء الحسينيين من عبور سلطان الاندلس إلى عدوتهم:

ولما سمع إبراهيم بن محمد الحسنى، أدنى أمراء بنى حسن من سبتة، ومن معه من ولد أبيه محمد بن إدريس الحسنى بتصيير سبتة إلى الناصر لدين الله وحصول جنده بها واقتحامه عليهم بلدهم الذى أوطنوه على مر الأيام، ودان أهله لأوليهم ولهم من بعدهم، عظم عليهم وأيقنوا بغلبته لهم على ما فى أيديهم، فجمعوا رجالهم ومن يواليهم من قبائل البربر وعجلوا الزحف على مدينة سبتة طامعين فى انتهاز الفرصة ممن صار فيها من أصحاب الناصر لدين الله أشد ممانعة، وعاونهم أهل البلد على دفعهم أصح معاونة.

وقد كانوا طمعوا باختلاف كلمتهم، فلما علموا تصحيحهم للطاعة أيسوا مما لديهم وخشوا

تآلب أهل الولاية عليهم فانصرفوا عن سبتة خائبين وأخذوا فى التوهيم والمغالطة، فبادروا بالكتابة إلى الناصر لدين الله معتذرين بما كان منهم محدثين على البرابر دونهم، فداجاهم وأظهر تصديقهم وقبول معذرتهم، وحرص على استصلاح أمرهم وتسكين نفرتهم وصلة أرحامهم، فأخرج إليهم ثقته المتكرر عليهم، الموثق عند جماعتهم محمد بن عبد الله بن أبى عيسى، قاضى جيان، على عادته، فلقيهم ملطفا فسهلت مقادمهم وسكنت نفرتهم وعاقدهم على ولاية السلطان وأخذ له البيعة عليهم، فاطمأنت الحال بهم واشتدت أواصل ملك الناصر لدين الله بكريمتهم سبتة، فلم يجدوا فى ارتجاعها حيله وضربت دولته فيهم بقطب وتجاوزتها إلى ما حولها، وكتبوا إليه يعلنون طاعتهم ويقولون : إنهم كانوا يتمنون ذلك ويستبطئونه منه، منذ أيام عمر بن عبد العزيز.

وجرت عادتهم على جحد السلاطين ودفع الأئمة والغدر بالولاة والتوثب على العمال والملك لأنفسهم إلى أن دخل إليهم جدنا إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على، فلما دخل إليهم جدنا إدريس بن عبـد الله بن حسن بن الحسين هاربا من عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، الملقب بالمنصور، بعد أن قتل أخويه محمدا وإبراهيم ابنى عبد الله بن حسن بن حسن، وشرد بأهل بيتهم.. فلا شيء أسر إليهم من الطاعة له ولا أجمع منه، فإلى سيدنا وإمامنا نرفع رغباتنا إليه، وهو يقول: فمرنا بأمرك يا سيدنا نطعه فإنما نحن قوادك وعبيدك وأنصارك على من ناوأك، وأولى الناس بتأييدك.

فقبل الناصر طاعتهم وأدخلهم فى دولته، ونقل زعماءهم إلى قرطبة، وهم يؤكدون أنهم يقيمون الدعوة له على جميع منابرهم فى كل عملهم.

ثم جعل الناصر لدين الله كورتى البيرة وبجانة وذواتهما إلى نظر الأمير ولى العهد الحكم ابنه، وغير كل حكام الولايات وولى عليها رجالا مخلصين له.

وفى سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م خرج المنذر ابن الأمير محمد وجعل طريقة على ماردة، فلما انتهى ذلك إلى ابن مروان (الجليقى) زال عن بطليوس واحتل بها قائد المنذر الوليد بن غانم فخرب ديارها، وتقدم ابن مروان إلى بلاد العدو.

وفى السنة التالية (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م) حارب المنذر سرقسطة وأفسد ما ألقى من زروعها، ثم تقدم إلى تطيلة والمواضع التى صار فيها بنو موسى فانتسفها وأجال العسكر عليها.

وفيها دخل البراء بن مالك من باب قلبنرية Coimbra إلى جليقية بحشود الغرب، وتردد هنالك حتى أذهب نعيمهم.

وفيها انطلق هاشم بن عبد العزيز من الأسر وعاد إلى عمله.

وفى السنة التالية (٢٦٥هـ/ ٨٧٨م) ظهرت الفتنة وظهر الشر فى جانب كورة رية والجزيرة وتاكرنا، وظهر يحيى المعروف بالجزيرى فغزاه هاشم فأذعن له وقدم به إلى قرطبة.

ولم يكن الناصر ليعرف الراحة أبدا، فبعد ما فعله بجنوب غالة، انتقل إلى محلة أسارية، وكان فى ممره إليها فج يقال له : هرفلة ضيق المسلك وعر المجاز، فرام الكفرة أنتهاز فرصة فى المسلمين فيه فأمر الناصر بالتعبئة والاحتراس ونهض إلى أتم التحفظ والضبط حتى جاوزت العساكر ذلك المضيق وخرجت عنه.

وتظاهر أعداء الله لأهل الساقة متسنمين لأعلى جبل فنهضت الخيل إليهم وهزمتهم وقتلت طائفة منهم وانكشفوا مدبرين، لا يلوون ولا يعرجون، وتقدم المسلمون بعزة القهر وسرور النصر حتى نزلوا محله أسارية.

ثم ارتحل الناصر منها إلى محلته بقرية مشيير، ثم انتقل إلى محلته بذى شره المجاورة لشنت اشتبين، وكان موضع استرواح العلج شانجه ومكان طمأنينته، فحلت الجيوش بهذه المحلة، وتظاهر

الكلب على الجبل قد جمع جموعه وحشد رجاله واستجاش بمدود أتته من ألبة والقلاع طامعا فى معارضة المسلمين يقيم بها عذرة عند كفرته وأهل ملته، فناشبهم المسلمون الحرب، والتحم بينهم القتال، فهزم الله جموع المشركين وانقبضوا إلى أعلى جبلهم، وتفرقوا فى صحراء متصلة بهم، وبات العسكر فى محلتهم، وانبسطت العلاقة فى القرى فانتسفت ما فيها.

ثم انتقل الناصر إلى محلة تعرف بربية سرية، وهو يريد قلهرة، وتظاهر العلج بمجموعة مرة ثانية فى الموضع الذى كان مشرفا فيه ومعتصما به، فتبادر إليه الفرسان فانهزم أقبح انهزام.

وانتقل الناصر إلى حصن قلهرة فألفاه خاليا وأمر بهدمه، ثم انتقل إلى حصن بلتيرة، وهو من الحصون المسلمة المجاورة للمشركين فعهد بادخار الأطعمة عندهم وتفريق الأموال فيهم، واحتل بمدينة تطيلة وكسر بها وقفل عنها، وجعل مروره ببنى ذى النون، وكان يحيى بن موسى قد استراب وتوقف عن الجهاد فدارت عليه معرة الجيش حتى أذعن منقادا وخرج خائفا وجلا وتلقى أمير المؤمنين معترفا بذنبه فأوسعه عفوه، وعاد إلى قرطبه ودخلها يوم الخميس ٢٢ من جمادى الأولى، وقد استتم فى غزاته تلك أربعة أشهر.

وفى سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م خرج الناصر إلى كورة البيرة ومنازلته حصن أشتين واستصلاحه الأحوال بكورة جيان وما والاها.

واستقدم سعيد بن المنذر الوزير من كورة تدمير (مرسية) ليغزو معه، وأخرج محمد بن إسحاق مديلا له فاحتل فى طريقه بحصن المنتلون من كورة جيان، وأنزل عنه عبد الله بن سعيد بن هذيل وعزله عن سائر الحصون التى كانت بيده، واستعمل على الجميع مسلمة وعبد الله بن عمرو بن مسلمة، وعهد بهدم أكثر حصون جيان وقصابها، إذ كانت مستراحا لأهل الشر والخلاف، وضررا على أهل الطاعة والاستقامة، فعرض عليهم الناصر النزول عن حصنهم إلى البسيط حوله، فاضطربوا

فى أمرهم ولاذوا عن رشدهم فاحتلت العساكر بهم وأخذ بالجد والعزم فى محاصرتهم، وأحيط بهم من جميع جهاتهم، وبنيت عليهم ستة حصون يقابل بعضها بعضا حتى عادوا فى مثل حلقة الخاتم ضيقا وحصارا.

وبقى الناصر على محاصرتهم ٢٥ يوما وهو يواظب مع ذلك فى أستصلاح أمور رعيته وتأمين سبيلهم وقطع المخاوف عنهم ويشخص بنفسه إلى كل جهة من جهاتهم - حتى عندما كان يركن إلى البقاء فى قرطبة عاما لأى سبب من الأسباب - ففى سنة ٣١٤هـ/ ٩٨٧م نجده يغزى قواده بالصوائف، وكان العام عام محل وقحط فأخرج عبد الحميد بن بسيل الوزير إليه.

وكان فى هذا الثغر - بطليوس - بنو ذى النون فأوقع بهم إذ كانوا قد مرقوا عن الطاعة وأكثروا الفساد فى الأرض والاستطالة على من جاورهم من المسلمين، فقتل منهم من استحق القتل، وافتتحت مدينة سرنّه، وكان أهلها على خلاف وخلعان للطاعة فدرت جبايتها من ذلك الوقت وصارت بسبيل سائر الكور المستقيمة الأحوال.

ثم صدر عبد الحميد بن بسيل من ذلك الثغر وقد استقامت على يديه أحوال أهله، فأخرجه الناصر إلى مدينة ببشترو محاصرا لسليمان بن حفصون فى جملة القواد المحاصرين له، وأخرج الناصر أفلح، صاحب الخيل، مولاه إلى سليمان بن حفصون أيضا فنازله وحاصره وفتح حصن منت روبى، وكان من أمنع معاقله، وكان الناصر قد رتب الوزيرين : سعيد بن المنذر، وعبد الحميد بن بسيل، على حصن أشتين محاصرين لأهله فى عدد كثيف من الحشم، ودخل القصر بقرطبة يوم الخميس ١٣ ربيع الآخر سنة ٣١٤هـ، وقد استتم فى غزاته تلك ٥٠ يوما.

وفى سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م ظهر أبو يزيد مخلد بن كيداد بإفريقية على أبى القاسم الشيعى، وذلك فى جبل أوراس، وفيه قلاع كثيرة يسكنها هوارة وغيرهم، وهم على رأى الخوارج .

بنـاء مدينــة الزهــراء:

وفى ٣٢٥هـ/٩٣٦م أمر الناصر ببناء مدينة الزهراء، وكان يعرف فيها من الصخر المنجور ٦٠٠٠ صخرة فى اليوم سوى التبليط فى الأساس.

وفى سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م استتم القائد أحمد بن إلياس وشحنها بالرجال، واتخذ فيها الأطعمة والأسلحة فأخرج الناصر إليها أحمد بن معلى قائدا فى ضروب من الحشم ضمهم إليه، فنفذ إليها فى صفر من هذه السنة، فلما كان فى غرة جمادى الأولى منها وافى فتح من قبل أحمد بن يعلى، القائد بسكتان الحديثة، بدخول كان له منها إلى جهه من عمل الطاغية رذمير، فقتل وسبى وأسر وأرسل مع كتابه إلى قرطبة مائتى علج أسراء، وكان هذا أول فتح لابن يعلى أذل به الطاغية رذمير.

وفى المحرم من سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م طلع كوكب الزُّبانى فى الأفق الغربى بقرطبة إزاء العقرب منحرفا عنها يكاد يتصل بالفلكة العليا فى رأى العين، وكان أول ليلة لاح فيها للأنظار ليلة السبت لثلاث بقين من المحرم منها، وفى ليلة ستة عشر خلت من أكتوبر، وتمادى طلوعه مستعليا مكبرا فى السماء حتى توارى.

وفى يوم الخميس لخمس خلون من صفر منها دخل الوزير القائد أحمد بن إلياس إلى قرطبة قافلا من غزاته إلى الثغر التى خرج إليها عقب شوال من سنة ٣٣٠ عنها، ودخل فى سفرته هذه كورة تدمير فأزال الالتيات الواقع من أهلها إزالة وقدم برهائن بعضهم، وكان أثره جميلا.

وفيها كان المد العظيم بنهر قرطبة الثالم لقنطرتها.

وفى سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م أغزى الناصر لدين الله القائد أحمد بن محمد بن إلياس إلى جليقية، فدخل دار الحرب فغنم، وأحرق جملة من حصونها هناك وقفل راجعا.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بقرطبة، فدامت ساعة، ففزع أهل قرطبة لها فزعا شديدا، ووقعت بعد العشاء الآخرة ولجأوا إلى المساجد، وضجوا بالدعاء إلى الله تعالى فى كشفها، حتى أغاثهم وصرفها عنهم، وفى صبح ليلة الزلزلة هبت ريح عاصف ردفتها أخرى، فاقتلعا كثيرا من شجر الزيتون والتين وغيرها من الأشجار والنخيل، وأطار كثيرا من قرمد السقف، ونزل إثر ذلك مطر وابل طبق الأرض، وبرد غليظ، فقتل كثيرا من الوحش والطير والمواشى، وأتلف ما أصاب من الزرع وأساء التأثير.

وقد كثرت الفتوح فى أيام الناصر كثرة لا تصدق، فقد كان هذا الرجل لا يستريح أبدا، أو قل : لا يتعب أيضا، والمسافة من بنبلونة إلى جبل طارق تصل إلى ٥٠٠ كيلو متر، ولكن هذا الرجل يقطعها دفعة واحدة، ويعود بعد ذلك إلى قرطبة.

وفى سنة ٢٤٣هـ/٨٦٧م وصل إلى قرطبة وفد ازداجه، من البربر الذين انحاشوا إلى الطاعة، فكساهم الناصر ووصلهم.

وورد كتاب فتح من حميد بن بصل قائد الناصر بالعدوة بما فتح الله عليه من مدينة آسلان وانتشار الدولة الأموية بنواحيها.

وفيها قدم الحُجاج فذكروا أنه وقع بفسطاط مصر حريق عظيم، احترق فيه ستة عشر ألفا من دار ومسكن.

كثـرة رجال الناصـر، وكيـف كان يستفـيد منهـم ؟ :

وفى سنــة ٣٤٤هـ/٨٦٨م وردت قــواد الثغور وفيهم غالب، ومصرف، ومحمد بن يعلى، وعبد الله بن أحمد بن يعلى، وهذيل بن هاشم التجيبى، ومروان بن رزين، وعامر بن مطرف بن ذى النون، يذكرون أنهم دخلوا إلى أرض العدو وقصدوا حصنا من بلد قشتيلة فتغلبوا على أرباضه وقتلوا جماعة من أهله، وقفلوا عنه، فواتتهم جموع النصرانية فأيد الله المسلمين وانهزم المشركون أمامهم مقدار عشرة أميال يقتلونهم كيف شاءوا، فأُحصى أنه قتل منهم مقدار عشرة آلاف، وكانت تلك الواقعة بينهم لليلة بقيت من ربيع الآخر منها، فقرئ كتابهم بهذا الفتح الجليل بقرطبة، ثم وردت إلى قرطبة الرؤوس المحتزه فى هذه الهزيمة نحو خمسة آلاف رأس فأمر الناصر برفعها على الخشب حوالى سور قرطبة.

ولسبع خلون من جمادى الأولى كانت بقرطبة زلزلة عظيمة ظاهرة الهزة، وعادت زلزلة أخرى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منها، وفيها ثقف الناصر أمور الخدمة السلطانية ووزعها بين وزرائه، فقلد الوزير جهور بن أبى عبدة النظر فى كتب جميع أهل الخدمة وقلد الوزير عيسى بن فطيس النظر فى كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف وغير ذلك، وقلد الوزير الكاتب عبد الرحمن الزجالى النظر فى تنفيذ كل ما يخرجه من العهود والتوقيعات، وينفذ به الأمر أو الرأى وغير ذلك، وقلد الوزير محمد بن حديــر النظر فى مطالب الناس وحوائجهم وتنجيز التوقيعات لهم، فالتزم القوم ما أُنزلوا فاعتدل بهم ميزان الخدمة، وسهلت مطالب الداعية.

وفيها ورد كتاب يعلى بن حميد قائد العدو، من قبل الناصر بما فتح الله عليه فى قائد الشيعى معد بن إسماعيل، صاحب إفريقية، من هزيمته له وقتله من قتل من رجاله وغير ذلك.

ووصل إلى قرطبة ابن عم حميد بن بصل ومعه ٣٦ من وجوه كنانة وغيرهم، من القبائل المستأمنين إليه من عسكر الشيعى، فأمر الناصر بإنزالهم، وجلس لهم على سرير بقصر الزهراء يوم الثلاثاء لأربع خلون منه، فوصلوا إليه، فرأوا مقاما جليلا، وكلموه فرد عليهم جميلا، وأحسن موعدهم، وأمر بالخلع عليهم، ووُصِلوا بصلات جزلات، وأصروا بالرجوع إلى القائد جميد بن بصل.

وفيها أمر الناصر بإعلان اللعن على ملوك الشيعة وإنفاذ كتبه بذلك إلى العمال بسائر الأقطار.

وفى سنة ٣٤٥هـ/٨٦٩م وطئ غالب قائد أسطول الناصر أرض سواحل إفريقية من عمل الشيعى.

وفيها قدم محمد بن حسين رسولا كان من الناصر إلى الطاغية أردون بن رذمير ملك جليقية ومعه حسداى بن شبروط اليهودى بكتابه إلى الناصر راغبا منه فى الصلح، فأسعفه الناصر بذلك على اختيار ولده الحكم واشترط على الطاغية شروطا، وانصرفت رسله بذلك.

وفيها قتل محمد بن أبى العيش الإدريسى أمير الغرب.

وفى نفس السنة خرج قاسم بن عبد الرحمن إلى حميد بن بصل، قائد الناصر بالغرب من قرطبة، بأحد عشر حملا من المال وأحمال العدة تقويه على الذب عن الدولة المروانية بالغرب، ولما كان يوم النصف منه ورد كتاب حميد بن بصل بدخوله تلمسان.

وفى سنة ٣٤٦هـ/ ٨٧٠م قدم إلى الناصر أمراء بنى رزين ومن التف إليهم فوصل إلى الناصر كبيرهم مروان بن هذيل بن رزين الثائر بالسهلة المنسوبة إليهم، فأدنوا وأكرموا

غـــزو قشـــتالة :

وفيها برز القائد غالب الناصرى إلى فحص السرداق غازيا إلى دار الحرب، ففُتح عليه فى بلاد المشركين، وفتح الحصون وقتل المقاتلة واكتسح بسيط عدو الله غرسية بن شانجة ملكهم، وخرب قراه، ورجع بالمسلمين ظاهرين.

وكذلك برز القائد أحمد بن يعلى للغزو إلى بلد العدو وتاليا للقائد غالب فورد كتابه يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر بفتح عظيم تهيأ له فى غزوه إلى جليقية وأنه أثخن فى قتلهم وحز من رؤوسهم أربعمائة واستاق من الماشية والكراع ما فات الإحصاء.

وفى سنة ٣٤٧هـ/٨٧١م أول المحرم أمر الناصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازيا فى الأسطول إلى بلد الشيعى معد بن إسماعيل، صاحب إفريقية، فبرز ابن يعلى محلة الربض لغزاته هذه لثمان خلون منه، وكان بروزه فخما، خرج إليه من النظارة من أهل قرطبة رجالهم ونساؤهم وأبناؤهم على عادتهم خلق لا يحصيهم إلا خالقهم، فانتشروا بأكناف الربض على عادتهم، فأخذ السفلة منهم والغوغاء يتقاذفون بالحجارة حاكين لصفى القتال، فدخل فى عرضهم قوم من الطنجيين من جند السلطان حشوا الغرائب بينهم حتى حمى وطيسه.

وقد تكنف صفيهم من النظارة الرجال والنساء خلق عظيم، فلم يكن إلا ساعة ودارت بينهم جولة ظهر فيها أحد صفيهم فمالوا على مغلوبهم وانبسطوا عليهم، فامتد الطنجيون بغالب شرهم وجهلهم إلى نهب مغلوبهم من الرجال، وتخطوهم إلى من حولهم من النظار، وانبسطوا على النساء فسلبوهن ثيابهن وفضحوا كثيرا منهن، فجعل المجردات من النساء يتوارين فى الزرع المكتل حياء من الناس وترقبا لوقت تفرقهم، وشرح ذلك يطول.

وفى جمادى الآخرة منها ورد كتاب قائد الأسطول أحمد بن يعلى من مدينة اسلان من عمل تلمسان يذكر أن جوهرا قائد معد بن إسماعيل، صاحب إفريقية، قتل يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى، صاحب مدينة آفكان غدرا، وأن ابن عمه تنصب مكانه بإقامة من جلة قومه له، ورجع القائد المذكور إلى قرطبة ومعه ولد ابن قرة، ابن عم يعلى بن محمد، المتقدم الذكر، المقدم بعده فى قومه بنى يفرن فبولغ فى إكرامه.

وفى سنة ٣٤٨هـ/٩٦٩م خرج على بن يحيى الحسنى إلى شرشل مكانه من العدوة قائدا بمن انضم إليهم من الحشم لمكافحة أصحاب الشيعى، صاحب إفريقية.

وفى أول ذى القعدة منها أوصل الناصر لنفسه حريز بن منذر فى جماعة من وجوه الموالى والعرفاء ورجال الجند يأمرهم جميعا بالخروج إلى مدينة سبتة من أرض العدوة، مع بدر الدين الفتى الكبير، صاحب السيف، لتنفيذ العدد فيها من أجل جولان جوهر، قائد معد الشيعى، صاحب القيروان، بأرض العدوة فنفذت لأمره، ومكثوا كذلك إلى أن أمنت الحادثة، فانصرفوا مع القائد بدر آخر ذى الحجة من السنة.

وفى سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠ ميلادية كان ابتداء علة الناصر، وذلك يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر، وذلك نصف النهار، طرقت أمير المؤمنين الناصر علته الصعبة من الريح الباردة، فأرجف به وخيف عليه وأكب الأطباء على معالجته، إلى أن ظهر عليه تخفيف، فتجشم القعود لخاصته فى العشر الأول لجمادى الأولى، فوصل إليه الفتيان الكبار وصاحب الطراز وخواص أكابر العبيد لمظفر وذويه، فاستبشر أهل المملكة بما بدا لهم من انحطاط مرضه، وسألوا الله كمال عافيته، والقضاء قد سبق بموته من علته فلم تفارقه، تخف حينا وتثقل حينا، إلى أن قضت عليه فى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م التى بعد هذه.

تقدير الناصر لدين الله :

وعلى عادة ابن عذارى فى تاريخه الكبير (البيان المغرب ٢٢٣/٢) نجده يخصص فقرة جميلة كاملة للثناء على الناصر، وهو هنا على حق لأن الناصر لدين الله هو أعظم من ملك الأندلس فى الإسلام، أو قبله وبعده، ولو أن الإسلام رزق فى الأندلس باثنين أو ثلاثة مثله لأصبح الأندلس بلدا إسلاميا إلى الأبد، فقد كان مجتهدا جدا، وكان مقبلا على الجهاد حياته كلها.

قال ابن عذارى : ولما ولى الناصر لدين الله اعتز ركن الدين، واحتمى ذمار المسلمين، وقام الجهاد على ساق وخمدت نار الخلاف والنفاق، ودخل الناس فى طاعته أفواجا، واستعزوا إلى دعوته أفرادا وأزواجا، فناهيك من فضل أعطاهم، وعدل أكنفهم به وغطاهم، وتكرمة أنالهم إياها، ومسرة أبدى لهم إلى محياها، قد ملك سبتة وما يليها من الأقطار، وطرد عنها ملوك الأدارسه طرد الليل النهار، وبث عماله وقواده فيها، وطاعت له البرابر فى جميع نواحيها، واعتصموا بخيله، ولاذوا بفضله وعدله.

وكان اصطفى مولاه بدرا، وجعله شمسا لملكه وبدرا، وقلده خطة الحجاب، وجعل له النفى والإيجاب، فشد ملكه بقوه ساعد وسعد مساعد، ثم قدم موسى بن حدير فكمل به الملك واتسق، واتفق له من الجد ما اتفق.

ومن مناقبه أنه لم يبق فى القصر الذى هو من مصالح أجداده ومعالم أوليته بنية إلا وله فيها أثر محدث، إما بتجديد أو بتزييد.

وبما ذكر من إفضاله مع بعض عماله، قال حيان بن خلف :

كان محمد بن سعيد المعروف بابن السليم قد احتجز أموالا كثيرة بتصرفه فى كبار الولايات فى المدة الطويلة، فعلم ذلك الناصر فعرض له مرارا أن يساهمه فيه عن طيب نفس منه، وهو ملكه، ولو شاء لأخذه منه، ولكن أبى ذلك كرم طبعه، فقال فى مجلسه يوما : ما بال رجال من خاصتنا توسعوا فى دنيانا فطفقوا الأموال ويضيعون نعمتنا وهم يرون غليظ مؤونتنا، ويعلمون أن أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، قسطاس الموازين قاسم عماله أرباحهم فى تجارتهم فجعلها فى بيت المال، وهو من هو وهم من هم، والأسوة فى فعله.

فسكت ابن السليم عنه وغالطه فى تعريضه كأنه من غيره فازداد الناصر حنقا عليه وغيظا، فقال له يوما فى بعض مجالسه الخاصه معه، وقد أخذ الشراب منه، وشق تفاحة بسكين فى يده : وددت لو أن أشق هكذا رأس من أعرف له مالا كثيرا غله دوننا، ولم يسهم بيت المال منه، فطار عقل ابن السليم، ولم يختلجه الشك فى أنه المعنى به، فقام بين يديه، وقال : يا أمير المؤمنين، طالما عرضت بى بلى والله إن عندى مالا كثيرا، وهو دون ظنك فيه، حطته بالتقتير، وأعددته للدهر العثور، ولست والله أعطيك منه درهما فما فوقه، ورأيك فىَّ جميل، إلا أن تستحل، وأعوذ بالله أن تمد يدك إليه بغير جناية منى عليك، فإن الأنفس الشح محضرة، قال : فخجل الناصر وأطرق يتلو قول الله تعالى : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ [محمد : ٣٧] ثم أقبل على ابن السليم يؤنسه ويسكن جأشه، فجعل يمعن فى الشرب طلبا للسُّكر للذى خامره من الذعر، فلما سكر ابن السليم تهوع، فقذف، وابتدره الوصفاء بالطست والمناديل، فأقبل الناصر وأخذ برأسه يمسكه ويقول له : استفرغ ما فى معدتك وتأنَّ بنفسك.

فأنكر ابن السليم كلامه بين الخدم، وصرف إليه رأسه، وإذا به الناصر، فما تمالك أن خر على رجليه يقبلهما ويقول : يابن الخلائف، إلى هنا انتهيت من برى، وجعل يدعو له ويعظم شكره،

فقال له الناصر : ليتنى أخرج كفافا من شأنى معك الليلة، تأنيسا باخافه وإلطافا بجفوة، ثم أمر له بكسوة، ثم انقلب إلى أهله، فكان هذا مما يعد من فضله وكرمه.

فلما مضت أيام أرسل ابن السليم إلى الناصر بمائة ألف دينار دراهم، فقبلها الناصر وشكر فضله، وعوضه بكبير الولايات، وصحبته منه النعمة العريضة إلى حين وفاته.

وكان الناصر [قد أمر] ببناء الصومعة العيمة (فى المسجد) فى سنة ٣٠٤هـ / ٩٥١م، وشرع فى بنائها، وهى الشهيرة التى لا صومعة تعدلها، وكان الذى دعاه إلى بنائها حدث فى القديمة، فهدمت إلى قواعدها، وبنيت بصخر الحجارة المنقولة إليها على العجل، وجمع لها ... ... فجاءت فائقة الصنعة، وقد كانت الأولى ذات مطلع واحد فصير لهذه مطلعين، وفصل بينهما بالبناء، فلا يلتقى الراقون فيها إلا بأعلاها، ولكل مطلع منها مائة درج وسبعة أدراج، وطولها ثمانون ذراعا بالرشاش إلى وقوف المؤذن، وفى أعلى ذروة المنار ثلاث رمانات تغشى النواظر بشعاعها، وتخطف الأبصار بالتماعها، الأولى مفروغة من الذهب، والوسطى من الفضة، والثالثة من الذهب أيضا، وفوقها سوسانة من الذهب أيضا، وفوقها سوسانة من الذهب المحض مسدسة، وفوق السوسانة رمانة صغيرة، ثم طرف الزّجّ، وفيه تاريخ مكتوب بالذهب، وزنة كل رمانة من الثلاثة المذكورة قنطار واحد فما دونه، ودور كل واحدة ثلاثة أذرع ونصف.

وكمل بناء الصومعة فى جمادى الأولى، فذلك ١٣ شهرا.

مسجــد قرطبــة الأعظــم:

كان لا بد أن أكتب فى هذا التاريخ فقرة عن مسجد قرطبة الجامع، فهو أعظم الآثار المعمارية الإسلامية فى الأندلس، وقد وجدت هنا فقرة عن ذلك الجامع، أوردها ابن عذارى فى البيان (٢٢٩/٢- ٢٣١) فرأيت أن أورد هنا أهم ما فيها.

قال ابن عذارى: ذكر الرازى عن الفقيه محمد بن عيسى أنه قال:

لما افتتح المسلمون الأندلس استدلوا بما فعل أبو عبيد وخالد عن رأى أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، من مشاطرة الروم فى كنائسهم، مثل كنيسة دمشق وغيرها، مما أخذوه صلحا، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة فى كنيستهم العظمى التى كانت بداخلها، وابتنى المسلمون فى ذلك الشطر مسجدا جامعا، وبقى الشطر الثانى بأيدى الروم، وهدمت عليهم سائر الكنائس.

فلما كثر المسلمون بالأندلس وعمرت قرطبة ونزلها أمراء العرب بجيوشهم، ضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقائف، فنال الناس من الضيق مشقة عظيمة.

فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، وسكن قرطبة نظر فى أمر الجامع وتوسيعه وإتقان بنائه، فأحضر أعاجم قرطبة وسألهم بيع ما بقى بأيديهم، وأوسع لهم البذل فيه، وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه، وأباح لهم بناء كنائسهم التى كانت هدمت عليهم فى وقت الفتح بخارج قرطبة، وخرجوا عن الشطر فاتخذه وأدخله فى الجامع الأعظم.

وكان شروع عبد الرحمن الداخل فى هذه الكنيسة وبناء الجامع سنة ١٦٩هـ، وتم بناؤه وكملت بلاطاته فى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، فذلك مدة من عام كامل، فقيل إن النفقة التى أنفق الإمام عبد الرحمن بطول هذه السنة فى بناء الجامع ٨٠ ألفا بالوازنة.

ثم زاد ابنه هشام صومعه كان ارتفاعها ٤٠ ذراعا إلى موضع الأذان، وبنى بآخر المسجد سقائف لصلاة النساء، وأمر ببناء الميضأة بشرقى الجامع، وأقام الجامع إلى هيئته تلك إلى أيام عبد الرحمن بن الحكم، ثم زاد عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الزيادة المتعظمة بالأرجل طولها ٥٠ ذراعا وعرضها ١٥٠، وعدد سواريها ٨٠ سارية، وكان الفراغ من هذه الزيادة فى جمادى الأولى سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م.

وكان هذا هو تاريخ المسجد إلى أيام عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم المستنصر، ولكن حجم الجامع اليوم ضعف ذلك، لأن محمد بن أبى عامر عندما استبد بأمر الأندلس، أيام الخليفة المؤيد ابن الحكم المستنصر، أراد أن يكون له أثر فى الجامع، ولما كان المسجد الجامع قد وصل إذ ذاك إلى ضفة الوادى الكبير ولم تعد الزيادة ممكنة من الجنوب اتجه إلى شرقى المسجد وبنى زيادة عظيمة، ضاعف بها حجم الجامع.

ولكن هذه الزيادة كانت فى الشكل فقط لأن المنصور جعل زيادته فى مثل شكل الجامع التقليدى المعروف، ولكن المتأمل فيها يرى أنها لا تصل إلى كمال الفن الذى يراه الإنسان فى الجامع، ولكن المسجد بهذا أصبح على أى حال أضخم مسجد فى عالم الإسلام، والكنيسة التى أنشأها النصارى فى المسجد الجامع، وهى كنيسة ضائعة فى هذا المسجد العظيم، الذى يعتبر من مفاخر الأندلس، ومن عجائب عالم الإسلام.

وقد دخلت الفسيفساء المسجد الجامع فى أيام الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، وكان ملك الروم قد بعث بها إلى الحكم المستنصر، وقد كان وزنها ٣٢٠ قنطارا أرسل بها ملك الروم، ومعها صناع يتقنون وضعها، فأمر الحكم بإنزال الصناع والتوسعة عليهم وألحق بهم الحكم عمالا متخصصين ليعملوا معه ويتعلموا منه.

وقد زار الحكم المستنصر هذا المسجد أيام العمل فيه فى العشر الوسط من الزهراء إلى الجامع ودخله وتأمل الزيادة وأمر بإقلاع السوارى الأربع التى كانت فى عضادة المسجد القديم الفائقة، التى لا نظير لها، وصيانتها إلى أن توضع فى المحراب الجديد عند إتقان إحكامه.

وفى المحرم سنة ٣٥٥هـ/ ديسمبر ٩٦٥م أمر الحكم بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب ونصب المقصورة القديمة، ونصب فى قبلة هذه الزيادة مقصورة من الخشب منقوشة الظاهر والباطن، مشرفة الذروة طولها ٧٥ ذراعا وعرضها ٢٢ ذراعا، وعلوها إلى الشرفات ٨ أذرع.

وفى يوم الجمعة لثمان من المحرم قرئ كتاب فتح من قبل سعادة الجعيفرى القائد بمدينة الفرج، يذكر ما فتح الله له وأتيح على يديه من أعداء الله المشركين.

وفى يوم الأربعاء لأربع خلون من ربيع الأول سنة ٣٥٥ نفذت الكتب إلى عمال الثغر الأدنى والأقصى فى ارتباط الخيل والتكثير منها وجودة القيام عليها لما يؤمل من الجهاد.

وفى يوم الجمعة، لثلاث خلون، قرئ بقرطبة والزهراء كتاب فتح ورد من قبل الوزير يحيى بن هاشم، وكتـاب فتـح ورد من سعـد الجعفـرى، وكتـاب فتح ورد من قبل حريز بن هابل يذكرون ما منحهم الله وفتـح على أيديهـم مـن قِبَل أعداء الله المشركين، وأن كل واحد منهم نهض إلى ما قبله من بلدهم ففتح وسبى واكتسح وأشجى وانصرف غانما سالما.

غـزو المجـوس للأنـدلس:

المجوس هم سكان الدانيمرك واسكتلاندا وإنجلترا، وكانوا إذ ذاك فى عزهم، وإنما سماهم العرب المجوس لأنهم كانوا يستعملون النار فى غزواتهم، فيطرقون الأنهار ويتوغلون فى البلاد ويشعلون النار للتخريب، فحسبهم المسلمون يعبدونها وسموهم المجوس، وقد عرفهم مسلمو الأندلس قبل ذلك، ولكنهم لم يغزوا الأندلس إلا فى عهد الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر، وكانوا هذه المرة فى ٢٨ مركبا، ثم ترادفت الكتب بأخبارهم وأنهم أضروا بها، ووصلوا إلى بسيط أشبونه، فخرج إليهم المسلمون ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين، وخرج أسطول إشبيلية فاقتحموا عليهم بوادى شلب، وحطموا عدة من مراكبهم واستنقذوا من كان بها من المسلمين وقتلوا جملة من المشركين وانهزموا إثر ذلك خاسرين، ولم تزل أخبار المجوس تصل إلى قرطبة فى كل وقت من ساحل الغرب إلى أن صرفهم الله تعالى.

أمـر محمـد بـن أبى عامـر، المعـروف بالمنصـور:

كان ينبغى أن أنتظر بخبر محمد بن أبى عامر إلى بعد ذكر خلافة الحكم ابن عبد الرحمن الناصر، وهو المعروف بالمستنصر، ولكن أمر المنصور بدأ من أواخر أيام عبد الرحمن الناصر، وكانت بدايته صغيرة جدا، لكن استقوى أثناء خلافة الحكم المستنصر، وكان عبقريا موهوبا، بدأ بوظيفة صغيرة ثم استقوى على أيام الحكم المستنصر، فرأيت أن أبدأ به الآن ليدخل فى صورة تاريخ الأندلس.

والآن أقف به وأتحدث عن خلافة الحكم المستنصر.

خلافـة الحكم بـن عبـد الرحمـن، المعـروف بالمستنصـر:

توفى عبد الرحمن الناصر فى صدر رمضان سنة ٣٥٠هـ، وذلك بعد أن حكم خمسين سنة هجرية بذل فيها من الجهد ما يندر وجود مثله، وكان فى الحقيقة رجلا نشيطا لا يكاد يعرف التعب، وقد عرف كيف يبث فى الأندلس نشاطا نادرا، وكان يعرف كيف يملأ حكمه بعظماء الرجال الذين كانوا على مستواه، وكان معظمهم من موالى الأندلس.

وقد تولى الحكم الخلافة بعد موت أبيه عبد الرحمن الناصر، وأمه جارية تسمى مهرجان، وقد حكم ١٥ سنة و ٧ أشهر.

بويع بعد وفاة أبيه الناصر فى ٣ رمضان سنة ٣٥٠هـ/ أكتوبر ٩٦١م، وكانت دولته قصيرة فلم يحكم إلا ١٥ سنة و ٧ أشهر وثلاثة أيام، ولقب المستنصر بالله، وكان خليفة عظيما وهوبا فى مسائل العلم، وقد نهض بالحركة العلمية فى الأندلس إلى أعلا مستوى بلغته.

وقد افتتح خلافته بالنظر فى زيادة المسجد الجامع بقرطبة، وهو صاحب الفضل فى بلاطة المحراب، والمحراب البديع نفسه، وكان يلقى العلماء فى بيته وفى المسجد الجامع، وقلد حجابته جعفر ابن عبد الرحمن الصقبى.

وكان من أول ما صنعه النظر فى سوق الصخور، التى هى أساس مسجد قرطبة، وهو صاحب الفضل فى ذلك الجمال الذى ينفرد به هذا المسجد بين مساجد الدنيا، وكان الناس قد زادوا فى المدينة زيادة عظيمة، فزاد فى بناء المسجد ١١ بلاطة وصل بها إلى النهر، وقد تولى الخلافة، وقد وصل بها أبوه إلى أن أصبحت دولة أوروبا الأولى، فسار فى نفس الطريق وكتب إلى كل أمراء الأندلس بأمرهم بارتباط الخيل والاستعداد بالعُدد والأسلحة والآلات برسم الجهاد فى سبيل الله.

وقد استحجب الحكم جعفر الصقلبى، الفتى الكبير الناصرى.

وفى سنة ولايته وفد عليه أرذون بن اذفونش الأحدب، من أمراء الجلالقة، وكان منازعا لابن عمه شانجه بن رذمير الذى كان قد استولى على الحكم.

وفى سنة ٣٥١هـ ولد للحكم ولد ففرح به لأنه كان لا يولد له.

وفى نفس السنة وفد عليه شانجه بن رذمير، منافس ابن عمه اردون، ملك الجلالقة، ووصله أيضًا كتاب من أردون بن أذفونش، الذى كان ملك الجلالقة، وكان الحكم مشغولا إذ ذاك بزيادة المسجد الجامع.

وفى هذ السنة (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) ولد للحكم ابنه هشام الذى سيخلفه ويلقب بالمؤيد، وقد استمر نشاط العمال فى الفتح فى أيامه، واهتم كذلك بالمغرب، وكان عبد الرحمن الناصر قد ملك طنجة وسبته، ووفد عليه رسل من أمراء الغرب الأدراسة.

وفى سنة ٣٥٦هـ/ ديسمبر ٩٦٦م عاد المجوس إلى غزو الأندلس، ودخلوا مجرى الوادى الكبير، ووصلوا إشبيلية فأمر الحكم قائد البحر بالخروج إليهم.

وورد على الحكم كتاب بقتل زيرى بن مناد الصنهاجى، واستولى الزناتيون على جميع عسكر زيرى بن مناد.

وأمر الحكم ببناء مدينة المسيلة، وكان محمد بن أبى عامر قد أصبح قاضى إشبيلية.

وفيها ورد على الحكم كتاب بفتح طنجة، فتحها قائده على البحر عبد الله بن رماحس يذكر أنه نازل إشبيلية بالأسطول غرة ذى القعدة، ودعا أهلها إلى الطاعة والعودة إلى الجماعة، وفعلا قامت دعوة الأندلس فى طنجة ففر الحسن بن قنون إلى جبل حصين، وخرج القائد محمد بن قاسم فى العسكر إلى الحسن بن قنون وانتصر عليه وانصرف العسكر إلى مدينة أصيلا فافتتحها.

وفى سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٢م استشرى أمر الحسن بن قنون وقتل الجند، فظهر له القائد غالب ابن عبد الرحمن وهزمه، فمال إلى الطاعة، وورد إلى قرطبة جنون بن إدريس صاحب مدينة العدوة، ورسول عبد الكريم صاحب مدينة القرويين، وأرسل المستنصر الوزير يحيى بن محمد التجيبى فانهزم الحسن بن قنون، وكان محمد بن أبى عامر قد أصبح قاضيا على إشبيلية، فانتصر على القاسم وملك قواد الحكم مدينة البصرة فى المغرب.

انتصار الأندلس على المغرب:

وفى سنة ٣٦٤هـ/ ٩١٤م قدم على المستنصر قائده غالب بن عبد الرحمن قافلا من عدوة الغرب، ومعه حسن بن قنون وشيعته بنو إدريس الحسينيون ملوك الغرب المستنزلون من معاقلهم إلى الأندلس حافين بشيخهم المشهور بجنُّون، واسمه أحمد بن عيسى صاحب مدينة الأقلام وما ولاها، ومعه أخوته وبنو عمه، وبنوهم وأهلوهم، فأمر باحتمال هؤلاء الأشراف من المحلة فى ظلام ليلة

الخميس لأربع خلون من المحرم إلى الدور التى أخليت لهم بقرطبة، فأرسل القوم معهم ثقاتهم من فتيانهم ومواليهم حتى أدّتهم إلى الدور المعدة لهم، بعد أن فُرِشت مجالسها بشىء يطول ذكره.

وفيها كان اعتلال الخليفة الحكم، واحتجب عن جميع مملكته، إلى أن تخفف وصبه، وظهر لخاصته يوم الجمعة لليلة بقيت من ربيع الآخر منها.

وفى عقب ربيع المذكور أطلق الحكم نحوا من مائة رقبة من عبيد له فيه لبعضهم تدبير وفى باقيهم عتق، بتل وموجل خلّص به جميعهم من الرق، وعقدت بذلك وثائق.

وفيها حبّس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء.

وفيها أسقط الحكم سدس جميع المغارم عن الرعايا بجميع كور الأندلس، شكرا لله على إنظاره له.

وفيها كان جيشان العدول ومنازلته لبعض حصون المسلمين.

وفيها كان الظفر بأبى الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى، فقبض عليه رشيق وبعثه مكبولا إلى قرطبة مع عشرة من أصحابه، وكان يظاهر المشركين ويدلهم على عورات المسلمين، فأخذه الله.

وفى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م خرج من قرطبة جعفر ويحيى بن حمدون الأندلسى قائدين من المغرب إلى العدوة، وبين أيديهما الألوية والطبول، بديلين للوزير يحيى بن محمد بن هاشم.

وفيها كان الإعلام ببيعة أبى الوليد هشام بن الحكم، وأن تؤخذ له من العامة والخاصة، بقرطبة وسائر كور الأندلس، وما إلى طاعته من بلاد المغرب، وذكره فى الخطبة على المنابر فى الجمعة والأعياد، وذلك مستهل جمادى الآخرة، فعد أمير المؤمنين الحكم بقصره وافتتح الكلام بما عزم عليه من تقليد ابنه عهد الخلافة من بعده فالتزمت بيعته وأخرجت نظائر من كتب البيعة ليوقع

شهادتها كل من التزمها، وتولى إعطاءها للناس على مراتبهم محمد بن أبى عامر، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث وميسور الفتى الجعفرى الكاتب.

وفى سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م توفى أبو على البغدادى صاحب النوادر المعروف بالقالى، منسوب إلى قالى، كلا من ديار المشرق.

وفيها مات محمد بن يحيى النحوى، وأبو مروان الأديب المرادى، وعبد الملك بن سعيد، فكانت تسمى سنة الأدباء.

وكمل بناء المسجد سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، وكان المنبر الذى جعله الحكم مدخلا من عود الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعاج والعود الهندى، قام على الحكم بخمسة وثلاثين ألف دينار و ٧٠٥ وكان تمامه فى خمسة أعوام.

أمـر محمـد بن أبى عامـر يعلـو فى خلافـة الحكـم:

كان اتصال محمد بن أبى عامر بالحكم فيما حدثنى به ابن حسين الكاتب والأديب أبو إسحاق محمد الإفليلى وغيرهما من المشيخة أن الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى القائم بدولة الحكم خلا فى بعض الأيام بالقاضى محمد بن إسحاق بن السليم، فشكا إليه ابن السليم شجوه بمحمد بن أبى عامر ووصف له حاله، فلما طلب الحكم وكيلا لولده الدارج فى حياته، ذكر له جعفر بن أبى عامر بخير، ووصف لأم عبد الرحمن جماعة اختارت منهم محمد بن أبى عامر وذلك باختيار الحكم لخدمتها وخدمة ابنها عبد الرحمن.

فلما مات عبد الرحمن بقى فى خدمة أمه السيدة، وكات قد ولدت هشام بن الحكم فصُرف ابن أبى عامر لوكالته، وكان قد تقدمه أولا لوكالة الولد عبد الرحمن يوم السبت ٩ ربيع الأول سنة ٣٥٦هـ، وأجرى عليه فى ذلك الوقت ١٥ دينارا فى الشهر مرتبا بالوازنة، فبدا من نضجه وبعد

نظره ما عرف له، ثم استأثر الله بعبد الرحمن فصرف إلى وكالة هشام يوم الأربعاء ٤ رمضان ٣٥٩هـ/ يونيو ٩٧٠م، وكان قد تقدم للنظر فى أمانة دار يوم السبت ١٣ شوال ٣٥٦هـ، وكانت ولايته أولا لوكالة، وأضاف له الخزانة ثم قدمه على خطة المواريث يوم الخميس ٧ محرم سنة ٣٥٨هـ، واستقضاه على كورة إشبيلية ونبلة وأعمالها يوم الأربعاء ١٢ ذى الحجة سنة ٣٥٨ المذكورة.

وفى سنة ٣٦١ قدم الحكم المستنصر بالله محمد بن أبى عامر على الشرطة الوسطى فى جمادى الآخرة، وأهاب به إلى الأمانات بالعدوة فاستصلحها واستمال أهلها، وجعله قاضى القضاة بالغرب من العدوة، وأمر عماله وقواده ألا ينفذوا شيئا إلا بمشورته، ثم أضاف إليه الحكم النظر فى الحشم، وهو فى علته التى مات فيها بالفالج.

وقيل أيضا · إن سبب ظهوره كان خدمته للسيدة صبح البشكنسية، أم عبد الرحمن وهشام، فكانت أقوى أسبابه فى تنقيل الملك عما قليل إليه، فإنه استمال هذه المرأة بحسن الخدمة وموافقة المسرة وسعة البذل فى باب الإتحاف والمهاداة، حتى استهواها، وغلب على قلبها، وكانت الغالبة على مولاها، وابن أبى عامر يجتهد فى برها والمثابرة على ملاطفتها، فيبدع فى ذلك بأشياء لم يعهد مثلها، حتى لقد صاغ لها قصرا من فضة وقت ولايته للسكة، عمل فيه وأنفق فيه مالا جسيما، فجاء بديعا لم تر العيون أجمل منه، فتحدث الناس بشأنه دهرا، ووقع من قلب المرأة موقعا لا شيء فوقه، فتزيدت فى بره، وتكفلت بشأنه، حتى تحدث الناس بشغفها به.

وقال الحكم يوما لبعض ثقاته : ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يضعن إلا هداياه ولا يرضين إلا ما أتاه، إنه لساحر عليم، أو خادم لبيب، وإنى لخائف على ما بيده.

ثم سعى به إلى الحكم، وقيل عنه : إنه قد أسرع فى اتلاف مال السكة الموقوف قبله، فأمر الحكم بإحضاره ليرى سلامته، فأظهر الإسراع إلى ذلك، وقد استهلك جملة من الأموال فألقى نفسه فى جبرها على الوزير ابن حدير فى إسلافه إياها، وكان صديقا له، فياسره فيه، وحمل المال إليه من وقته فتم به ما قبله وارتفعت الظنة عنه، فأكذب الحكم ما رفع إليه عنه، وازداد عجبا به وأقره على حاله، فرد ابن أبى عامر المال إلى ابن حدير ولصق بالحكم، وصار فى عداد كفاته.

واشتغل قلب الحكم آخر أيامه بأمر العدوة ومن جرده إليها من عساكره لحرب الأدارسة وغيرهم، واغتم لما خرج من يده من الأموال فى ذلك الوجه فقلد ابن أبى عامر قضاء القضاة بالغرب، وجعله عينا على العسكر، وأوعز إليه فى مهماته، فسار ابن أبى عامر إلى هناك، فحمدت سيرته وصحب حينئذ وجوه العسكر وأشياخ القبائل وملوكهم، فكانت تلك الحركة أول ظهوره.

وبعد رجوعه منها لم يزل يزداد نبلا ويرتقى منزله، وهو مع ذلك كله يغدو إلى دار جعفر بن عثمان المصحفى، وزير الدولة، ويروح ويختص به ويدعى نصيحته.

وفى سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م توفى الحكم المستنصر بعد اتصال علته، وجعفر بن عثمان المصحفى يدير سلطانه إلى حين وفاته ليلة الأحد لثلاث خلون لرمضان من السنة المؤرخة.

خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر والدولـــة العامـــريـــة :

يكنى أبا الوليد ويلقب بالمؤيد، أمه صبح البشكنسية، أم ولد، وكان سيدها الحكم يسميها بجعفر، وكانت مغنيته له، حظية عنده، وتوفيت فى خلافة ابنها هشام.

بويع له لأربع خلون من صفر سنة ٣٦٦هـ/ أبريل ٩٧٦م، وهو ابن ١١ سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام، وخلع يوم الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ/ يناير ١٠٠٩م.

وقد تولى الخلافة مرتين، الأولى إلى أن قامت الفتنة سنة ١٠٠٩، وكانت مدة خلافته ٣٦ سنة وشهرين وعشرة أيام، وكان خلافته كلها ضعيفا منصرفا إلى تلاوة القرآن ودرس العلوم، وقد استبد به طوال حكمه محمد بن أبي عامر، الملقب بالمنصور.

وقد أنشأ الدولة العامرية التي قضت على ما كان بقي من قوة للبيت الأموي الأندلسي، وذلك هو السبب الأكبر في اضطراب الأمر في الأندلس وقيام الثورة سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م.

نقش خاتمه : هشام بن الحكم بالله يعتصم.

وتولى عقد الشهادة على الناس في البيعة له وكيله وصاحب شرطته الوسطى والسكة والمواريث أبو عامر محمد بن أبي عامر، بعدما كان قاضي الجماعة محمد بن إسحاق بن السليم، يأخذها على من شهد المجلس من الأعمام وأبنائهم والوزراء وطبقات أهل الخدمة ورجالات قريش وأعلام أهل الحضرة.

وفي اليوم السادس من خلافة هشام (وكانت سنة فوق الأحد عشر بقليل) قلد الخليفة هشام حجابته وزير أبيه الأخص أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي، وفي هذا اليوم أنهض الخليفة هشام محمد بن أبي عامر إلى خطة الوزارة، نقله إليها عن شرطته الوسطى، وأجراه وسيلا لحاجبه جعفر في تدبير دولته.

نهوض محمد بن أبي عامر :

مما لا شك فيه أن محمد بن أبي عامر كان آية في الذكاء والتطلع، وقد اعتمد في نهوضه إلى الوظائف الكبرى على صديقه أبي الحسن، جعفر بن عثمان المصحفي، وكان المصحفي، واسمه الكامل : أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة القيسي،

اشتهر بلقب المصحفى، وكان لطيف المنزلة من الحكم المستنصر بالله، قديم الصحبة، قريب الخاصة.

وكان أول سببه أن والده عثمان بن نصر المصحفى كان مؤدبا للحكم المستنصر فى صباه، واستخدمه فى أيام والده الناصر لدين الله فى صباه، واستخدمه فى أيام والده الناصر واستكتبه، ورقاه إلى خطة الشرطة الوسطى، والنظر فى عدد من الأعمال والكور، فلما أفضت الخلافة إلى الحكم قلده بعد ثلاثة أيام من خلافته خطة الوزارة وأمضاه على الكتابة الخاصة، ثم جمع له الكتابة العليا بالخاصة، وولى ابنيه الأعمال الكبار.

وكان جعفر بن عثمان المصحفى أحد شعراء الأندلس المحسنين، وشعره يمتاز بالرقة والجزالة، وكان عثمان بن جعفر المصحفى واسع التطلع، وقد أثنى عليه ابن بسام، وذكر كيف انتقل فى الوظائف حتى ظهر فى أفق الخلافة، وارتقى إلى الوزارة، وقد تعلق به محمد بن أبى عامر وهو صغير مجهول، فنهض به.

ولا يمكن التأريخ لابن أبى عامر إلا بذكر جعفر بن عثمان المصحفى، ومن حسن حظ الاثنين أن الخليفة هشام بن الحكم كان صبيا، فتمكن منه المصحفى وبلغ الدرجات العليا، وكان محمد بن أبى عامر متصلا به، تربطهما أحدهما بالآخر صداقة حميمة.

ونسب ابن أبى عامر : أبو عامر محمد بن أبى حفص، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر ابن أبى عامر، محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الداخل إلى الأندلس مع طارق بن زياد، وكان له فى فتحها أثر جميل، وكان فى قومه وسيطا.

وجده عبد الملك هو الذى دخل الأندلس مع طارق ونزل الجزيرة الخضراء لأول الفتح فساد أهلها وكثر عقبه فيها، وجاور الخلفاء بقرطبة جماعة منهم، وكان عبد الله المكنى بأبى حفص والد محمد المنصور من أهل الدين والزهد فى الدنيا والقعود عن السلطان.

سمع الحديث وأدى الفريضة، ومات منصرفا من حجه بمدينة أطرابلس المغرب، وأصهر التميميين المعروفين بقرطبة بين برطال، فنكح بريهة بنت يحيى بن زكريا فولدت له أبا عامر المنصور وأخاه يحيى، وكانت أم عبد الله والد المنصور بنت الوزير يحيى بن إسحاق، وزير الناصر لدين الله وطبيبه.

كيف وصل محمد بن أبي عامر إلى الرياسات ؟ :

وكان محمد بن أبي عامر حسن النشأة ظاهر النجابة، تنغرس فيه السيادة، سلك سبل القضاء في أوليته مقتفيا آثار عمومته وخؤولته، فطلب الحديث في حداثته، وقرأ الأدب، وقيد اللغات على أبي علي البغدادي (القالي) وعلى أبي بكر بن القوطية، وقرأ الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشي، راوية النسائي، وغيره من رؤساء أهل المشرق وبرع براعة عظيمة مع نوازع سعد وبوادر حظ من الحكم المستنصر، فقربه وصرفه في مهم الأمانات وأصنافها فاجتهد في كل ما قلده، واضطلع بجميع ما حمله.

وكان ابن أبي عامر في أثناء ذلك كله يدبر للوصول إلى السلطة العليا، فلما سمت الحال بمحمد بن أبي عامر واستتب به عمل فأعمل الحيلة والتدبير في إسقاط جعفر بن عثمان المصحفي والانفراد بالدولة، فلم يجد لذلك سببا أقوى من مظاهرة الوزير أبي تمام غالب الناصري، صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى، شيخ الموالي قاطبة وفارس الأندلس يومئذ غير مدافع له، وكان بينه وبين الحاجب ابن عثمان (المصحفي) عداوة ومنافسة.

والتأمت حال غالب صدر دولة هشام في سنة ولايته لما ملك جعفر أمرها، وبان تقصير غالب في مدافعة أعداء الله، وخاف أن يصل أمره إلى الخلاف والمعصية، فأشار ابن أبي عامر في استصلاحه ورعي ذمامه، ولم يزل ابن أبي عامر يقوم بشأنه، ويخدمه داخل الدار عند السيدة

أم هشام وسائر الحرم، حتى تم مراده فيه فى أن يستعين به على إهلاك المصحفى، فأنهض غالبا إلى خطة الوزارتين وأنفذ إليه كتاب الخليفة بذلك وأمره بالاجتماع مع ابن أبى عامر على التدبير على الصوائف، على أن يدبر ابن أبى عامر جيش الحضرة ويدير غالب جيش الثغر.

محمد بن أبى عامر يصل إلى القيادة العليا :

وخرج ابن أبى عامر بالصائفة يوم الفطر ٣٦٦هـ/ أبريل ٩٧٧م فاجتمع مع غالب بمدينة مجريط، واتفق معه على التظاهر على جعفر ما أصاب به قلبه واتفقا وتوافقا، وخدم ابن أبى عامر غالبا فى سفره هذا خدمة ملك بها نفسه، فمال إليه غالب بكليته واستمرا فى غزوها، وافتتح حصن موله، وظفرا فيه على سبى كثير، وغنم المسلمون أوسع غنيمة، وكان أكثر الأمر فيها لغالب، فتجافى عنه لابن أبى عامر، وسار معه إلى ثغره، ومنه فارقه بعد أن أبلغ فى مواطأة محمد بن أبى عامر على عدوه جعفر بما أراده.

وقال غالب لابن أبى عامر عند وداعه : سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر (المصحفى) عن المدينة وتتقلدها دونه، فاعتقد محمد ذلك، وخاطب غالب الخليفة هشاما بحسن مناب ابن أبى عامر فى هذه الغزوة، ونسب السعى والاجتهاد إليه، وشكره، وشد عضده عند الخليفة.

وعاد محمد بن أبى عامر إلى حضرة قرطبة منصرفا بالسبى والغنائم، فاستمال محمد بن أبى عامر بهذا الفتح قلوب العامة والخاصة، وتعرفوا فيه يمن النقيبة، فبعد صيته وهان إليه أمر جعفر وغيره، وشرع فى هدمه، فخرج أمر الخليفة يوم وروده بصرف محمد بن جعفر بن عثمان عن

المدينة وتقليدها محمد بن أبي عامر، فخرج محمد نحو كرسيها فى هذا اليوم والخلع عليه، وليس عند جعفر علم بذلك.

وكان محمد بن جعفر جالسا فى مجلسها فى أبهة إذ صعد ابن أبى عامر نحوه، وملك ابن أبي عامر الباب بولاية الشرطة والجيش بقوده له، والدار بعناية الحرم به، فملك على جعفر بذلك وجوه الحيلة وخلاه وليس له من الأمر إلا أقله، فضبط محمد المدينة ضبطا أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاة وأولى السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويكابدون من روعات طرقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو، فكشف الله ذلك عنهم بمحمد بن أبي عامر وكتابته وتنزهه هو عما كان ينسب لابن جعفر، فسد باب الشفاعات، وقمع أهل النسق والدعارات حتى ارتفع البأس وأمن الناس، وأُمنت عادية المتجرمين من حاشية السلطان، حتى لقد عثر على ابن عم له يعرف بعسقلاجه، فاستحضره فى مجلس الشرفة وجلده جلدا مبرحا كان فيه حمامه، فانقمع الشر فى أيامه جملة، واستخلف ابن أبي عامر على المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر، فسلك فى أهل الشر سبيله، بل أربى عليه فى ذلك، فأنكح ابن أبي عامر أسماء بنته، فكانت أحظى فسائه.

ابـن أبي عامـر يصـل إلى الحجابــة :

فلما تم هذا العقد خرج إليها فدخل على طليطلة غرة صفر من سنة ٣٦٧هـ/ نوفمبر ٩٧٧م فاجتمع مع صهره غالب فعظمه وجرى إلى موافقته، ونهضا معا فافتتحا حصن المال وحصن زنبق ودوخا مدينة شلمنقه، وأخذا أرباضها وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبى وبعدد عظيم من رؤوس المشركين بعد ٣٤ يوما من خروجه، فزاد له السلطان فى التنويه وأنهضه إلى خطة الوزارتين، سوى فيها بين غالب وبينه.

واستقدم السلطان غالبا لاستهداء أسماء إلى زوجها محمد، فبالغ في إكرامه، ووقع زفاف أسماء في مشهد بَعُدَ العهد بمثله شهرة وجلالة، وزفت إليه ليلة النيروز من قصر الخليفة، وكانت أسماء هذه توصف بجمال بارع وأدب صالح، وحظيت عند ابن أبي عامر فلم يفارقها.

وقلده الخليفة خطة الحجابة مع جعفر مشتركا، ثم سخط الخليفة على جعفر بن عثمان المصحفي وصرفه عن الحجابة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان ٣٦٧هـ/ فبراير ٩٥٨م، وأمر بالقبض عليه وعلى ولده وأسبابه، وعلى ابن أخيه هشام، وصُرفوا عما كان بأيديهم من الأعمال وطولبوا بالأموال، فتوصل ابن أبي عامر بمحاسبتهم إلى استصفاء أموالهم وانتهاك حرمهم وترديد النكات عليهم حتى مزقهم كل ممزق، وسارع إلى قتل هشام ابن أخي جعفر في المضيق، إذ كان أشد آل عثمان عداوة له، وأخرج إلى أهله ميتا.

واستمرت النكبة على جعفر سنين طويلة، يحبس مرة ويطلق أخرى، وكان جعفر بن عثمان في محنته أخور الناس وأحبهم في الحياة، انتهى به الاستخذاء لمحمد بن أبي عامر والطمع في الحياة أن كتب إليه يعرض نفسه عليه لتأديب ابنيه عبد الله وعبد الملك، فقال ابن أبي عامر، أراد أن يستجهلني ويسقطني عند الناس، وقد عهدوا مني ببابه مؤملا، ثم يرونه اليوم بدهليزي معلما.

ثم جد ابن أبي عامر في مكروهه وأدق حسابه، وأمر بإحضاره إلى مجلس الوزراء بقصر الخلافة، ليناظر بين أيديهم فيما ادُّعي عليه من الخيانة، فتردد إلى هذا المجلس مرارا، وأقبل آخر مرة إليه، ووائق الضاغط يزعجه، والبهر والسن قد هاصاه وقصرا خطاه، والموكل به يحذوه ويستحثه فيقول له جعفر: يا بني رفقا، فستدرك ما تريد، وياليت أن الموت بيع فأعلى الله سومه، وحتى انتهى به إلى المجلس، والوزراء جلوس، فجلس في آخر المجلس دون أن يسلم، فأسرع إليه الوزير محمد بن أبي حفص بن جابر وكان من حزب ابن أبي عامر، فعنفه واستجهله وأنكر عليه ترك التسليم، وجعفر

معرض عنه، فلما أكثر عليه قال له جعفر: يا هذا، جهلت المبرة، فاستجهلت عالمها وكفرت اليد، فقصرت بمسديها، فاضطرب ابن جابر من قوله، وقال: هذا هو البهت بعينه، وأى أياديك الغراء التى مننت بها؟ أيد كذا؟ أم يدكذا؟ وعدد أشياء، فأنكرها عليه الحاجب وقال: هذا لا يعرف، والمعروف دفعى عن يمناك القطع وشفاعتى فيها إلى الماضى (رحمه الله) حين استخونك فى مال كذا، فأصر ابن جابر على الجحد، فقال جعفر أنشد الله من له علم بما ذكرت أن يتكلم، فقال الوزير ابن عباس: قد كان بعض ما ذكرته، وغير هذا أولى بك يا أبا الحسن، فقال: أخرجنى الرجل فقلت.

ثم أقبل الوزير محمد بن جعفر على محمد بن جابر فقال له: أوَما علمت أنه من كان فى سخط السلطان تحاشى السلام على أوليائه، لأنهم إن ردوا عليه أسخطوا السلطان لتأمينهم من أخافه، وإن تركوا الرد أسخطوا الله وتركوا ما أمر به، فكان الإمساك أولى، ومثل هذا لا يخفى على أبى الحسن فخجل ابن جابر وأسفر وجه جعفر وتهلل.

ثم أخذ القوم فى مناظرته على المال فقال: قد والله استنفدت ما عندى من الطارف والتليد، ولا مطمع منى فى درهم، ولو قطعت إربا إربا، فصُرف إلى محبسه فى مطبق الزهراء، فكان آخر العهد به.

تغلب ابن أبى عامر واستبداده بالملك:

لما قتل محمد بن أبى عامر جعفر بن عثمان انفرد بشأنه ورمى الغرض إلا بعد من ضبط السلطان والحجر عليه والاستبداد بالمملكة وأمور الدولة، جرى فى ذلك مجرى المتغلبين على سلطان بنى العباس بالمشرق من أمراء الديلم، حتى أورث ذلك عقبه، فأخذ ابن أبى عامر فى تغيير سير الخلفاء المروانية فى استجهار الأمر لنفسه، وسبك الدولة على قالبه فأداه ذلك إلى مضادة ما كانوا

عليه، فعوض باللين غلظة وبالسكون حركة وبالأناة بطشة وبالموادعة محاربة، فجعل أهل الرأى من مصادر أموره ومواردها يقضون بخروجها عن حد الصواب، وقانون التدبير لها، وربما فاوض جلتهم الرأى فيشيرون عليه من الوجه الذى عرفوه، فيعدل عن ذلك إلى المذهب الذى شرعه.

وكان محمد بن أبى عامر يعرف إلى أين يتجه، ففى سنة ٣٦٨هـ/ ٩٢٨م أمر المنصور ببناء قصره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما استعمل أمره، وأنفذ جمره، وظهر استبداده، وكثر حساده، وضاق على نفسه عن الدخول إلى قصر السلطان، وخاف أن يقع فى اشطان، فتوثق لنفسه، وكُشِف له ما سُتِر عنه فى أمسه من الاعتزاز عليه ورفع الاستناد إليه، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع يصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رياسه ويتمم به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه فارتاد موضع مدينة المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، ونسق فيها كل اقتدار معجز، وشرع فى بنائها فى هذه السنة المؤرخة، وحشد إليها الصناع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وتوسع فى اختطاطها، وبالغ فى رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها فاتسعت هذه المدينة فى المدة القريبة، وبنى معظمها فى عامين.

وفى سنة ٣٧٠هـ/ ٩٣٠م انتقل المنصور بن أبى عامر إليها، ونزلها بخاصته وعامته، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته، وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل بداخلها الأهراء، وأطلق بساحتها الأرحاء، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه، فاقتنوا بأكنافها كبار الدور وجليلات القصور، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتناهى بالغلو فى البناء حولها حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت فى بحبوحتها الإمارة، وأفرد الخليفة من كل

شيء إلا من الاسم الخلافى، ورتب فيها جلوس وزرائه ورؤوس أمرائه، وندب إليها كل ذى خطة بخطته ونصب على بابها كرس شرطته، وأجلس عليه واليا على رسم كرسى الخليفة.

وفى صفة تلك الرتبة المنيفة، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أمور الجبايات ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج.

وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج، فاقتضيت لديها اللبانات والأوطار، وانحشد الناس إليها من كل الأقطار، وتم لمحمد بن أبى عامر ما أراد، وعطل قصر الخليفة من جميعه، وجعله بمعزل عن سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجد فى أى خبر ألا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهى والأمر، ويشرف منه على كل داخل ويمنع ما يحذره من الدواخل.

ورتب عليه الحراس والبوابين والسمار والمرتادين يلازمون حراسة من فيه ليلا ونهارا ويراقبون حركاتهم سرا وجهرا.

وقد حجر على الخليفة كل تدبير ومنعه من تملك قبيل أو دبير، وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء، محجـور الغناء، خفى الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص ولا عام، ولا يعهد منه إلا الاسم السلطانى فى السكة والدعوة.

وقد نسخه ولبـس أبهـته وطمـس بهجـته، وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه، وصيرهم لا يعرفونـه، وأمرهـم أنهم لا يذكرونـه... .... وما زالـت هـذه المدينة رائعة، والعود بلبتـهـا متناسقـة، لا تزحف منها راية إلا إلى فتح، ولا يصـدر عنهـا تدبير، وقيض لهـا من المكروه أوفر نصيب، فتولت فقيدة، وحلت من بهيجتها كل عقيدة.

وفى سنة ٣٧٢هـ/ ٩٧٢م قتل جعفر بن على ابن حمدون، المعروف بابن الأندلسى، وذلك

أن المنصور عزم – بزعمه – على إكرام جعفر المذكور ليلة الأحد ٣ شعبان من السنة مكرا منه وحيلة لقتله، فانتخبه ساقي المجلس بكأس، فقال له ابن أبي عامر: اسقها أعز الناس عليّ، فأمسك الساقي حيرة لكثرة من ضم المجلس من العلية، فزجره ابن أبي عامر وقال: ناولها الوزير أبا أحمد، عليك لعنة الله، فقام جعفر فتناولها على قدمه، واستخفه الطرب حتى قام يرقص فلم يبق فى المجلس أحد إلا فعل كفعله، وأميلت إليه الكؤوس حتى ثقل وانصرف فى بعض الليل مع بعض غلمانه، فخرج إليه معن وأصحابه، ولم يكن فيه امتناع لما كان عليه من السكر، فأخذته السيوف حتى برد، وحز رأسه ويده اليمنى وحملا إلى ابن أبي عامر سرا، فأظهر ابن أبي عامر الحزن عليه.

وفى سنة ٣٧٥هـ/ ٩٧٥م جهز المنصور جيشا كثيفا وبعثه إلى العدوة، فحاصر حسن بن قنون الشريف الحسنى وكان حاول الخروج من الدعوة المروانية، واجتمع إليه خلق من أهل الغرب، وظهر أمره، فوصله الجيش العرمرم، فلم يجد ملجأ إلا الاستسلام للأمان، فأمنه قائد الجيش وحمله إلى قرطبة مرقبا، فلم يمض ابن أبي عامر أمانه وأمر بقتله ليلا فى الطريق بغيا وتعديا، لأن أمان قائده أمانه، فقال من شاهد قتله : إنه هبت عليهم ريح عاصف فى تلك الليلة التى قتل فيها غدرا ذلك الشريف واحتملت رداء حسن المقتول فلم يجدوه، وأظلم عليهم الأفق حتى خافوا على أنفسهم.

وملك ابن أبي عامر الغرب وأخرج منه من كان بقى فيه من الأدارسة.

ثم قام بعد ذلك فى الغرب على ابن أبي عامر زيرى بن عطية المغراوى ونكث طاعته بعد الجد الشديد والولاء الأكيد، وطعن على ابن أبي عامر تغلبه على هشام وسلبه ملكه، فأنفذ له ابن أبي عامر واضحا الفتى فى جيش كثيف فقاومه بالغرب، ودارت بينهم حروب عظيمة، ثم أردفه ابن أبي عامر بولده عبد الملك، وهبط ابن أبي عامر إلى الجزيرة الخضراء يمدهم بالقواد والأجناد، وسار عبد الملك بن أبي عامر من طنجة إلى زيرى بن عطية، ودارت بينهم حرب لم يسمع بمثلها قط، ثم انهزم زيرى ومن معه، وملك ابن أبي عامر بلاد الغرب إلى سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م ميلادية.

وقتل المنصور بن أبي عامر عبد الرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة والثغر الأعلى، وذلك أنه لما فكر عبد الرحمن في شأن من أتلفه ابن أبي عامر من كبار رجال الدولة علم أنه لم يبق غيره وخشي أن تمنعه بالجماعة، فسول له القدر المتاح التدبير على محمد بن أبي عامر وقرب عليه مأخذه ولده عبد الله بن المنصور.

تدبيـــر عبـــد الرحمـــن بـن مطرف مع عبد الله بن المنصور في القيام عليه :

كان عبد الله بن محمد بن أبي عامر مقيما بسرقسطة عند عبد الرحمن (بن مطرف) متغير النفس على أبيه لإحظائه عبد الملك أخيه، وكان عبد الله يرى أنه أشجع وأجهم وأرجل وأفرس من أخيه عبد الملك، وأن أباه ظلمه بذلك، فكان في قلبه على أبيه سعير نار أذكاها عبد الرحمن بن مطرف وأضرمها، فتواطئا بالوثوب على المنصور على أن يقسما الأندلس بينها، فالحضرة لعبد الله والثغر لعبد الرحمن، وشرعا في إحكام سبيل ذلك والتماس وجهه، وساعدهما في ذلك جماعة من وجوه أهل قرطبة من الجند والخدمة وغيرهم، فيهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المرواني، صاحب طليطلة، فانبعثت أراجيف شنيعة تحقق المنصور صحتها ولم يشك فيها، فاستدعى ابنه عبد الله من سرقسطة واستأنف له كثيرا من التقديم والمبرة خديعة ومغالطة، وصرف المرواني عن طليطلة صرفا جميلا، ثم صرفه عن الوزارة بعد مديدة والزمه واره، ثم خرج ابن أبي عامر غازيا إلى قشتيلية، فتوافت إليه أمداد الثغور، فيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجال سرقسطة، فلما صاروا بوادي الحجارة أطبق أهل الثغور على الشكوى بعبد الرحمن بدسيسة من ابن عامر لهم في ذلك، حيلة منه وذكروا أنه يحتبس أرزاقهم ويحتجز لنفسه، فصرفه المنصور عن سرقسطة منسلخ صفر سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م المذكورة، وقلدها مكانه ابن أخيه عبد الرحمن بن يحيى، المعروف بسماجة، إطماعا لقوة التجيبين في المحافظة.

ولبث عبد الرحمن فى المعسكر مترددا إلى أن قبض عليه يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وسخط عليه المنصور وأمر بحسابه، ثم قتل بعد ذلك بالزاهرة، بين يدى المنصور، واستدعى المنصور ابنه عبد الله إلى عسكره خوف أن يحدث حدثا بأنفته، فوافى العسكر فرفق به أبوه وأمّل استصلاحه، وقد ساعد ذلك عليه لسقم سريرته وشدة حقده، ونازل المنصور أثناء ذلك مدينة شنت اشتبين Saint Esataben فلما اشتغل المسلمون بالقتال فر عبد الله بن المنصور من العسكر فى ستة نفر من غلمانه، فلحق بعدو الله غرسية سبن فرذلند صاحب ألبه، فقبله وأجاره على أبيه، فتحرك المنصور لغزو غرسية ومطالبته بإسلام ابنه إليه، وأقسم له أنه لا يقلع عنه حتى يمكنه من ولده، وأصر غرسية على الامتناع من ذلك، فهزم المنصور غرسية فى مسالمته على ما شاء من شروطه فى عبد الله وغيره، فعقد له المنصور على ذلك، فوكل غرسية بعبد الله جماعة من العلوج، وحُمل عبد الله وأصحابه على البغال، وخرج سعد الخادم يستقبل عبد الله، فدنا من سعد على بغل فاره، مرتفع الحلية، عليه ثوب وشى عجيب الصنعة، وهو منطلق قوى الرجاء فى الإقالة، فقبّل سعد يده وأمّنه وهون عليه الخطب، ثم تخلف عنه بقرب الوادى الجوفى، ووكل به من قتله، فحف به الموكلون وأعلموه بموته، وتم قتله فى جمادى الآخرة ٣٨٠هـ/ يونيو ٩٩٠م.

المنصور يقتل ابنه عبد الله:

وكان عبد الله بن المنصور يعرف بشاعة ما فعله وينتظر العقاب عليه، وعرف أن أباه ينوى فأظهر شجاعة عظيمة لدى الموت، فمشى إلى الموت منطلقا، وظهرت منه عند الموت صرامة لها من شاهده، وتقدم إليه ابن خفيف الشرطى فضرب عنقه صبرا عند غروب الشمس من الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة ٣٨٠هـ/ يونيو ٩٩٠م وأرسل المنصور رأس ابنه إلى الخليفة مع كتاب الفتح، ودفن جسده فى الموضع الذى قتل فيه، وكانت سنه يوم قتل ٢٣ سنة، وذلك فى غزوته الخامسة والأربعين.

ثم إن ابن أبي عامل استثقل سعيدا وابن خفيف، ولم يزل حاقدا عليهما حتى قتلهما بين الامتحان، وازداد ابن أبي عامر بما فعله بابنه هيبة، وملئت قلوب الناس منه ذعرا.

وقد ولد عبد الله سنة ٣٥٨هـ/ مارس ٩٦٩م، وقد زعم ابن أبي عامر بعد ذلك أن الجارية أمه حدعته فقد ادعت أنها بريئة من الحمل، وهي حامل بعبد الله.

ملخص مؤامرات محمد بن أبـي عامر :

وقد خصص ابـن عذاري، فقـرة من تاريخـه للكلام على ميـزات المنصور، ننقل هنا بعضها (البيان لابن عذاري ص ٣٨٦) قال :

وكان المنصور آية من آيات فاطره دهاء ومكرا وسياسة، عدا بالمصاحفة (آل المصحفي) على الصقالبة حتى قتلهم وأذلهم، ثم عدا بغالب النصارى على المصاحفة حتى قتلهم وأبادهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى قتله، ثم عدا بنفسه على جعفر وقتله، ثم انفرد بنفسه وصار ينادي حروف الدهر : هل من مبارز ؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، فاستقام أمره منفردا بمملكة لا سلف له فيها، ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدها، لا سلف له فيها، وما توجهت قط عليه هزيمة، وما انصرف عن موقع إلا قاهرا غالبا، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء وواجه من الأمم، وإنها لخاصة ما أحسب شركه فيها أحد من الملوك الإسلامية.

ومن أعظم ما أعين به، مع قوة سعده، وتمكن جده سعة جوده وكثرة بذله، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان، وأول ما اتكأ على آرائك الملك وارتفق، وانتشر عليه لواء السعد وخفق، حط صاحبه المصحفي وأثار له كامن حقده الخفي حتى أصاره للهموم لبيسا، وفي غيابات السجون حبيسا، ثم قتله بعد ذلك.

ثم يخصص ابن عذارى فقرة للزيادة التى أضافها المنصور لمسجد الجامع سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وذكر كيف أضاف المنصور إلى المسجد في شرق، لأن المسجد كان قد وصل إلى النهر وأصبح لا يمكن الزيادة فيه من هذه الناحية.

وقد اجتهد المنصور فى تطييب نفوس أرباب الدور والمستغلات التى اشتريت منهم بيوتهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم فى الثمن أو بمعاوضة، وصنع فى صحنه الجب العظيم قدره الواسع فناؤه، وابن أبى عامر رتب إحراق الشمع فى المسجد الجامع زيادة للزيت، فتطابق بذلك التوازن.

وكان عدد سوارى الجامع، الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبلته ومنارة، ما بين كبيرة وصغيرة ١٤٠١٧ سارية، وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة ٢٨٠ ثرية، وعدد الكئوس ٧٤٢٥ كأس، وزنة مشارق الرصاص للكئوس عشرة أرباع أو نحوها، يصرف منه فى رمضان خاصة، نحو نصف العدد، ومما كان يختص برمضان المعظم ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور، والكبيرة من الشمع توقد بجانب الإمام يكون وزنها من ٥٠ إلى ٦٠ رطلا، يحترق بعضها بطول الشهر، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة.

وكان يخدم الجامع المذكور بقرطبة فى دولة ابن أبى عامر ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين ١٥٩ شخصا، ويوقد من البخور ليلة الختمة ٤ أواق من العنبر الأشهب، و٨ أواق من العدد الرطب.

منشآت المنصور:

ومن ميزات المنصور اهتمامه بالمنشآت وتوسيعه النفقة عليها لأنه كان يسعى للوصول إلى السلطان الأعلى لا رغبة فيما يفيضه هذا السلطان من المال على صاحبه، بل لأنه كان يريد أن يكون سلطة عليا لكى يرى الناس كيف ينبغي أن يتصرف صاحب السلطان.

ومن ذلك كان بنيان قنطرة نهر قرطبة، وكانت قد تهدمت، وقد شرع فى بنيانها سنة ٣٨٧هـ وفرغ منها فى النصف من سنة ٣٨٩هـ/٩٧٩ من أبريل ١٠٠٧م وانتهت النفقة عليها إلى ١٤٠ ألف دينار.

قال ابن عذارى (البيان ٢/ ٢٨٨) : لأن المنصور أوسع فى النفقة عليها إلى درجة لم يعرفها الناس قبله، ومن ذلك أن العمل فيها استدعى شراء قطعة أرض من شيخ من العامة، وكان لا يمكن الاستغناء عنها فى البناء الجديد، فأمر المنصور بإعطاء الرجل أى مبلغ يطلبه ثمنا لأرضه، وظن الرجل أن رجال الحكومة سيجتهدون فى إعطائه أقل ثمن فى أرضه، ولكنه علم أن المنصور أمر بأن يعطى أقصى ما يطلب فطلب الرجل عشرة دنانير ذهبا، واشترط الرجل أن يعطى الثمن دنانير ذهبية صحيحة، فدفعها له رجال المنصور على ما طلب واستولوا على الأرض، وأبلغوا المنصور بذلك، فضحك من غفلة الرجل وأمر أن يعطى تسعين دينارا ذهبية صحيحة ليكون ما وصله عشرة أضعاف ما طلب.

قال ابن عذارى (٢/٢٨٨) : فقبض الرجل ١٠٠ دينار ذهبية، فكاد أن يخرج عن عقله ويجن من الفرح بالمال، وجاء محتفلاً فى شكر المنصور، وصارت قصته خبراً سائراً.

وقد أمر المنصور كذلك ببناء قنطرة على نهر استجة، وهو نهر شنيل، فتجشم المنصور فى بنائها أعظم مؤنة، وسهل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة.

مهارة ابن أبى عامر فى الدعوة لنفسه :

وكان محمد بن أبى عامر فى غاية المهارة فى الدعوة لنفسه، حتى لنراه فى بعض الأحيان يبالغ فى الظهور بمظهر الرجل المؤمن الحق، مع أن الغالب على هذا الطراز من الطامعين فى السلطان نادراً ما يضحون بمالهم أو يقصرون فى مذهب من مذاهب القوة.

وقد حكى مؤرخونا قصصًا كثيرة تدل على أنه كان حريصًا على أن تكون له سمعة عظيمة عند الناس.

قال ابن عذارى فى البيان (٢٨٩/٢): ومنه أنه وقف عليه يومًا فى مجلسه رجل من العامة فناداه: يا ناصر الحق، إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك، وأشار إلى الفتى صاحب الورقة، وكان له فضل محل عند ابن أبى عامر، ثم قال: وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت، فقال ابن أبى عامر: أوَعبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى من ذلك! اذكر مظلمتك يا هذا، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما قطعها من غير نَصَف، وقال ابن أبى عامر: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية، ثم نظر إلى الصقلبى، وهو قد ذهل عقله فقال: ادفع الورقة إلى فلان، وانزل صاغرًا، وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك، ففعل، ومثل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به : خذ بيد هذا الظالم الفاسق وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره، ففعل ذلك وعاد الرجل إليه شاكرًا، فقال المنصور: قد انتصفت أنت، فاذهب لسبيلك، وبقى انتصافى أنا عمن تهاون بمنزلتى فتناول الصقلبى بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقى مع التاجر المغربى، فإنهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الغنى المذكور، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور، وإليه أمر داره وحرمه فدافع الحاكم وظن أن جاهه يمنع من إحلافه، فعرج التاجر بالمنصور فى طريقه إلى الجامع متظلمًا من الفتى فوجه به فى الوقت من حمله إلى الحاكم، وسخط عليه المنصور وقبض نعمته منه ونفاه.

وأمثال هذه الحكايات تبدو وكأنها مفتعلة، رتبها المنصور ليخيف خدمه، أو ليتخلص منهم إذا أراد ذلك، لأننا نعرف أن المنصور نفسه كان ظالمًا منتزعًا للسلطان من الخليفة الصغير المسكين الذى كان يخدمه، وقد فعل بناس كثيرين ظلما أسوأ من هذا بكثير، وكأنه كان يريد من وراء أمثال هذه

الحكايات أن يحسن سمعته عند الناس، ويبدو حاكما عادلا حريصا على الحق، ولكن الناس كانوا أذكى منه، فقد عرفوا فعلا أن محمد بن أبى عامر كان يدبر هذه الحكايات دعاية لنفسه، وهو نفسه كان من أظلم الناس وأبعدهم عن الضمير.

قيام المنصور بغزوة شنت ياقب :

وكان محمد بن أبى عامر يعرف اهتمام الناس بأخبار المغازى، وكان هو نفسه شديدا الاهتمام بها، ويقول مؤرخوه : إنه قام بمائة غزوة، ولكننا عندما دققنا فى تفاصيلها تبينا أن معظمها كان غزوات بسيطة، وأن عددها كان أقل بكثير من خمسين، ولكننا نورد هنا أقوال مؤرخى ابن عامر، لأنها تعطينا الصورة التى أراد الرجل أن تكون له فى أذهان معاصريه.

ولكن أكبر غزواته على أى حال هى غزوته لشنت ياقب فى جليقية، ويبدو صحيحا فعلا أن محمد بن أبى عامر قام بغزو شنت ياقب فى جليقية وخاصة إذا عرفنا أن غزوته لشنت ياقب لم يطل مداها، ولم تترك هناك أثرا بعيد المدى.

وإليك تفصيل هذه الغزوة كما أورده ابن عذارى فى البيان (٢٩٥/٢) :

خرج المنصور إليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخر، سنة ٣٨٧هـ/ يونيو ٩٩٧م، وهى غزوته الثانية والأربعون، ودخل على مدينة قورية، فلما وصل المنصور إلى مدينة غليسية وافاه عدو عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة فى رجالهم، وعلى أتم احتفالهم فصاروا فى عسكر المسلمين، وركبوا فى المغاورة سبيلهم.

وقد كان المنصور تقدم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويره، فدخل إلى

المكان الذى عمل المنصور على العبور منه، فعقد هناك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هناك، ووزع المنصور ما كان فيه من الميرة على الجند، فتوسعوا فى التزود منه إلى أرض العدو، ثم نهض يريد شنت ياقب، فقطع أرضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر.

ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى جبل شامخ شديد الوعر ومباسيطه والدير وما يتصل بها، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد قنطارش ومباسيطه والدير وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه، ولا طريق، لم تهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر وعبروا بعده وادى منيه.

وانبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة وأراضين أريضة، وانتهت معبرتهم إلى دير قسطان، وبسيط جلبنوس على البحر المحيط، وفتحوا حصن شنت بلاية وغنموه، وعبروا سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط، لجأ إليه خلق عظيم من أهل تلك النواحى فسبوا من فيها ممن لجأ إليها.

وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقى، فى معبرين، أرشد الأدلاء عليهما، ثم نهر أبله، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة منها بسيط أونيه وقرجيطة ودير شنت برية، ثم انتهوا إلى خليج إيلياء، وهى من مشاهد ياقوب؛ أيضا، صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل، يقصد نساكه لهم له أقاصى بلادهم.

وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وغنموا آثارها، ووكل المنصور بقبر ياقوب من يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما، وانتسفت بعوله بعد

البحر المحيط، وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم، ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يلن بعدها للخيل مجال.

وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله، فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بن أردون ليستقر به غانما ومفسدا حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين فى عسكره، وأمر بالكف عنها، ومر مجتازا حتى خرج إلى حصن مليقة من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم فى بلادهم، وكتب بالفتح من مليقة، وكان مبلغ من أكساه ابن أبى عامر فى غزاته هذه من ملوك الروم ولمن حسن عناؤه من المسلمين ٢٢٨٥ شقة من صوف الخز الطرازى، و٢١ كساء من صوف البحر وكسائين عنبريين، و١١ سفلاطونا، و١٥ مربشات و ٧ أنماط ديباج وثوبى ديباج رومى وفروى فنك.

ووافى جميع العسكر قافلا إلى قرطبة سالما غانما، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين.

ولم يجد المنصور بشنت ياقب إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر، فسأل عن مقامه، فقال: أوانس يعقوب، فأمر المنصور بالكف عنه.

وقال الفتح بن خاقان : وتمرس المنصور أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد بقاع، وولى على بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع، ونغص بالحمام أرواحهم، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم.

ومن أوضح الأمور هنالك، فبينا يجول فى ساحتها ويجيل العين فى مساحتها إذ عرضت له امراة قديمة الأسر قويمة على طول الكسر، فكلمته وعرفته بنفسها وأعلمته وقالت له : أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد قضت لبوسها، وزعمت أن لها عدة من السنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصغار ملبسة، وناشدته الله فى إنهاء قصتها، وإبراء

غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه فى ذلك أوكد مواثيق الرحمن، فلما وصل إلى المنصور عرفه بما يجب من تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ له حتى أتم كلامه.

فلما فرغ قال له المنصور: هل وقفت هنالك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته، فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه، والمواثيق التى أخذت عليه فعتبه ولامه على أنه لم يبدأ بها كلامه.

ثم أخذ فى الجهاد من فوره، وأصبح غازيا على سرجه، مباهيا مروان يوم مرجه، حتى وافى ابن أبى عامر فى جمعه، فأخذت مهابته ببصره وسمعه فبادر بالكتابة إليه يتعرفه ما هى الجنية، ويحلف له بأعظم أليه ما جنى ذنبا، ولا نبا عن مضجع الطاعة، حينما فعنف أرساله وقال لهم: كان قد عاهدنى ألا يبقى بأرضه مأسورة ولا مأسورا، ولو حملته فى حواصلها النسور، وقد بلغنى بعد مقام فلانة المسلمة بتلك الكنيسة، ووالله! لا أنتهى عن أرضه حتى أكتسحها.

فأرسل إليه المرأة فى اثنتين معها وأقسم له أنه ما أبصرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنسية التى أشار بعلمها قد بالغ فى هدمها تحقيقا لقوله، وتضرع له فى الأخذ بقوله، فاستحيا منه وصرف الجيوش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه وألحق توحشها بأنسه، وغير سوء حالها وعاد يواكب نعماه على جذبها وإمحالها وحملها إلى قومه وكملها بما كان شرد من نوقها.

عقل ابن ابى عامر وبعد نظره:

وقد رأيت فيما مضى من كلامنا أننا أنكرنا استبداد ابن أبى عامر بالملك فى الأندلس واجتهاده فى القضاء على كل سلطان للخليفة الأموى فى الأندلس هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، لأننا مهما كان رأينا فى محمد بن أبى عامر لا يمكننا أن ننكر استبداده بالملك وتصرفه على نحو يدل

حقيقة على أن الله خلق هذا الإنسان وجعل فيه حب الملك، وولعه بالسلطان، وقيامه بالأمر بصورة كاملة تدل على أنه فعلا خلق الملك والاستبداد بالسلطان.

حقا إن الخليفة الأموى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر الذى استبد بالسلطان من دونه كان غلاما لا يجاوز عند وفاة أبيه الأحد عشر عاما، ولكن ابن أبى عامر استبد به ومنعه من الاتصال بالناس، وتولى هو الأمر وتصرف تصرف خلفاء، وأنشأ لنفسه جيشا من بربر إفريقية واعتمد على هذا الجيش فى فرض سلطانه.

حقا إن ذلك الجيش أصبح كارثة على الأندلس بعد وفاته ووفاة ابنه عبد الملك المظفر سنة ١٠٠٩ ميلادية، ولكن ابن أبى عامر حكم الأندلس وجزءاً من الغرب الأقصى وتصرف تصرف ملوك وكان إلى جانب سلطانه السياسى عظيم الإيمان بالإسلام، فكان يجهد نفسه فى عمله، فلم تكن المسألة استبداد فحسب، وإنما كانت استبدادا وحكما.

قال ابن عذارى فى البيان (٢٩٨/٢): وحدث شعلة، الراوية قال: قلت للمنصور ليلة طال فيها سهره: قد أفرط مولانا فى السهر، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم ما يحركه عدم النوم من علة العصب، فقال لى: « إن الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومى لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة ».

وكان المنصور يزرع فى كل سنة مليون متر من الشعير فصيلا لدوابه الخاصة به، إذا قدم من كل غزوة من غزواته، لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلمه ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية فيعلمه بما وهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره، وكان له كل يوم ١٢ ٠٠٠ رطلا من اللحم حاشى الصيد والطير والحيتان، وكان يصنع فى كل ١٢ ٠٠٠ ترس عامرية لقصرى الزهراء والزاهرة، وابتنى المنصور على طريق المباهاة والضخامة مدينة الزاهرة ذات القصور والمتنزهات المخترعة، كذات الواديين، ومنية السرور وأرطانية وغيرها من منشآته البديعة.

وقد كان استبداد محمد بن أبي عامر بالسلطان من أسباب ضعف الأندلس وسقوطه في يد النصارى لأنه قضى باستبداده على البيت الأموى الأندلسى، وقد رأينا كيف استبد بالخليفة هشام المؤيد.

ونضيف إلى ذلك هنا أن ذلك الرجل قضى على خيرة رجال بنى أمية لكى يطمئن على استمرار استبداده بالأندلس، وكأنما كان هذا الرجل يرى أن الأندلس لا يحتمل إلا لصا واحدا، هو محمد بن أبي عامر نفسه، ولهذا فقد قضى على الكثيرين، ولكننا رأينا بعد ذلك أنه لم يكن من الضرورى أن يقضى على هؤلاء الرجال، لأن الأندلس كان فى حاجة إليهم، وقد رأينا أنه بلد حرب، ورأينا عبد الرحمن الناصر يقضى فوق الأربعين سنة محاربا فى سبيل الأندلس، لأن الأندلس قام فى قلب أوروبا وكان لا بد له من أن يحارب ليعيش، وكان ملوك اشتورياس يستعينون بأوروبا كلها فى حرب المسلمين، ولو أن المسلمين كسبوا هذه الحرب فى النهاية لما كانت هناك اليوم إسبانيا ولا فرنسا، وكانت أوروبا ستأخذ شكلا آخر.

وكان محمد بن أبي عامر يعرف ذلك، ولهذا قضى مدة استبداده بالسلطان فى حرب (حوالى ٢٦ سنة) وكان الأندلس يحارب أوروبا كلها، والبابوية كانت تدعى ملكية إسبانيا، ولا تقصر فى الحرب مع المسلمين، ولكن لو أن الأندلس حكمه ثلاثة أو أربعة من طراز عبد الرحمن الناصر لانتهت هذه المقاومة النصرانية ولأصبح للغرب الإسلامى صورة أخرى، ولكن ذلك كان شبه مستحيل، لأن الذين كانوا يموتون فى حروب الأندلس كانوا كثيرين جدا.

وليس هناك شك فى أن المنصور محمد بن أبي عامر لم يغز الغزوات التى زعم أنه قام بها وتزيد على خمسين غزوة، لأن حروب الأندلس كان لا بد أن يقوم بها رجال من طراز عبد الرحمن النار لا يعرفون التعب أو الخوف، ولم يكن محمد بن أبي عامر من هذا الطراز.

وفـاة المنصـور محمـد بـن أبى عامـر :

توفى المنصور محمد بن أبى عامر ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان المعظم وهو ابن خمس وستين سنة وعشرة أشهر، وكان له من الولد الذكور يوم وفاته اثنان : عبد الرحمن الناصر، الملقب بشنجول، وشنجول Sanchuilo هو جده لأمه، وكانت مدة توليه الحجابة إلى أن توفى ٢٥ سنة وأربعة وأربعين يوما، وترك من الأموال الناحية بالزاهرة أربعة وخمسين بيتا، وكانت عدة الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها الذين حارب بهم الحروب ٥٠٠ ١٠ وأجناد الثغور قريبا من ذلك، وقد قيل فيه:

آثار تنبـــــيك عن أخـــــبــــاره
حــــتى كــــأنك بالعــــيــــون تراه
تالله مـــــا ملك الجـــزيرة مـــثله
حــقـــا ولا قـــاد الجــيـــوش ســـواه

وذكر أن هذين البيتين قد نقشا فى رخامة.

قال ابن عذارى (البيان ٢/ ٣٠١) وكانت عدة غزواته ٥٧ غزوة باشرها كلها بنفسه، وهو فى أكثرها يشكو علة النقرس.

وقد اشتهر الرجل بذكائه، وقد رأينا كيف وصل إلى السلطة العليا بذكائه وحسن تدبيره، وقد قدم للأندلس خدمات لا شك فيها، وإن كنا لاحظنا بعده عن الأخلاق، ولكن هكذا السياسة فى كل زمان ومكان.

ذكــر ولايتــه ابنــه عبـد الملك الحجــابـة خلفـا لأبيــه :

خلف المنصور محمد بن أبي عامر في السلطان على الأندلس ابنه أبو مروان الملقب بالمظفر بن محمد بن أبي عامر، بعد موت أبيه يوم الاثنين ٢٧رمضان سنة ٣٩٢هـ/ يونيو ١٠٠٢م، ولقب المظفر وسيف الدولة.

ويوم توليه نفذت كتبه بتولية السلطان مكان أبيه فاستوسق له الأمر، ولم يرد أحد من الولاة طاعته، واجتمع الناس على حبه، وكان مع غلبة النبيذ عليه واستغراقه في لذاته مراقبا لربه، باكيا على ذنبه، محبا في الصالحين يستهدى أدعيتهم ويجزل الثواب عليهم، وكان يظهر العدل ويحمى الشرع ويرفق بالرعية ويحط عنها البقايا بعد أن أسقط عن جميع البلاد سدس الجباية، وكان أبر الناس بأبيه وأثبتهم على عهده، وأوصلهم لأهله وصنائعه، وكان لوالدته كذلك، ما عدل بها في سلطانها أحدا، ولا غيّر لها حالا ولا خالف لها أمرا، وكان من فرط الحياء مع الشهامة في غاية بعيدة.

وكان له في بلاد الروم آثار عظيمة، غزا سبع غزوات في مدته وفي السابعة توفي، قيل : إنه مات مسموما، وقيل : مات من علة الذبحة، وكان موته بمنزل أم هانئ بمقربة من اربلاط، ليلة الجمعة لأربع خلون لصفر من سنة ٣٩٩هـ/ يونيو ٩٢١م.

وفي سنة ٣٩٩هـ/ ٩٢١م كانت أولى غزواته إلى بلاد الإفرنج، وفتح حصن ممقصر من ثغر برشلونة عنوة وأسكنه بالمسلمين، ودوخ بسيط برشلونه وما اتصل به.

قال ابن حيان : وأظهر عبد الملك الجد في أمر هذه الغزوة غرة رجب من السنة، ودفع في دفع المصاريف والصلات إلى طبقات الأجناد الغازين معه فيها أولا، ووافت الحضرة لأول هذا الوقت

طوائف كثيرة من مطوعة العدوة المجاهدين للحسبة فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم، وعصابة كبيرة من فقهائهم يبغون مشاهدة هذه الغزوة المحتفل لها فى هذه السنة فتسابقوا إلى الورود قبل حضورها.

وتعرض قوم من أمراء هذه القبائل ورؤسائهم لصلة عبد الملك بن المنصور، فأطلق لهم عند تكاملهم ببابه نحو خمسة عشر ألف دينار عينا، صلة لهم وزعها عليهم بحسب مقاديرهم، معونة على جهادهم، قبلوها منه بالتأول وتحرج آخرون، فمن وافى معهم من فعلهم، واتصل ورود أمداد المطوعة من كل قوم ومن كل ناحية، فتكاملت الحشود بالحضرة، ودنا وقت الحركة فوقع الجد وصب المال صبا، وعهد عبد الملك إلى خزان الأسلحة بتوزيع ٥٠٠٠ درع وخمسة آلاف بيضة وخمسة آلاف مغفر على طبقات الأجناد الدارعين فى جيشه.

وركب عبد الملك إلى المسجد الجامع بحضرة قرطبة لشهود عقد الألوية لهذه الغزاة على عادة أمراء الأندلس قبله يوم الجمعة لثمان خلون من شعبان من هذه السنة، ثم خرج الحاجب عبد الملك يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من شعبان، فكان خروجه على باب الفتح الشرقى من أبواب مدينة الزهراء، وقد اجتمع الناس لرؤيته، فخرج إليهم شاك السلاح فى درع جديدة سابغة، وعلى رأسه بيضة حديد مثمنة الشكل مذهبة شديدة الشعاع.

وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة فى أحسن تعبئة فساروا أمامه، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه، وسار الحاجب عبد الملك إلى أن نزل يمنية ارملاط أول محلاته، ثم رحل فى جيوشه غداة يوم الثلاثاء بعده سائرا لوجهته وعساكره محدقة به إلى أن وصل طليطلة لسبع بقين من شعبان فتلوم بها يوم الجمعة، ورحل يوم السبت إلى أن وصل مدينة سالم فوافاه هناك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم، أرسل بهم خاله شانجه بن غرسية، زعيم الجلالقة وصاحب قشتيلة

والبة، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدى عبد الملك على ما تضمنه شرط سلمهم المنعقد صدر هذه الدولة وأول هذه السنة المؤرخة وافين بالعهد حافظين للحرمة، فأحسن عبد الملك قبولهم وأوسع إنزالهم وأصعد عن مدينة سالم نحو الثغر الأعلى فاحتل سرقسطة، ثم رحل عنها.

وتعرض قوم من أمراء هذه القبائل (المغربية) ورؤسائهم لصلة عبد الملك، فأطلق لهم عبد الملك ببابه نحو ١٥٠٠٠ دينار عينا، صلة لهم وزعها عليهم بحسب مقاديرهم معونة على جهادهم قبلوها منه بالتناول، وتحرج آخرون ممن وافى معهم عن فعلهم، واتصل ورود إمداد المطوعة من كل قوم وكل ناحية، فتكاملت الحشود بالحضرة، ودنا وقت الحركة فوقع الجد وصب المال صبا، وعهد عبد الملك إلى خزان الأسلحة بتوزيع ٥٠٠٠ درع و٥٠٠٠ بيضه و٥٠٠٠ مغفر على طبقات الأجناد الدارعين فى جيشه.

وركب عبد الملك إلى المسجد الجامع بحضرة قرطبة لشهود عقد الألوية لهذه الغزاة، على عادة أمراء الأندلس قبله يوم الجمعة لثمان خلون من شعبان من هذه السنة، ثم خرج الحاجب عبد الملك يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من شعبان، فكان خروجه على باب الفتح الشرقى من أبواب مدينة الزاهرة، وقد اجتمع الناس لرؤيتة فخرج عليهم شاكى السلاح فى درع جديدة سابغة، وعلى رأسه بيضة حديد مثمنة الشكل، مذهبة شديدة الشعاع، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة فى أحسن تعبئة، فساروا أمامه، وقد تكنفه الوزراء النازون معه، وسار الحاجب عبد الملك إلى أن نزل بمنية أرملاط أول محلاته.

ثم رحل بجيوشه عن أرملاط غداة يوم الثلاثاء بعده سائرا لوجهته، وعساكره محدقة به، إلى أن وصل طليطلة لسبع بقين من شعبان، فتلوم بها يوم الجمعة، ورحل يوم السبت إلى أن وصل مدينة سالم، فوافاه هناك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم أرسل لهم ملك القوط يومئذ،

أذفونش بن أردن، المعروف بابن البربرية، ومعهم آخرون ممن أرسلهم خاله شانجه بن غرسية، زعيم الجلالقة، وصاحب قشتيلة وألبه.

وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدى عبد الملك على ما تضمنه شرط سلمهم المنعقد صدر هذه الدولة، وأول هذه السنة المؤرخة، وافين بالعهد، حافظين للحرمة، فأحسن عبد الملك قبولهم وأحسن إنزالهم، وأصعد عن مدينة سالم نحو الثغر الأعلى فاحتل سرقسطة ثم رحل عنها.

وأخرج عبد الملك مولاه واضحا فى نخبة فى رجاله إلى حصن مدنيش بقرية من حصن ممقصر الذى عمل على قصده لانتهاز فرصة من أهله، فسار واضح لذلك ففتح هذا الحصن مع إسفار الصبح وأحاط بأهله، ورحل غالب.

أما الحصن المذكور فتلقته رسل واضح فبشرون فاستبشر بذلك، وأشرف المسلمون على حصن ممقصر فكبروا لما نظروا إليه تكبيرا عاليا كادت الأرض ترجف له، وتتابع قرع الطبول من جهات العسكر وطم هوله، فذعر الكفرة لأول وقتهم، واحتل الحاجب معسكر المسلمين بساحتهم فأحاطوا بالحصن من جميع جهاته، وأقام مراتب الحرس بنواحيه، وصمم نحو أعداء الله صاعدين إلى الحصن لحربهم فوجا بعد فوج.

وقد برز المشركون إلى الربض يمانعونهم عنه بزعمهم، فنشب القتال بين الطائفين وصبر المشركون فلم يحملهم المسلمون إلا ريثما كشفوهم عن الربض بأسره وأقحموهم خلف السور، واضطروهم إلى التحصن به.

ثم جد الكفرة فى الدفاع وصدقوا القراع، فتجرعوا أكؤس الحمام دراكا، وضرب الليل برواقه فحجز بين الفريقين، وقد ثلم المسلمون فى السور ثُلَما كبيرة، ثم غدا المسلمون على قتال الكفرة إثر صلاة الفجر من يوم الثلاثاء بعده، فناهضوا أعداء الله بأصح عزيمة، وقامت الحرب على ساق، وحمى وطيسا، فصبر المسلمون على مباشرتها أكرم صبر سمع به، حتى ولى الكفرة الأدبار.

ملوك ورؤساء دول إسبانيا النصرانية فى القرن العاشر

ملوك اشتريس	أجناد قشتاله	المملكة البشكنسية	المملكة البشكونسية	أجناد برشلونه
الفونسو الثالث الكبير ٨٦٦- ٩١٠ غرسية الأول ٩١٠-٩١٤ اردينو الثانى ٩١٤- ٩٢٤ فرويله الثانى ٩٢٤-٩٢٥ الفونسو الرابع ٩٢٥- ٩٣٢ راميرو الثانى ٩٣٢-٩٥٠ الراهب اردونيو الثانى السيئ ٩٥٨- ٩٦٠ اردونيو الثالث برطودو الثانى ٩٨٤- ٩٩٩ الفونسو ٥ ٩٩٩-١٠٢٨ سانشو الأول السمين ٩٥٥- ٩٦٦ راميراو ٣ ٩٦٠- ٩٨٤	نونيو راسورا جنزالو فزناندث فرنان جنزالز غرسية فرناندز سبانشو غرسية٢ ٩٩٥- ١١٠٧ ٩٩٥- ١٠١٧	سانشو غرسية ١ ٩٠٥- ٩٢٦ غرسية سانشذ ١ ٩٠٥- ٩٢٦		

وكان عبد الملك المظفر شديد الاهتمام بالغزو، والغالب أنه كان ينفذ بذلك رغبة أبيه المنصور، وكان المنصور قد رباه على أن يخلفه في الحكم، وكون طائفه قوية من القادة وكبار المقاتلين ليخدموه، ومن هؤلاء واضح، وهو مولى بربرى عظيم المهارة. وقد ظهر أمر واضح فى أيام عبد الملك وسيكون له شأن كبير فى عصر الطوائف، الذى سيخلف عصر الخلافة.

وكان عبد الملك لا يقصر أبدا فى موضوع الغزو، فإذا لم يخرج هو أرسل أحد مواليه، وقد هابه ملوك إسبانيا النصرانية.

وكان عبد الملك غاية فى الجد فى أمر الغزوات، ومن ذلك أنه أرسل فى أثناء غزوته لبلاد الإفرنج سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤، ١٠٠٥م أخرج مولاه واضحا إلى مكان آخر فيه جمع عظيم من أهل البسائط المستباحة فسرى إليهم واضح وأوقع بهم وقتل منهم خلقا عظيما.

وفى سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٤، ١٠٠٥م خرج عبد الملك غازيا إلى بنبلونه وهى الرابعة من غزواته فدخل سرقسطة، ثم إلى وشقة، ثم إلى بربشتر، فمنها أمر عبد الملك بالدخول إلى أرض العدو وأغار على بسيط حصن أبنيوش، وقد فر أهله وخلوه، فهدمه ثم رحل منه إلى شنت بوانش فجالت الخيل فى بسائطه وبلغت من انتسافها إلى أبعد غاية، وشكر الناس مولاهم على جدد عندهم من فضله.

قال ابن عذارى (١٣/٣) : وكان أهل قرطبة على الحيلة من قلة الرضى عن أملاكهم العامريين بحال من الجور عظيمة إلى أن وثبوا عليهم فأهلكوا الدولة وبها حان حينهم.

قال ابن عذارى : وفى هذه السنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦، ١٠٠٧م، مد (عبد الملك) يده إلى البكرى بولبة وشلطيش، وكان هذا الفتى أبو زيد البكرى وارث ذلك العمل لأبيه، وكان أبوه من بيت السرو والحسب والجاه والنعمة والاتصال القديم بسلطان الجماعة.

وكان له ولسلفه قبل إسماعيل بن عباد جد المعتضد وسائل وأذمة خلفا فى الأعقاب اغتر بها عبد العزيز البكرى فبادر بالبعثة إلى المعتضد عند دخوله لبله يهنئه بما تهيأ له منها، وذكره بالذمام الموصول بينهما واعترف بطاعته، وعرض عليه التخلى عن ولبة وإقراره بشلطيش إن شاء، فوقع له ذلك من المعتضد موقع إرادة، وورد له الأمر فيما يعزم عليه، وأظهر الرغبة فى لقائه، وخرج نحوه يبغى ذلك فلم يطمئن عبد العزيز إلى لقائه، وتحمل بسفنه بجميع ماله إلى جزيرة شلطيش وتخلى المعتضد عباد عن وليه فحازها (حوزه للبله وبسط الأمان لأهلها واستعمل عليها ثقة من رجاله، ورسم له القطع بالبكرى ومنع الناس طرا من الدخول إليه، فتركه محصورا فى وسط الماء إلى أن ألقى بيده من قرب، ولم يغرب عنه الحزم فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاق صاحبه ابن يحيى إلى مأمنه، فكان ذلك، ولحق بقرطبة فبوشر منه رجلا سريا عاقلا عفيفا أديبا يفوت صاحبه ابن يحيى جلالا وخصالا إلى زيادة عليه بيت السرد والشرف، وباين له من الفتيان فذ الأقران جمالا وبهاء ومعرفة يكنى أبا عبيد، وتحدث الناس من حزم عبد العزيز يومئذ أنه لما وصل شلطيش علم أنه لا يقاوم عبادا، فأخذ بالحزم وتخلى له عنها بشروط وفى له بها، فباع منه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال، واحتل قرطبة فى كنف ابن جهور المأمون على الأموال والأنفس وصفت لعباد تلك البلاد.

وقد أخطأ ابن عذارى فى إيراد هذه التفاصيل هنا.

إسبانيا النصرانية فى عصور عبد الرحمن الناصر وابنــــه الحكـــم المستنصـــــر، وبنـــى عامـــر:

ولم تكن إسبانيا النصرانية فى حالة ضعف فى عصر الناصر ومن جاء بعده إلى نهاية الخلافة، فبعد وفاة راميرو الثانى ملك قشتالة، وكان عبد الرحمن الناصر إذ ذاك قد حكم حكما قويا مدى أربعين سنة وعمل فى خدمته موالى عظماء مثل قند وقند الكبير الذين قاموا بنصيب كبير فى ميادين الجهاد خلال عصر الناصر ومن جاء بعده مثل قند موالى الناصر ومن جاء بعده.

وكان لقند هـذا بنت جميلـة تسمى عاتكـة، وقـد تزوجت من أبى بكـر، الأخ الأكبـر لأبى محمد على بن حزم، الذى توفى فى سن باكرة فى الثانية والعشرين من عمره بالطاعون فى يونيو ١٠١١م قرب طليطلة وفى منطقة سلمنقة، وفى سنة ٩٤٨ أو ٩٤٩م، بعد أن قام بغزوة بعيدة فى بلاد القشتاليين ووصل إلى ارتجيرة Ortigueira فيما يلى لك أو Lugo فى الشمال على المحيط الأطلسى، وبعد ذلك بقليل فى سنة ٩٥٠م، وأغار على أرض النصارى وعاد ومعه ألف من أسرى النصارى.

وقد سبق أن ذكرنا أننا هنا فى الأندلس نواجه أوروبا كلها، فإن إسبانيا وفرنسا تعتبر قلب أوروبا الغربية ومن هنا كانت ضرورة الحرب الضروس للاحتفاظ بالأندلس حرا قادرا على مواجهة أوروبا كلها، وعلى أى الأحوال.

إسبانيا النصرانية فى اوجها:

وقد كانت قوة إسبانيا النصرانية راجعة إلى أنها كانت- بالاشتراك مع غالة وهى فرنسا – تمثل قلب أوروبا الغربية، وكانت الدول الإسلامية تستطيع التغلب على إسبانيا النصرانية لو أنها أخرجت عددا من السلاطين الأقوياء مثل عبد الرحمن الناصر واحدا بعد الآخر، فهنا كانت قوة إسبانيا النصرانية تنتهى وتتحول إلى بلد إسلامى قوى يحكم إسبانيا وفرنسا وربما إنجلترا والمانيا، ولكن ذلك كان مستحيلا، لأننا رأينا أن الحرب فى الأندلس تتكلف كثيرا جدا ويهلك فيها الألوف.

وكان غرب أوروبا فى الواقع يدافع عن وجوده نفسه ضد الإسلام، فقد كانت هناك البابوية، وكانت تعتبر شبه الجزيرة الأيبيرية ملكا لها وتجند كل قوات الغرب الأوروبى للحرب فى سبيل إسبانيا.

وقد عرف عبد الملك بن المنصور محمد بن أبى عامر كيف يواصل الحرب الضروس مع أوروبا،

ومن حسن حظ البابوية أن غرديش إسبانيا النصرانية فى شمال شبه الجزيرة كان يحتلها ملوك أقوياء نشطين، فقد كان على عرش قشتالة سانتو الأول، وهذا الرجل عندما وجد أنه لا يستطيع الثبات للمسلمين فانضم إلى عبد الملك وجعله يوجه كل قواه إلى ابن عمه أردونيو الرابع ملك ليون، وفى نفس الوقت اشتركت الملكة توطة وغرسية الأول، وهما منافسان لسانشو الأول فى حرب سانشو الأول حليف عبد الملك وتابعه، وشغلا كذلك فرنان جنذالذ فى حدوده الشرقية.

وكان غرسية الأول ملكا مخلوعا، خلعه سانشو الأول، فاتجه عبد الملك لحرب سانشو الأول فى ربيع ٣٤٧هـ/ ٩٥٩م، وفى نفس الوقت اتجه أردونيو الرابع إلى اللجوء إلى اشتريس والاعتصام بها، واستطاع أن يحتل مدينة ليون حيث كان سانتو الأول يحتل العرش فى النصف الثانى من سنة ٩٦٠م، وذلك بمعاونة عبد الملك بن محمد بن أبى عامر، ومعنى ذلك أن إسبانيا الإسلامية كانت تحكم فى نفس الوقت إسبانيا النصرانية.

وفى نفس الوقت اشتركت الملكة توطة وحليفها الفونسو الأول فى مهاجمة فرنان جونذالذ واحتلا ثرواتنا على مقربة من ناظرا واضطر أوردونيو الرابع بعد طرده من اشتريس، وفى نفس ذلك الوقت توفى عبد الرحمن الناصر وخلفه ابنه الحكم المستنصر.

ولم يتسع أمامنا الوقت بأن ننظر فى علاقات عبد الرحمن الناصر ومن خلفه من رؤساء المسلمين بالاهتمام بعلاقة الأندلس الإسلامى بالثغر الإسبانى فى شمال غربى شبه الجزيرة، ولم يتحدث عن هذه الناحية من مؤرخى الإسلام إلا ابن خلدون، الذى ينقل هنا عن ابن حيان أنه عندما أرسل جى Gui مركيز توسكانيا أرسل سفارة إلى قرطبة حوالى ٩٥٠م، ورافقه فى هذه الرحلة إلى قرطبة مندوب من برشلونة وطركونة هو جوفرى ذو الشعر الطويل الذى يسمى أيضًا Wilfrad le Veli أو ابنه سونير Sunier الذى تولى شئون برشلونه من ٩١٢ أو ٩١٤ وربما يكون

هذا الأمير قد بعث أحد أولاده إلى قرطبة، وقد كانت هذه الأسرة تسود برشلونة فى مواجهة الأندلس، ومعنى هذا أن إمارة برشلونة كانت خاضعة للأندلس، واستمر ذلك فى أيام المنصور محمد ابن أبى عامر وابنه عبد الملك المظفر بعده.

وإذن ففى أيام الناصر والمنصور وعبد الملك المظفر كان الأندلس الإسلامى يسود شبه الجزيرة كله.

ولكى يؤكد هذا السلطان نرى أن عبد الملك يبذل جهدا عظيما لإخضاع إسبانيا النصرانية.

الأندلس الإسلامى فى عصر القوة والشمال الإفريقى:

وكان الشمال الإفريقى فى عصر عبد الرحمن الناصر وبنى عامر فى حال كبير من القوة فى ذلك الحين بفضل قيام الدولة الفاطمية فى المغرب كله.

وكان الصراع عنيفا بين الأندلس الإسلامى والمغرب الفاطمى، وقد تكلم مؤرخو المغرب بتوسع عن هذه النقطة، وقد كتب بتوسع فى ذلك ابن خلدون، وعليه اعتمد المؤرخون المحدثون مثل E.F.Gantien وكانت الإمارة الرستمية فى المغرب الأوسط فى حين كانت المملكة الإدريسية تقيم سلطانا قويا فى المغرب الأقصى، وقد حلت محل دولة الأغالبة التى سادت المغرب الأقصى قبل ذلك.

وكانت حدود الدولة الأغلبية لا تتعدى منطقة قسطنطينية، وكان سلطانها ظاهرا فى الداخل يصل إلى هدنة وأقليم الذاب، وكانت عاصمة الأغالبة تاهرت فى المغرب الأوسط.

وقد اهتم خلفاء الأندلس من أمويين وعامريين بالسيطرة على ما يجاورهم من بلاد المغرب، وكان الفاطميون يسودون قبيلة برغواطة، وكانت لهم إمارة فى نكور.

ولكن دولتهم هذه كانت مجزأة من زمن بعيد لأن أراضيها كانت مقسمة بين أولاد إدريس الثانى من سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، ومن ذلك الحين حتى نهاية القرن التاسع.

وتاريخ الأدارسة (أصحاب ذكور) مضطرب جدا، فمحمد بن إدريس الثانى ارتكب خطأ جسيما عندما ترك أخوته يتقسمون فيما بينهم الجزء الأكبر من تركة أبيه بين أخوته، وولداه على ويحيى، وقد حكم أولهما قبل الثانى وانصرفا إلى الحكم الخاص الهادئ، فى حين أن ابن عمه وزوج أمه على بن عمر يخلفه فى فاس.

وقد تمكن هذا الأمير من إعادة وحدة الدولة الإدريسية لفترة قصيرة من الزمن، ثم انهزمت قواته أمام جيش أندلسى قاده مغامر عربى من أصل إسبانى هو عبد الرزاق الفهرى صاحب وشقة، وكان هذا الرجل ذكيا قادرا.

وكان هذا الرجل قد قاد ثورة فى جنوبى المغرب الأقصى، وقد دعاه إدريس الثانى للتصدى للحكم المستنصر.

وقد قام إدريسى آخر، وقد أنشأ هذا الإدريسى عدوة القيروانيين فى فاس، وهذا الرجل الإدريسى هو يحيى بن قاسم، المعروف بالمقدام بالحكم فى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م.

وقد تمكن يحيى الثالث هذا من مواصلة الصراع مع الخوارج والأدارسة من سيادة تلمسان، وكانت إذ ذاك مركزا لسيادة البرغواطيين الزناتيين الذين كانوا يسودون جانبى ممر نازا، وقد استطاع رجلان من رؤساء مكناسة هما مصالة بن حبوس وموسى بن أبى العافية، وتمكنا من سيادة تلك المنطقة.

وفى الناحية الأخرى من الزقاق وهى الأندلس نجد أن المغراويين، وهم يعادون الأغالبة والإدريسيين يستبدون بالأمر، ولكن قبيل موت عبد الرحمن الناصر وبعد مجيء أبيه الحكم

المستنصر، وقد وقع صراع بين كتامة من ناحية وبرغواطة من ناحية أخرى، وقد اجهتد الأمير الأندلس عبد الله فى حرب كتامة وأتباعها.

سياســة عبــد الرحمــن الناصــر فى إفريقيــة حتى استيلائه على سبتــة سنة (٩١٢ - ٩٣١م):

وكان عبد الرحمن الناصر حسن الحظ، فخلال السنوات الأولى من حكمه واجه صعوبات، فقد كان الشيعة مسيطرين على المغرب الأوسط من قاعدتهم تاهرت فى المغرب الأوسط، ومن هناك مدوا سلطانهم على جنوب المغرب الأقصى، وكان عبد الرحمن الناصر قد تصدى للشيعة هناك، ومد سلطانه إلى شرت، وكان الشيعة الخوارج قد سيطروا على المهدية.

وكان عبد الرحمن الناصر مهتما جدا بالسيطرة على سبتة، وكان الناصر مهتما جدا بحرب الشيعة فى المغرب، وقد استولى على سبتة واتخذها مركزا لحربه مع الشيعة.

وكان بنو رستم وأتباعهم من مغراوة يسيطرون على المغرب الأوسط كله من تاهرت على وادى شليف إلى تلمسان، وكان رئيسهم محمد بن خزر، ولم يكن مطمئنا لعبيد الله الشيعى وكان على حق فى ذلك، ففى سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م يكلف تابعه مصالة بن حبوس بمهاجمة برغواضة، وقد قام بذلك وانتصر، ولكنه مات فى ذلك الصراع وخلفه أخوه بسل.

ولكن الحرب كانت فى العام التالى فى صالح الأدارسة لأن أميرا إدريسيا هو الحسن بن محمد ابن قاسم المعروف بالحجام كان أحسن حظا فحسب، فقد نجح فى استعادة السلطان الشيعى على المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان، وتصدى لسلطان بنى أمية السنة أصحاب الأندلس، وثبت لموسى بن أبى العافية وكان سنيا، فما كان من عبد الرحمن الناصر إلا أن يتصدى له، ووقعت

واقعة كبيرة تعرف بواقعة وادى المطاحن، وقد انهزم موسى بن أبي العافية فسارع عبد الرحمن الناصر واحتل مليلة فى سنة ٣١٤هـ/ ٩٢٧م.

وكان ذلك بداية لسلطان الخليفة الأموى الأندلسى على المغرب الأوسط، وكان الأدارسة قد ثبتوا هناك.

وهنا نجد موسى بن أبي العافية، وحليفه المغراوى محمد بن خزر، يصبحان من توابع الأندلس الأموى، وهذا نصر عظيم لعبد الرحمن الناصر، وهنا نجد أن شمال المغرب الأقصى والمغرب الأوسط إلى تاهرت، بما فى ذلك تلمسان، تخضع للأندلس.

السياسة المغربية لعبد الرحمن الناصر ٩٣١ - ٩٦١م:

كان استيلاء عبد الرحمن الناصر على سبتة والأراضى المجاورة لها وهى المسماة مرسى موسى بداية لسياسة أندلسية، وكان مرسى موسى قد هدم فعمل عبد الرحمن على إقامة حصن هنا، وكان الحصن قد هدم قبل ذلك فى سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م على يد بنى محمد.

وكان عبد الرحمن الناصر قد اعتبر استيلاءه على سبتة مركزا هاما له فى المغرب، وكانت فاس قريبة جدا من الجزيرة الخضراء، وكانت أصلح له من مليلة التى كان قد استولى عليها، وكان يستطيع منها مقاومة موسى بن أبي العافية إذا حاول التدخل فى هذه النواحى، وكانت فاس كذلك نقطة توسع لإمارته الأندلسية عندما أصبحت للناصر منطقة طاعة.

وقد دخل موسى بن أبي العافية فى طاعة الناصر وكذلك المعزاوى محمد بن خزر بالإضافة إلى موسى بن أبي العافية، وهذه المنطقة من شمال المغرب الأقصى أصبحت حماية أموية أندلسية، وقد ظلت هذه الحماية قائمة حتى نهاية القرن العاشر الميلادى، ومن منطقة سبتة عمل عبد الرحمن الناصر على توسيع سلطانه فى المغرب.

وقد استعان الناصر في المغرب، وفى نفس الوقت الذى دخل فيه موسى بن أبى العافية فى طاعة الناصر، وفى نفس الوقت استطاع ابن أبى العافية أن يخضع لسلطانه رئيسا إدريسيا صغيرا، من فرع بنى محمد الحسن بن عيسى المشهور باسم أبى العيش، وكان أبو العيش هذا قد أخضع لسلطانه أرشقون اليوم Rachgoun أمام مصب نهر تافنا، ولكى يستطيع التغلب على خصمه طلب المعونة من أمير قرطبة الأموى.

وتوجهت سفن عبد الناصر الأموى إلى المرية فى رمضان ٣٢٠هـ/ خريف ٩٣٢م، ولم يستطع عبيد الله المهدى أن يقف ساكنا، ففى ٣٢٠هـ/ ٩٣٣م أرسل الوالى الجديد، وهو ابن أخى مصالة بن حبوس وهو والى تاهرت لينتزع فاس من أيدى عبيد الله المهدى قبل موته بقليل.

وقد مات عبيد الله المهدى فى ١٤ ربيع أول ٣٢٢هـ/ ٤مارس ٩٣٤م.

وخلف المهدى فى وظيفة ابنه أبو القاسم محمد، الذى تلقب بالقائم بأمر الله، وقد تشجع موسى بن أبى العافية، واستطاع رجل يسمى أحمد الجهينى وعاد إلى احتلال فاس فى سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، وبعد شهور من ذلك أرسل قوات إلى المغرب الأقصى يقودها فتاه ميسور، وسار ميسور هذا، واعتصم موسى بن أبى العافية بحصن يسمى لقى فى المنطقة الجبلية المحيطة بممر تازا، وفى نفس الوقت احتل ذكور.

وكان موسى بن أبى العافية بقيادة قائد صالحى، وهو : أبو أيوب بن إسماعيل بن عبد الملك، وبعد أسبوع من القتال تمكن مولاه صندل من انتزاع نكور فى شوال ٣٢٣هـ/ سبتمبر ٩٣٥م، وقتل القائد الصالحى وأقام سلطانا فى نكور، واستمر هذا السلطان حتى نهاية القرن الحادى عشر.

وطال حصار القائدين : ميسور وصندل، وأقام القائدان علاقات صداقة مع السكان، وقد واثق السكان على الطاعة للقائـم بأمر الله والخطبة له فى مساجدهم، وتوجه ميسور لمهاجمة موسى بن

أبي العافية، واستعان في ذلك ببنى محمد الأدارسة، وطارده الإدريسيون والفاطميون، وقد اضطر موسى إلى الذهاب إلى أراضى الملوليا العليا (كلماسة) وقد ساعد الخليفة الأموى الأندلسى فى ذلك، وإزاء هذا فكر، وقضى على حركة معادية قامت فى صقلية وهاجم أراضى زناتة فى المغرب الأوسط، وهاجم أراضى صنهاجة ورئيسهم زيرى بن مناد التكاتى،كان زيرى هذا قد أنشأ فى جنوب الجزائر مدينة أشير، وهى مدينة كان لها أهمية فى تاريخ الجزائر.

وقد كتب محمد بن شنب دراسة عن أشير فى دائرة المعارف الإسلامية (جـ ١ ص ٤٨٩، ٤٩٠) وانظر أيضا عن أشير مقالا فى La Revue Africaine سنة ١٩٢٢ العدد ٣١٠ ص ٢١- ٤٠ وانظر كذلك محله Manuel d'art Muslman G. Marcais جـ١ ص ١٠١- ١١٣ وانظر عن أبى يزيد مقالا كتبه فى مجلة La Berbene et' orient PP. 147 -153.

واستطاع القائم خلال بضعة شهور احتلال باجة فى تونس، واحتل كذلك رقادة وسوس من أراضى تونس، بل حاجر المهدية نفسها، وكانت هجماته المتوالية، وقد استطاعت المهدية المقاومة، وكان هذا أول نصر لقيه أبو يزيد صاحب الحمار.

وقد استطاع أبو يزيد الاحتفاظ بالبلاد التى استولى عليها، وقد استطاع خليفته، وهو الأمير أبو طاهر إسماعيل الملقب بالمنصور الاستمرار فى الثورة وقتا طويلا، وقد تصدى له أبو يزيد صاحب الحمار وخاصة فى صيف ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، وقد قام أبو يزيد صاحب الحمار ورأس الوفد تميم التميمى، وقد قبل عبد الرحمن الناصر أبا يزيد صاحب الحمار وأرسل إلى سبتة وزيره أبا القاسم محمد بن طملس مع تكليفه بأن يقوم بحملة على فرع الأدارسة، وكذلك فعل محمد بن خزر وابنه أبو الخير.

وقد كان هذا الرجل دائما تابعا للناصر، وقد أظهروا طاعتهم فى هذه المناسبة، ولكن موسى بن

أبي العافية توفى فى سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨، ٩٤٩م، ولم يتأخر ابنه أحمد الفاضل عن إعلان طاعته لعبد الرحمن الناصر.

ولكن بعد مجيء المعز للسلطنة الفاطمية فى المغرب نجد أن محمد بن خزر، رئيس مغراوة، اغتاظ لأن شيخ بنى يفرن يعلى بن محمد حل محله فى طاعة الخليفة الناصر يعلن بصراحة خروجه على الناصر وانضمامه للمعز.

وفى سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م أرسل الناصر إلى المشرق مركبا كبيرا محملا بالبضائع إلى المشرق، وعندما وصل هذا المركب إلى قرب صقلية نجد أن حاكمها الحسن بن على يدخل فى ذلك المركب ويتجه إلى شاطئ الأندلس ويغير على المرية ويحرق جميع السفن التى كانت فى الميناء ويأسر الكثير من الناس، وكانت هذه أول مرة يغير مركب فاطمى على الأندلس أيام الناصر، ونجد الناصر يأمر بالإغارة على شواطئ المغرب، ورد غالب على ذلك بالإغارة على مرسى الخزر وهى اليوم تسمى Calle ثم يغير على سوسة ثم على طبرقة، وأصدر الناصر أوامره بالإغارة على شواطئ المغرب، وأرسل الناصر سفنا كبيرة كثيرة للإغارة على سبتة وطنجة وتملكهما.

ولكن السنوات الأخيرة من عمره لم تكن سعيدة لأنه لم يتملك إلا سبتة وطنجة وهما قليلتان بالنسبة للجهود الكثيرة التى بذلها، ولكنه على أى حال أصبح ذا سلطان كبير فى بلاد المغرب الأقصى.

عبد الرحمن الناصر يتخذ لقب الخلافة :

وقد وجد عبد الرحمن الناصر أنه لا يستطيع الاستمرار أميرا فى حين أن منافسية فى المغرب وإفريقية وهم الأدارسة الشيعيون يتخذون لقب الخلافة، فقرر فى آخر ٣١٦هـ/ أكتوبر ٩٢٨م أن يتخذ لقب الخليفة أمير المؤمنين، وقد تغير وضع عبد الرحمن بذلك داخل خلافته وخارجها.

وبهذه المناسبة زار بوباشترو، وكان الناس قبل ذلك يلقبون أمراء الأندلس بلقب ابن الخلائف، وكان دافعهم إلى ذلك الرغبة فى تأييد إمارتهم، فهم فعلا أبناء خلائف، وهذا كان يعطيهم حق الإمارة.

وقد تغير الموقف فى الأندلس تماما، ولن يعد من الممكن دخول القصر إلا بتصريح من الخلافة.

وكان لعبــد الرحمــن الناصر أولاد كثيرون، نذكر منهم هنا أربعة: عبيد الله، وعبد الجبار، وعبد الملك، وسليمـان، والثانى من هؤلاء، وهو الحكم، هو الذى نودى به خليفة للناصر، وقد كانت زوجة عبد الرحمن التى أعطته وريثه هى مرجانة، وقد ارتفعت مكانتها مع تغير الوضع تغيرا تاما فى القصر وفى الأندلس كله.

كلام المقـــرى على الحكم المستنصـــر :

ولم يقل الحكم بن عبد الرحمن عن أبيه، لا فى النشاط ولافى الهمة، ولكنه وجه اهتمامه كله إلى العلوم، فلم يعرف الأندلس أميرا أو خليفة اهتم بالعلم اهتمـامه، وقد ذكـر المقرى أن الحاجب المصحفى أهدى إلى الحكم المستنصر يوم ولايته هدية عظيمة تدل على غنى الأندلس، وهذه الهدية تتكون من :

- ١٠٠ مملوك من الإفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملة الشكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراسى والقلانس الهندية.
- ثلاثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس.
- ثلاثمائة خوذة كذلك.
- ١٠٠ ميضة هندية خوذة خشبية.

- ٥٠٠ خوذة ذهبية من بيضات الفرنجة من غير الخشب يسمونها الطشطانة Testina.
- ٣٠٠ حربة إفرنجية.
- ١٠٠ ترس سلطانية.
- ١٠ جواشن فضة مهذبة.
- ٢٥ قرنا مذهبة من قرون الجاموس

قال المقرى : قال ابن خلدون : ولأول وفاة الناصر جمع الجلالقة فى الثغور، فغزا الحكم المستنصر بنفسه، واقتحم بلد فردنند بن غند شلب Fernando Ganzalez فنازل استبين واستباحها وقفل، فبادروا إلى عقد الصلح معه وانقبضوا عما كانوا فيه.

ثم أغزى غالبا مولاه جليقية، وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب، فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر.

وكان شانجة بن رذمير، ملك البشكنس، قد انتقض فأغزاه الحكم التجيبى صاحب سرقسطة فى العساكر، وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم، وامتنعوا بقورية Coria وعاثوا فى نواحيها، وقفل.

ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبى إلى بلاد برشلونة فعاثت العساكر فى نواحيها.

وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غلابا إلى بلاد القومس، فعاثا فيها، وقفلا.

وعظمت فتوحات الحكم وقواده الثغور فى كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرة، فهى حسب التقسيمات القديمة من قسم طركونه، ومن قواعد منطقة نبرة (نافار) على يد غالب فعمرها الحكم واعتنى بها، ثم فتح قطوبية - جاء فى تعليقات الناشر أن قطوبية هى فى الغالب قطرية Yerba - على يد قائد وشقة، وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث، وفى بسيطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبى ما لا يحصى.

وفى سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبه، ومعه يحيى بن محمد التجيبى وقاسم بن مطرف بن ذى النون، فابتنى حصن غرماج (لعل الصواب قطرية Gomaz - Yerba).

وظهرت فى هذه السنة مراكب المجوس فى البحر الكبير، وأفسدوا بسائط الشبونة وناشبهم الناس، فرجعوا إلى مراكبهم، وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن ابن رماحس بتعجيل حركة الأسطول، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم فى كل جهة من السواحل.

ثم كانت وفادة اردون بن اذفونش ملك الجلالقة، وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجه بن رذمير، وهو ابن عمه، وهو الملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته، واستظهر اردون بصهره فرذلند قومس قشتيلة مستجيرا به، فاحتفل لقدومه وعبى العساكر ليوم وفادته، وكان يوما مشهودا، وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله، ووصل إلى الحكم وأجلسه، ووعده بالنصر من عدوه، وقلع عليه، وكتب بوصوله ملقيا بنفسه صفقة ورهن ولده غرسية، ودفعت الصلات والحملان له ولأصحابه، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند، ويقبضوا رهنه.

وعند ذلك بعث ابن عمه شانجه بن رذمير ببيعته وطاعته مع قواميس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم، يرغب فى قبوله ويمت بما فعله أبوه الناصر معه فتقبل بيعتهم على شروط شرطها، كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين.

ثم بعث ملكا برشلونة وطركونه وغيرهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه، وبعثا بهدية وهى ٢٠ صبيا من الخصيان الصقالبة، و٢٠ قنطارا من صوف السمور، و٥ قناطير من القصدير، و١٠ أدراع صقلبية، و٢٠٠ سيف فرنجية.

وتقبل الهدية، وعقد لهم، على أن يهدموا الحصون التى بالثغور، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى فى الإجلاب على المسلمين.

ثم وصلت رسل غرسية بن شانجه، ملك البشكونس فى جماعة من الأساقفة.

ثم وفـدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك Rodrigo Velazguez القومس بالغرب من جليقية، وهو القومس الأكبر، فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته، واحتفل لقدومها فى يوم مشهود، فوصلت واستقبلت وعقد السلم لابنها كما رغبت، ودفع لها مالا تقسمه بين وفدها، دون ما وُصلت به هى، وحُملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع، فواعدها بالصلات لسفرها وانطلقت.

ثم أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط.

وتلقى دعوة ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة، فبثوها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم.

ووفد عليه من بنى خزر وبنى أبى العافية، فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم، وأحسن منصرفهم، واستنزل بنى إدريس من ملك العدوة فى ناحية الريف وأجازهم البحر إلى قرطبة، ثم أجلاهم إلى الإسكندرية.

وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعا للكتب فى أنواعها، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله.

قال محمد بن حزم فى الجمهرة : أخبرنى تليد الخصى، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب ٤٤ فهرسة، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير.

وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر.

ووفد على أبيه أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى من بغداد فأكرم مثواه، وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه، وكان يبعث فى الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وبعث فى كتاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى، وكان نسبه فى بنى أمية، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق، وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، وأمثال ذلك.

وجمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ، والمهرة فى الضبط، والإجادة فى التجليد، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد فى قبله، ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العباسى ابن المستضىء، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها فى حصار البربر، وأمر بجمعها وإخراجها وبيعها الحاجب واضح، من موالى المنصور بن أبى عامر، ونهب ما بقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوة.

وكان الحكم إلى جانب اهتمامه بالعلم نشيطا فى السياسة والحرب، وكانت إسبانيا النصرانية على حال من القوة لا تسمح له بالتراخى، وقد بدأ بنشاط عسكرى واسع من أول حكمه، ومن سوء الحظ أن حكمه كان قصيرا لم يزد على ربع قرن بكثير، وقد قام بعمل سياسى عظيم لأن إسبانيا النصرانية كانت إذ ذاك فى حالة قوة.

إسبانيـــا النصـــرانيـــة فى عصـــرى عبـد الرحمـن الناصر والحكم المستنصر :

ولم يكن سر قوة إسبانيا النصرانية هم ملوكها، وإنما كانت أوروبا كلها تقف إلى جوارهم،

ويكفى أن فرنسا كانت تحكمها دولة الكارولنجيين التي حلت محل الميروفنجيين، وكان العداء بينهم وبين الأسبان شديدا، ولكنهم كانوا يقفون صفا واحدا أمام المسلمين، وعند موت عبد الرحمن الثالث ومجيء ابنه الحكم المستنصر كان على عرش إسبانيا سانشو الأول ابن اردوينو الثالث، ملك ليون واشتريس، وكانت تتولى ناڤار الملكة طوجه.

وقد تولت العرش سنة ٩٦٠م، وكان ينافسها اردونيو الرابع الذى تغلبت عليه وطردته إلى اشتريس فأقام فى برغش.

ثم إن ملوك غسقونية كانوا قد هاجموا كونت قشتاله فرناندو جنذالذ وطلب معاونة قرطبة، وقد استجاب لاستغاثته عبد الرحمن الناصر وأعطاه ١٠ حصون من حصون نبرة، وقد طلب ملك بنبلونة أن يسلم له ملك قشتالة فرناند جنذالذ وكان أسيرا عنده.

وعمل سانشو الأول وغرسية سانشو الأول على كسب ود الحكم الثانى وكانا يعرفان ميله إلى العلم والكتب وحصلا على معاونة الحكم، وعجل فرناند جنذالذ بالعودة إلى برغش، وشعر الحكم بما كان يدبر له فأصدر أمره سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م بالاستعداد للحرب، وكان اردونيو الرابع قد عجل بالمسير إلى مدينة سالم، ومن هناك طلب من القائد غالب الإذن له بالذهاب إلى قرطبة لمقابلة الخليفة وطلب معاونته، ووصل اردونيو الرابع إلى قرطبة ولقى الخليفة، ووصل إلى مدينة سالم ومنها إلى قرطبة، وفى قرطبة أكرمه الخليفة وأوسع عليه، وأعاده الناصر إلى العرش الذى عزله عنه سانشو الأول، وتعهد بأن لا يعين على الإسلام أحدا، وأعان الخليفة فى ذلك وليد بن أصبغ بن عبد الله وأسقف إشبيلية عبيد الله بن قاسم.

وهنا شعر سانشو الأول بخوف وأسرع بإرسال سفارة إلى الخليفة مكونه من سادة جليقية وسمورة وعددا من كبار رجال الدين ليؤكدوا له التزام سيرهم بما كانت قشتالة قد عاهدت عليه قرطبة.

وقد استمر الحكم بن عبد الرحمن فى هذه السياسة، ولم يكن رجال السلطان في قرطبة بأوردونيو الرابع اهتماما عظيما، وقد مات اوردونيو الرابع بصورة غير واضحة قبل سنة ٩٦٢م.

وقد أجمع رؤساء إسبانيا النصرانية فى ذلك الحين، وهم : كونت قشتالة وملك نبرة وكونت برشلونة على الطاعة للحكم الثانى.

وفى نفس الوقت أرسل الحكم حملة إلى قشتالة فى سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣ حملة استولت على حصن شان اشتبين لـ غرماج Gormaz على نهر الدويرة، واضطر الكونت فرناند جنذالذ إلى طلب الصلح، وقام حاكم سرقسطة يحيى بن محمد التجيبى بإنزال هزيمة به.

وفيما بعد فى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٥م قام القائدان غالب وسعيد، وفى نفس الوقت ترهبت أخته الغيران وهى إحدى أخوات سانشو الأول ولبست النقاب، وقد اجتهد الاثنان فى التقرب من قرطبة، وابتليت قشتالة فى نفس الوقت بإغارة المجوس عليها، وقد مات كونت قشتالة فى سنة ٩٧٠م وفى نفس الوقت اختفى من الميدان غرسية سانشت ملك نبرة، وخلف فرناند جنذالذ ملك قشتالة، وفى نفس الوقت اختفى من الميدان فرناند جنذالذ ملك نافار وخلفه سانشو غرسية الثانى الملقب بأياركا.

وقد خضع كل هؤلاء الملوك والرؤساء للحكم الثانى ابن عبد الرحمن الناصر، وارتفع شأن خلافة قرطبة إلى مستوى عظيم، واستمر توافد سفراء ملوك إسبانيا النصرانية على قرطبة إلى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م وفعل نفس الشىء كونت برشلونة بوريك الثانى الذى كان يحكم مشتركا مع أخيه ميرون، وانفرد بالعرش بعد اختفاء أخيه وفرنان أنسورنس والفيرا ملكة ليون وفرنان انسوريس كونت مدنتون وروردريجو بلاسكيت ملك جليقية وبنو جوميث اكناد كاريون Carrion وكل هؤلاء فعلوا نفس الشىء فى العام التالى، ووصل إلى قصر قرطبة سفراء آخرون، واحد منها فى جمادى الأول ٣٦١هـ/ مارس ٩٧٢م، واستمر وفود سفراء الغرب إلى قرطبة وقرر Garci Fernandez متفقا مع جاريه ملكى ليون ونافار.

وفي ٢ شعبان ٣٦٤هـ/ ١٧ أبريل ٩٧٥م أتت وحدات عسكرية وغاليسيا والبشكوس عدد قواتها ستون ألف مقاتل لمحاصرة قرطبة، كما يقول ابن حيان، وقد انتصر عليهم المسلمون واستولوا على برشلونة إلى شمال غربي مدينة سالم، ثم وصل برلانجا بعد ذلك بقليل إلى جنوب الدويرو، ولكن الحكم بن عبد الرحمن انتصر وانضم إليهم راميرو الثالث ملك ليون والبيرة المشرقة على العرش.

وقد انهزمت قوات هؤلاء جميعا في ١٥ شوال ٣٩٤هـ/ ٨ يوليو ٩٧٥م، انتصر عليهم حاكم سرقسطة المسلم في موضع يسمى Estercuel وبذلك تكون قوة المسلمين قد زادت، واستمر ذلك حتى توفي الحكم وخلفه ابنه هشام الثاني(المؤيد) في العام التالي.

ولم تقف قوة الحكم الثاني، وإنما نجد أن القائد المولى جوهر يعمل على زيادة قوة يساعد سادة إفريقيه في المغربين الأقصى والأوسط، وقد زادت قوة الحكم على سلطان أبيه الناصر على المغرب، ولم يستمر رؤساء المغرب في مقاومة قرطبة لأن المعز اتجه ببصره ومطامعه إلى مصر.

وفي شعبان ٣٥٥هـ/ يوليو ٩٦٩م نجد أن الشمال الإفريقي لم يعد موضع اهتمام رجال المغرب، لأنهم سيتجهون من الآن إلى مصر، وهنا يرفع رؤساء المغرب رؤوسهم ونجد أن زيري بن مناذ التلكاتي الصنهاجي فيما بين سنتي ٣٢٤- ٩٤٦هـ/٩٣٦ - ٩٤٦م نجد أن محمد بن خزر المغراوي، وهنا نجد زيري بن مناذ الصنهاجي وابنه أبو الفتوح بلكين، ولم يكن هذا من صالح الحكم، لأن أبا الفتوح وأبناءه عندما كثر عددهم وعدد أتباعهم بدأوا في العدوان على زناتة، وخاصة الذين يسكنون منهم منطقة قسطنطينة، وقد كانت هذه المنطقة خاضعة لأسرة من السادة من أصل عربي، هو حمدون، وهو أندلسي من أصل عربي، وقد انضم هؤلاء للشيعة الذين كانوا يسودونها.

وفي سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م تلقى علي بن حمدون الأمر ببناء مدينة المحمدية، وهي المسيلة

الحالية فى جنوب غرب منطقة قسطنطينية، وقد مات بعد ١٨ سنة من ذلك، وقد ورثه فى حكم المسيلة واتفق مع بنى أمية الأندلسيين، ودخل فى حرب مع صنهاجة، ولكنه وقع أثناء الحرب من على حصانه واندقت عنقه، ووجد أخوه يحيى ألا مفر من اللجوء إلى بنى أمية الأندلسيين لطلب المعاونة، وهناك لقى جعفر بن الأندلسى نفسه، وقد استقبله الحكم الثانى استقبالا عظيما وأكرمه، وأكرم ابنه بلكين، وقد استطاع هو وابنه ان يستوليا على كل المدن التى كانت فى يد زمانة وهى تاهرت والمسيلة وطنبه وباغاى وبجاية وبسكره، واضطر الصنهاجيون إلى الخضوع لزناته، ووقف فى وجه زناتة بلكين الذى طرد الزناتيين إلى تلمسان، ولم يكن يفكر إذ ذاك يفكر إلا فى مصر التى كان متجها إليها، فخضع المغرب لبنى أمية الأندلسيين، وكان أكبر الأدارسة فى شمال المغرب الأقصى الحسن بن فنون، وكان يسود أيضا البصرة وحجر البسر، وكان خاضعا للفاطميين فتصدى للقوات الأندلسية، ووقع قتال شديد مع الحسن بن طملس، وقام رجال هذا الأخير بأمر حاكم سرقسطة.

ولما مات الحكم خلفه ابنه هشام المؤيد ومن سوء الحظ أن الحكم مات قبل أن يتمم الاستيلاء على المغرب، فكان هذا هو الطريق الذى انفتح أمام المصحفى إلى السلطان، ولم يتعامل عبد الملك كثيرا مع المصحفى، لأنه مرض، وكان مرضه شديدا فلم يلبث أن مات بورم سرطانى فى رئته، ويقال : إنه مات مسموما، وليس لدينا ما يؤيد ذلك.

عبد الرحمن شيخول العامرى واتجاه خلافة قرطبة للسقوط:

ومن الغريب أن عبد الرحمن أخا عبد الملك خلفه فى سيادة الأندلس دون معارضة من أى عنصر من عناصر السياسة الأندلسية فى سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٦م، وكأن العامريين حلوا محل الأمويين.

وكان هشام الثانى ابن الحكم يتوقع أن يعارض الناس ذلك، وكان هشام الثانى يتوقع أن يقوم الناس فظهر فى مظلة تطل على الناس، وإلى يمينه ويساره خادمان يحملان بصورة مرئية نسختين من القرآن، وأمر خدمه فى ألا يستعملوا القوة مع شيخول، وكان شيخول يريد أن يستولى على القصر بأسرع ما يمكن، وتجمع الناس ودخلوا القصر عابرين السور، وكان شيخول قد حصل من هشام على تصريح بأن يكون خليفته على العرش، وقد أثار ذلك غضب الناس، وقام رجل من بنى أمية يسمى محمد، تلقب بالمهدى، وكان شيخول إذ ذاك فى طليطلة فأسرع عائدا إلى قرطبة وكان محمد المهدى، الأموى قد قام عليه فى قرطبة وأعلن نفسه خليفة.

نفور البربر من محمد بن عبد الجبار المهدى واختيــارهم لسليمـــان المستعـين خليفــة:

ولم يكن محمد بن عبد الجبار المهدى جديرا بالمنصب، فقد أساء إلى أهل قرطبة وطرد الكثيرين منهم خارج البلد، وفى نفس الوقت دفن عبد الرحمن شيخول، وانتهى أمر العامريين.

واجتمع بربر الأندلس واختاروا سليمان بن عبد الرحمن الناصر وجعلوه خليفة، وكان لا بد أن تقوم الحرب بين محمد بن عبد الجبار المهدى والخليفة المستعين، ولم تكن الحرب يسيرة وإنما كانت محزنة، فقد سار البربر، ولم تكن عدتهم تقل عن سبعة آلاف، نحو قرطبة ليغيروا عليها.

وشهد سانشو غرسية، ملك ليون، أزمة الحرب القومية التى قامت بين أعدائه المسلمين، وسار البربر برياسة المستعين حتى وصلوا وادى ارملاط، وتحصن محمد بن عبد الجبار المهدى فى قرطبة وانتظر أعداءه فى فحص السرادق إلى شمال قرطبة، والتقى الفريقان البربر والأندلس فى قنتيش وانهزم محمد بن عبد الجبار المهدى وقتل وأصبح السلطان للبربر، فتقدموا إلى جيان وإلبيرة ومالقة

والجزيرة الخضراء وأعلنوا خلافة سليمان المستعين، وانتهز سانشو غرسية الفرصة واستولى على بعض حصون خط الدويرو واستولى على سان أشتبين وكولونيا واوسما وغرماج وميردمين وبرلانجا.

واستمرت قرطبة معرضة للخطر، وقد استولى النصارى على الثغر الأوسط، وهنا يظهر بنو حمود، وهم عرب من أصل مغربى، وقد ساعدهم البربر على الاستيلاء على سبتة والجزيرة الخضراء، ومن هنا أعلنوا أنفسهم خلفاء للأندلس، أولا القاسم بن حمود، ثم على بن حمود، ولم تظل مدة ملكهم وعاد الأمر إلى الأمويين، وآخر من يستحق الذكر منهم هشام بن محمد بن عبد الملك الذى اتخذ لقب المستظهر بالله.

وهنا نجد أن أحداثا خطيرة تقع فى قتشتالة بتدخل المنصور وأمه الأميرة آية.

وفى السابع من يونيو من هذه السنة نجد أن ابن الكونت غرسية سانشد وهو سانشو غرسية يقوم بثورة كبيرة ضد أبيه وينضم إلى قواته أتباع أبيه، وإزاء هذا نجد أن العامرى يعيد الاستيلاء على سان استيان دغرماج San Sleban de Gormaz ثم يعيد غزو كولونيا ويخرب أمله.

ولم يعترف غرسية فرناندو أنه انهزم وأخذ يغير على بلاد الثغر الإسلامى الأول حوالى مدينة سالم، حيث كان المنصور قد جعل واحدا من غلمانه وهو قند، وكان غرسية فرناندز، وكانت حيث ثار ابنه سانشو غرسية يغير على بلاد المسلمين فى وادى الدويرو بين لانجا والكوثر (فى محافظة سوريا) وهناك قتله المسلمون وأخذوا رأسه وأرسلوه إلى قرطبة، ودفنوا جسده فى نفس الموضع.

وفى نفس السنة – ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م قام المنصور بهجوم على من يسمون بنى جوميز، وهذا هو الاسم الذى كان يطلقه المسلمون والمسيحيون على من يسمى جوميز دياز كونت سلدانيا، وجوميز دياز كان حفيدا للكونت القشتالى فرناند جونذالد، وحامل رايته قبل ستين سنة، ونتيجة لهذا نجد أن أبناء جوميث دياز هذا أصبحوا سادة لليبانا والكريون التى تسمى اليوم Carrion de los Condes وهى مدينة كانت تسمى أحيانا سانتا ماريا، وقد خرب المنصور مدينة الكريون، وقد

ظل بنـو جوميـر يعيشـون مجهولـين، وقـد ذكـر البكـرى سلطانية، باسم سلطانية، ومنهم جاء عبد الرحمن شيخول.

وكذلك فى نفس العام وهو ٩٩٥م، توفى ملك بنبلونة سانشو غرسية الثانى أباركا، وخلفه ابنه سانشو الثانى المسمى بالتمبلون El Temblón.

وقد اتخذ يرمودو الثانى تابعا له عبد الله، الرأس الصلب.

وفى شوال ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م خضع للمنصور ودفع له ضريبة.

وكانت أكبر غزوات المنصور للبلاد المسيحية بعد عامين من ذلك فى صيف ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م. ومنذ القرن التاسع أصبحت شانت يعقوب أكبر مراكز محترم، وظلت كذلك إلى نهاية العصور الوسطى.

وقد دخل الرسول سان جاك الكبير مدينة سان جاك عندما دخل إسبانيا ناشرا للمسيحية وأتخذ قشتالة عاصمة له، واتخذ كنيشته ووصل إلى قصر أبى دانش Alcacer de sal. وكان معه اسطول ومعدات.

وعبر الجيش الإسلامى نهر الدويرو ومر بـ Valladares حيث عبر نهر المنيو وغزا بعض الحصون ومنها San Payo حيث تقوم بعض الكنائس منها San Cosme وسان داميان، ووصل إلى شبه جزيرة Morazzo فى مقابلة فى مواجهة Vigo الحالية، ثم عبر نفر من المسيحيين نهير Ulla ونهب مدينة أيريا، ولم يحدث قبل ذلك أن غزا المسلمون مكانا غربيا مسيحيا مثل لك.

وفى ٢ شعبان ٣٧٢هـ/ ١٠ أغسطس ٩٩٧م غزا المنصور قومبو شتيلة وأحرقها ولم يبق إلا قبر الرسول، واستمرت قوات المسلمين فى هذه الناحية حتى وصلوا Corogne، وهنا أمر المنصور بالعودة، ومر فى عودته بلاميجو Lamego، وهنا قدم له النصارى هدية كبيرة من الملابس، وعاد إلى قرطبة ومعه عدد من الأسرى.

وقد أخذ المنصور من الكنائس التى خربها بقايا أدخلها فى جامع قرطبة.

وبعد عامين من ذلك، كما يقول المنصور . غزا المنصور سمورة وأقام هناك مدينة وترك فيه حامية كبيرة يقودها أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى.

وفى نفس السنة (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م) يذكر ابن حيان أن الجيوش الإسلامية عبرت برشلونة، وكانت هذه هى الغزوة الخمسين من غزوات المنصور، وليس لدينا تفاصيل كثيرة عنها، ولم تكن سابقة إلا شانشو غرسية الثالث الملقب بالكبير، وكان هذا الرجل أكبر ملوك بنبلونة، وقد توفى الملك غرسية سنشيت الثانى سنة ٩٩٩م، بعد كارثة سنت ياقب.

وقد اهتم المنصور اهتماما شديدا بالحرب فى المغرب، وكان يحارب هنا ملك ليون، وقد انضم رؤساء البربر للمنصور، وقام أحد زعماء البربر وهو يدير الدمرى وهاجم غرسية سانشد.

وأقام المنصور معسكره على تل، واستعد للقتال فخاف المسيحيون وأخذوا ينسحبون جنوبى وغربى تاخرة، ووصل بعد خروجه من بورجوس وسان مليان دكوجويا.

ويحكى الرواة المسيحيون : ونجد أن لوكاس التودى Lucas de Tuy ولذريق الطليطلى يذكرون تفاصيل كثيرة عن هزيمة المنصور أمام برمودد الثانى، ملك ليون، وغرسية فرناندو، ملك نبرة، وهى معركة قلعة النسور التى تسمى أحيانا Calatanazor Aguilar على صقرية من صخرة ترفيرة Péna de Cardera Cervera.

وعلى أى حال فقد كان حكم عبد الرحمن شيخول ضعيفا مضطربا، ووجد نفسه مضطرا إلى ما كان زعم لنفسه من حق الولاية بعد هشام، ثم انقلب عليه كل من كان معه، وقبض عليه وعلى مؤيده ابن غوس، وأرسل رأسه إلى محمد المهدى.

ولما أبلغ أهل قرطبة بقيام محمد بن عبد الجبار المهدى على شيخول وقتله، ولكن محمد بن عبد الجبار بن هشام الذى تلقب بالمهدى لم يكن أحسن حالا من شيخول.

قال ابن عذارى (٣/ ٧٤) فكان محمد بن هشام هذا أشأم خليفة على وجه الأرض... وكان من أعظم ما جرى عليه بعد ذلك زاوى بن زيرى بن منار الصنهاجى، عظيم صنهاجة أهل قرطبة وملكهم وقومه ملوك إفريقية يملكون من أطرابلس إلى طنجة، فاحتبس بالباب للازدحام مدة لا يفرج له ولا يعرف مكانه، وكلما هم بالاستقدام ردوه وقرعوا راس فرسه، فلما أكثروا عليه قال هذا الرأس فاضربوا، فالدابة لا ذنب لها.

ثم نهبت دور بنى ماكش بن زيرى ودور لبنى زاوى بن زيرى ودور كثيرة بالرصافة لجماعة من البربر (من أتباع عبد الرحمن شيخول) وكان سبب ذلك أن محمد بن عبد الجبار برداءته وسوء تصرفه قال فى ذلك اليوم: لا يركبن أحد من الغزاة ولا يحملن سلاحا ولا يأتى القصر، واتفق أن ركب زادى بن زيرى فى جماعة معه فردوا عن باب القصر، وانصرفوا على غاية الفرج.

واحتال يومئذ جند من السفال على دور البربر، فكان منهم من النهب ما كان، وبلغ ذلك صاحب المدينة، فضرب رقاب ثلاثة من النهابة وطيف برؤوسهم، ودخل زاوى بن زيرى وحبوس وصابة أبناء ماكش وأبو الفتوح بن ناصر على محمد بن هشام فأخبروه بما جرى عليهم، فاعتذر لهم ووعدهم بخلف ما نهب لهم، وقتل بعض من اتهم بقتل البربر، فكان هذا من فعل السفيه ابن عبد الجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التى يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سموها بفتنة بن عبد الجبار لكان الأحق والأولى.

وقد قام أهل قرطبة على البربر على أنهم جند شيخول، فقتلوا منهم ألوفا، وأسرف أهل قرطبة فى ذلك حتى أخذهم الله بذلك عما قريب ومحقهم إلى الأبد.

ومن كتاب الاقتضاب: كان محمد بن عبد الجبار قد جند جندا من العامة وآثرهم على العبيد العامرية وعلى الطائفة البربرية، وأساء إلى هاتين الطائفتين فاستوحشوا منه، فأما العبيد العامرية فخرج منهم كثير إلى شرق الأندلس، وأما البربر فقد تألفت منهم طائفة وقاموا على محمد بن هشام المتلقب بالمهدى مع سليمان بن هشام بن الناصر، وسموه الرشيد، وزحفوا معه إلى القصر بقرطبة وحصروا فيه المهدى يوما وليلة فى أوائل شوال.

وقد كان محمد بن عبد الجبار المهدى فى الغاية من قلة المرياسة.

ودخل زاوى بن زيرى القصر يوم الاثنين ١٦ ربيع أول.

وسار ابن أمامة العامل مع شيخول فى جمع كثيف من النصارى، فلما وصلوا إلى مدينة سالم أرسلوا إلى واضح يرغبون إليه فى الصلح كراهية فى القتال، وإقامة الحجة عليه وعلى من أتى به العون لابن عبد الجبار فأبى وامتنع، فساروا جميعا كلهم إلى شرنية فحشر لهم واضح أهل الثغور، وأرسل إليه ابن عبد الجبار غلامه قيصرا بالعسكر، فنزل واضح وقيصر على البربر بشرنبة واقتتلوا فانهزم واضح وأسر البربر من كان معه، فقتلوا منهم من أحبوا، وعفوا عمن أحبوا، وكانت الوقعة بقرب قلعة عبد السلام، فنصب البربر الرؤوس عليها، وكان وصول المنهزمين من أصحاب واضح وقيصر إلى قرطبة يوم الأحد فى أواخر ذى حجة من السنة.

ولما رأى الخسيس بن عبد الجبار ظهور البربر عليه وهزيمة أهل قرطبة أظهر هشام بن الحكم وأقعده حيث يراه الناس فى منظر يشرف على باب الشكال والقنطرة، وأرسل إلى القاضى ابن ذكوان فأتاه فبعثه إلى البربر يقول لهم عنه : إنما أنا قائم دون هشام بن الحكم ونائب عنه الخليفة والحاجب وهو أمير المؤمنين، فمضى ابن ذكوان إلى البربر وأدى لهم رسالته، فقال له البربر: سبحان الله يا قاض، يموت هشام بالأمس وتصلى عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه، وجعلوا يتضاحكون منه، فاعتذر ابن ذكوان لهم من ذلك.

ودخل ابن عبد الجبار القصر يحتال للهرب ثم اختفى.

ولما كان يوم الاثنين خرج أهل قرطبة بأسرهم إلى سليمان فأحسن لقاءهم والرد عليهم ورجعوا إلى قرطبة مع سليمان والبربر يقول: كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة، فإذا القوم لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم، وإنما اتفق لهم من الظهور والنصر بفضل ملوكهم، فلما ذهبوا انكشف أمرهم، فأما العقول فإن البربر قتلوهم يوم السبت، والبلاء والخوف قائم بهم، ثم أتوا يوم الاثنين على البغال مقصفين (١) فما كان يؤمنهم أن يقتلهم سفهاؤهم، وأما الشجاعة فانهزم جندهم وملوكهم وجميعهم من أقل من مائتي فارس ليس فيهم رئيس ولا مذكور، وأما الدين فإن أصحابي هؤلاء، يعني النصارى، يغيرون ويسرقون بغير أمر، ويأتي أهل قرطبة فيشترون منهم نهبهم وأموال أصحابهم المسلمين، فلا يرجع عنها أحد منهم، فليس في القوم عقل ولا شجاعة، ولادين.

ودخل ابن زاوى القصر بقرطبة يوم الاثنين ٦ ربيع الأول من السنة (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) وركب سليمان بعده فدخل القصر أيضا ثم رجع إلى عسكره بكرة، واختفى ابن عبد الجبار بقرطبة، فلم يطلب، ووكل سليمان صقالبته بحفظ حجر القصر، ونهب هشام بن الحكم في بعض عبيد البربر دورا من اربا من قرطبة، فضربت رقاب أربعة منهم فسكن الناس ولم يجازوهم بفصلهم معهم، وأنزل شيخول من خشبته ودفن في دار أبيه، ودفن الناس موتاهم، وأحصى من قتل من أهل قرطبة فكانوا نحوا من عشرة آلاف.

ودخل القوس ابن أمامه إلى القصر فأكرم فخلع وعلى أصحابه، ثم عاد إلى معسكره، وطلب من البربر أن يعطوه الحصون التي شرط عليهم، فقالوا له ليست الآن بأيديهم، فإذا تمهد سلطاننا أنجزنا لك ما عاهدناك عليه، ورحل يوم الاثنين لسبع بقين من ربيع الأول (سنة ٤٠٠هـ/ أكتوبر

١٠٠٩م) وبعث سليمان والبربر معه من يشيعه حتى أخرجوه من أرض الإسلام، وبقى من أصحابه مائة، نزلوا فى منية العقاب.

وكان ابن عبد الجبار رفع إلى واضح خمسين ألف دينار ليفرقها فى جند مدينة سالم فانهزم واضح وبقى المال فى داره فنزلها زاوى بن زيرى فاحتوى على ما فى الدار، ووجد هشام بن الحكم المؤيد بالله جاريتين من جواريه قد حبلتا من ابن عبد الجبار، فقال: ما جرى على أحد مثل ما جرى علىّ من هذا الرجل فى نفسى ومالى وأهلى، فالله بينى وبينه، ونودى فى الناس بالحضور فى المسجد الجامع ليبايعوا سليمان بن الحكم ففعلوا وشرط لهم شروطا سرتهم، وذلك فى ربيع الأول من سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م.

ثم فرض ابن عبد الجبار على قرطبة مالا وتهيأ للخروج إلى البربر وأمر واضحا بمثل ذلك فخرجا بين الثغريين والعبيد وأهل قرطبة جميعا ليقصدا البربر، وأظهرا شجاعة وتجلدا، فلما سارا ثلاثين ميلا من قرطبة كرا راجعين إليها تهيبا لقتال البربر ومخافة منهم، فلما رجع ابن عبد الجبار وحصل بقرطبة أمر بحفر خندق على قرطبة وأقيم وراء هذا الخندق سور مما يلى قرطبة، والبربر فى كل يوم يغيرون على نواحى قرطبة، فلا يخرج إليهم أحد، وأخذوا الجبل المعروف ببشترو الذى كان يأوى إليه ابن حفصون، وهو كثير الماء والمرعى والمزارع فزاد ذلك فى قوتهم، وأخذ ابن عبد الجبار ما كان بقصر قرطبة وبالناعورة والرصافة فمحقه الله على يده ويد جنده، وهو مع ذلك كله فى انهماك وانهتاك مظاهر بالفسق وشرب الخمر ومضيقا على أهل قرطبة ومفترسا للتجار، وكان واضح يحقد عليه ما فعله بابن أبى عامر وآل عامر، مع ما يراه فى انهماكه فى الزناء والخمر والجور، فكان يدبر فى قتله مع طائفة من العبيد إلى أن أمكنه ذلك.

مقتل محمد بن هشام بن عبد الجبار :

وذلك أن طائفة من العبيد العامريين تواعدوا مع واضح فدخلوا عيه، ثم أخرجوا هشاما المؤيد واقعدوا ابن عبد الجبار بين يديه فجعل المؤيد يعدد عليه ... . بين يديه، فقتله وتولى قتله المعروف بالشقق، عبد من عبيد الحكم، وعبيد العامريين ذبحوه وحزوا رأسه ورموا بجثته على الرصيف فسقط في الموضع الذى كانت فيه جثة ابن عسقلاجه، من اليوم الذى قتله ابن عبد الجبار، وبعث واضح برأسه إلى البربر، ونصب جثته أياما، ثم دفن في مرحاض تحت خشب المصلوبين، وأراح الله من شره وفسقه، وكان ولده بقرطبة فتي حديث السن سنة قتل أبيه ست عشرة سنة، فاحتال له شيعة أبيه حتى وصلوا به إلى طليطلة فقبله أهلها وأمّروه على أنفسهم، فلم يزل بها إلى أن دعته نفسه إلى الغارة على ما كان لمحمد من البلد، فلقيه محارب التميمى فهزمه وأخذه أسيرا وأرسل به إلى واضح فقتله.

خلافة هشام، المؤيد بالله، الثانية :

وذلك أنه لما قتل ابن عبد الجبار يوم منى من ذى حجة سنة ٤٠٠هـ رجعت الخلافة إلى هشام بن الحكم فجلس للناس منزل الخلافة وجددوا له البيعة وقدم لحجابته واضحا الفتى الكبير وبعث برأس ابن عبد الجبار إلى سليمان المستعين بالله وكتب إلى البربر يدعوهم إلى الدخول في طاعته، فلما الناس ركب هشام المؤيد بالله ومشى إلى الحفير على مراتب الحزم والضبط لأمرهم ووطنهم على الدفاع لعدوهم.

وكان هشام فى ذلك الوقت يظهر للناس رجاء أن يتصل ذلك بالبربر فينتشر أمرهم وينيبوا إليه

من سليمان، وكان البربر لا يريدون إلا نفارا من أهل قرطبة، لما فعلوا معهم من القبائح، وكان سليمان يؤنب واضحا على قتل ابن عبد الجبار وغدره وقلة وفائه معه.

ونزل البربر بشقنده وفج المائدة يغيرون ويقتلون وهشام ورعيته وواضح وجنده خلف السور لا يجاوزونه شبرا واحدا، ولم يزل الحال على أشد اضطراب والطريق خال من.... والحرب كل يوم قائمة، والقتل ذريع، فكانوا فى نقص الأموال والأنفس، وانضم مع ذلك الوباء والمرض، وهم فى حرص على قتال البربر، مع العجز عنه والتقصير فيه، وواضح فى كل ساعة يحدث الناس بالكذب والإرجاف بالبربر بما لا نهاية له، ويخرج أهل قرطبة كل يوم للقتال فله يجاوزون خندقهم ويصاب منهم ويرجعون ويقولون : قتل فلان من البربر، وانهزموا نحو جهة كذا ويكثرون المين والكذب.

وفى سنة ٤٠١ نزل البربر قرطبة ودخلوا الزهراء يوم السبت لستة بقين من ربيع الأول منها، وكان بالزهراء طائفة من الجند يحفظونها، فحكم عليهم بقتل بعضهم وإبقاء بعض، فأقاموا بها وليس أحد من الجند يتجاوز الخندق، وأطلق واضح بسوء رأيه وخذلانه يد السفهاء على منية الرصافة فخربها وحرقها وقطع ثمارها بعد حسنها وجمالها خوفا من أن يدخل البربر عليه من جهاتها، ثم ندم بعد ذلك عليها وعلم أنها كانت حصنا عليه.

ورحل البربر من الزهراء لخمس بقين من شعبان (سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) وجعلوا يغيرون على أقصى البلد وأدناه ينهبون ويخربون، يحرقون ويقتلون، وإن جرد إليهم واضح خيلا لم يقصدوهم خوفا منهم وينهبوا ما أفضله البربر فى القرى والأقاليم ويرجعون، وانضم أهل البوادى من كل ناحية، خوفا من البربر فصاروا أكثر من أهلها، ومات أكثرهم جوعا بها، ومقتولا بخارجها، وفنيت مواشيهم.

ذكر تفاصيل الفتنة:

وسادت الفتنة البلد، وأصبح الناس تصل بعضهم بعضا دون نظر، فلما وصل المرسل إلى قرطبة حضر الفقهاء والقاضي والعدول، وكتبوا كتابا بالشروط وتسليم الحصون للنصارى وقرئ على الناس بحضرة هشام وواضح وشهد فيه جميع من حضر، وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان، فكان الذى صار لابن أمامه التى كان أخذها الحكم بن عبد الرحمن ومحمد بن أبى عامر وابنه المظفر، كل ذلك استخفافا من هشام (هكذا ذكر الرقيق فى كتابه) وكان البربر، أيضا، لما طردوا من قرطبة وقتلوا بها قد خربوا مدنا كثيرة وقتلوا أكثر أهلها ولم يسلم منها إلا قرطبة ومدينة سالم، وبلغت خيلهم أقطارهما حتى إن الراكب يمشى شهورا لا يرى أحدا فى طريق ولا قرية، وسمع اللعين ابن شانجه أيضًا بما سلم إلى بن مامة دونه من الحصون، فكانت يطلب حصونا أخر وأوعد وتهدد فأجيب إلى ما سأل من ذلك وكتب بتسليمها إليه، وذلك كله لجاجا فى ألا يصالح البربر.

ثم عزم واضح على مراسلة البربر لما رأى اضطراب الجند عليه وطمعهم فيه، وأظهر أن ذلك عن رأى هشام لما فيه من الصلاح للخاصة والعامة، فأرسل واضح إلى البربر رجلا يعرف بابن بكر فاجتمع بسليمان وعاد بجوابه فوقع الجند عليه فقتلوه، ولم يقدر هشام ولا واضح على منعه، واحتزوا رأسه وطافوا به البلد على رمح، وعزم الجند والرعية على قتال البربر، وجرد القاضى عنايته فى ذلك، ووعد بخمسمائة فرس من مال الأحباس فحمل عليها مرجّلة العبيد وهو يعلم أن القاتل والقتيل فى النار فلم يعبأ به، فاضطرب البلد نارا لقلة العتاد والعدة وجبن القوم وتخاذلوا، فجمع السلطان أهل الأسواق إلى القصر وشكا إليهم قلة المال وسألهم أن يعينوه بشيء من المال فقالوا: قد عزمنا كثيرا جهدنا وطاقتنا والموت خير لك فاخرج بنا إلى عدونا، وهم البربر فإنا لا نقيم، فتحير واضح وعزم على الهروب.

ولما أراد واضح الهروب وعزم عليه به الجند، فزحف عليه ابن وداعة فى عدد من الجند، فأخرجه الجند من داره وعاتبه على ما تكلف من الأموال وما عزم عليه من مصالحة البربر، ثم قام إليه ابن وداعة فضربه بالسيف، وحمل عليه القوم وقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا به البلد وألقوا جسده فى الرصيف بالموضع الذى القى فيه ابن عسقلاجه وابن عبد الجبار، ونهبت دور أصحابه ولتابه، ووجد له مال كثير مشدود، كان قد عزم على الهروب به، وأظهر هشام المؤيد تجلدا، وقال: أنا ما أريد جامعا أنا أباشر أمورى بنفسى، وجلس أياما للناس، ثم عاد إلى طبعه، وصار الوزراء يدبرون أمر البلد.

وولى هشام ابن وداعة شرطة المدينة فاشتد على أهل الريب وهابه الجند وغيرهم، وسار قوم من البربر من جيان إلى بلتسية فأغاروا عليها وحازوا منها ٥٠٠ فرس كانت للسلطان و٣٠٠ رجل من وجوه الجند والكتاب والعمال الذين كانوا بها، وذلك فى سنة ٤٠١هـ.

وكان واضح قد بنى على الخندق مجلسا يشرف منه على البربر وسماه الديدبان، فكان الوزراء يجلسون فيه مع الفقهاء فى كل يوم يستشيرون فى الأمر، فكلما دبروه فى اليوم نقضوه فى غد.

وفى هذه السنة كان بنهر قرطبة سيل عظيم هدم فى أرباض قرطبة نحو ألفى دار وما لا يحصى من المساجد والقناطير، ومات فيه أكثر من ٥٠٠٠ نفس ردما وغرقا، وذهبت فيه أمتعة الناس وأموالهم وهدم أكثر السور وردم كثير من الخندق، وأقام هذا السيل ثلاثة أيام (الرقيق) .

واجتمع أهل البلد والعبيد بقرطبة فتحالفوا بأيمان البيعة أن تكون أيديهم متفقة وكلمتهم فى حرب البربر واحدة، وأكدوا الأيمان بينهم فى ذلك وكتبوا عقدا بذلك على أنفسهم وأشهدوا فيه الوزراء والكُتّاب.

فلما كان يوم الثلاثاء غرة ذى حجة من سنة ٤٠٢هـ/ يونيو ١٠٠٤م، وكل ابن مناد على

هشام المؤيد ومعه وجوه العبيد والجند فكشفوا له حال البلد وقالوا له: قد بلغ الأمر منتهاه ولا طاقة لنا بهؤلاء القوم، والناس مختلفون، منهم من يريد الصلح ومنهم من لا يريده، وليس عندنا مال، وقد أحجبنا برعيتنا فى المغانم وسعرنا فى غاية الغلاء والجند فقراء، والثغر مضطرب، والنصارى يريدون الوصول إلينا، ومؤنتهم عظيمة علينا وما عندنا ما يقوم لهم، فبكى هشام - فيما زعموا - بكاء شديدا، وقال: اصنعوا ما أردتم ودعونى بمعزل فلست أقدر لكم ولا لنفسى على شيء، فانظروا ما فيه صلاحكم فافعلوه وأنا تبع لكم، فدخل ابن مناد القصر ليلا، وأخذ كل متاع رفيع وولى هاربا إلى بطليوس من قرطبة، وبقيت قرطبة يدبر أمرها العبيد وسفال الناس.

ووصل كتاب من أمير الثغر حينئذ بأنه سائر إلى قرطبة مع ابن امامه دونه بجيوش النصارى لنصر قرطبة على البربر، فأظهر أهل قرطبة السرور بذلك، وليس له أصل ولا منه شيء لما أراد الله من محنتهم.

ووجدت فى بعض تأريخ الأندلس قال:

كانت قرطبة فى زمان الفل الداخل إلى الأندلس، قد نسى بها بغداد فى زمان الرشيد، وعظم بها ملكهم، فاشتد أمرهم وضخم حالهم، وأعظم ما كانت فى زمان الناصر ثم فى زمان الحكم واتصل ذلك إلى آخر أيام ابن أبى عامر فتناهى بها كل فضل، وكل ذلك للإدبار الذى يكون بعد الإقبال، والنقص الذى يوافى بعد الكمال... وبعث الله محمد بن هشام ليكون استئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم على يده، لما اراد الله بهم، فأبادهم كما أباد طسما وجديسًا، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا.

وصار الأمر لسليمان المستعين.

وفى سنة ٤٠٣ لما كان يوم السبت لأربع بقين من شوال هـ/ أبريل ١٠٠٢م وقعت الهزيمة

على أهل قرطبة كما ذكرنا، واجتمع أهل قرطبة وعملوا جموعًا وخرجوا يوم الأحد، ثانى يوم الوقعة، لقتال البربر وسليمان فانهزموا أيضاً وقُتلوا قتلاً ذريعًا، وتصايح الناس من كل جانب، وفُتحت قرطبة فخرج القاضى ابن ذكوان مع بعض الفقهاء إلى سليمان ورؤساء القبائل البربرية، وطلبوا منهم الأمان فأمنوهم وطلبوا منهم أموالاً عظيمة، أغرم منها ابن السرح وحده ١٠٠ ٠٠٠ دينار وأخذ من الناس فوق طاقته وملكوا البلد.

ودخل سليمان القصر بقرطبة يوم الاثنين لثلاث بقين من سنة ٤٠٣ هـ، فلما استقر به أحضر هشامًا المؤيد بالله ووبخه وقال له: أما كنت تبرأت لى من الخلافة وأعطيتنى صفقة يمينك؟ فما حملك على أن نقضت عهدك وحللت عقدك فاعتذر له بأنه مغلوب عليه.

وفى هذه السنة قدم سليمان المستعين بالله وأصبح سليمان خليفة وتلقب بالمستعين بالله، وانتقل إلى مدينة الزهراء يحمله برابرته وجيشه فضاقت الزهراء عليهم فنزلوا بما اتصل بها ونزل ابنا حمود علىّ والقاسم قائدا فرقة العلوية بشقنده، وغاب عن الناس خبر هشام المؤيد واختلف فى أمره، فقيل : إنه قضى عليه عند دخوله القصر، وقيل : إنه فر بين يديه.

وفى هذه السنة قدم سليمان المستعين بالله علىّ بن حمود على سبتة، وقسم بعض بلاد الأندلس على رؤساء قبائل البربر، وكانوا ستة قبائل، فأعطى صنهاجة البيرة فبقيت بيد جيوش وذريته نحو المائة سنة.

وأعطى مغرادة الجوف.

وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة.

وأعطى بنى برزال وبنى يفرن جيان وذواتها.

وأعطى بنى دمر وازداجه وشذونة ومورور وغيرها من الحصون.

وذكر أنه ولى القاسم بن حمود طنجة وأصيلا.

وأما على بن حمود فولاه سبتة كما ذكرنا.

فلما بلغ عبد الله البرزالى تقديم ابنى حمود العلويين على الغرب قال: نعم، قال أليس العلويون طالبيين؟ قال نعم، قال تأتى إلى خشاش تردهم ثعابين؟ قال: نفذ الأمر فى ذلك.

قال: ولما استولى سليمان والبربر فى هذه الدولة الثانية كان منهم الحاجب والوزير، فكان سليمان هذا أول دولة البربر بقرطبة، وقد ختمت دولة بنى أمية بالأندلس فكان مبلغها ٢٦٨ سنة وثلاثة وأربعين يوماً.

وقال ابن حماد: ولما استولى البربر مع سليمان على قرطبة خاف العبيد العامريون على أنفسهم فهربوا إلى شرق الأندلس فاستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها، على ما سيأتى مفسراً.

وفى سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣م قتل على بن حمود قاضى سبتة محمد بن عيسى والفقيه ابن يربوع كبيرها، وكان سبب قتلهما أنه لما هم بالقيام على سليمان المستعين وخلع طاعته وجه المستعين من يتطلع إلى أخباره فاتهم أن القاضى خاطبه بذلك فأمر بقتله، ولما عزم على بن حمود على الخروج من طاعة المستعين خاطب أخاه فهرب عن قرطبة واحتل الخضراء.

وفى هذه السنة كف البربر عن أهل قرطبة.

خلافـــة بنى حمـــود:

هما اثنان: على بن حمود، وأخوه القاسم بن حمود.

وكان على بن حمود كعادته لا يكاد يفتح عينه على شىء يستحسنه إلا أسرعت الآفة إليه، وله فى ذلك نوادر غريبة.

وحكى عنه انه قال للنفيسة عنده من نسائه: وارى محاسنك عنى ما استطعت، فإنى شاخ من عينى عليك، وأنا أحب الاستمتاع بك.

وانقلب سريعًا الذى كان يظهره لأهل قرطبة وانصرف إلى حزبه البربرى فآثره عليهم لما أحس منهم الميل إلى الخليفة المرتضى الذى أقام خيران عليه، فوقع أهل قرطبة فى المغارم وانتزع السلاح منهم وقبض دورهم وقبض أيدى الحكام عن إنصافهم وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم، ففتحوا له أبوابًا من البلايا أهلكوا بها الأمة وتقربوا إليه بالسعاية فيهم، وسار شطر الناس أشراطًا على سائرهم، فلما تلقى أحدًا إلا بوكيلين عليه حتى كان... ... بدوا للأمصار وأخذت على الناس الأقطار وأظلمت الدنيا وأُبلس أهلها، وغشيهم من الله ما غشيهم، فلزموا البيوت وانطمروا فى بطون الأرض حتى قل بالنهار ظهورهم، وخلت أسواقهم، فإذا دنا المساء وخف الطلب عنهم انكشفوا إلى وقت الظلام لقضاء حاجتهم.

وكان معه جماعة من الكتّاب، منهم : أبو الحزم بن جهور، وأحمد بن برد وغيرهم.

فهذه جملة من أخباره فى حالتى صلاحه وفساده.

خلافـــة القاســـم بـــن حمـــود الحســـنى:

نسبه قد تقدم فى خلافة أخيه.

لقبه : المأمون.

كنيته : أبو محمد.

أمه : أم أخيه، وهى البيضاء القرشية.

عمره نيف وسبعون سنة.

خلافته: ولى مرتين، الأولى فى يوم الثلاثاء لأربع خلون من ذى القعدة، وهو الثالث من أخيه، فبويع ليلة السبت لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ/ مايو ١٠٢١م.

دولته كانت إلى أن فر وخلفه ابن أخيه يحيى ٣ سنين وخمسة أشهر والدولة الثانية سبعة وثلاثة أيام بعد ابن اخيه يحيى، الجميع ٤ سنين و٢٣ يوماً، وعند ذلك، انقرضت دولة بنى - المتصلة بقرطبة، وكانت سبع سنين وخمسة أشهر غير يومين، وتوفى محبوساً عند ابن أخيه إد ابن على فى شعبان سنة ٤٢٧ هـ/ مايو ١٠٣٧م... قاضيه ابن القصار قاضى أخيه على.

وفى سنة ٤٠٩ هـ/ ١٠٣٥م، رحل المرتضى القائم خليفة على شرق الأندلس وهو الرحمن بن محمد المتقدم ذكره بمن تآلف معه من الموالى العامريين وغيرهم إلى قرطبة، وأم يومئذ القاسم بن حمود، فعرجوا به إلى غرناطة ليبدأوا بحرب ذلك الفريق من صنهاجة لما . عليه من الغدر بسلطانهم المرتضى المذكور، فأوبقوا الجماعة وأحلوا بها الفاقرة، ورسا بتلك ا ملك الحمودية.

وأول من انهزم من ذلك العسكر منذر بن يحيى وخيران الصقلبى، وكان منذر قد أوق نفوس مدد الأفرنجة الرعب من غدر الموالى العامريين، فشغل بذلك بالهم، فلما انهزم لم يعرفوا وأجفل منذر فى أصحابه الثغريين، فر سليمان بن هود وهو مثبت للإفرنجة لا يريم موقعه فصا النجاة يا بن الفاعلة، فلست أقف عليك، فقال سليمان: جئت بها أيضًا والله صلعاء وفضحت الأندلس، ثم انقلع وراءه ببقية عسكره.

وانقلع أيضاً خيران برجاله، وصبر العامريون قليلاً حول صاحبهم المرتضى على أحر من ال وهو مع جبنه حسن الثياب حتى استحر القتل فى أصحابه وصُرع منهم كثيرون حوله، فانـ عنه، وخاف أن يُقبض عليه فولى، فوضع عليه خيران عيوناً لئلا يخفى أثره، فلحقوه بقرب

آش وقد أمن على نفسه، فهجموا عليه فقتلوه، وجاءوا برأسه إلى خيران ومنذر وقد لحقا بالمرية، فتحدث الناس أنهما اصطبحا على رأسه سروراً، وتناولاه من قبيح الذكر عبثًا بما لم يكن أهلاً له، وحولا يقولان يا حسن فأعرض جندك، كلمة تُحدث بها عنهما، فمضى المرتضى على هذه السبيل.

ونجا من تلك المحنة أخوه أبو بكر هشام ولحق بالموالى العامريين، فزهدوا فيه فاستقر عند قاسم صاحب حصن البُنْت، وكان شيعة المروانية على سوء ما أسلفوه مع سلفه، فأجاره وضيفه، ولم يزل عليها عنده إلى أن كان وقت تقديمه للخلافة.

قال ابن حيان: فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها، ولم يجتمع لهم جمع بعد، وأقروا بالإدبار وباءوا بالصغار.

قال: وورد على القاسم بقرطبة كتاب زاوى بشرحها مع نصيبه من الغنيمة، وفى جملتها سرادق المرتضى، فضربه القاسم على نهر قرطبة وغشيه من النظارة جلة من علية من الناس، وقلوبهم تتقطع حسرة منه، فركدت ريح المروانية فى ذلك الوقت، وقتل من نجا منهم بأطراف الأرض وأيس الناس من دولتهم، وألوى الخمول بجملتهم فتقطعوا فى البلاد ودخلوا فى غمار الناس، وامتُهنوا واستهينوا، ولهول ما عاينه زاوى من اقتدار أهل الأندلس فى أيام تلك الحروب وجماجمه به وإشرافهم على التغلب عليه هان سلطانه عنده بالأندلس، فخرج عنها نظراً فى عاقبة أمره، ودعا جماعة قومه لذلك فعصوه، وركب هو البحر بماله وأهله فلحق بإفريقية وطنه.

قال ابن حيان: وبلغنى أن زاوى استوهب من علىّ بن حمود يوم قتل سليمان بن الحكم رأسه، حنقاً على بنى مروان المهدى إليهم رأس زيرى والده وأنه أسعفه بذلك فصار عنده ونقله من الأندلس معه فى ذلك الوقت مفتخراً به على أهل بيته، فإن يكن ذلك حقّا فزاوى أحد من أخذ بالثأر المنيم، ودحض العار المقيم.

وأخبار هذا الداهية زاوى بن زيرى كثيرة ونوادر أفعاله مأثورة.

وزاد كلف القاسم باتخاذ السودان وقودهم على أعماله إلى أن ضعف أمره وتسلطت البرابرة عليه حتى احتقروه، فكاتب منذر بن يحيى فى السر يبثه شأنهم ويستنهضه لتقويمهم، فلم يكن فيه فضل لذلك، وكان يحيى ابن أخيه علىّ بالعدوة، وأخوه إدريس بمالقة، فلما قتل أبوهما اتفقا لأول وقتهما على ضبط مالقة، وجعل يحيى أخاه بالعدوة ليقرب هو من أذى عمه القاسم، وكانا يظهران مبايعة عمهما إلى حين انتقال يحيى بن علىّ إلى مالقة، فاستخف بعمه وسعى فى... وشكا القاسم أمره إلى البرابرة فتثاقلوا عليه، وأحبوا التعزيب بينهما.

ولم يزل أمر يحيى يقوى وأمر القاسم يضعف إلى أن فر من قرطبة إلى إشبيلية، وذلك لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ/ سبتمبر ١٠٢١م، فضبط البربر قصر قرطبة إلى أن لحق يحيى ابن أخيه بعد خطوب كثيرة.

خلافـــة يحيـــى بـــن علىّ بـــن حمـــود:

كنيته : أبو زكريا، وقيل أبو محمد.

أمه: بنت عم أبيه، اسمها لبونة بنت محمد بن الحسن بن قنون.

عمره: اثنان وأربعون سنة ونيف.

لقبه : المعتلى بالله.

دولته الأولى : بويع بقرطبة يوم الاثنين مستهل جمادى الأولى ٤١٢ هـ/ ١٠٢١م بعد فرار عمه بتسعة أيام، وفر ليلة السبت منتصف ذى قعدة سنة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢م، فكانت ولايته الأولى بقرطبة سنة واحدة وستة أشهر ونصفاً غير يوم واحد.

وقال حيان بن خلف: فبويع يحيى فى التاريخ واجتمع عليه الفريقان : الأندلس والبربر من أهل قرطبة وأعمالها خاصة، وكانت أم يحيى بنت محمد ابن الأمير الحسن.

دولــة القاســم بــن حمــود الثانيـــة بقرطبـــة :

دخل قرطبة فى دولته الثانية يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة ٤١٣ المذكورة، وسبب ذلك أن يحيى ابن اخيه خرج منها إلى مالقة، فطرق عمه القاسم من اشبيلية إلى قرطبة وجددت له البيعة بها، فبقى يتسمى بأمير المؤمنين، ولم يزل القاسم مالكًا قرطبة سبعة أشهر وأيامًا، فأقام أهل قرطبة بعدة أياما من بنى أمية، ويأبى الله إلا ما يريد، فاختاروا سليمان بن عبد الرحمن ولقبوه المرتضى، فبينما هم يريدون تقديمه إذ هجم عليهم فى المسجد الجامع عبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار فى شرذمة من الناس يدعو إلى نفسه فرجعوا إليه بين مكره وراض.

وهو أخو المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار

دولــة عبــد الرحمــن بــن هشــام المستظهــر باللــه :

هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله أبو المطرف، أمه رومية اسمها غاية، عمره ٢٣ سنة.

بويع يوم خروج القاسم والبربر من قرطبة يوم الثلاثاء ١٦ من رمضان المعظم سنة ٤١٤ هـ/ سبتمبر ١٠٢٣م، وقتل يوم السبت لثلاث خلون من ذى القعدة من السنة، فكانت خلافته سبعًا وأربعين يومًا خالصًا، وصفته أبيض أشقر أعين طويل نحيف البدن حسن القد والجسم، وكان أديبًا شاعرًا لبيبًا لوذعيًا، لم يكن فى أهل بيته أبرع منه، وقد نقلته الحاماة إلى الإشغار فتحنك فيها.

قاضيه ابن القصار قاضى بنى هاشم، مولده فى ذى الحجة سنة ٣٩١ هـ/ سبتمبر ١٠٠١م.

وكان هم بالوثوب على الخلافة عند انقراض سلطان القاسم بن حمود بقرطبة، وبث دعوته فلم يصح له شيء مما أراد، وتجرد الوزراء لطلب دعاته، وسجنوا، ولم يخرجوا من السجن إلا يوم جلوس صاحبهم عبد الرحمن هذا للإمارة، وبقى مستخفيًا إلى أن أعلنوه بالشورى عند إيقاعها فى ذلك الوقت لظهور براعته، فأجمعوا عليه وعلى سليمان المرتضى، وعلى محمد بن العراقى، وتقدموا فى إحضار الخاصة والعامة فى المسجد الجامع لمشاهدة من يختارونه من هؤلاء الثلاثة للخلافة، فغدا الناس لذلك على طبقاتهم، وكان أول من وافى منهم سليمان المرتضى فى أبهة دلت على المراد فيه، فدخل والسرور باد عليه، فقدمه أصحابه إلى البهو، فأجلس على مرتبة لا تصلح لسواه وهو جذلان لا يشك فى تمام الأمر فيه.

ثم غشيت القوم صيحة وزعقة هائلة ارتج لها الجامع واضطرب من بالمقصورة، وإذا بعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار قد وافى فى خلق عظيم من الجند والعامة، وقد تكنفه أمير الدائرة محمود وعنبر فى رجالهما شاهرين سيوفهما، فراع الوزراء ذلك وألقوا للوقت بأيديهم، ودخل عبد الرحمن عليهم وقعد فى المقصورة، فبويع من وقته، واستدعى سليمان المرتضى فجيء به مهموما فقبل يده وهنأه وبايعه وانعقدت له البيعة فى الرابع من رمضان من السنة.

وكان أحمد بن برد الكاتب قد تقدم فى عقدها باسم سليمان فبشر وحمل معه ابنى عمه سليمان وابن العراقى فاحتبسهما عنده وآنسهما، وظهرت منه لوقته حزامة، وكان فتى أى فتى لو أخطأته المتألق.

وكان شيوخ قرطبة الذين كانوا أرادوا تقديم سليمان لما كمل الأمر لعبد الرحمن المستظهر بالله أخذوا منه أمانا ثم لما تم الأمر له أخذهم وأطبقهم وأعزمهم أموالا فسعوا عليه من الضيق، وكاتبوا صاحب المدينة، وكسروا أقفاله وأخرجوا منه الشيوخ وتغلبوا على القصر وأدخلوا فيه مروان وجماعة

من الأعمار، وكانوا يذهب بهم العجب قدمهم على سائر رجاله فأحقدهم أهل السياسة فانتقضت دولته سريعا.

وقد قال ذلك ابن حيان في كتابه، ثم قال : وهذا زخرف من القول وضع على غير حاصل ومراتب وضعت على غير طائل تنافسها طالبوها يومئذ بالأصل لم يحلوا منها بطائل، ولا قبضوا منها مرتبا، ولا نالوا منها مرتفقا، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور وعمل مغصوب وخراب مستولٍ، ومع سلطان فقير لا يقع بيده درهم إلا من صبابة مستغل جوف المدينة، أو نهب غلول ممن تغلغل عنها، يقيم منه رمقه ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرته، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته، فلم يلبث الأمر أن تعدى عليه فسفك دمه وانحسم الأمر فى دولته، وافتقد عبد الرحمن المستظهر فوجد فى تون الحمام قد انطوى انطواء الحية فى مكان حرج فى قميص مسود بحال قبيحة، وجيء به إلى محمد بن عبد الرحمن وقد بويع فبطش به بعض الرجالة القائمين على رأسه فقتلوه.

بعض اخبار المستظهر بالله وسيره :

قال ابن بسام : كان على حدوث سنه فطنا لوذعيا ذكيا يقظا لبيبا أديبا فصيح الكلام جيد القريحة مليح البلاغة يتصرف فيما شاء له من الخطابة بديهة وروية، ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة.

وقد اقتضب بحضرة الوزراء في أيامه عدة رسائل وتوقيعات لم يقصر فيها عن الأجناد فى الغاية، يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة وبراءة من شرب النبيذ سرا وعلانية، فى وقته نسيج وحده، ختم به فضلاء الناصريين، فلم يأت بعده مثله.

وقد أثبت ابن بسام فى كتابه جملة من شعره.

دولـــة محمـــد بـــن عبـــد الرحمـــن المستكـــفي باللـــه :

هو : محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الناصر لدين الله المستكفى بالله.

كنيته : أبو عبد الرحمن.

أمه أم ولد اسمها حوراء.

عمره اثنان وخمسون سنة.

ولى مرتين، الأولى منهما بويع يوم قتل ابن عمه المستظهر بالله، وذلك يوم السبت لثلاث خلون من ذى القعدة سنة ٤١٤هـ، وفر يوم خلعه يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذى القعدة ٤١٦هـ.

مولده كان سنة ٣٦٦هـ.

وذكر أنه سمى نفسه المستكفى بالله، اختاره لنفسه وحكم له به سوء الاتفاق عليه لمشاكلته لعبد الله المستكفى العباسى، أول من تسمى به فى لينه ووهنه وتخلفه وضعفه، بل كان هذا مفتقرا عنه لخلال ملوكية كانت فى المستكفى العباسى لم يحسنها هذا لفرط تخلفه على اشتباههما فى ذلك من توبهتهما بالفتنة، واستظارهما بالفسقة، واعتداء كل واحد منهما على ابن عمه، وتوسط كل واحد منهما فى شأنه امرأة خبيثة، فلذلك حسناء الشيرازية ولهذا بنت المروزية، فأصبحا لذلك على فرط التباين عبرة.

ومن العجب أنهما اتفقا فى الأخلاق والقهر واللعب، وكل واحد منهما عاش ٥٢ سنة، وكل واحد منهما خلفه أبوه صغيرا، وتوافقا فى اللقب.

وبالجملة فهما رذلى قومهما.

ولم يكن محمد هذا من الأمر فى ورد ولا صدر، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة الخاسرين بلية، وكان منذ عرف عطلا منقطعا إلى البطالة، محمولا على الجهالة، عاطلا من كل خلة تدل على فضيلة ومكملة.

قال ابن القطان : إنه لم يجلس للإمارة مدة الفتنة أنقص منه، إذ لم يزل معروفا بالتخلف والبطالة، أسير الشهوة، عاهر الخلوة، ضدا لقتيله المستظهر بالله فى الطهارة والمعرفة والذكاء، ثم خلعه أهل قرطبة بأن دخلوا عليه وقالوا له : قد اضطررنا إلى مكافحة عدونا، ونحن خارجون إليه، ولا ندرى ما يحدث علينا بعدنا، فأجمل الرد عليهم وانقاد للدنية واستشعر الذل، ثم حدهم عنه حادث من حوادث الدهر، وكانوا قد رشحوا ابن عمه العراقى للخلافة، فأبقوه على حاله، فهى الخلافة الثانية التى ذكرت له، والله أعلم.

ثم إنه عزم على الهروب فخرج على وجهه ولبس لباس الغانيات منتقبا بين امرأتين لم يميز منهما، وخرج من قرطبة ومات بأقليج، من الثغر، بعد خلعه بسبعة وعشرين يوما، مقتولا، وقيل : مسموما.

وكان قد عاجل ابن عمه العراقى وأمسى ميتا ونعاه إلى الناس.

وكان يلقب بالخويفية، ولقب أيضا بأبى زكيرة.

وصفته : ربعة أزرق أشم، مدور الوجه واللحية، ضخم الوجه والجسم كبير البطن، صاحب أكل وشرب وجماع وتخلف.

وقد ذكر فى مقتله أنه لما فر فى قرطبة نهض معه بعض رجاله إلى الثغر، فاتهموه بمال فاغتالوه وقتلوه.

وفى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م عاجل المستكفى بخنق ابن عمه العراقى ونعاه للناس، وكان

مؤنث اللسان، وفي أيامه استؤصلت قصور جده الناصر بالخراب، وطمست أعلام قصر الزاهرة، فطوى بخرابها بساط الدنيا، وبتغيرها تغير حسنها.

وفي سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م كان خلع المستكفي بالله، فأغلظوا عليه بالكلام، فأجمل الرد عليهم، وخرج على الحالة التي تقدم ذكرها يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الأول من السنة، وقتل بعد خلعه بسبعة عشر يوما.

دولـة يحيى بـن علي المعتلي باللـه الثانيـة :

وفي سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م خرج يحيى بن علي من قرطبة إلى مالقة يوم الثلاثاء لثمان من المحرم، وبقي بها كاتبه ووزيره أبو جعفر أحمد بن موسى إلى أن أتى الموفق مجاهد وخيران العامريان من قبل حيوس بن ماكسن، فلما أحس أهل قرطبة بقربهما رجعوا إلى من كان عندهم من البربر بقرطبة فقتلوهم يوم الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الأول من السنة المؤرخة، فقيل : إنهم قتلوا يومئذ من البربر ألف رجل.

وقال حيان بن خلف : وفي ذلك اليوم الذي قتل فيه البربر بقرطبة دخلها خيران ومجاهد الموفق بعد أن فر أحمد بن موسى مع أخوين له من قرطبة، فلحق أحمد بن موسى بمالقة ولحق دوناس بحبوس بغرناطة، وبقي يحيى بن علي بمالقة إلى أن قتل بعد ذلك بمدة بمدينة قرمونة، على ما نذكره بعد.

من أخبار يحيى بن علي بن حمود المعتلي بالله :

قال حيان بن خلف : كان رؤساء البربر وثواره قد قدموه أميرا عليهم لما خرج من قرطبة في خلافته الأولى التي كانت في سنة ٤١٤هـ/١٠٢٨م فاستوطن مالقة، وكان عمه القاسم قد

خرج، أيضا، فارا بنفسه منها، فأغلق أهل إشبيلية أبوابها فى وجهه، فاستقر بشريش، فزحف إليه ابن أخيه، يحيى هذا إلى شريش، فحاصره بها حتى أخذه أسيرا عنده مع بنيه وسجنهم بمالقة، وصارت شريش ومالقة والمرية وسبتة فى طاعته، وخطبوا له بالخلافة، وسموه المعتلى بالله، وبقى عمه القاسم أسيرا عنده إلى أن قتله خنقا، فيما ذكروا، وبقى يحيى بن على بمالقة إلى أن قتل بقرمونة فى محرم من سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥.

دولة محمد بن هشام، المعتد بالله الأموى:

هو : هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، عمره ٥٤ سنة، خلافته بالثغر وبقرطبة ٤ سنين و٧ أشهر و١٧ يوما، بويع أولا فى الثغر بحصن البنت Alpuente عند عبد الله بن قاسم الفهرى، فى يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م فبقى عنده مدة من سنتين وسبعة أشهر وأيام، وهو يخطب له بقرطبة، ثم أتى إليها فى عشرين من ذى الحجة، وطلع منها يوم الثلاثاء ١٢ من ذى حجة من سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م، وتوفى بعد ذلك بمدة بعد شدائد دارت عليه، ودفن بجهة لاردة فى صفر سنة ٤٢٨هـ/١٠٣١م.

وكان سبب قيامه بالخلافة أنه كان بشرق الأندلس عند ابن قاسم المذكور، بعد قتل أخيه المرتضى، وهزيمة جيشه بغرناطة، فأجمع أهل قرطبة على خلع الفاطميين بعد المقتلة الكائنة بقرطبة بسبب موفق وخيران، المتقدمة الذكر، فبقيت قرطبة دون خليفة، فخاطب أهلها أهل الثغر والثوار فى إقامة خليفة من بنى مروان، فاجتمع رأيهم على هشام هذا لكون البربر قتلوا أخاه وأنه قد وقع بينهم وبينه ما وقع أهل قرطبة، فبايعوه بيعة تامة ثم خلعه أهل قرطبة فى التاريخ المتقدم الذكر.

وصفة المعتد بالله : أبيض أصهب إلى الأدمة، سبط الشعر، أخنس، خفيف العارضين واللحية، حسن الجسم إلى القصر.

مولده سنة ٣٦٤هـ، وتوفى فى صفر سنة ٤٢٨هـ، فكان عمره نحوا من أربع وستين سنة، وهو آخر ملوك بنى أمية بالأندلس، وبه انقرضت الدولة.

قال حيان بن خلف : قلد هذا الأمر فى سن الشيخوخة، وكان معروفا بالشطارة فى شبابه فأقلع مع شيبه فُرجى فلاحه فافتتحت بيعته بإجماع، وختمت بفرقة، وعقدت برضى وتحلت بكره.

وكان الوزراء قد دبروا فى سجية أموره وكيفية وروده، فبادر هو ووفد على البلد، فسر الناس به، وركب جيش قرطبة لاستقباله فدخل فى زى تقتحمه العين وَهَنًا وقلة وعدم رواء وبهجة وعدد وعدة فوق فرس دون مراكب الملوك بجلية مختصرة ساد لا سمل غفارة إلى ما تحتها من كسوة رثة، قدامه سبع جنائب من خيل الموالى العامريين، صيروها معه للزينة دون علم ولا مطرد، يسير هونا والناس يهنئونه، ويصيحون بالدعاء فى وجهه، ولا يعلمون ما سبق لهم من المكروه به فدخل القصر.

وجاء معه فى جملة الموالى حائك من أبناء الزعانف بقرطبة يسمى حكم بن سعيد الحائك، فقلد هشام حكم القزاز جملة تلك الأعمال، وأطلق يده فى المال وأناط به الرجال، فجرى مجرى أعاظم الوزراء المستمرين على فلتة الملوك فى سالف الأزمنة، فحجرهم على هذا الخليفة فى سن الشيخوخة بطبق ومائدة كأطباق همته الكاسدة، علف عليها راضيا بأدنى المعيشة، وقد بقى فى قصره ينظر بعينه ويسمع بأذنه ويدنى من أدناه ويقص من أقصاه وخلاه، ومعاظم الأمور يدبرها بجهله وخرقه واعتسافه وتهوره، فلم يلبث أن انتقضت به، واحتاج حكم إلى رجال يستعين بهم فى تدبيره، فلم يهتد منهم إلى نقل دعل أو ماجن سفيه أو سوقى رذل سقطت به عليهم المشاكلة، واتخذهم بطانة فمدوا له فى الغواية، وجرى فى هول طلق الجموح، ما فيهم حازم ولا نصيح، فهوى سريعا وأصبح موعظة، وحال هشام تزداد فى ذلك كله ضعفا إلى أن انكشف طلب الأمناء والأوصية على الأوقاف ومال الغيبة، وشبه ذلك، فانفتح على الأمة مكاره جملة، وكان القيم بها خادم من خدم الدولة الحمودية.

مقتل الوزير الحائك وخلع هشام:

قال : وضعف أمر هشام وأمر الناس على الوثوب بوزيره فسقط له خبر من ذلك فانزعج وخاف على نفسه ورحل إلى السلطان بأهله وسكنه مختلطا به، وأخذ فى مداراة الناس وكف عن الكلف واعتذر عنها والتزم جلة الوزراء طاعته، وهو رجل من دخلاء الجند لا فضلة فيه، منتقلا من الحياكة إلى الوزارة، فبدر لأول وقته بعداوة الأحرار وتنقص الفضلاء والميل إلى ذوى البيوتات بالأذى والمطالب، وصير صنائعه فى اضدادهم فكانوا وزراءه وأنصاره ونالوا منه المنازل الرفيعة النبيلة، أكثرهم صبية أغمار من نمطه، ممن ديدنه حث الكاس وتنضيد الآس وطبخ الترفاس، والتفكه بأعراض الناس.

وصيخة مظلوم سخروا منه وحاكوه، وكان الناس منهم ومن صاحبهم فى بلاء عظيم وجهد مقعد مقيم.

وعندما سولت له نفسه بحكم نفسه الاستيلاء على البلد بما زين له القدر، وسوء النظر مقت جنده البلديين لعلمه أنهم صنائع الوزراء فأخر أعطيتهم واضطربوا، ولما لاح له حركة الهمس والقول فيه بنى قصبة منيعة على مساحة المدينة استظهارا على ما خافه من تحرك العامة فهتك بها عندهم سره ودبروا القيام عليه، وهو فى ذلك مصر فى غيه عهر الخلوات، صريع الشهوات، لهج بالفكاهات، كثير الكذب والعدوان شنيع الفجور والعصيان، وصاحبه أمير المؤمنين القائم بأمر الأمة عالم بذلك، راض من وزيره الحائك بإقامة وظائفه ليومه وشهره، من نقله وحنيذه، ومن مائه ونبيذه، وملأ عينه وقلبه بالمطعم الذى كان أكثر الأشياء عنده وأكثر له من الشهوات وأعد له من القينات والملهيات، فركسه فى الصبى بعد المشيب، وعرف شغفه بالبطالة فقصدها وأصاب الغرة، وفرق عنه

الأصحاب، وسد دونه الحجاب، وخلاه وراء الستر قد شغل بكأس يمناه، وبحر أخراه، وأعرض عما كان أحاط به حتى أتاه من الله ما أتاه، وأرسل الله على وزيره ودولته طائفة من فتاك الجند، عرفت مراد الوزراء ووجوه الناس فى إزالة أمر وزيره، فدبروا قتله.

وكان الناظم لهذه الجماعة ابن عم لهشام، وهو : أمية بن عبد الرحمن العراقى، من أبناء الناصر فى شديد التهور والجهالة، فسولت له نفسه نيل الخلافة، وأطمعه فى ذلك بعض من نظم التدبير من المشيخة، فلما علم بأنه لا ينفذ فى الوثوب على هشام المعتد إلا من ينازعه ليومه، فهيأ أمر القوم فى ستر، فرصدوا حكيما الوزير الحائك فى طريقه وقاموا عليه وقتلوه وصرعوه فى الوصل والقذر وطافوا برأسه ونصبوه تحت العلية التى كان أعدها لدفاعه فصار غطة للمتأملين.

ونودى فى الأسواق والأرباض : لا يبقى بقرطبة أحد من بنى أمية ولا يكنفهم أحد، وكان القائم بالحال فى إخراج المعتد بالله أبا الحزم بن جهور.

فى هذا التاريخ كانت الفتنة قد تمادت وانتزى كل واحد فى موضعه، واستبد رؤساء الأندلس وثوارها بما فى أيديهم من البلاد والمعاقل، وبغى بعضهم على بعض ولله الحول والقوة.

ولاية لبيب الصقلى مدينة بلنسية :

وذلك أن أهل بلنسية لما مات مبارك اتفقوا على تقديم لبيب الصقلى هذا، فأحدث فيهم أحداثا مقتوه بها، فلاذ بالطاغية أمير الإفرنج يومئذ، واستبلغ فى الطاقة حتى صير نفسه كبعض عماله، فغاظ المسلمين ذلك إذ عرضهم للملك النصرانية، فوثبوا عليه، واستصرخوا ابن هود، فلحق بهم وأظلم الأفق بينه وبين مجاهد، المتقدم الذكر، لما فاته من أمر طرطوشة، وجرت بينهما حروب خاف الناس وبال عاقبتها على ثغور مثغورة خلال كلمة مختلفة وقرى منتكثة، ثم آلت تلك الناحية على تأمير عبد العزيز بن عامر.

ملـــــوك الطوائـــــف

بعض اخبار مجاهـد العامرى المنتزى على مدينة دانية فى اول هذه الفتنة:

انتزى هذا الرجل مجاهد على مدينة دانية فى أول هذه الفتنة، وكان من فحول فتيان بنى عامر، قدمه المنصور بن أبى عامر عليها، وكان عند وقوع هذه الفتنة مقدما على هذه الجزائر الثلاث، فلما صح عنده وقوعها خرج إلى دانية وضبطها وجميع أعمالها المنضافة إليها وسمى بالموفق بالله، وكتب بهذا اللقب عن نفسه وكُتِب له به.

وكان ذا نباهة ورياسة زاد على نظرائه من ملوك طوائف الأندلس بالأنباء البديعة، منها العلم والمعرفة بالأدب، وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة، قصد هذه الجزائر ميورقة ومنورقة ويابة فانتزى على جميعها لنفسه وتغلب عليها وحماها من المشركين، وغزا منها جزيرة سردانية فغلب على كثير منها.

وكان مجاهد هذا من أهل العفاف والعلم فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب ، وألفوا له تواليف مفيده فى سائر العلوم فأجزل صلتهم على ذلك بآلاف الدنانير، ومضى على ذلك طول عمره إلى أن حانت وفاته بمدينة دانية بعد أن ملكها، وكانت حضرة مدنه وأملاكه ستا وثلاثين سنة جرها فى أمر ونهى، وجرت فيها أمور وخطوب يطول ذكرها.

قال حيان بن خلف : كان مجاهد فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره، لمشاركته فى علوم اللسان وتفوذه فى علوم القرآن، عنى بذلك من صباه وابتداء حاله إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن ذلك عظيم ما مارسه من الحروب برا وبحرا، حتى صار فى المعرفة نسيج وحده، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة، فكانت دولته أكثر الدول خاصة صحابة.

بل إنه كان مع علمه وحبه يدفعه إلى طلب أشد الناس فى الشعر وأحرمهم لأهله، وأنكدهم على نشيده، لا يزال يتعقبه كلمة كلمة كاشفا لما زاغ فيه من لفظة أو سرقة، فلا تسلم على نقده كافية، ثم لا يفوز المتخلص من مضماره على الجهد لديه بطائل، ولا يحظى له بنائل، فأقصر الشعراء عن مدحه وخلى الشاكرون ذكره، ولم يكن فى الجود والكرم ينهمك فيعزى إليه ولا قصر عنه فيوصف بضده، أعطى وحرم وجاد وبخل، فكأنه بدا من عهدة الدم.

ثم أكثر التخطيط فى أمره فطورا كان ناسكا وتارة يعود خليعا فاتكا، لا يساتر بلهو ولا لذة، ولا يستفيق من شراب وبطالة، ولا يأنس بشيء من الحقيقة.

له أخبار غريبة من سائر ملوك الطوائف، فى ذلك أخبار مأثورة.

دولة علي بن مجاهد المسمى إقبال الدولة :

كان على هذا أسره الروم فى صباه حين وقعتهم على أبيه بجزيرة سردانية، ومكث عندهم سنين كثيرة ومدة طويلة، وقصته مذكورة مشهورة عند الروم الذين نشأ بينهم، وقد كان أبوه قبل فدائه من الأسر رشح للإمارة بعده ولده الأصغر حسن الملقب بسعد الدولة، وصرف الأمر بعده لعلى هذا الطليق، فأورثهما العداوة بينهما، فلما فداه أبوه قلده الأمر بعده، فمضى أبو الجيش والدهما لسبيله، وقد وطد الأمر لعلى هذا دون أخيه، فخير على هذا أخاه أن يصرف له الأمر ويتخلى له عن الملك، فلم يجسر على إظهار ما فى نفسه، ولم ينصرم الحول حتى أحدث على أخيه ما نذكره.

وذلك أنه صار إلى المعتضد بن عباد وكان زوج أخته، فوجه المعتضد الزيارة لأخيه، فدبر معه الرأى فى غدر أخيه وزير أبيه فى أى وقت ويوم يكون، فكان اتفاقهم على حين خروجه من صلاة الجمعة وكانت عادته إذا خرج سار إلى ساحل البحر فيقف عليه ساعة ثم ينصرف، وكان إذا ركب يكون حسن أخوه وراءه، فلما انصرف أخذ فى زقاق ضيق، فعندما دخل فيه غمز غلام بن عباد

لحسن بن مجاهد أن يجرد السكين ويضرب به أخاه، فجرده وضربه ضربة دهش، فلم يصنع بها شيئا، ثم ثنى عليه بضربة أخرى فلقيه أخوه بيده اليسرى، وأراد الغلام أن يطعنه بالرمح الذى كان بيده فحاول تغليبه عليه فنشب فى الحائط لضيق الزقاق ونذر بعض فتيان على بن مجاهد فقتلوا الغلام وفر مجاهد هذا على وجهه راكضا فرسه، ووقعت هوشة فى الناس ودهشة، ولم يعرفوا خبر الكائنة، وخرج حسن فارا من باب المدينة يقول : غُدِرنا يا مسلمين، إلى أن وصل بلنسية، وبها زوج أخته عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر، وقد خاب أمله.

وحمل على بن مجاهد إلى قصره على حاله فأقام بقيه يومه مطرحا لا يتكلم إلى غد ذلك اليوم، ثم عانى نفسه حتى رجعت قوية، وخرج هذا الغادر من مدينة بلنسية، فكان فى كنف أخته إلى أن فارق الدنيا، وبقى أخوه فى بلاده، وتقدم فى معاقدة قواده واستوى على سرير ملكه فلم يختلف عليه أحد من أهل عسكره، وتصرفت فى إمارته أمور كثيرة يطول شرحها إلى أن أخرجه ابن هود منها، على ما يأتى ذكره.

بعض اخبار مبارك ومظفر العامريين وانتزائهما على مدينتى بلنسية وشاطبة :

ومضى عبد العزيز أبوه غير فقيد المكان ولا عظيم الشأن ولا مبكٍ لسمائه وأرضه، ما فُجِع به إلا ذوو رحمه من رجال ابن أبى عامر لتناهيه فى صلتهم، حتى صار إسرافه فى ذلك من أضر الأشياء لجنده وأجلبها لهمه، وله فى ذلك أخبار مأثورة.

وتوفى وهو أطول أمراء الأندلس مدة إمارة وتملكها أربعين حجة.

بعض اخبار خيران المنتزى على مدينة المرية اول هذه الفتنة :

هو خيران الصقلبى العامرى، وكان من جلة فتيان ابن أبى عامر، فلما تخربت الخلافة وانشقت عصا الأمة انتـزى خيران هـذا على مدينـة المرية وأعمالها، وانضوى إليه جميع فتيان محمد بن أبى عامر، فحولهم وخصيانهـم، ولهم فى هذه الأمور أخبار، فدبر أمر مدينة المرية إلى أن هلك سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م، وصار الأمر فيها إلى صاحبه زهير الفتى العامرى، فوليها من بعده نحو عشرة أعوام، وتحرك إلى مدينة غرناطة فى جيش كثيف حتى وصل إلى بابها، وخرج إليه جمع من صنهاجة مع أميرهم باديس بن حبوس، فوقعت بينهم حرب، كان الظفر فيها لصنهاجة، وانهزم جيش الصقالبة وقتل زهير أميرهم وكثير منهم.

واتصل خبر هذه الوقعة بأهل المرية، فضبطوا بلدهم، وأسندوا أمرهم إلى شيخهم أبى بكر الرميمى، فضبط المرية أحسن ضبط، إلى أن كاتبوا عبد العزيز بن أبى عامر، المتقدم الذكر، إلى بلنسيـة، فجاءهم وأقام الدعـوة على منبـــرها لهشام المؤيد على أنه الرجل المنصوب بإشبيلية، على ما يأتى ذكره فى دولة ابن عباد.

وحصل ابن ابى عامر هذا من تركة هؤلاء الخصيان على أموال جليلة، وانصرف إلى بلنسية بعد أن ولى على مدينة المرية صهره أبا يحيى معن بن صمادح التجيبى.

بعض اخبار معن بن صمادح التجيبى :

لما تركه عبد العزيز بن أبى عامر واليا عليها من قبله غدره وخلع طاعته ونقض عهده وانتزى عليه فيها ودعا لنفسه، وذلك فى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م فملك مدينة المرية وأعمالها، وكان من كبراء العرب وكان أبوه من قواد محمد بن ابى عامر، ولاه الولايات وقاد له الجيوش، وتوفى بمدينة

وشقة، وحارب معن هذا من جاوره من سائر ملوك الطوائف إلى أن هلك فى شهر رمضان من سنة ٤٤٣هـ/ أبريل ١٠٤٤م.

ثم ولى ابنه أبو يحيى بن معن بن صمادح، أجلسه بنو عمه التجيبيون مكان أبيه، وكان أبوه قد أخذ له بيعتهم فتمت الإمارة له وسمى نفسه معز الدولة، فلما تلقبت ملوك الأندلس بالألقاب السلطانية تلقب هو أيضا باسمين من أسمائها، فسمى نفسه المعتصم بالله الواثق بفضل الله، ضاهى فى ذلك عبادا، فجرى هذا الفتى أبو يحيى مع رجاله مجراه على أحسن سيرة فى جنده ورعيته، فحسنت أيامه وأطردت دولته، وكان من أهل الأدب والمعارف، فاضلا عاقلا، كان لأهل الشعر عنده سوق نافقة فقصده جمع منهم، وأقام ملكا بمدينة المرية وأعمالها مدة طويلة قطعها فى حروبه ولذاته، فكانت مدته ٤١ سنة وصدمته عساكر لمتونة آخر مدته وهو يعالج الموت فجعل يقول : نغص علينا حتى الموت، وهلك على إثر رحيل عساكر لمتونة عنه، حسبما نذكره فى دولتهم.

وترك ابنا له كان قد رشحه للأمر من بعده وأوصاه وصيته فامتثلها بعد موته، وكان قد قال له إذا بلغك عن ابن عباد أنه جرى عليه شيء من قبل هؤلاء، أصحاب اللثام، فاركب هذا البحر إلى بلاد بنى حماد، فما بقىَ بعده إلا ستة أشهر وبلغه خلع المعتمد فصنع ما أمره به أبوه، فكاتب المنصور بن الناصر، صاحب قلعة حماد، من عمل بجاية واستأذنه فى الوصول إلى بلاده فأذن له، وقال له اقصد إلى مدينة فاس، فلم يزل بها إلى آخر عهده.

وأما زهير الفتى المتقدم الذكر فكانت قد امتدت مملكته من المرية إلى شاطبة وما يليها إلى بياسة وما وراءها إلى الفج، من أول عمل طليطلة.

قال حيان بن خلف : وكان سبب فساد باديس بن حبوس على جاره القديم الحلف زهير الفتى، فتى المنصور بن أبى عامر موالاته لغاشمة محمد بن عبد الله الزناتى، ومضى على ذلك

حبوس من عداوته، وخلفها كلمه باقية فى عقبه : ضرّم زهير نارها بعدُ، فتمادى تمسكه بالمذكور فأرسل إليه باديس مستدعيا تجديد المحالفة فسارع زهير مقبلا نحو باديس وضيع الحزم واعتز بالعجب واغتر بالكثرة، وصار أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى العامل من عماله قد ترك رسوم الإخفاء ضاربا سوطه حتى تجاوز الحد الذى جرت عادته بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذنه، وصير المضايق والأوعار خلف ظهره، ولا يفكر فيها واقتحم البلد حتى صار إلى باب غرناطة.

هزيمة زهير الفتى ومقتله هو وكاتبه احمد بن عباس :

لما وصل زهير إلى غرناطة خرج إليه باديس بن حبوس فى جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه وعده حاصلا فى يده فبدأه بالجميل والتكريم، وأوسع عليه وعلى رجاله فى العطاء والقِرَى والتعظيم بما مكن اغترارهم وثبت طمأنينتهم فوقعت المناظرة بين زهير وباديس ومن حضرها من رجال دولتهما، نشأ بينهما عارض اختلاف لأول وهلة، وحمل زهير أمره إلى التشطط، ووزيره أحمد بن عباس يفرى الفرى فى تصريح ما يعرض به زهير، فعزم باديس عند ذلك على القتال، ووافقه قومه صنهاجة، فأقام مراتبه ونصب كتائبه وقطع قنطرة لا محيص لزهير عنها، والخائن زهير لا يشعر، وبات تتمخض له ليلته عن راغية البكر، وغاداه باديس صبيحتها عن تعبئة محكمة، فلم يرُعْه إلا رجة القوم راجعين إليه تخفق طبولتهم، فدهش زهير وأصحابه، فيا لك من أمر شتيت وهول مفاجئ قسم بال المرء بين نفسه وماله، ووزع همته بين روحه ورحله، إلا أن أميرهم زهير أحسن تدبير الثبات أو استتمه وقام ينتصب للحرب، فثبت فى قلب معسكره وقدم خليفته هذيلا الصقلبى فى وجوه أصحابه من الموالى العامريين الفحول وعشيرته الصقلب وغيرهم لاستقبال صنهاجة.

فلما رأوه علم أنهم حماته وشوكته وأنهم متى حصدوها لم يثبت لهم من وراءهم، فاختلف

الفريقان واشتد بينهم القتال مليا، فلم يكن إلا كلا حتى حكم الله بالظهور لأقل الطائفتين عدد لُيرى الله قدرته، ويجدد فى قلوب عباده عبرته.

فنكص فى الصدمة قائدهم هزيل وانهزم أصحابه، وسيق هذيل لوقته إلى باديس أسيرا فعجل بضرب عنقه، فما هو إلا أن نظر هذيل لمصرعه ففر على وجهه فلم يستصحب ثقة ولا انحاز إلى فئة، ولج به الفرار، وانهزم أصحابه خلفه لا يلوون على شيء، وركبت صنهاجة ولفها من زناته أكتاف القوم باذلين السيف فيهم بصدى العصبية وإيثار الإفناء فلم يبقوا على أحد قدروا عليه، فأساءوا الاعتداء وأبادوا أمة أخذوا فى شعاب وعرة وأجبل شامخة أجاءهم إليها الثغر فكانت حتف من قر، وتقطعوا على هذا السبيل أودى أميرهم زهير وجُهِل مصرعه، وكان سودانه غدروه أول وهلة وانقلبوا مع صنهاجة وكانوا يقاربون خمسمائة.

وغنم رجال باديس من المال والخزائن والأسلحة والحلية والعدة والغلمان والخيام وسائر أنواع الأموال ما لا يحيط به الوصف، وظفر باديس على قوم من وجول رجال زهير فعجل على الفرسان والقواد بالقتل وشمل الإسار حملة الأقلام ومنهم وزيره الكبير أحمد بن عباس الجار بحر هذه الثائرة فأمر بحبسه، وشفاؤه الولوغ فى دمه، فعفا باديس عن دماء حملة الأقلام دونه إلا من أصيب منهم فى الحرب، وأطلق ابن حزم والباجى وغيرهما.

وكان باديس قد أرجأ قتل ابن عباس مع جماعة من الأسرى، كما يأتى.

وكان لأول ولايته قد ساس عظماء الإفرنج فحفظت أطرافه إلى أن مضى بسبيله والثغر مسدود لا ثغرة فيه، وبلغ من استمالته طوائف النصرانية أن جرى بين يديه وبحضرته عقد مصاهرة بعضهم، فقذفته الألسنة لسعيه فى نظم سلك النصارى، وقد قيل : إن رأى منذر كان فى ذلك أحصف عمن قدح فيه لنظره فى صلاح وقته وعلمه بانصداع عصا أهل كلمته، فآثر من الموادعة ما ستر به

القورة وسدها بيسير الكلفة، واختدع به عظيم الجلالقة ريمنده وشانجه المحدثين انفسه بمناهضة أهل الأندلس، فألهاهما عن الحرب وحبب إليهما الدعة، وأغنم أهل الثغر فى ذلك عاجل السلامة واستظهروا به على العمارة، فحيوا وعاشوا فى نعمة ضافية وعيشة راضية ألوت بمنذر المنية.

وقد اعترف الناس برأيه، وأقروا بسياسته، ولم يأت بعده من يسد مسده، ولم ينفع الله ا بعده، فشتت الله شمل الطاغية يومئذ، وكفى المسلمين شرهم برحمته.

واشتمل منذر على قواد تلك الثغور، واستوسقت له الأمور، واستكتب عدة كتاب ج أبو العباس بن مروس وابن أرزق وابن واجب وغيرهم، إذ أعجل عنه شانجة بن غرسية ، شيطانهم الرجيم، وهوى أميرهم ريمند.

مقتل منذر بن يحيى:

قال ابن حيان : كان ذلك على يد رجل مارد من بنى عمه يقال له : عبد الله بن وكان مقدما فى قواد منذر، أضمر الفتك به دهرا، فدخل عليه غرة ذى الحجة سنة ٠ أغسطس ١٠٣٩م وهو غافل فى خلالة وليس معه إلا نفر يسير من خواص خدمه الصق ـبّ على كتاب يقرؤه، فعلاه بسكين قد أعده فقطع به أوداجه ولا منع منه، وهرب خد غلمان الخصيان الذين كانوا على رأسه وخلوه فى يده إلا خادما شهما دفع عنه وهو حاسر عبد الله بخنجر فقضى عليه مع مولاه، وأخرج رأس منذر فى الوقت من قصره فوق عصا عليه هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاما ودفع حقه، يريد بذلك الرجل الذى كان بإشبيلية يدعى له يومئذ بها تعلقا من ذلك المارد بولايته وتوطيدا لقيامه، إذ كان هذا القتيل طاعة هذا الدعى هشام تأسيا بوالده يحيى وبخاله إسماعيل بن ذى النون.

فنزلت بسرقسطة يومئذ حادثة عظيمة شديدة وطمع فيهم أكثر من كان يجاورهم وأذعنوا لذلك العربى المتوثب عليهم ورهبوه حتى ملكهم، فملك سرقسطة عبد الله بن حكيم فسارع إليه سليمان بن هود الجذامى صاحب لاردة، إذ كان مقيما بتطيلة فى جمعه حين مجيئه الخبر، رجاء فى دخولها، فمنعه هذا القاتل المذكور، وجاءه إسماعيل بن ذى النون خال منذر المذكور ممتنعا على ما جرى لابن أخته، فامتنع ابن حكيم بالقصبة واتصلت الفتنة.

وكان ابن حكيم ركب من خطة التعزير ما لم يجسر عليه فاتك قبله لوثوبه على منذر جوف قصره فى قرار مجلسه بين فتيانه وأهله، وتحت أغلافه، وبينه وبين الباب الأقصى من قصره ما لا يحصى من حجابه وقهارمته، فلم يفكر فى شيء من ذلك وحمل نفسه على التصميمفيه، وهون على نفسه الموت دونه، فتم له ذلك.

ولم يكن فى الخصيان الذين حضروا فضل الدفاع عنه وأنهم لم يزيدوا على الهرب أمامه، فجاء بفتكة أسقطت كل فتكة فى الإسلام قبله، ثم أعلن طمعه بالملك فناله ولم يفكر فى ابن ذى النون خال منذر لما دنا إليه، وفعل مثل ذلك بابن هود وقد جاءه ناشرا أذنيه فحاربه ودافعه، وكان بقصر منذر وقت فتكه من حاشيته، وغلمانه أزيد من مائة رجل سوى نسائه، فطار الرجل على وجوههم فزعا ولم يكن منهم من يأخذ على يده، وقام فيهم كالأسد الورد.

ولما أخرج رأس منذر للناس بهتوا وأبلسوا، ولم ينطق أحد منهم بكلمة وأرسل من حينه عن قاضى البلد والمشيخة فدخلوا عليه وهو قاعد على فراش قتيله، ومنذر على جانب الفراش مزمل فى دمائه مغطى بثيابه، فوصف أنه جرى فى سبيل الإصلاح عليهم والشد بسطاتهم، وأظهر الدعاء أولا لابن هود، فأروه قبول ما وصفه وتفرقوا عنه وكلمتهم متألفة عليه إلى أن ثاروا إليه وقاتلوه، فخرج من باب بظهر القصر ونجا بفاخر ما اشتمل عليه من ذخائر مال منذر ودخل روطة وتحصن أحد

معاقل سرقسطة المنيعة، وقد كان أعده لنفسه فأقام به يرصد الفتنة جهده، وقد كان قد حمل مع نفسه أخوين لمنذر قتيله وأبا المغيرة بن حزم وزيره وغيرهم من رجال منذر مقيدين فحبسهم عنده يطالبهم بالأموال، ونهبت العامة قصر سرقسطة إثر خروجه حتى قلعوا مدمره وطمسوا أثره، وعجل ابن هود بالإتيان فملك البلد فى محرم سنة ٤٣١هـ/ سبتمبر ١٠٣٩م.

من أخبار أبى مروان بن رزين، حسام الدولة :

قال ابن حيان : كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع صاحب السهلة متوسطة ما بين الثغر الأقصى والأدنى من قرطبة فإنه كان من أكابر برابر الثغر، ورث ذلك عن سلفـه، ثم سعى لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله والإمارة لجماعته والتقيل لجاره إسماعيل بن ذى النون فى الشروع عن اسكان قرطبة، فاستوى له من ذلك ما اراد هو وغيره من جميع من انتزى فى الأطراف شرقا وغربا وقبلة وجوفا.

إلا أن هذيلا هذا مع تعززه على المخلوع هشام لم يخرج عن طاعته ولا وافق الحاجب منذرا ولا جماعة الممالئين على هشام فى شأن سليمان عدوه إلى أن استعان بهشام فسلك هذيل مسلكهم فرضى منه سليمان بذلك وعقد له على ما بيده هنالك لعجزه عنه، فزاده ذلك بعادا منه، وتمرس به الحاجب منذر بن يحيى مدرجا له فى طى من استعمله واشتمل عليه من سائر أمراء الثغر النازلين فى طاعته، فأبت له نفسه النخوع له والانضمام إليه.

* * *

أرجو ألا تكون من الباحثين عن العجائب، لأن العجيبة الحقيقية هى الواقع الذى نعيشه، وإذا لم يكن عبد الرحمن الناصر عجيبة فماذا تكون العجائب إذن.

وقد أورد المقرى فى نفح الطيب (طبعة إحسان عباس ج ١ ص ٣٦٦) خبرا عنه هو فى ذاته عجيبة قال :

ذكر ابن حيان وغير واحد أن ملك الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادنه الروم وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة من أمم النصارى والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت إليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية، من جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى، فإنه هاداه ورغب فى موادعته، وكان وصول أرساله فى صفر سنة ٣٣٨هـ/ يونيو ٩٤٩م.

وتقدم فى كلام ابن خلدون أنها ٣٣٦هـ، فالله أعلم أيهما أصح.

وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه، وأحسن قبولٍ وأكرمه، والخروج للقائهم بزعامة يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج للقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبئة فتلقوهم قائدا بعد قائد وكمل اختصاصهم بعد ذلك.

ملوك قرطبة وإشبيلية وما يصاقبهما من ملوك بوسطة الأندلس وغربها :

هنا انتهت دولةِ الخلافة الأندلسية ووحدة الأندلس وندخل الآن فى ذكر ملوك الطوائف.

وندخل الآن فى نهاية خبر هشام المعتد، وهو آخر خلفاء قرطبة الأمويين.

وكانت بيعته بقرطبة فى ذى الحجة سنة ٤٢٠هـ/ ديسمبر ١٠٢٩م وقد افتتحت دولته بإجماع وختمت بفرقة، وعقدت برضى وحلت بكرب وخلع منها يوم الثلاثاء ١٢ ذى حجة، واجتمع الناس بقرطبة على تقديم الوزير أبى الحزم بن جهور.

دولة الجماورة

بقرطبة

ثم قام بقرطبة ابن جهور، وهو جوهر بن محمد بن جوهر بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبى عبدة.

وكان لمدخل جدهم أبى عبدة إلى الأندلس أثر عظيم ظهر له فيها من جميل الذراع وسعة البال وحسن الامتناع ما لم يظهر لأحد من النظراء، من حين الفتح إلى وفاة أبى الحزم هذا، وذكر أن جده بخت بن أبى عبدة كان من الفرس مولى لعبد الملك بن مروان، ودخل يوسف بن بخت إلى الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بمدة، وكان أحد كبار الموالى بقرطبة.

قال ابن حيان : واجتمع الملأ من أهل قرطبة على تفويض أمرهم لأبى الحزم جهور، وعددوا من خصاله ما لم يختلفوا فيه، فأعطوا منه قوس السياسة باريها، وولوا أمر الجماعة أمينها فاخترع لهم لأول وقته نوعا من التدبير حملهم عليه وأجادوا السياسة فيه، فأنزل الستر على أهل قرطبة مدته، وحصل كل ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتليه، وصير ذلك فى أيدى ثقاة من الخدمة مشارفا لهم بضبطه، فإن فضل شيء تركه بأيديهم مثقفا مشهودا عليه، لا يتلبس لهم بشيء منه، وإذا سئل قال : ليس لى عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم، وإذا رابه أمر أو عزم على تدبير أحضرهم وشاورهم، وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء، فأعطى السلطان حظه من النظر، ولم يخل مع ذلك من نظر لمعيشته حتى تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ما وجد عاتبه فيه مطعنا ولكمل لو أن بشرا يكمل (البيان ٢/١٨٦).

بعـض اخبار مبارك ومظفـر العامريـين وانتزائهما على مدينتى بلنسية وشاطبة :

قال حيان بن خلف : ومن غرائب الليالى والأيام، اللاعبة بالأنام أن مباركا ومظفرا المذكورين كانا وليا أولا وكالة الساقية ببلنسية واتفق أن صرفا عنها فدخلا على الوزير عبد الرحمن بن يسار أيام خدمته بها سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م، وقد دعيا للحساب فكلماه ومسحا أعطافه ولثما أطرافه فكتب لهما بما ينفعهما، وكان سببا لردهما إلى عملهما، وعند خروجهما بالكتاب تعلق بهما خادم لابن يسار بهما، وكان مدلا عليه، فسألهما بره وجزاءه على ما تهيأ لهما عند مولاه، فخلع لجام مبارك عن رأس فرسه، وقد كان ركبه، فخلاه بفرسه لا يقدر على حركته، ثم بعد لأى ماردہ، فلم تمض إلا مديدة وضرب الدهر ضرباته، فقضى لمبارك بالإماره هنالك، ونالت ابن يسار المذكور محنة قرطبة بعد ذلك، فجال النواحي وأم تاركا هذا لا يشك فى معرفة بمنزلته وحرصه على مبرته فحل بلنسية فما أنصفه فى اللقاء فضلا عن القرى.

ثم ظهر من سياسة هذين العبدين القدمين مبارك ومظفر فى مدة إمارتيهما إلى أن تعاملا من صحة الألفة بينهما فيها طوال حياتهما فى معناهما أشقاء الأخوة وعشاق الأحبة، نزلا يومئذ معا فى سلطانهم بقصر الإمارة مختلطين تجمعهما فى أكثر أوقاتهما مائدة واحدة، ولا يتميز أحدهما عن الآخـر فى عظيـم ما يستعملانـه من كسـوة وحليـة وفرس ومركـوب وآلة، وأنهما لا ينفردان إلا فى الحرم خاصة على أن جماعة حرمهما كن مختلطات فى منازل القصر ومستويات فى سائر الأمر، غير أن لمبارك كان التقدم فى المخاطبة هنالك فى حقيقة رسوم الإمارة لفضل صرامة ونكراء يقصر عنها مظفر لدماثة خلقه وانحطاطه لصاحبه فى سائر أمره ورضاه بكل فعله، على زيادة مظفر زعموا عليه ببعض ... ... وفروسيته، وبلغت جبايتهما لأول ولايتهما إلى ١٢٠٠٠٠ دينار فى

الشهر، سبعون بلنسية وخمسون شاطبة يستخرجانها بأشد العنف من كل صنف حتى تساقطت الرعية وجلت أولا فأول، وخربت أقاليمهم آخرا فأقبلت الدنيا يومئذ عليهما بكثرة الخراج وتبوء البحبوحة بحيث لا يغادرون عدوا ولا تطرقهم نائبة تغمهم إلى نفقة حادثة فانتعشوا وكثروا.

ولحق بهم لأول أمرهم من موالى المسلمين ومن اجناس الصقالبة والإفرنج والبشكونس عشيرتهم ودربوا على الركوب حتى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارس برزوا فى البسالة والثقاف.

وانفتح على المسلمين بالأندلس أمر شديد فى إباقة العبيد، إذ نزع إليهم كل شديد طريد وكل عاق مشاق، وزهدوا فى الأحرار وأبنائهم ممن طرأ منهم عليهم، فلم يواسوهم، وانتمت جماعة هذه الأخلاط المتهنة الأصاغر منهم إلى ولاء بنى عامر وانتفت عن نسبها ابتغاء عرض الدنيا فكثروا، وطلب هذين العبدين لما اتسعت لهم الدنيا فاخر الأسلحة والآلات والخيل المفرغات ونفائس الحلى والحلل، فصارت دولتهم أثرى الدول، ولحق بهم عريف كل صناعة ورئيس، فنفق سوق المتاع لديهم وجلبته كل ذخيرة إليهم.

وكانا قد بنيا بلنسية وسدا عورتها بسور أحاط بمدينتها تحت أبواب حصينة، فارتفع الطمع عنها، ورحل الناس من كل قطر إليها بالأموال وطمحت بسكانها الآمال واستوطنتها طائفة من جالية قرطبة القلعة الاستقرار، فالقوا بها عصا التسيار، وأجمل عشرتهم، فتبوأوا بها المنازل والقصور، واتخذوا البساتين الزاهرة والرياضات النادرة، وأجروا بها المياه المتدفقة، وسلك مبارك ومظفر سبيل الملوك الجبارين فى إشادة البناء والقصور، والتباهى فى عليات الأمور إلى أبعد الغايات ومنتهى النهايات، بما أبقيا شأنهما حديثا لمن بعدهما، واشتمل هذا الرأى على جميع أصحابهما، ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتّابهما فاحتذوا فعلهما فى تفخيم البناء فهاموا منه فى ترهات مضلة، وتكشفوا فى أشغال متصلة، لاهين عما كان فيه الأمة يومئذ كأنهم من الله على عهد لا يخلفه.

واتسع الخرق في عظيم ذلك الإنفاق، فمنهم من قدرت نفقته على منزله ١٠٠٠٠٠ دينار وأقل منها وفوقها حَسب تناهيهم في سردها وبُعثر عن ذخائر الأملاك لقصدهم، وضرب تجارها وجوه الركاب نحوهم حتى بلغوا من ذلك البغية، فما شئت من طرف رائق وملبس رفيع جليل وخادم عجيب نبيل وآلات مشاكلة وأمور متقابلة تروق الناظرين وتغيظ الحاسدين جرها لهم المقدار إلى مدة.

وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعيم وفازا بعنصر الخراج، ولم يعرض لهما عارض اتفاق بتلك الآفاق، فانغمسا في النعيم إلى قمم رؤوسهما، وأخلدا إلى الدعة وسارعا في قضاء اللذة حتى أربيا على ما تقدم وتأخر.

حدث من رأى مركوب هذين العبدين الزلمتين في بعض أيام الجُمع للمسجد الجامع ببلنسية بما أنسى مركب المظفر عبد الملك بن أبي عامر مولاهما المثير كان للنعمة الوارث لحجابة الخلافة في فخور لباسهما ووفور عدد أصحابهما وحسن خدمتهم لهما وأن كلا منهما كان يظاهر الوشي على الخزي ويستشعر الديبقي وينقلس الموشي ويتعطف القسي.

قال حيان بن خلف: فكان حظي من الاعتبار في الدنيا ذلك إذ كانا على استخدامهما من الجهل والأفن واللكنة من حجج الله تعالى في القسم البالغة الدالة على هوان الدنيا عنده إذ أنالهما منها بحبوحه افتحت أبصار أولي النهى نحوها شاخصة، وقلوبهم فيها مسلمة لمن له الحول والقوة، وهما عين الاعتبار عنها بمنجاة من مندوحة الجهالة يحسبان أنهما نالا ذلك بالاستحقاق، وأن لهما على الأيام دركا يحثان بسوق الرعية المضطهدة بسلطانها، ولا يعبآن بما آذاها من كلفهما يقلدان شرار العمال، ويستزيدان عليها في الوظائف إثقال، مع الأيام والليال حتى غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحفر، ويأكلون البقل والحشيش، وفر أكثرهم عن قراهم، فلا يأسف هذان العلجان

ومن تلاهما، ولا يخافان من مواقعة مثله لمن أقام بعدهم، بل يتخذان ما جلا عنه أهله من تلك القرى ضياعا مستخلصة ، فإذا وقع عليها اسم كبير منهم راجع أهلها راضين بالأعمال بالسهم راجين فى دفاعه من الحدثان، وعلى هذا السبيل سلك أكثر الثوار المنتزين على أكنافها الثائرين بأطرافها بعد افتراق سلطان الجماعة بقرطبة آخر دولة بنى عامر.

ولايـــة لبيـــب الصقلبى مدينـــة بلنسيـــة :

وذلك أن أهل بلنسية لما مات مبارك اتفقوا على تقديم لبيب الصقلبى هذا، فأحدث فيهم أحداثا مقتوه بها، فلاذ بالطاغية أمير الإفرنج يومئذ، واستبلغ فى الطاعة حتى صبر نفسه كبعض عماله، فغاظ المسلمين ذلك، إذ عرضهم للملك النصرانية، فواثبوا عليه واستصرخوا ابن هود، فلحق بهم، وأظلم الأفق بينه وبين مجاهد المتقدم الذكر لما فاته من أمر طرطوشة، وجرت بينهما حروب خاف الناس وبال عاقبتها على ثغور متغورة خلال كلمة مختلفة وقرى منتكثة، ثم آلت تلك الناحية إلى تأمير عبد العزيز بن أبى عامر.

ولايـــة عبـــد العزيـــز بـــن أبى عامـــر بلنسيـــة :

قال حيان بن خلف : هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبى عامر، وكان لقبه المنصور، وكان الموالى العامريون عند ذهاب مجاهد عنهم قد أسندوا أمرهم إلى نفر من مشيختهم فتشاوروا فى أن ... من أنفسهم يعترفون له فاتفقوا على عبد العزيز ابن مولاهم الإيثار له على ابن عمه محمد بن عبد الملك، وكان مقيما بقرطبة، وعبد العزيز بسرقسطة فى كنف منذر بن يحيى، فأحكم له التدبير وخرج سرا فلحق ببلنسية فاستقبله الموالى أفواجا وقلدوه أمرهم ورياستهم.

وكان عبد العزيز هذا من أوصلهم لرحمه وأحفظهم لقرابته، ابتعثه الله رحمة للممتحنين من أهل بيته فآواهم فجبر الكسير ونعش الفقير طول مدته، حتى بلغ من ذلك مبلغا أعان ملوك زمانه،

وخاطب لأول حينه الخليفة بقرطبة القاسم بن حمود مع هدية حسنة، وذكره بزمام سلفه فسماه المؤتمن ذا السابقتين، فتوطد سلطانه واشتمل على خدمته أربعة من الكتّاب حتى سماهم الناس الطبائع الأربع، وهم : ابن طالوت، وابن عباس، وابن عبد العزيز، وابن التاكرنى، كاتب رسائله، ولم تزل حاله تسمو حتى اتصل بوزارته، فنال جسيما من دنياه.

وطالت إمارة عبد العزيز إلى ذى الحجة سنة ٤٥٢هـ/ ديسمبر ١٠٦٠م.

ولاية عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر :

ثم تقدم عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر، واجتمع أصحاب أبيه عبد العزيز على تأميره، وقام له بأمره كاتب والده والمدبر لدولته الوزير ابن عبد العزيز، المشهور مع معرفته بابن رويش القرطبى، وكان مشهورا بالرجاحة، فأحسن هذا الكاتب معونته على شأنه، وتولى تمهيد سلطانه واستقر أمره على ضعف ركنه لعدم المال وقلة الرجال، وفساد أكثر الأعمال، وراعى هذا الكاتب الشهم مدبر [تلك الدولة] فى هذا المؤمر عبد الملك مكان صهره الأمير المأمون يحيى بن ذى النون، إذ كان صهر عبد الملك أبا امرأته المساهم له فى مصاب أبيه المعين له على سد ثلمه الذائد عنه كل من طمع فيه، فانزعج عند نزول الحادثة من حضرته طليطلة إلى قلعة كونكة Cuenca من طرف أعماله للدنو من صهره عبد الملك، وبادر بإنفاذ قائد من خاصته وبالكاتب ابن مثنى إلى بلنسية فى جيش كثيف، أمرهم بالمقام مع عبد الملك وشد ركنه فسكنت الدهماء إليه.

ومضى عبد العزيز أبوه غير فقيد المكان ولا عظيم الشأن ولا مبكٍ لسمائه وأرضه، ما فُجِع به إلا ذوو رحمه من رجال ابن أبى عامر لتناهيه فى صلتهم، حتى صار إسرافه فى ذلك من أضر الأشياء لجنده وأجلبها لهمه، وله فى ذلك أخبار مأثورة.

وتوفى وهو أطول أمراء الأندلس مدة إمارة وتملكها أربعين حجة، فسبحان المنفرد بالبقاء، الأول قبل الأشياء.

ذكر اخبار خيران الفتى المنتزى على مدينة المرية لأول هذه الفتنة :

هو خيران الصقلبى العامرى، وكان من جلة فتيان ابن أبى عامر، فلما تخربت الخلافة وانشقت عصا الأمة انتـزى خيران هـذا على مدينـة المرية وأعمالها، وانضوى إليه جميع فتيان محمد بن أبى عامر، فحولهم وخصيانهم، ولهم فى هذه الأمور أخبار، فدبر أمر مدينة المرية إلى أن هلك سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م، وصار الأمر فيها إلى صاحبه زهير الفتى العامرى، فوليها من بعده نحو عشرة أعوام، وتحرك إلى مدينة غرناطة فى جيش كثيف حتى وصل إلى بابها، وخرج إليه جمع من صنهاجة مع أميرهم باديس بن حبوس، فوقعت بينهم حرب، كان الظفر فيها لصنهاجة، وانهزم جيش الصقالبة وقتل زهير أميرهم وكثير منهم.

واتصل خبر هذه الوقعة بأهل المرية، فضبطوا بلدهم، وأسندوا أمرهم إلى شيخهم أبى بكر الرميمى، فضبط المرية أحسن ضبط، إلى أن كاتبوا عبد العزيز بن أبى عامر، المتقدم الذكر، إلى بلنسيـة، فجاءهم وأقام الدعـوة على منبـرها لهشام المؤيد على أنه الرجل المنصوب بإشبيلية، على ما يأتى ذكره فى دولة ابن عباد.

وحصل ابن ابى عامر هذا من تركة هؤلاء الخصيان على أموال جليلة، وانصرف إلى بلنسية بعد أن ولى على مدينة المرية صهره أبا يحيى معن بن صمادح التجيبى.

بعض اخبار معـن بن صمادح التجيبى :

لما تركه عبد العزيز بن أبى عامر واليا عليها من قبله غدره وخلع طاعته ونقض عهده وانتزى

عليه فيها ودعا لنفسه، وذلك في سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م فملك مدينة المرية وأعمالها، وكان من كبراء العرب وكان أبوه من قواد محمد بن ابى عامر، ولاه الولايات وقاد له الجيوش، وتوفى بمدينة وشقة، وحارب معن هذا من جاوره من سائر ملوك الطوائف إلى أن هلك في شهر رمضان من سنة ٤٤٣هـ/ أبريل ١٠٤٤م.

ثم ولى ابنه أبو يحيى بن معن بن صمادح، أجلسه بنو عمه التجيبيون مكان أبيه، وكان أبوه قد أخذ له بيعتهم فتمت الإمارة له وسمى نفسه معز الدولة، فلما تلقبت ملوك الأندلس بالألقاب السلطانية تلقب هو أيضا باسمين من أسمائها، فسمى نفسه المعتصم بالله الواثق بفضل الله، ضاهى في ذلك عبادا، فجرى هذا الفتى أبو يحيى مع رجاله مجراه على أحسن سيرة في جنده ورعيته، فحسنت أيامه وأطردت دولته، وكان من أهل الأدب والمعارف، فاضلا عاقلا، كان لأهل الشعر عنده سوق نافقة فقصده جمع منهم، وأقام ملكا بمدينة المرية وأعمالها مدة طويلة قطعها في حروبه ولذاته، فكانت مدته ٤١ سنة وصدمته عساكر لمتونة آخر مدته وهو يعالج الموت فجعل يقول : نغص علينا حتى الموت، وهلك على إثر رحيل عساكر لمتونة عنه، حسبما نذكره في دولتهم.

وترك ابنا له كان قد رشحه للأمر من بعده وأوصاه وصيته فامتثلها بعد موته، وكان قد قال له إذا بلغك عن ابن عباد أنه جرى عليه شيء من قبل هؤلاء، أصحاب اللثام، فاركب هذا البحر إلى بلاد بني حماد، فما بقي بعده إلا ستة أشهر وبلغه خلع المعتمد فصنع ما أمره به أبوه، فكاتب المنصور بن الناصر، صاحب قلعة حماد، من عمل بجاية واستأذنه في الوصول إلى بلاده فأذن له، وقال له اقصد إلى مدينة فاس، فلم يزل بها إلى آخر عهده.

وأما زهير الفتى المتقدم الذكر فكانت قد امتدت مملكته من المرية إلى شاطبة وما يليها إلى بياسة وما وراءها إلى الفج، من أول عمل طليطلة.

قال حيان بن خلف : وكان سبب فساد باديس بن حبوس على جاره القديم الحلف زهير الفتى، فتى المنصور بن أبى عامر موالاته لكاشمه محمد بن عبد الله الزناتى، ومضى على ذلك حبوس من عداوته، وخلفها كلمه باقية فى عقبه : ضرّم زهير نارها بعدُ، فتمادى تمسكه بالمذكور فأرسل إليه باديس مستدعيا تجديد المحالفة فسارع زهير مقبلا نحو باديس وضيع الحزم واعتز بالعجب واغتر بالكثرة، وصار أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى العامل من عماله قد ترك رسوم الإخفاء ضاربا سوطه حتى تجاوز الحد الذى جرت عادته بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذنه، وصير المضايق والأوعار خلف ظهره، ولا يفكر فيها واقتحم البلد حتى صار إلى باب غرناطة.

هزيمة زهير الفتى ومقتله هو وكاتبه أحمد بن عباس :

لما وصل زهير إلى غرناطة خرج إليه باديس بن حبوس فى جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه وعده حاصلا فى يده فبدأه بالجميل والتكريم، وأوسع عليه وعلى رجاله فى العطاء والقِرى والتعظيم بما مكن اغترارهم وثبت طمأنينتهم فوقعت المناظرة بين زهير وباديس ومن حضرها من رجال دولتهما، نشأ بينهما عارض اختلاف لأول وهلة، وحمل زهير أمره إلى التشطط، ووزيره أحمد بن عباس يفرى الفرى فى تصريح ما يعرض به زهير، فعزم باديس عند ذلك على القتال، ووافقه قومه صنهاجة، فأقام مراتبه ونصب كتائبه وقطع قنطرة لا محيص لزهير عنها، والخائن زهير لا يشعر، وبات تتمخض له ليلته عن راغية البكر، وغاداه باديس صبيحتها عن تعبئة محكمة، فلم يرُعْه إلا رجة القوم راجعين إليه تخفق طبولتهم، فدهش زهير وأصحابه، فيا لك من أمر شتيت وهول مفاجئ قسم بال المرء بين نفسه وماله، ووزع همته بين روحه ورحله، إلا أن أميرهم زهير أحسن تدبير الثبات أو استتمه وقام ينتصب للحرب، فثبت فى قلب معسكره وقدم خليفته هذيلا الصقلبى فى وجوه أصحابه من الموالى العامريين الفحول وعشيرته الصقلب وغيرهم لاستقبال صنهاجة.

فلما رأوه علم أنهم حماته وشوكته وأنهم متى حصدوها لم يثبت لهم من وراءهم، فاختلف الفريقان واشتد بينهم القتال مليا، فلم يكن إلا كلا حتى حكم الله بالظهور لأقل الطائفتين عدد ليُرى الله قدرته، ويجدد في قلوب عباده عبرته.

فنكص في الصدمة قائدهم هزيل وانهزم أصحابه، وسيق هذيل لوقته إلى باديس أسيرا فعجل بضرب عنقه، فما هو إلا أن نظر هذيل لمصرعه ففر على وجهه فلم يستصحب ثقة ولا انحاز إلى فئة، ولج به الفرار، وانهزم أصحابه خلفه لا يلوون على شيء، وركبت صنهاجة ولفها من زناته أكتاف القوم باذلين السيف فيهم بصدى العصبية وإيثار الإفناء فلم يبقوا على أحد قدروا عليه، فأساءوا الاعتداء وأبادوا أمة أخذوا في شعاب وعرة وأجبل شامخة أجاءهم إليها الثغر فكانت حتف من قر، وتقطعوا على هذا السبيل أودى أميرهم زهير وجُهِل مصرعه، وكان سودانه غدروه أول وهلة وانقلبوا مع صنهاجة وكانوا يقاربون خمسمائة.

وغنم رجال باديس من المال والخزائن والأسلحة والحلية والعدة والغلمان والخيام وسائر أنواع الأموال ما لا يحيط به الوصف، وظفر باديس على قوم من وجول رجال زهير فعجل على الفرسان والقواد بالقتل وشمل الإسار حملة الأقلام ومنهم وزيره الكبير أحمد بن عباس الجار بحر هذه الثائرة فأمر بحبسه، وشفاؤه الولوغ في دمه، فعفا باديس عن دماء حملة الأقلام دونه إلا من أصيب منهم في الحرب، وأطلق ابن حزم والباجي وغيرهما.

وكان باديس قد أرجا قتل ابن عباس مع جماعة من الأسرى إلى أن وجه إليه أبو الحزم بن جهور رسولا شافعا في جماعتهم موكدا في شأن ابن عباس، فكان أبعدهم من الخلاص وآثر الشفاء في قتله على عظيم ما كان يعطى في قديمه، فانصرف يوما من بعض ركبانه مع أخيه بلكين، فلما مر على الدار التي فيها ابن عباس أمر بإخراجه إليه، فأقبل يرسف في قيوده حتى أقيم بين يديه،

فأقبل على سبه وتبكيته بذنوبه، وأحمد يتلطف ويسأله راحته مما هو فيه، فقال له : اليوم تستريح من هذا الأمر، وتنتقل إلى ما هو أشد منه، فبان لأحمد منه وجه الموت، فجعل يكثر الضراعة لباديس ويضعف له عدد المال، فآثر عضبه وهز مزراقه فركزه فيه، وأمر بحذ رأسه، فعلق ووُورى جسده خارج القصر، فمضى زهير وابن عباس على هذه السبيل.

وكان ابن عباس حسن الكتابة مليح الخط غزير الأدب قوى المعرفة مشاركا فى العلوم حاضر الجواب ذكى الخاطر جامعا للأدوات، وبلغنى أن عبد العزيز بن أبى عامر سعى على دمه لما حصل على المرية، وخاف أن يخلص فيكدرها عليه، وكذلك أكد ابن صمادح صاحب المرية يومئذ فى قتله، فقتله وانصرف ابن صمادح عنه.

لمع من أخبار ابن صمادح المذكور :

هو أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح التجيبى، وقد ذكر حيان بيته فى تجيب، وألمع بلمع من أسباب ملكه المغصوب وكيف بلج نهاره، ومن أين تصبب نهاره فقال: كان جده يحيى بن أحمد بن صمادح المكنى أيضا بأبى يحيى صاحب مدينة وشقه Huesca وعملها، طلعت نباهته فى أيام المؤيد هشام، ثم كان له بسليمان اتصال فثنى له الوزارة وأمضاه على عمله، وكان أول أمره مجاملا لابن عمه منذر بن يحيى، يظهر له موافقته، ويكاتمه من حسده إياه ما لا شىء فوقه، ثم خذله جملة، فلم يلبث أن تقبحت الحال بينهما بعد مضى وقت وتحاربا على ملك وشقة، فعجز ابن صمادح عن منذر لكثرة جموعه، وأسلم له البلد وفر بنفسه فلم يبق له بالثغر مغلق، وكان أول ساقط من الثوار لم يتملأ سلطانه ولا أورثه من بعده، وكان أبو يحيى هذا ذا لسان ورأى وأعارضه، لم يكن فى أصحاب السيوف من يعدله فى خلاله هذه، من رجل محروم يقارنه الشوم، ويقعد به النكد واللوم، وكان يحمل قطعة صالحة من الأدب ينال بها حاجته مخاطبا ومذكرا، لا يزال يسمو

إلى طلب الدنيا، يعرض في حركاته فيقعد به جده، وينكسه زمانه، إلى أن جرى عليه الدهر بضرباته.

وأما ابنه ذو الغدرة الصلعاء، فإنه لما قتل زهير وصارت المرية لعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية حسده على ذلك مجاهد صاحب ذنبه، فأظلم الأفق بينهما، فخرج مجاهد غازيا بلاد عبد العزيز وهو بالمرية مشتغلا في تركة زهير فخرج مبادرا عنها لاستصلاح مجاهد، وترك واليا عليها من قبله صهره معن بن صمادح المتقدم ذكره فكان شر خليفة استُخلف، لم يكد عبد العزيز يوليه وجهه عنـه حتى خانـه الإمارة وطرده عنها، ونصـب له الحرب، فغرب في اللوم ما شاء وتنكب ابن أبي عامر التوفيق لاستدعائه الذئب الأول، ومستدعي الذنب أعظم.

وكان من العجب أن تملكها ابن صمادح مدته وأورثها عقبه ثم أفضى الأمر بعده إلى ابنـه أبي يحيى محمد بن معن، المتقدم الذكر، فارتقى ذروة الإمارة، وتلقب من الألقاب السلطانية بالمعتصم والرشيـد، وهو يعلـم أن من الجور والباطل أس ملكه الموروث عن أب لم يكرم فيه فعله، ولا طال فيه تعبه، ثم لم يكفه تغطيه عن أجنحة الذوائب بساحله الذي حال الحزن أمامه والقبح وراءه، فرعى ذروته وآثر شهواته بمال ألفاه لا يتجاوز به شهواته ولذاته دون قضاء حق في جهاد عدو، أو سد ثغر، أو معونة على صهره حتى مل العافية وقصر الدعة وطلب الزيادة.

وخاتن ابن خاله عبد الملك بن أبي عامر ولم يرع فيه حق صهره يحيى بن ذي النون كبير ثوار الأندلس يومئـذ فصمـد له على حصن من حصون عمل تدمير، وثب فيه بعامل عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وجرت بينهما خطوب، واستعان بحليفه باديس واستمده على ما ذهب إليه من الفتنة فوجد مسارعا إلى ذلك لما كان يعتقده من العصبية البربرية، ويذهب إليه من إرداء فتنة الأندلسيين، ومع ذلك فانقلب ابن معن خائب السعي قبيح الجهل ضائع النفقة.

قال ابن بسام: لم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة أخلد إلى الدعة، واكتفى عن الضيق بالسعة، واقتصر على قصر يبنيه وعلق يقتنيه وميدان من اللذة يستولى عليه، غير أنه كان رحب الغناء جزيل العطاء حليما عن الدهماء والدماء، ولزمه فحول من شعراء هذا العصر كأبى عبد الله الحداد وابن عبادة وابن الشهيد وغيرهم، وقد كانت بينه وبين حلفائه بالجزيرة من ملوك الطوائف فتون بيره غلبوه عليها وأخرجوه من سجيته مكرها إليها، فلم يكن مكانه منها بمكثى ولا صبحه فيها بمبين.

بعض اخبار منذر بن يحيى صاحب سرقسطة وذواتها:

كان منذر بن يحيى رجلا من عرض الجند وترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبى عامر، وتناهى أمره فى الفتنة إلى القيادة والإمارة، وكان أبوه يحيى من الفرسان غير النبلاء، أما ابنه منذر هذا فكان فارسا بارعًا الفروسية خارجا عن حد الجهل، يتمسك بطرف من الكتابة الساذجة، فالنار برأس البقاع من أفحشة صنيعه بهشام المخلوع مولى نعمته ومعلى رتبته وباعثه إلى الثغر لنصرته، فانقلب ناصرا لعدوه، وغزاه فى عقر داره وأنزله عن سريره، وأسلمه لحتفه، وباع دماء عشيرته أهل قرطبة من البرابرة، وعاد بمثلها لمحمد بن سليمان اليره عندما استجار به، وهو فى نكبته فقتله وهو ضيفه فجاء بها صلعاء لم تغسلها معذرة، إلا أنه كان كريما، وهب لقصاده مالا عظيما فوفدوا عليه وعمرت بذلك حضرته سرقسطة فحسنت أيامه وهتف المداح بذكره.

وكان لأول ولايته قد ساس عظماء الإفرنج فحفظت أطرافه إلى أن مضى بسبيله والثغر مسدود لا ثغرة فيه، وبلغ من استمالته طوائف النصرانية أن جرى بين يديه وبحضرته عقد مصاهرة بعضهم، فقذفته الألسنة لسعيه فى نظم سلك النصارى، وقد قيل : إن رأى منذر كان فى ذلك أحصف عمن قدح فيه لنظره فى صلاح وقته وعلمه بانصداع عصا أهل كلمته، فآثر من الموادعة ما ستر به

القورة وسدها بيسير الكلفة، واختدع به عظيم الجلالقة ريمنده وشانجه المحدثين انفسهما يومئذ بمناهضة أهل الأندلس، فألهاهما عن الحرب وحبب إليهما الدعة، وأغنم أهل الثغر فى ذلك الوقت عاجل السلامة واستظهروا به على العمارة، فحيوا وعاشوا فى نعمة ضافية وعيشة راضية، إلى أن ألوت بمنذر المنية.

وقد اعترف الناس برأيه، وأقروا بسياسته، ولم يأت بعده من يسد مسده، ولم ينفع الله الطاغيتين بعده، فشتت الله شمل الطاغية يومئذ، وكفى المسلمين شرهم برحمته.

واشتمل منذر على قواد تلك الثغور، واستوسقت له الأمور، واستكتب عدة كتاب جلة منهم أبو العباس بن مروس وابن أرزق وابن واجب وغيرهم.

مقتل منذر بن يحيى:

قال ابن حيان : كان ذلك على يد رجل مارد من بنى عمه يقال له : عبد الله بن حكيم، وكان مقدما فى قواد منذر، أضمر الفتك به دهرا، فدخل عليه غرة ذى الحجة سنة ٤٣٠هـ/ أغسطس ١٠٣٩م وهو غافل فى خلالة وليس معه إلا نفر يسير من خواص خدمه الصقلية وهو مُكِبّ على كتاب يقرؤه، فعلاه بسكين قد أعده فقطع به أوداجه ولا منع منه، وهرب خدم السوء الغلمان الخصيان الذين كانوا على رأسه وخلوه فى يده إلا خادما شهما دفع عنه وهو حاسر فضربه عبد الله بخنجر فقضى عليه مع مولاه، وأخرج رأس منذر فى الوقت من قصره فوق عصاه ينادى عليه هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاما ودفع حقه، يريد بذلك الرجل الذى كان منصوبا بإشبيلية يدعى له يومئذ بها تعلقا من ذلك المارد بولايته وتوطيدا لقيامه، إذ كان هذا القتيل ممن رد طاعة هذا الدعى هشام تأسيا بوالده يحيى وبخاله إسماعيل بن ذى النون.

فنزلت بسرقسطة يومئذ حادثة عظيمة شديدة وطمع فيهم أكثر من كان يجاورهم وأذعنوا

لذلك العربي المتوثب عليهم ورهبوه حتى ملكهم، فملك سرقسطة عبد الله بن حكيم فسارع إليه سليمان بن هود الجذامي صاحب لاردة، إذ كان مقيما بتطيلة في جمعه حين مجيئه الخبر، رجاء في دخولها، فمنعه هذا القاتل المذكور، وجاءه إسماعيل بن ذى النون خال منذر المذكور ممتنعا على ما جرى لابن أخته، فامتنع ابن حكيم بالقصبة واتصلت الفتنة.

وكان ابن حكيم ركب من خطة التعزير ما لم يجسر عليه فاتك قبله لوثوبه على منذر جوف قصره في قرار مجلسه بين فتيانه وأهله، وتحت أغلاقه، وبينه وبين الباب الأقصى من قصره ما لا يحصى من حجابه وقهارمته، فلم يفكر في شيء من ذلك وحمل نفسه على التصميمفيه، وهون على نفسه الموت دونه، فتم له ذلك.

ولم يكن في الخصيان الذين حضروا فضل الدفاع عنه وأنهم لم يزيدوا على الهرب أمامه، فجاء بفتكة أسقطت كل فتكة في الإسلام قبله، ثم أعلن طمعه بالملك فناله ولم يفكر في ابن ذى النون خال منذر لما دنا إليه، وفعل مثل ذلك بابن هود وقد جاءه ناشرا أذنيه فحاربه ودافعه، وكان بقصر منذر وقت فتكه من حاشيته، وغلمانه أزيد من مائة رجل سوى نسائه، فطار الرجل على وجوههم فزعا ولم يكن منهم من يأخذ على يده، وقام فيهم كالأسد الورد.

ولما أخرج رأس منذر للناس بهتوا وأبلسوا، ولم ينطق أحد منهم بكلمة وأرسل من حينه عن قاضي البلد والمشيخة فدخلوا عليه وهو قاعد على فراش قتيله، ومنذر على جانب الفراش مزمل في دمائه مغطى بثيابه، فوصف أنه جرى في سبيل الإصلاح عليهم والشد لسلطانهم، وأظهر الدعاء أولا لابن هود، فأروه قبول ما وصفه وتفرقوا عنه وكلمتهم متألفة عليه إلى أن ثاروا إليه وقاتلوه، فخرج من باب بظهر القصر ونجا بفاخر ما اشتمل عليه من ذخائر مال منذر ودخل روطة وتحصن أحد معاقل سرقسطة المنيعة، وقد كان أعده لنفسه فأقام به يرصد الفتنة جهده، وقد كان قد حمل

مع نفسه أخوين لمنذر قتيله وأبا المغيرة بن حزم وزيره وغيرهم من رجال منذر مقيدين فحبسهم عنده يطالبهم بالأموال، ونهبت العامة قصر سرقسطة إثر خروجه حتى قلعوا مدمره وطمسوا أثره، وعجل ابن هود بالإتيان فملك البلد فى محرم سنة ٤٣٠هـ/ أكتوبر ١٠٣٨م، على ما يأتى ذكره فى دولة ابن هود.

من أخبار أبى مروان بن رزين حسام الدولة :

قال ابن حيان : « كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع صاحب السهلة متوسطة ما بين الثغر الأقصى والأدنى من قرطبة فإنه كان من أكابر برابر الثغر، ورث ذلك عن سلفـه، ثم سعى لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله والإمارة لجماعته والتقيل لجاره إسماعيل بن ذى النون فى الشروع عن اسكان قرطبة، فاستوى له من ذلك ما اراد هو وغيره من جميع من انتزى فى الأطراف شرقا وغربا وقبلة وجوفا.

إلا أن هذيلا هذا مع تعززه على المخلوع هشام لم يخرج عن طاعته ولا وافق الحاجب منذرا ولا جماعة الممالئين على هشام فى شأن سليمان عدوه إلى أن استعان بهشام فسلك هذيل مسلكهم فرضى منه سليمان بذلك وعقد له على ما بيده هنالك لعجزه عنه، فزاده ذلك بعادا منه، وتمرس به الحاجب منذر بن يحيى مدرجا له فى طى من استعمله واشتمل عليه من سائر أمراء الثغر ، فابتله نفسه النخوع له والانضمام إليه، فرد أمره وحادّه وصار ضده، وأجاره منعة معقله، وظاهر أعداء منذر حتى حالف الموالى العامريين، واستمر معهم على دعوة هشام المخلوع وقطع دعوة سليمان.

وكانت واقية الله عليه كونه موسطة الثغر، فصار ذلك أرد الأشياء إلى البرابرة عنه، فسلم من معرة الفتنة أكثر وقته وتخطته الحوادث لقوة سعده، واقتصر مع ذلك على ضبط بلده المرسوم بولاية

عهده، وترك التجاوز لحده والامتداد إلى شيء من ولاية غيره، فاستقام أمره وعمر بلده، وأنظر بعد جمهور الثوار بالأندلس شأو الحياة ».

وليس في بلد الثغر أخصب من سهلته المنسوبة إلى بني رزين Fuenzerola سلفه في اتساع عمارتها، فكثر ماله، إذ ناغى جاره وشبيهه في جمع المال إسماعيل بن ذى النون، ونافسه في خلال وفرط القسوة، وكان مع ذلك شابا جميل الوجه حامي الأنف غليظ العقاب، صار إليه أمر والده منبعث الفتنة، وهو فتى لما اجتمع في وجهه تبع العشرين سنة، فأنجده الصباء على الجهالة، وقواه الشباب على البطالة، فبعد في الشرود شأوه، فلم يخالف أحدا من الأمراء على أداء الأتاوة ولا حظي أمراء الفتنة منه بسوى إقامة الدعوة فقط دون معونة بدرهم ولا إمداد بفارس، ولا شارك الإمارة في حلو ولا مر على كثرة ما طرق الحضرة من خطوب بهم استخفت البطاء وقربت البعداء فضلا عن الأولياء، وإلا ما كان من هذه الحية الصماء، فإنه لم يزل على تصامه عن كل نداء إلى أن مضى لسبيله.

والأخبار متتابعة عن جهله وفظاظته حتى زعموا أنه سطا بوالدته وتولى فتكها بيده.

وكان هذيل هذا بارع الجمال حسن الخلق جميل العشيرة ظاهر المروءة لم ير في الأمراء أبهى منه منظرا مع طلاقة لسانه وحسن توصله بالكلام إلى حاجة دون معرفة، وكان مع ذلك أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات، وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات، اشترى جارية عبد الله المتطبب بعد أن أحجمت الملوك عنها، لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار، فملكها، وكانت واحدة القيان في وقتها لا نظير لها في معناها، ولم ير أخف روحا منها، ولا أملح حركة في جميع أمورها، لها من ... . المستحسنات، وابتاع معها كثيرا من القينات المشهورات، فكانت ستارته أرفع ستارات الملوك بالأندلس.

قال ابن بسام: « وأما حسام الدولة، أبو مروان المذكور، فكان له طبع يدعوه فيجيب ويرمى بغرة الصواب عن قوسة فيصيب على ازدراء كان منه بالأمة وقلة لمن تمنى بالاخذ عنه عن الأئمة، وربما جالسهم مباحثا بين مغالطة وأنفة، وبالجملة فلو جرى ذو الرياستين على عفوه لبلغ منتهى شأوه ».

رجــع الخبــر لذكـر ملـوك قرطبـــة وإشبيليـــة وما يصافيهما من بلاد موسطة الأندلس وغربها:

قد تقدم القول في دولة هشام المعتدون بالله بقرطبة وأن بيعته بها كانت في ذى الحجة ٤٢٠هـ/ ديسمبر ١٠٢٩م، وافتتحت بيعته بإجماع وختمت بفرقة وعقدت برضى وختمت بفرقة، وخلع منها يوم الثلاء ١٢ ذى الحجة ٤٢٢هـ/ ديسمبر ١٠٢٩م، واجتمع الناس بقرطبة على تقديم الوزير أبى الحزم بن جهور.

دولة الجهاورة بقرطبة:

ثم قام بقرطبــة ابن جهــور، وهــو جوهر بن محمد بن جوهر بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبى عبدة.

وكان لمدخل جدهم أبى عبدة إلى الأندلس أثر عظيم ظهر له فيها من جميل الذراع وسعة البال وحسن الامتناع ما لم يظهر لأحد من النظراء، من حين الفتح إلى وفاة أبى الحزم هذا، وذكر أن جده بخت بن أبى عبدة كان من الفرس مولّى لعبد الملك بن مروان، ودخل يوسف بن بخت إلى الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بمدة، وكان أحد كبار الموالى بقرطبة.

قال ابن حيان : واجتمع الملأ من أهل قرطبة على تفويض أمرهم لأبى الحزم جهور، وعددوا من خصاله ما لم يختلفوا فيه، فأعطوا منه قوس السياسة باريها، وولوا أمر الجماعة أمينها فاخترع

لهم لأول وقته نوعا من التدبير حملهم عليه وأجادوا السياسة فيه، فأنزل الستر على أهل قرطبة مدته، وحصل كل ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتليه، وصير ذلك فى أيدى ثقاة من الخدمة مشارفا لهم بضبطه، وكان مع براعته ورفعة قدره من أشد الناس تواضعا وعظة ما شبههم ظاهرا بباطن وأولا بآخر، لم يختلف له حال من الفتاء إلى الكهولة، واستمر فى تدبيرهم بقرطبة فأنجح سعيه بصلاحها ولم شعثها فى المدة القريبة، وأثمر الثمرة الزكية، ودب دبيب الشفاء فى السقام فنعش منها الرفاة وألحقها رداء الأمن، ومانع عنها من كان يطلبها من البرابرة المتوزعين أسلامها بخفض الجناح والرفق فى المسائل حتى حصل على سلمهم واستدرار مرافق بلادهم، ودارأ الفاسقين من ملوك الفتنة حتى حفظوا حضرته وأوجبوا بها حرمة بمكابدة الشدائد حتى ألانها بضروب احتياله فرخصت الأسعار، وصاح الرخاء بالناس أن يعملوا فلبوه من كل صقع، فظهر تزيد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها وغلب الدور، وتحركت الأسواق، وتعجب ذو التحصيل للذى أرأى الله فى صلاح الناس من القوة، ولما تعتدل حال أو يهلك عدو أو تفور جباية.

وتوفى أبو الحزم ليلة الجمعة ٦ محرم ٤٣٥هـ/ أكتوبر ١٠٢٣م.

وفى سنة ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م قتل أمية بن عبد الرحمن فى جمادى الآخرة، أخرج إليه شيوخ قرطبة من قتله قبل أن يدخل قرطبة، وكان منصرفا إليها من الثغر طامعا فى سكناها، فقتل فى موضع يعرف بقلعة راشد، وخفى قتله وستر شخصه ورأسه.

وفيها توفى أبو عمرو بن شهيد القرطبى شيخ قرطبة وفتاها.

وفى سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م قتل يحيى بن على بن حمود، وقد تقدم فى أخبار عمه القاسم لمع من أخباره، وكيف نجح ملكه، وعلى يد من نظم سلكه.

مقتل يحيى بن على بن حمود الحسنى :

قال حيان بن خلف: حكى لى أبو الفتح البرزالى قال: لما كان عيد أضحى ٤٢٦هـ/ ١٧ أكتوبر ١٠٣٤م وانغمس يحيى فى شربه ولهوه، سرت ومعى واحد من بنى عمتى إلى اللحاق بإشبيلية للاجتماع بابن عمنا محمد بن عبد الله البرزالى، والقاضى ابن عباد، فوصلنا وأنبأناهما من خبر يحيى بن حمود ولهوه فرأيا أن يوجها إليه جيشا لقتاله، فخرج إسماعيل بن عباد مع ابن عمتنا فى المحرم سنة ٤٢٧هـ/ نوفمبر ١٠٣٥م وهما فى بيعة هشام بن الحكم المنصوب عندهما بإشبيلية تلك الأيام، فجئنا إلى باب قرمونة كى نغيظ يحيى فيخرج، أو يخرج أحد من قبله، وقدمنا سرية، وكمن الجيش بناحية أخرى، وقد كنا وجهنا فوارس ليلا للسامرة بسور قرمونة، فطار الخبر إلى يحيى، وهو تلك الليلة على شراب، وقد أخذ منه، فنعر نعرة، ووثب قائما يقول: وابياض يحيى الليلة وابن عباد زائره، وأمر بالأسراج، وتقدم إلى أصحابه وغلمانه، وبادر الخروج ليلا على باب قرمونة، وأصحابه يتلاحقون (به) فالتأمت عدته فى نحو من ثلاثمائة فارس، فمضى على وجهه مغترا يضرب إبطى أمجن خيله، فألقى نفسه علينا فى أوائل خيله، وأنشب الحرب بيننا وبينه، ووالى علينا الشدات الصعاب بنفسه، فعلمنا أنه لا ينجينا منه إلا الصدق، واستقبلناه بوجوهنا، ثم رددنا عليه الكرة، وطاولناه بالكثرة، فحمل علينا حملة ثالثة مع أصحاب له، وكنا فى جبل منيع الصعود إلينا نذود منه وننال من أصحابه، فإذا رددنا عليهم استعنا بفضل الانحدار من علٍ، فنخطفهم خطفة الأجاول، فصدقنا فى هذه الحملة، فساقنا حتى رمانا على إسماعيل بن عباد ومن معه من الأندلسيين، فثاروا فى وجهه، فتوقف الفريقان، وظهر كمين ابن عباد، وجاد صبره، وحرض غلمانه العجم، فشدت الجماعة على يحيى شدة منكرة، وانحدروا من ذلك التل الذى تسنموه فانكسروا،

وصُرع فى ذلك قوم، وتمادى الطلب وراءهم بعد مواقفة عظيمة، فصرع يحيى وحز رأسه، وطُير به إلى ابن عباد بإشبيلية، فخر ساجدا، وعجب من حضر لسجوده، وانطبق البلد فرحا، واستمرت على أصحاب يحيى حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالى وبدت عصبيته لقومه، وكلم ابن عباد فى رفع السيف عنهم فأطاعه فى ذلك، وتمم لابن عبد الله ما أراد من حقن الدماء، إذ لم يأت ما أتاه إلا عن ضرورة، ولم أن أسرع إلى قرمونة دون إسماعيل بن عباد، فجاءها لوقته، وقد ملك سودان يحيى أبوابها على أهلها، فدنا إلى مكان عرفه فى سورها، فدخل منه إلى دار يحيى فحاز جميع ما ألقاه من مال أو متاع، واشتمل على نسائه، وأباح حرمه لبنيه واستحل خدامهن، واستوى على مجلسه، ونُصر نصرا لا كفاء له، وصدق الخبر على أهل قرطبة فما صدقوه من الفرح.

وفى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م أظهر القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد، المؤيد هشام بن الحكم واستجلبه من قرية كان بها، وقام به وبايع له ودعا الناس إلى الدخول فى طاعته، واستحجبه ابنه إسماعيل بن محمد، ولهج بعض رؤساء الأندلس بذلك منهم عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية وأعمالها، والموفق صاحب دانية والجزائر الشرقية، وصاحب طرطوشة والوزير أبو الحزم بن جهور بالإقرار بخلافته، وسارعوا إلى الدخول فى طاعته، ووردت كتبهم بذلك عليه، وانعقد تجديد البيعة له بقرطبة، وذلك فى أوائل المحرم من السنة، وكانت البيعة من إنشاء الوزير الكاتب أبى حفص أحمد بن برد، وكتب أيضا عن نفسه مهنيا بالظهور والعودة إلى الخلافة.

واختلف فى هذا المؤيد اختلافا كثيرا، وهل هو هو أم لا، والأكثرون اتفقوا أنه مشبه به، وأن ابن عباد أوقفه لينال به مراده، وآخرون ذكروا أنه المؤيد بعينه واسمه، فذكر أنه كان مختفيا بمالقة حين توثب على بن حمود على الخلافة بقرطبة وخفى أمرة، ثم مر من مالقة إلى المرية رغبة فى

الاختفاء، إلى أن أنهى أمره إلى صاحبها زهير الفتى، فأمر بإخراجه من المرية، فخرج منها وأدى إلى قلعة رباح من طاعة ابن ذى النون، ثم استجلبه القاضى، حسبما يأتى ذكره فى موضعه، عند ذكر دولة ابن عباد.

وفيها اجتمع زهير وحبوس مع محمد بن عبد الله، زعيم زناتة بجهة استجة فى يوم الأربعاء لخمس خلون من ذى القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونه، ونهضوا إلى جهة إشبيلية احتلوا قرية طشتانه، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد، واحتلوا بالقعلة يوم الاثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء وأحرقوا طريانة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر، وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس بن على بن حمود، وانصرفوا إلى قرمونه وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته وانصرف زهير إلى المرية.

وخطب لإدريس فيها فى منتصف شهر ذى حجة من السنة.

وفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م توفى حبوس بغرناطة، وصارت رياسته إلى ابنه باديس، فذهب هو وأخوه بلقين إلى مخالفة زهير على ما كان أبوه معه، فاقترب زهير معهما بقربة البونت بمقربة من غرناطة، فعزاهما فى أبيهما وتشطط فى مرغوبهما، ثم حملتها الحمية إلى الغدر به والمكاشفة له، فلما أخذ فى الانصراف ووجه محلته للذهاب قطعوا له الطريق، وأرصدوا له الخيل بكل مضيق، فكان هو وجمعه كأمس الدابر، ولم يوقف لزهير على أثر، وقتل صاحبه زهير بعد كرات كرها، وأخذ كاتبه ابن عباس وسيق إلى غرناطة، ثم قتلاه برماحهما فى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م.

وفى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م كانت ولاية عبد العزيز بن أبى عامر الملقب بالمنصور صاحب كورتى تدمير وبلنسية على المرية إثر مقتل زهير فى تلك السنة، وولايته أيضا مرسية، فبقى ذلك فى

يد المنصور المذكور إلى أن مات، إلا المرية فيها صهره ابن صمادح إذ ولاه عليها، فانتزى فيها عليه، كما تقدم.

وفى هذه السنة كان مولد المعتصم أبى يحيى محمد بن معن أبى الأحوص بن صمادح، رئيس المرية، وتوفى بها فى شهر ربيع الأول من سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م.

دولة العبادلة

كان ما أجراه أبو الحزم بن جهور من إلغائه الخلافة القرطبية حدثا فريدا فى بابه، فإن الدول لا تلغى، ولكنها تبقى، ومن يدرى، فلعلها تبعث من جديد، أما أبو الحزم بن جوهر فقد نظر إلى صالح نفسه وأمثاله من سادة الولايات، وكان عمله هذا سيئ الأثر، لأن إلغاء الخلافة القرطبية فتح الباب أمام ولاة الأطراف للاستبداد بما كانوا يتولونه من النواحى، وكل منهم له دولة ومصالح ولكنهم كلهم - بما فيهم أبو الحزم بن جوهر- مؤقتون، تنتهى دولهم ولا تكون هناك دولة خلافة مركزية من الممكن أن تعيد الدولة الأندلسية، أى إنه بعمله هذا ألغى وجود الخلافة القرطبية ولو إلى حين.

وكان من كبار رجال الولايات بنو عباد الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاستقلال بإشبيلية.

قال ابن حيان: جاز إلى الأندلس بعد افتتاحها رهط من لخم تفرقوا فى أقطار الأندلس فانحاز منهم إلى غربها أخوان اسماهما نعيم وعطاف، فنزل أحدهما بقرية يقال لها يومين، تناسل ولده بها مدة من الزمان، ثم انتقل بعضهم إلى مدينة حمص (فى الأندلس هى إشبيلية) فتناسل بها ولده وتصدوا لخدمة الملوك من بنى أمية، فصرفوهم فى الأمور العلية فكثرت فيهم الوجاهة والنباهة إلى دولة الحكم المستنصر بالله، ودولة ابنه هشام المؤيد بالله، وحاجبه المنصور محمد بن أبى عامر.

وكان قد نشأ فيهم إسماعيل بن عباد، فقدمه ابن أبى عامر خطة القضاء بإشبيلية، فدام له ذلك إلى أن انقرضت دولة الإقامة من قرطبة، ونزول الفتنة المبيرة، فأقام على خطة الإمامة وتحمل رسم الخلافة، فنظر فى صلاح أمورها وتصريفها على السداد إلى أن نزل الماء فى عينيه سنة

٤١٤هـ/ ١٠٢٣م، فقدمـه ورجـع شيء من بصره، فلم يستجز الحكم بين الناس به، فولى ابنه أبا القاسم القضاء، واقتصر هو على شياخة البلد وتدبير الرأى، وكان آية من آيات الله علما ومعرفة وأدبا وحكمة، فحمى مدينة إشبيلية من سطوة البرابر النازلين حولها بالتدبير الصحيح والرأى الرجيح والنظر فى الأمور السلطانية إلى أن أتاه أجله سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م.

أبو القاسم محمد بن عباد وتغلبه على مدينة إشبيلية :

هو أبو القاسم محمد ابن ذى الوزاتين أبى الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش ابن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم.

وعطاف هو الداخل منهم إلى الأندلس فى طاعة بلج بن بشر القشيرى، وكان عطاف من أهل حمص، من عرب الشام، لخمى النسب، وموضعه من حمص العريش، بين مصر والشام، وكان نزول جده عطاف بقرية يومين من عمل قرطبة.

فأما ذو الوازارتين أبو القاسم هذا فأدرك متمهلا، وسما بعدُ إلى بلوغ الغاية، وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه إسماعيل، ورد عليه قضاء بلده، وحصل منه بمنزلة الثقة الزمين عنده، فخانه بخون الأيام عند إدبارها عنه إيثارا للجزم واعتلاقا بالولاية التى كان مضى له ولايته فيها إثر رقارق، فصده عن إشبيلية بلده لما قصده بالوزارة ، مناغين فى ذلك لوزراء قرطبة على تحميلهم لابن عباد فيما ذلك لأناقته عليهم فى الحال وسعة الهمة، وإحصائهم عليه ثلث إشبيلية ضيعة وغلة يخادعونه بذلك عن إبقاء منهم على نعيمه، وهو يشترى بذلك أنفسهم، وهم لا يشعرون إلى أن وقعوا فى الهوة، وكانوا جماعة، منهم بنو أبى بكر الزبيدى النحوى، وبنو مريم وبنو العربى وغيرهم من نظرائهم زافر بهم الأمور واستمال العامة حتى حصل على ملك البلد، وأورثها عقبه.

فلما خاطبهم القاسم بن حمود بأن تخلى له الديار لمن يرد معه من البرابرة إليها ألهج الذى كان بقرطبة، وقتل من قتل من أصحابه فيها.

وكانت وقعة ظهر فيها أهل قرطبة على شيعة القاسم فاغتلت أيديهم، وفر القاسم أمامهم من قرطبة إلى إشبيلية، فوقع الاتفاق من شيوخ البلد والقاضى ابن عباد على إغلاق أبواب البلد فى وجه القاسم بن حمود الحسنى، وأن يخرج إليه ولده وأهله، ففعلوا ذلك، وضبط الناس، على كثرة الشيوخ فيه، إلى أن انفرد إحصاؤهم ركب فيها احزم طرق طلاب الدول حتى انفرد بسابقته، ومهد لدولته وأجمع أهل بلده على طاعته، فدانوا له، وسلك سيرة أصحاب الممالك بالأندلس لأول وقته، وقام بأيقظ جد وأصح عزم، واخترع فى الرياسة فقدم فيها كثيرا منهم.

وامتثل رأى ابن يعيش صاحب طليطلة من بينهم فى تمسكه بخطة القضاء، وارتسامه باسمه، وأفعاله فى ذلك أفعال الجبابرة، وأقبل لأول وقته على ضم الرجال الأحرار من كل صنف وشراء العبيد، والجد يساعده، والأمور تنقاد له إلى أن ساوى ملوك الطوائف، وزاد على أكثرهم بكثافة سلطان وكثرة غلمانه، وتدرج فى تدبير ذلك شيئا فشيئا، ومارسه شأنا شأنا إلى أن أستولى على آمده ومهد سلطانه واستقل به.

ووادى المرية طوله أربعون ميلا فى مثلها، كلها بساتين بهجة، وجنات نضرة، وأنهار مطردة، وطيور مغردة.

وقال بعضهم: ولم يكن فى بلاد الأندلس أكثر مالا من أهل المرية، ولا أعظم متاجر وذخائر، وكان بها من الحمامات والفنادق أكثر من ألف، وهى بين البلدين بينهما خندق معمور، وواحد من البلدين عليه قصبتها المشهورة بالحصانة، وعلى الآخر ربضها، والسور محيط بالمدينة والربض، وغربيها ربض آخر لها يسمى ربض الحوض ذو فنادق وحمامات وصناعات، وقد استدار بها من كل

جهة حصون مرتفعة وأهجار أولية، وكأنما غربلت أرضها من التراب، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار.

الجـــزر البحريـــة - المجـــوس:

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة قادس، وهى من أعمال إشبيلية، وقال ابن سعيد : إنها من كورة شريش، ولا منافاة، لأن شريشا من أعمال إشبيلية، قال: ويعد صنم قادس مفتاح، ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبى عبد الله بن ميمون، وهو على بن عيسى، قائد البحر بها، ظن أن تحت الصنم مالا، فهدمه فلم يجد شيئا وهى - جزيرة قادس- فى البحر المحيط، وهى فى الحقيقة ليست جزيرة وإنما رأس فى جنوب الأندلس، وفى المحيط الجزائر الخالدات السبع، وهى غربى مدينة سلا، تلوح للناظر فى اليوم الصاحى الخالى الجو من الأبخرة الغليظة، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين تشير ألا عبور ولا مسلك وراءها.

وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات، وفيها من المدن والقرى ما لا يحصى، ومنها يخرج قوم يقال لهم : المجوس، على دين النصارى، أولها جزيرة برطانية، وهى بوسط البحر المحيط بأقصى شمالى الأندلس، ولا جبال فيها ولا عيون، وإنما يشربون من ماء المطر ويزرعون عليه.

قال ابن سعيد، وفيها جزيرة شلطنيس Islos Fortuntas، وهى آهلة، وفيها مدينة، وبحرها كثير السمك، ومنها يحمل مملحا إلى إشبيلية، وهى من كورة نبلة Niebla مضافة إلى عمل أونيه.

قرطاجنة وخواصها:

وقال بعضهم، لما أجرى ذكر قرطاجنة من بلاد الأندلس : إن الزرع فى بعض أقطارها يكتفى

بمطرة واحدة، وبها أحجار من الحجارة المقريصة (يقال، أيضا : مقريسة، بمعنى محكمة الأساس) وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة، ومن أعجب بنائها الدواميس (بمعنى الأحواض أو ما يشبه الهواويس، جمع داموس، وقد تستعمل بمعنى السجن، ومنه الديماس) وهى أربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة، طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة، وارتفاع كل واحد أكثر من مائتى ذراع، بين كل داموسين أنقاب محكمة بحكمة، تتصل فيها المياة من بعضها إلى بعض فى العلو الشاهق بهندسة عظيمة وإحكام بليغ.

قال المقرى (١/١٦٨) : هـذا غلـط، فإن قرطاجنـة التى بهـذه الصفـة قرطاجنـة إفريقية، لا قرطاجنة الأندلس.

وقال صاحب مناهج الفكر عندما ذكر قرطاجنة : وهى على البحر الرومى، مدينة قديمة، بقى منها آثار، لها فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان، معمور بالقرى.

وذكر قبل ذلك فى لورقة أن بناحيتها يوجد حجر اللازورد.

وفى البحر الشامى الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة، وبينهما ٥٠ ميلا، ومدينة ميورقة مسيرة يوم، بها مدينة حسنة، وتدخلها ساقية جارية على الدوام.

رسالة إلى بحر إدريس بن صفوان فى تغاير مدن الاندلس :

وتعتبر هذه الرسالة من المراجع الأساسية فى جغرافية الأندلس وتاريخها، حقا إنها رسالة أدبية بليغة، ولكنها حافلة بالمعانى، وقد كتب أبو بحر صفوان بن إدريس إلى الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤيد بن على، وفيها يقول – مثلا– فإنك الملك الهمام، والقمر التمام، أيامك غرر وحجول، وفرند بهائها فى صفحات الدهر يجول، ألبست الرعية برود التأمين، فتنافست

فيك من نفيس ثمين، وتلقت دعوات خلدك لها باليمن، فكم للناس من أمن بك وإيناس، وللأيام من لوعة فيك وهيام، وللأقطار من لبانات إليك وأوطار، وللبلاد من قراع لها على تملكك لها وجلاد، يتمنون شخصك الكريم على ويقترحون، ويغتبقون فى رياض ذكرك العاطر بمدام حبك ويصطبحون، قال الله تعالى: ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ [الروم: ٣٢] محبة من الله ألقاها لك حتى على الجماد، ونصرا مؤزرا تنطق به ألسنة السيوف على أفواه الأغماد، ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها، ومن طوى حسنا فيه ختم الله له بالجميل إعادتها وإبداءها، ومن قدّم صالحا فلا بد أن يوازيه، ومن يفعل الخير لم يعدم جوازيه.

ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار، وطال بها الوقوف على حبك والاقتصار، كلها يفضح قولا، ويقول : أنا أحق وأولى، ويصيح إلى إجابة دعوته ويصغى، ويتلو إذا: ﴿ **ذلك ما كنا نبغ** ﴾ [الكهف : ٦٤] تنمرت حمص غيظا، وكادت تفيظ فيظا، وقالت ما لهم يزيدون وينقصون، ويطمعون ويحرصون : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ [يونس : ٦٦] فى أنسهم الأسد والمساعد الأشد، والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمد.

أنا مصر الأندلس والنيل نهرى، وسماة التأنس والنجوم زهرى، إن تجارتهم فى ذلك الشرف، فحسبى أن أفيض فى ذكر الشرف، وإن بأشرف اللبوس، فأى إزار اشتملتموه كشنتبوس، لى ما شئت من أبنية رحاب، وروض يستغنى بنضرته عن السحاب، قد ملأت زهراتى وهادا ونجادا، توشح سيف نهرى بحدائقى نجادا، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق ﴿ **الآن حصحص الحق** ﴾ [يوسف : ٥١].

فنظرتها قرطبة شزرا وقالت:

لقد كثرت نزرا، وبدرت فى الصخر الأصم بزرا، كلام العدى ضرب من الهذيان، وأنى

للإيضاح والبيان، متى استحال المستقبح حسنا، ومن أودع أجفان المهجور وسنا ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا** ﴾ [فاطر : ٨] يا عجبا للمراكز، تقدم على الأسنة تقدم على الأعنة، إن ادعيتم سبقا فما عند الله خير وأبقى، لى البيت المطهر الشريف، والاسم الذى ضرب عليه رواقه التعريف فى بقيعى، محل الرجال الأفاضل، فليرغم أنف المناضل.

وفى جامعى مشاهد ليلة القدر، فحسبى من تياهة القدر، فما لأحد أن يستأثر علىّ بهذا السيد الأعلى، ولا أرتضى - له - أن يوطئ غير ترابى نعلا، فأقروا لى بالأبوة وانقادوا على حكم البنوة : ﴿ **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة ...** ﴾ [النحل : ٩٢] وكفوا عن تباريكم ﴿ **ذلكم خير لكم عند بارئكم** ﴾ [البقرة: ٥٤].

قصر باديس بغرناطة :

قال المقرى فى النفح (١٩٦/١) : ورأيت فى بعض كتب تاريخ الأندلس فى ترجمة السلطان باديس الصنهاجى، صاحب غرناطة ما نصه:

وهو الذى أكمل ترتيب قصبة مالقة، وكان أفرس الناس وأجلهم، ذا مروءة ونجد، وقصره بغرناطة ليس ببلاد الإسلام والكفر مثله.

سرقسطة وخواصها :

وذكر غير واحد من المحدثين والمؤرخين أن مدينة سرقسطة لا يدخلها الثعبان من قبل نفسه، وإذا أدخله أحد لم يتحرك، ونظير هذا المعنى فى بعض الحيوانات بالنسبة إلى بعض البلاد كثير، وذلك برصد أوطلسم، وقد استطرد بعض علماء أصول الدين ذلك عندما تكلموا عن السحر حسبما قرر فى محله.

وقال : هكذا رأيت في كلام بعض علماء المشارقة ، والذى رأيته لبعض مؤرخى المغرب فى سرقسطة أنها لا تدخلها عقرب ولا حية إلا ماتت من ساعتها، ويؤتى بالحيات والعقارب إليها حية، فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت.

قال: ولا تسوس فيها شيء من الطعام ولا يتعفن، ويوجد فيها القمح من مائة سنة والعنب المعلق من ستة أعوام.

صناعات الأندلس :

قال ابن سعيد: وإلى مصنوعات الأندلس ينتهى التفضيل، وللمتعصبين لها فى ذلك كلام كثير فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالوشى المذهب، الذى يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئا، وفى تنتالة، من عمل مرسية، تعمل البسط التى يغالى فى ثمنها فى المشرق، ويصنع فى غرناطة، وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذى يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة.

ويصنع فى مرسية من الأسرة المرصعة والحصر الصنعة، وآلات الصُّفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة، وغير ذلك من آيات العروس والجندى ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها، ويصنع بها وبألمريه ومالقة الزجاج العجيب وفخار مزجج مهذب، ويصنع بالأندلس نوع من المقصص المعروف فى المشرق بالفسيفساء، ونوع يبسط به قاعات بيوتهم يعرف بالزليجى يشبه المقصص، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذى يعرفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم كالشاذروان وما يجرى مجراه.

الآثار الأولية بالأندلس:

وقد أفرد ابن غالب فى «فرحة الأنفس للآثار الأولية بالأندلس» من كتابه فقال: منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرض التى بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى صحنت به، وذلك من أعجب ما صنع، ومن ذلك ما صنعه الأول أيضا من جلب الماء فى البحر المحيط إلى جزيرة قادس من العين التى فى إقليم الأصنام، جلبوه فى جوف البحر فى الصخر المجوف ذكرا فى أنثى، وشقوا به الجبال، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنوا له قناطر على حنايا، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البنيان المذكور، فإذا صادف سبخة بنى له رصيف وأجرى عليه هكذا إلى أن انتهى به إلى البحر، ثم دُخل به فى البحر وأُخرج فى مدينة قادس، والبنيان الذى عليه الماء فى البحر بين واضح، قال ابن سعيد : إلى يومنا هذا.

ومنها الرصيف المشهور بالأندلس، قال فى بعض أخبار رومية : إنه لما ولى يوليش، المعروف بجاشر (يوليوس قيصر) وابتدئ بتذريع الأرض وتكسيرها، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب، ثم بدأ بفرش المبلطة، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس، وركزها شرقى قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلى قرطبة إلى شقندة إلى استجة إلى قرمونة إلى البحر، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية، وذكر أنه أراد تشقيقها فى بعض المواضع، راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء، ثم توقع أن يكون ذلك فسادا فى الأرض وتغييرا للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها إلى المواضع المنقطعة النائية عن العمران، فتركها على ما هى عليه.

وذكر فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير إلا الصنم الذى بطرف جليقية، وذكر قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة وملعب مربيطر Murviedro.

قال ابن سعيد: وفى الأندلس عجائب، منها الشجرة التى لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها، فإن خبرها عندهم شائع متواتر.

قال ابن سعيد، وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة.

ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتضع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها.

وفى الأندلس جهات تقرب فيها المدينة الممصرة من مثلها، والمثال فى ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش، وهى فى نهاية من الحضارة والنضارة، ثم تليها الجزيرة الخضراء كذلك، ثم مالقة، وهذا كثير فى الأندلس، ولهذا كثرت مدنها، وأكثرها مسور من أجل الاستعداد للعدو، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين، وفى حصونها ما يبقى فى محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها، ودربة أهلها على الحرب، واعتبارهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب، وكثرة ما تختزن الغلة فى مطاميرها، فمنها ما يطول صبره عليها نحوا من مائة سنة، ولذلك أدامها الله من وقت الفتح إلى الآن، وإن كان العدو قد نقصها من بأطرافها وشارك فى أوساطها، ففى البقية منعة عظيمة، فأرض بقى فيها مثل إشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية، وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممصرة الرجاء بحول الله تعالى وقوته.

قلت: قد خاب ذلك الرجاء وصارت تلك الأرجاء للكفر مخرجا، ونسأل الله تعالى أن يجعل للفرج مخرجا وللضيق مخرجا، وأن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا.

بيلتا طليطلة :

ومن غرائب الأندلس البيلتان اللتان بطليطلة صنعهما أبو القاسم عبد الرحمن الزرقالى لما سمع بخبر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض الهند، وقد ذكره المسعودى، وأنه يدور بأصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة فى بيت مجوف فى جوف النهر الأعظم فى البيت المعروف بباب الدباغين، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء، فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء، فإذا كان آخر النهار كان فيهما نصف سبع، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال فيكون فيهما نصفهما، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع فى اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان فى ليلة خمسة عشر وأخذ القمر فى النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع حتى يتم القمر واحدا وعشرين يوما فينقص منهما نصفهما، ولا يزل كذلك ينقص فى كل يوم وليلة نصف سبع، فإذا كان تسع وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شى من الماء.

وإذا تكلـف أحـد حـين تنقصـان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك من حينهما، ولا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما فى تلك الساعة، وكذا لو تكلف عند امتلائها إفراغهما ولم يبق فيهما شيئا، ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما فى الحين.

وهما أعجب من طلسم الهند، لأن ذلك فى نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار، وأما هاتان فليستا فى مكان الاعتدال، ولم تزالا فى بيت واحد حتى ملك النصارى طليطلة، فأراد الفونش أن يعلم حركاتهمـا، فأمر أن تقلع واحدة منهمـا لينظر من أين يأتى إليها الماء، وكيف

الحركة فيهما فقلعت، فبطلت حركتهما، وذلك سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م، وهو العام الذى أعلم الفنش أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها، فأراد أن يكشف حركة البيلتين فقال له : أيها الملك، أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا، وذلك أنى أجعلهما تمتلئان بالنهار وتنحسران بالليل، فلما قلعت لم يقدر على ردهما، وقيل إنه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت، ولم تزل الأخرى تعطى حركتها.

والبيلة Pila لفظ إسبانى ومعناها الحوض.

أبواب قرطبة :

وذكر ابن بشكوال أن أبواب قرطبة سبعة أبواب: باب القنطرة إلى جهة القبلة، ويعرف بباب الوادى، وباب الجزيرة الخضراء، وهو على النهر، وباب الحديد، ويعرف بباب سرقسطة، وباب ابن عبد الجبار، وهو باب طليطلة، وباب رومية، وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التى تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونه إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونه إلى أربونة مارة فى الأرض الكبيرة، وباب طلبيرة، وهو أيضا باب ليون، ثم باب عامر القرشى، وقدامه المقبرة المنسوبة إليه، ثم باب الجوز، ويعرف بباب بطليوس، ثم باب العطارين، وهو باب إشبيلية.

وذكر أيضا أن عدد أرباض قرطبة عند انتهائها فى التوسع والعمارة واحد وعشرون ربضا :

منها القبلية بعدوة النهر: ربض شقندة، وربض منية عجب.

وأما الغربية فتسعة: ربض حوانيت الريحان وربض الرقراقين، وربض مسجد الكهف، وربض بلاط مغيث، وربض مسجد الشفاء، وربض حمام مسجد الأبيبرى، وربض مسجد المسرور، وربض مسجد الروضة، وربض السجن القديم.

وأما الشمالية فثلاثة: ربض باب اليهود، وربض مسجد أم سلمة، وربض الرصافة.

وأما الشرقية فسبعة : ربض شبلار، وربض فرن بريل، وربض البرج، وربض منية عبد الله، وربض منية المغيرة، وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة.

قال: ووسط هذه الأرباض كلها قصبة قرطبة التي تختص بالسور بينها.

وكانت هذه الأرباض دون سور، فلما كانت أيام الفتنة صنع لها خندوق يدور بجميعها وحائط مانع، وذكر ابن غالب أنه كان دور هذا الحائط ٢٤ ميلا وشقنده معدودة فى المدينة لأنها كانت مدينة قديمة وهى مسورة.

قال ابن سعيد فى «المغرب» : ولنذكر الآن من متنزهات قرطبة ومعاهدها المذكورة فى الأندلس نظما ونثرا.

فأول ما نذكر من المتنزهات منتزه الخلفاء المروانية، وهى قصر الرصافة.

قال والدى رحمه الله : كان مما ابتناه عبد الرحمن بن معاوية فى أول أيامه لنزهه وسكناه أكثر أوقاته : منية الرصافة التى اتخذها بشمال قرطبة منحرفة إلى الغرب، فاتخذ بها قصرا حسنا ودحا جنانا واسعة، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان يريد، وشعر رسولاه إلى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية فى المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعها.

قال: وسماها باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه، وامتثله فى اختيار رصافته هذه وكلفه بها، وكثرة تردده عليها وسكناه أكثر أوقاته بها، فطار لها الذكر فى أيامه واتصل من بعده فى إيثارها.

قال : وكلهم فضلها وزاد فى عمارتها، وانبرى وصاف الشعراء لها فتناغوا فى ذلك فيما هو الآن مأثور عنهم مستجاد عنهم.

قال ابن سعيد: والرمان السفرى الذى فاض على أرجاء الأندلس وصاروا لا يفضلون عليه سواه، أصله من هذه الرصافة.

وقد ذكر ابن حيان شأنه، وأفرد له فصلا، وقال : إنه الموصوف بالفضيلة المفضل على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة.

وكان رسوله إلى الشام فى توصل أختيه منها إلى الأندلس قد جلب منها طرائف من رمان الرصافة المنسوب إلى هشام، قال: فعرضه عبد الرحمن على خواص رجاله مباهيا به، وكان فيمن حضره منهم : سقر بن عبيد الكلاعى، من جند الأردن، ويقال : هو من الأنصار الذين كانوا يحملون رسول الله ﷺ فى غزواته، قال: وهم يحملون الألوية بين يدى الخلفاء من بعده من بنى أمي، فأعطاه من ذلك الرماء جزءاً فراقه حسنه وخبره، فسار به إلى قرية بكورة رية فعالج عجمه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجرا وأينع وأثمر فنزع إلى عرقة، وأغرب فى حسنه، فجاء به عما قليل إلى عبد الرحمن، فإذا هو أشبه شيء بذلك الرصافي، فسأله الأمير عنه فعرّفه وجه حيلته، فأستبدع صلته، واغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من جنانه، فانتشر نوعه، واستوسع الناس فى غراسه، ولزمه النسب إليه فصار يعرف إلى الآن بالرمان السفرى.

وقال ابن سعيد: وأخبرنى والدى قال: أخبرنى الوشاح المبرز أبو الحسن على بن المرينى قال: بينما أنا أشرب مع ندمائى بإزاء الرصافة إذا بإنسان رث الهيئة، مجفو الطلعة، قد جاء فجلس معنا، فقلنا له: ما هذا الإقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة، فقال : لا تعجلوا علىّ، ثم فكر قليلا، ورفع رأسه فأنشدنا شعرا جميلا فهمنا منه أنه هو السفرى هذا.

قال المريني: فقبلت رأسه، وقلت له : بالله من تكون؟ قال: قاسم بن عبود الرياحي، الذى يزعم الناس أنه موسوس أحمق، فقلت له: ما هذا بشعر أحمق، وإن العقلاء ليعجزون عنه، فبالله إلا ما اتممت مسرتنا بمؤانستك ومناشدة طُرف أشعارك.

وما زلنا معه فى طيبة عيش إلى أن ودعناه وهو يتلاطم مع الحيطان سكرا ويقول: اللهم غفرا.

وجاء فى تعليقات ناشر هذا الكتاب (النفح ٤٦٩/١) ما يلى:

فائدة : قال الذهبى فى المشتبه : والرصافة مواضع منها رصافة بناها هشام بن عبد الملك بقرب الرقة، ورصافة بقدر محلة كبيرة جدا أنشأها المنصور لابنه المهدى، وتسمى بعسكر المهدى، منها أئمة، ورصافة البصرة، قرية منها شيخان رويا، ورصافة قرطبة، بليدة أنشأها عبد الرحمن بن معاوية الداخل، سماها باسم رصافة جده هشام بن فرج، منها فضلاء، ورصافة الكوفة، صغيرة، ورصافة نيسابور قرية، ورصافة الأنبار بناها السفاح، ورصافة بليدة بإفريقية، والرصافة قلعة أحدثها الإسماعيلية بالشام.

قال فى القامـوس : فصـل الراء باب الفـاء : والرصافة كمكناسة بلد بالشام، منه أبو منيع عبد الله بن أبى زياد، وابن ابنه الحجاج، ومحلة ببغداد منها محمد بن بكار بن جعفر بن محمد بن على، وبلد بالبصرة منها محمد بن عبد الله بن صيفون، وقرية بواسط منها عبد المجيد، وقرية بنيسابور وبالكوفة وبلد بإفريقية وقرية للإسماعيلية، وعمر الرصافة قرية بالحجاز.

قال: ومن أبدع قصور خارج قرطبة قصر السيد أبى يحيى بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن، وهو على متن النهر الأعظم تحمله أقواس، وقيل للسيد: كيف تأنقت فى بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة؟ فقال: علمت أنهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقى فى رؤوسهم من الخلافة المروانية فأحببت أن يبقى لى فى بلادهم أثر أذكر به على رغمهم.

وقال الفتح في قلائده لما ذكر الوزير ابن عمار : وتنزه بالدمشق بقرطبة، وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد، وجرى في إتقانه إلى غير عمد، وأبدع بناؤه ونمقت ساحاته وفناؤه، واتخذوه ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم.

والقصر الفارسي من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة، وقد ذكره الوزير أبو الوليد بن زيدون في قصيد له ضمنه الكثير من متنزهات قرطبة.

قال ابن سعيد: كان والدي كثيرا ما يأمرني بأن أقرأ عليه القصيدة التي أولها:

*** يا هبة باكرت من نحو دارين ***

ويقول: والله لقد أنبأت عن فضل ذلك الرحل.

وكان أبو يحيى الحضرمي يحفظها ويحلف ألا ينشدها بمحضر جاهل لا يفهم، أو حاسد لا ينصف في الاهتزاز لها، وإنه لجدير بذلك، وإنها لمن كنوز الأدب.

قال ابن سعيد: ومن متنزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق، مقصود للفرجة، يسرح فيه البصر وتبتهج فيه النفس.

أخبرني والدي عن أخيه أبي جعفر عبد الملك بن سعيد أنه قال: خرجت مع الشريف الأصم القرطبي إلى بسيط الجزيرة الخضراء، وقد تزيج بالأنوار، فلما حركنا حسن المكان وتشوفنا إلى الأوطان قال الشريف: لقد ذكرني هذا البسيط بسيط محض السرادق، فقلت له : فهل ثار في خاطرك نظم فيه؟ قال: نعم، ثم أنشد القصيدة التي أولها:

ألا فدعوا ذكر العذيب وبارق

ولا تسأموا من ذكر محض السرادق

قال أبو جعفر: فلما سمعت هذا الشعر لم أتمالك من الاستعبار، وحركنى ذلك إلى أن قلت فى حور مؤمل سيد متنزهات غرناطة ... ولم يذكر هنا ما قاله فيه، وذكره فى موضع آخر لم يحضرنى الآن حتى أورده هنا.

ومن متنزهات قرطبة السد.

قال ابن سعيد: أخبرنى والدى أن الشاعر المبرز أبا شهاب المالقى (من شعراء المائة السابعة، صحبه والد ابن سعيد أيام الشباب، وقال : إنه كان خليع العذار فى شرب العقار) أنشده لنفسه واصفا يوم راحة بهذا السد القصيدة التى مطلعها:

ويوم لنا بالســـد لو رد عـــيـــشـــه
بعــــيـــشـــة أيام الزمـــان رددناه

وأنشدنى والدى (والد ابن سعيد) موشحة لأبى الحسن المرينى وصاحبه يذكر فيها هذا السد، ومطلعها :

فى نعـــمـــة العـــود وللســـلافـــة
والـروض والـنـهـــــــــــر الـنـديم

قال ابن سعيد: والمنبر المذكور فى هذه الموشحة من متنزهات قرطبة، والسد هو الأرحا التى ذكرها فى زجله قاسم بن عبود الرياحى، رويته عن والدى عن قائله ومطلعه:

بـالـلــه أيـن نـصـــــــيـــب
من لمن لى فــــيـــه نـصـــيـب

قال ابن سعيد: وأما نهر قرطبة فإنه يصغر عن عظمه عند إشبيلية بحيث صنع عليه قنطرة من

حجارة لا يتأتى مثلها فى نهر إشبيلية، ومنبعه من جهة شقورة Segura de la Sierro وهى مدينة كانت من عمل جيان، وينسب إليها نهر شعوره وهو نهر مرسية.

ولما ذكر الرازى قرطبة قال: ونهرها مغبة ضرره فى حمله.

وقال : هذا لأنه يعظم عند إشبيلية، فإذا حان حمله فى أيام الأمطار أشفت إشبيلية على الغرق، وتوقع أهلها الهلاك.

والقنطرة التى على هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها، أقواسها سبعة عشر قوسا، وبانيها - على ماذكره ابن حيان وغيره - السمح بن مالك الخولانى صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز، وشيدها بنو أمية بعد ذلك وحسنوها.

قال ابن حيان : وقيل : إنه قد كانت فى هذا المكان قنطرة من بنيان الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتى سنة أثرت فيها الأزمان بمكابدة المدود حتى سقطت حناياها ومحيت أعاليها، وبقيت أرجلها وأسافلها، وعليها بنى السمح سنة ١٠١هـ/٧١٩م.

وقال فى مناهج الفكر : إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقى، وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها ٢٠ باعا، وارتفاعها ٦٠ ذراعا، وعدد حناياها ١٨ حنية، وعدد أبراجها ١٩ درجا.

جانب من أخبار قرطبة :

ذكر ابن حيان والرازى والحجارى أن أكتبيان Octauius - ثانى قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدنيا وصفح نهر رومية بالصقر، فأرخت الروم من ذلك العهد، وكان من قبل ميلاد المسيح، عليه السلام، بثمان وثلاثين سنة - أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس، فبنيت فى مدته قرطبة وإشبيلية وماردة وسرقسطة.

وانفرد الحجارى بأن أكتبيان المذكور وجه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها وسماها باسمه، وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك.

وغير الحجارى جعل أسماء هؤلاء الملوك مشتقة مما تقتضيه أوضاعها، كما مر.

وذكروا أنه قد تداولت على قرطبة ولاة الروم الأخيرة الذين هم بنو عيصو بن إسحاق بن إبراهيم، إلى أن انتزعها من أيديهم القوط - من ولد يافث - المتغلبون على الأندلس، إلى أن أخذها منهم المسلمون، ولم تكن فى الجاهلية سريرا لسلطنة الأندلس بل كرسيا لخاص مملكتها، وسعدت فى الإسلام فصارت سريرا للسلطنة العظمى الشاملة وقطبا للخلافة المروانية، وصارت إشبيلية وطليطلة تبعا لها، بعدما كان الأمر بالعكس.

وقال صاحب نشق الأزهار (والمراد هنا نشق الأخبار فى عجائب الأقطار لابن إياس الحنفى المتوفى سنة ٩٣٠هـ/١٥١٤م) عندما تعرض لذكر قرطبة : « هى مدينة مشهورة ودار خلافة، وأهلها أعيان ناس فى العلم والفضل وبها جامع ليس فى الإسلام مثله ».

الفتنة البربرية والنزاع بين الحموديين والمروانيين :

ومن الأسباب فى سلب محاسن قرطبة عبث البربر بها فى دخولهم مع سليمان المستعين الأموى حين استولى على قرطبة فى دولته التى افتتحت بالقهر وسفك الدماء.

وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان على بن حمود من بنى على بن إدريس بن إدريس ابن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب - وجده إدريس هرب من هارون الرشيد إلى البربر، فتبربر ولده، وبنى ابنه إدريس مدينة فاس.

وكان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم، ووقف على أن دولة بنى أمية تنقرض بالأندلس على يد

علوى أول اسمه عين، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحوا كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم على بن حمود، وبلغ هشاما المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه، فدس إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له : إن خاطرى يحدثنى أن هذا الرجل يقتلنى - يعنى سليمان - فإن فعل فخذ بثأرى، وكان هذا الأمر هو الذى قوى نفس ابن حمود على طلب الإمامة وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد، فكان المؤيد أحد من أخذ بثأره بعد موته.

وتولى بعد ذلك على بن حمود وبويع بقرطبة فى قصرها فى اليوم الذى قتل فيه سليمان المستعين، وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة، وأذل رؤوس البربر وبرقت فى أيامه للعدل بارقة خلب لم تكد تفد حتى خبت، وجلس للمظالم وقدمت له جماعة من البربر فى إجرام فضرب رقابهم، وأهلهم وعشائرهم ينظرون.

وخرج يوما على باب عامر فالتقى فارسا من البربر وأمامه حمل عنب فاستوقفه وقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته كما يأخذ الناس، فأمر بضرب عنقه، ووضع رأسه وسط الجمل، وطيف به فى البلد.

واستمر على هذا مع أهل قرطبة فى أحسن عشرة نحو ثمانية أشهر حتى بلغه قيام الأندلسيين فى شرق الأندلس، فتغير عما كان عليه وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله وانتزع الإسلام من أهل قرطبة، وهدم المنازل واستهان بالأكابر ووضع المغارم، وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال فلما غرموه سرحهم، فلما جىء لهم بدوابهم ليركبوها أمر بأخذ الدواب وتركهم ينزلون إلى منازلهم على أرجلهم، وكان منهم أبو الحزم، الذى ملك قرطبة بعد، وصارت دولته ودولة ولده معدودة فى دول الطوائف، فاختفت عن على النفوس وتوالى عليه الدعاء فقتله صبيان أغمار من صقالبة بنى مروان فى الحمام.

وكان قتله غرة ذى القعده سنة ٤٠٨هـ/ مارس ١٠١٨م وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا

فى أماكن يعرفونها، وصح عند الناس موته، ففرحوا، وكانت مدته، كما مر، نحو عامين وحققها بعضهم فقال : أحد وعشرون شهرا وستة أيام.

وكان أخوه القاسم بن حمود أكبر منه بعشر سنين، وأمهما واحدة، وهى علوية، ولما قتل الناصر كان القاسم واليا على إشبيلية، وكان يحيى بن على واليا على سبتة فاختلفت أهواء البربر، فمال أكثرهم إلى القاسم لكونه غُبِن أولا، وقُدِّم عليه أخوه الأصغر، وكونه قريبا من قرطبة، وبينهم وبين يحيى البحر، فلما وصلت رسلهم إلى القاسم لم يظهر فرحا بالإمامة، وخاف أن تكون حيلة من أخيه عليه، فتقهقر إلى أن اتضح له الحق فركب إلى قرطبة، وبويع فيها بعد ستة أيام من قتل أخيه، وأحسن السيرة، وأحسن من البربر الميل إلى يحيى ابن أخيه على صاحب سبتة، فتهالك فى اقتفاء السودان، وابتاع منهم كثيرا وقودهم على أعماله، فأنفت البربر من ذلك وانحرفوا عنه.

وفى سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م قام عليه بشرقى الأندلس المرتضى عبد الرحمن، من أعقاب الناصر، لأن أهل الأندلس صعب عليهم ملك بنى حمود العلويين بسبب البرابر، فأرادوا رجوع الإمامة إلى بنى مروان، واجتمع له أكثر ملوك الطوائف، وكان معه حين أقبل لقرطبة منذر التجيبى صاحب سرقسطة، وخيران العامرى الصقلبى صاحب المرية، وانضاف إليهم جمع من الفرنج، وتأهب القاسم والبرابرة لقتالهم، فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نية منذر وخيران على المرتضى، وقالا : أرانا فى الأول وجها ليس بالوجه الذى نراه حين اجتمع إليه الجمع الغفير، وهذا ماكر غير صافى النية، فكتب خيران إلى ابن زيرى الصنهاجى المتغلب على غرناطة – وهو داهية البربر – وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خذل عن نصرته الموالى العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور، فأصغى ابن زيرى إلى ذلك، وكتب المرتضى إلى ابن زيرى يدعوه لطاعته، فقلب الكتاب وكتب فى ظهره ﴿ **قل يأيها الكافرون...** ﴾ [سورة الكافرون]

فأرسل إليه كتابا ثانيا يقولِ فيه : قد جئتك بجميع أبطال الأندلس وبالفرنج فماذا تصنع؟ وختم الكتاب بهذا البيت :

إن كنت منا أبشــــــر بخـــيــــــر

أو لا، فـــــــأيقن بـكـل شــــــر

فأمر الكاتب أن يحول الكتاب ويكتب في ظهره : ﴿ **ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونه عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ [سورة التكاثر] فازداد حنقه وحمله الغيظ إلى أن ترك السير إلى حضرة الإمامة قرطبة وعدل إلى محاربته، وهو يرى أنه يصطلحه في ساعة من نهار، ودامت الحرب أياما.

وأرسل ابن زيرى إلى خيران يستنجده وعده، فأجابه : إنما توقفت حتى ترى حربنا وصبرنا، ولو كنا بيواطننا معه ما ثبت جمعك لنا، ونحن نهزم عنه ونخذله في غد.

ولما كان من الغد رأى أعلام خيران وأعلام منذر وأصحاب الثغور قد ولت عنه فسقط في يد المرتضى، وثبت حتى كادوا يأخذونه واستحر القتل، وصرع كثير من أصحابه، فلما خاف القبض عليه ولى، فوضع عليه خيران عيونا فلحقوه بقرب وادى آش Guadix وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه، فهجموا عليه فقتلوه وجاءوا برأسه إلى المرية وقد حل بها خيران ومنذر فتحدث الناس أنهما اصطبحا عليه سرورا بهلاكه.

وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الأندلس ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به إليهم، وضرب القاسم بن حمود سرادق المرتضى على نهر قرطبة، وغشيه خلق من النظارة وقلوبهم تتقطع حسرات، وأنشد عبادة بن ماء السماء قصيدته التي مطلعها :

لك الخــيــر، خــيــران مــضى لســبــيله
وأصـــــبح أمـــــر الله فى ابن رســــوله

وتمكنت أمور القاسم، وولى وعزل، وقال وفعل، إلى أن كشف وجهه فى خلع طاعته ابن أخيه يحيى بن على، وكتب من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة : إن عمى أخذ ميراثى من أبى، ثم إنه قدّم فى ولايتكم التى أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان وأنا أطلب ميراثى وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس، فأجابوه إلى ذلك، فجمع ما عنده من المراكب، وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالقة مع أخيه، وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه فى إعانة أبيه، وأكد المودة، فقال له أخوه إدريس : إن خيران رجل خداع، فقال يحيى : ونحن منخدعون فيما لا يضرنا.

ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة واثقا بأن البرابر معه، ففر القاسم إلى إشبيلية فى خمسة فرسان من خواصه ليله السبت ٢٨ من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٢هـ/ أغسطس ١٠٢٦م، وحل يحيى بقرطبة، فبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مستهل جمادى الآخرة.

وكان يحيى من النجباء وأمه فاطمية، وإنما كانت آفته العجب واصطناع السفلة، واشتط أكابر البرابر عليه وطلبوا ما وعدهم من إسقاط مراتب السودان، فبذل لهم ذلك، فلم يقنعوا منه، وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة ويفرغ بيت المال، وفر السودان إلى عمه بإشبيلية، ومن البرابر ومن جند الأندلس من احتجب عنهم يحيى وتكبر عليهم، ولم يمل إليه ملوك الطوائف وبقى منهم كثير على الخطبة لعمه القاسم، إلى أن اختلت الحال بحضرة قرطبة، وبلغه أن أهل مالقة كاتبوا خيران وكاتبوه فطمع خيران فيها وفر يحيى فى خواصه تحت الليل إلى مالقة.

ولما بلغ القاسم فراره ركب من إشبيلية إلى قرطبة فخطب له بها يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة

بقيت من ذى القعده سنة ٤١٣هـ/١٠٢٧م، ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة ووقع الاختلاف، وكان هوى السودان معه، وهوى كثير من البربر مع يحيى، وهوى أهل قرطبة مع حاتم من بنى أمية يشيعون ذكره، ولا يظهر وكثر الإرجاف بذلك، ووقع الطلب على بنى أمية فتفرقوا فى البلاد ودخلوا فى أغمار الناس وأخفوا زيهم.

ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة وتكاثر البلديون وأخرجوا القاسم وبرابرته فضرب خيمة بغربيها وقاتلهم مدة خمسين يوما قتالا شديدا، وبنى القرطبيون أبواب مدينتهم، وقاتلوا القاسم من الأسوار إلى أن طال عليهم الحصار، فهدموا بابا من الأبواب وخرجوا خرجة رجل واحد وصبروا فمنحهم الله تعالى الظفر وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية وفر البرابرة إلى يحيى وهو بمالقة.

وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتى عشرة ليلة خلت من شعبان ٤١٤هـ/١٠٢٨م.

وكان ابنه محمد بن القاسم واليا على إشبيلية وثقته المدبر لأمره محمد بن زيرى من أكابر البرابرة، وقاضيها محمد بن عباد، فعمل القاضى لنفسه، وهو جد المعتمد ابن عباد.

قصـــور بنى ذى النـــون :

وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذى شاده ملك طليطلة المأمون بن ذى النون بها، وذلك أنه أتقنه إلى الغاية وأنفق عليه أموالا طائلة وصنع فى وسطه بحيرة، وصنع فى وسط البحيره قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا به، ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج فى غلالة ما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله، وتوقد فيها الشموع فيُرى لذلك منظر عجيب، بينما هو فيها مع جواريه.

اشعـار ورسائل للاندلسييــن فى وصـف المجالس :

كان ملوك الأندلس فى غاية الاحتفال بالمجالس والقصور، وللوزير الجزيرى - أبى مروان عبد الملك بن إداريس - أحد كتاب الدولة العامرية، وكان حينئذ على الشرطة للمنصور، سخط عليه المنصور وسجنه، وله القصيدة الرائية المشهورة فى السجن، ثم كتب بعد للمظفر، فلما قتل صهره عيسى بن سعيد بن القطاع تغير المظفر على أبى مروان فسجنه فى برج من طرطوشة وقتله سنة ٣٩٤هـ هنالك.

(ترجمته فى الجذوة رقم ٢٦١، وبغية الملتمس ١١٥٨، والمغرب ٣٢١، وأعتاب الكتاب والذخيرة ١٣١٠٤ والمسطح ١٢ والصلة ٣٥٠، وله شعر فى اليتيمة والتشبيهات والبديع).

وكان السبب فى هذه الأبيات أن المنصور صنع فى ذلك الأوان، وكانت سنة قحط، فارتفع السعر بقرطبة، وبلغ ربع الدقيق إلى دينارين، فجلا الناس من قرطبة، فلما جاء يوم ذلك الصنيع نشأت فى السماء سحابة عمت الأفق، ثم أتى المطر الوابل فاستبشر الناس وسر المنصور بن أبى عامر، فقال الجزيرى بديهة قصيدته التى مطلعها :

أمـــا الغـــمـــام فـــشـــاهد لك أنه

لا شـك صـنـوك أو أخـــــــوك الأولـق

نفح الطيب ٥٣٠/١

قال ابن بسام (الذخيرة ٣٢/٤ والبديع ٩٩ والمقتطفات ٣٣، ٣٤).

ومن أخرى عن بنفسج العامرية : إذا تداعت الخصوم - أيد الله مولانا المنصور فى مذاهبها

وتنافرت في مفاخرها فإليه مفزعها وهو المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائه على المفاخر بأسرها وعلمه بسرها وجهرها، وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنها والفخر بمشاهرهما، وما منها إلا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعذب من الغمام الذي يسقينا، وإن كانا قد تشبها في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الأرض ومفاتيح السماء وهي من الموات الصامت... إلخ (نفح ٥٣٧/١).

عود إلى مسجد قرطبة :

وكان الذي ابتدأ بنيان هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل، ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه حتى صار كالمثل مضروبا به، ولم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء.

وقال بعض المؤرخين إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وبنى بقرطبة الرصافة تشبيها برصافة جده هشام بدمشق.

وقال بعض المؤرخين : إنه أنفق على الجامع ٨٠ ألف دينار، واشترى موضعه إذ كان كنيسة بمائة ألف دينار.

وقال بعض المؤرخين في ترجمة لعبد الرحمن الداخل إنه تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة فجدد مغانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ووسع فناءه، وأصلح مساجد الكور، وبنى مدينة الرصافة متنزها له واتخذ بها مسجدا حسنا وجنانا واسعة نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار، وكانت أخته أم الأصبغ ترسل إليه من الشام بالغرائب والغرائس مثل الرمان العجيب الذي أرسلته إليه من دمشق الشام كما مر.

وقال صاحب كتاب « مجموع المفترق » وكان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة ١٠٥ أذرع، فكمل الطول ٣٣٠ ذراعا فتم العرض ٢٣٠ ذراع، وكان عدد بلاطاته ١١ بلاطة وعرض أوسطها ١٦ ذراعا، وعرض كل واحدة من التى تليه غربا والتى تليه شرقا والتى تليه غربا ١٤ ذراعا، وعرض كل واحد من الستة الباقية ١١ ذراعا، وزاد ابن أبى عامر فيه ثمانية عرض كل واحد.

وكان العمل فى زيادة المنصور سنتين ونصفا وخدم فيه بنفسه، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب ١٢٨ ذراعا، وعرضه من القبلة إلى الجوف ١٠٥ أذرع، وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه ١٠ أذرع، فتكسيره ٣٣١٥٠ ذراعا، وعدد أبوابه تسعة : ثلاثة فى صحنه غربا وشرقا وجوفا، وأربعة فى بلاطاته، اثنان شرقيان واثنان غربيان، وفى مقاصير النساء من السقائف بابان، وجميع ما فيه من الأعمدة ١٢٩٣ عمودا رخاما كلها وباب مقصورة الجامع ذهب، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء، وثريات المقصورة فضة محضة، وارتفاع الصومعة اليوم – وهى من بناء عبد الرحمن بن محمد – ٧٣ ذراعا إلى أعلى القبة المفتحة التى يستدير بها المؤذن.

وفى رأس هذه القبة تفاتيح ذهب وفضة، ودور كل تفاحة ٣٫٥ شبرا، فاثنتان من التفاتيح ذهب ابريز وواحدة فضة، وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج، وهى إحدى عجائب الأرض، وكان بالجامع المذكور فى بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان الذى خطه بيده، وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت، وعليه أغشية الديباج، وهو على كرسى العود الرطب بمسامير الذهب.

رجع إلى المنارة:

وارتفاع المنارة إلى مكان الأذان ٥٤ ذراعا وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ١٨ ذراعا، وفيه بعض مخالفة لما ذكره ابن القرطبى وبعضهم، إذ قال فى ترجمة المنصور ابن أبى عامر : ... الداخلة فى أبواب البر والقربة بنيان المسجد الجامع والزيادة فيه سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وذلك أنه لما زاد الناس بقرطبة، وانجلبت إليها قبائل البربر من العدوة وإفريقية وتناهى حالها فى الجلالة ضاقت الارباض وعزمها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس، فشرع المنصور فى الزيادة بشرقيه حيث تتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربى بقصر الخليفة، فبدأ ابن أبى عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولا من أول المسجد إلى آخره.

وقصد ابن أبى عامر فى هذه الزيادة المبالغة فى الإتقان والوثاقة دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم، وأول ما عمله ابن أبى عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن، وصنع فى صحنه الجب العظيم قدره الواسع فناؤه، وهو - ابن أبى عامر - هو الذى رتب إحراق الشمع بالمسجد، فرسم زيادة، فتطابق بذلك الدوران.

وكان عدد سوارى الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره بين صغيرة وكبيرة ١٤١٧ سارية وقيل أكثر، وعدد ثريات الجامع ما بين صغيرة وكبيرة ٢٨٠ ثريا، وعدد الكئوس ٧٤٢٥ كأسًا، وقيل ١٠٨٠٥ كأسًا، وزنة مشاكى الرصاص للكئوس المذكورة ٢٨٠ ثريا، عشرة أرباع القنطار أو نحوها، وزنة ما يحتاج إليه من الكتاب للفتائل فى كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار، وجميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمائة ربع، أو نحوها، يصرف منه

فى رمضان خاصة نحو نصف العدد، ومما كان يختص برمضان المعظم ٣ قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور، والكبيرة من الشمع التى تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من ٥٠ إلى ٦٠ رطلاً يحترق بعضها بطول الشهر، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة.

وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة فى دولة ابن أبى عامر ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين ١٥٩ شخصاً، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أواق من العنبر الأشهب وثمانى أواق من العنبر الرطب.

وذكر ابن سعيد عن المقصورة البديعة التى صنعها الحكم المستنصر فى هذا الجامع فقال . إنه ينظر بها على كل خمس بلاطات من الزيادة الحكمية، وأطلق خفافيها على الستة الباقية، ثلاثة فى كل جهة، فصار طولها من الشرق إلى الغرب ٧٥ ذراعًا وعرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة ٢٢ ذراعاً، وارتفاعها فى السماء إلى حد شرفاتها ٨ أذرع كل شرفة ٣ أشبار، ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة إلى الجامع شرقى وغربى وشمالى، وذرع المحراب فى الطول من القبلة إلى الجوف ٨,٥ أذرع، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٧,٥ ذراع، وارتفاع قبوه فى السماء ١٣,٥ ذراعًا، والمنبر إلى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين أبنوس وصندل ونبع ونقم وشوحط وما أشبه ذلك، ومبلغ النفقة فيها ٣٥٧٠٥ دينار وثلاثة دراهم وثلث درهم، وقيل غير ذلك، وعدد درجاته تسع درجات صنعة الحكم المستنصر.

وذكر أن عدد ثريات الجامع التى تسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصة - سوى ما منها على الأبواب - ٢٢٤ ثريا كلها من لاطون مختلفة الصنعة؛ منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلقة فى القبة الكبرى التى فيها المصاحف حيال المقصورة، فيها من

السرج ـ فيما زعموا ـ ألف وأربعة وخمسون، تستوقد هذه الثريات الضخام فى العشر الأخير من شهر رمضان، تسقى كل ثريا منها سبعة أرباع فى الليلة.

وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح فى هذا المسجد فى السنة أيام تمام وقوده فى مدة ابن أبى عامر مكملة بالزيادة المنسوبة ألف ربع، منها فى شهر رمضان ٧٥٠ ربعاً.

قال ابن سعيد: وفى بعض التواريخ القديمة كان عدد القومة بالمسجد الجامع بقرطبة فى زمن الخلفاء وفى زمن ابن أبى عامر ٣٠٠.

وذكر بعضهم الزيت، ولكن قوله أولى بالاتباع، لنقله عن ابن بشكوال، ولمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكثر من غيره، فقال : ١٠٣٠ربعاً منها فى رمضان ٥٠٠ ربع، وفى الثريات التى من الفضة ـ وهى ثلاث ـ ٧٢ رطلاً لكل واحدة ١٨ فى ليلة وقدها.

وقال فى المنبر: إنه مركب من ٣٦٠٠٠ وصل قام على كل واحد منها بسبعة دراهم فضة، وسمرت بمسامير الذهب والفضة، وفى بعضها نفيس الأحجار، واتصل العمل فيه تسعة، ثم قال: ودور الثريا العظيمة ٥٠ شبراً وتحتوى على ١٠٨٤ كأس كلها موشاة بالذهب.

وصف جامع قرطبة لابن صاحب الصلاة :

وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد إبراهيم بن صاحب الصلاة الولبى يصف جامع قرطبة بما نصه:

وإنى شخصت إلى حضرة قرطبة منشرح الصدر لحضور ليلة القدر والجامع قد سجى ببردة الازدهاء، وجل فى معرض البهاء، فإن شرفاته فلول فى سنان أو أشر فى أسنان، وكأنما ضربت على سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه حلل، وكأن الشمس قد خلفت فيه ضياءها، ونسجت فى

أقطاره أفياءها، فترى نهارا قد أحدق به ليل كما أحدق بربوة سيل، ليل دامس ونهار شامس، وللذبال تألق كنضنضة الحيات، أو إشارة السبابات فى التحيات، قد أترعت من السليط كؤوسها، ووصلت بمحاجن الحديد رؤوسها، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة، أو كالثعابين العائمة، عضبت بها تفاح من الصقر، بولغ فى صقلها وجلائها حتى بهرت بحسنها ولألائها، كلها جليا بالذهب، وأشربت ماء الذهب.

إن سامتّها طولا رأيت منها سبائك عسجد، أو قلائد زبرجد، وإن جئتها عرضا رأيت منها أفلاكا، ولكنها غير دائرة، ونجوما ولكنها ليست بسائرة، تتعلق تعلق القرط فى الدفرى، وتبسط شعاعها بسط الأديم حين يفرى.

والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود، وعرضت عليا عرض الجنود ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد، ويستوى فى هداية ضيائها الشقى والسعيد.

وقد قوبل فيها مبيض بمحمر، وعورض مخضر بمصفر، تضحك ببكائها وتبكى بضحكها، وتهلك بحياتها وتحيا بهلكها.

والطيب تفعم أفواحه، وتتنسم أرواحه، وقطار الألنجوج والند يسترجع من روح الحياة ما ند، وكلما تصاعد وهو محاصر، أطال من العمر ما كان تقاصر فى صفوف مجامر ككعوب مقامر، وظهور القباب مؤللة، وبطونها مهللة، كأنها تيجان، رصع فيها ياقوت ومرجان.

قد قوس محرابها أحكم تقويس ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرة مقرطق، وبقوس قزح ممنطق، وكأن اللوزورد حول وشومه، وبين رسومه نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام، والقوم أخياف فى دواعيهم، وأوزاع فى أغراضهم ومراميهم، بين ركع وسجد، وأيقاظ وهجد، ومزدحم على الرقاب يتخطاها، ومعتم على الظهور يتمطاها كأنهم بُرُد خلال قطر، أو حروف

فى عرض سطر، حتى إذا قرعت أسماعه روعة التسليم تبادروا بالتكليم، وتجاذبوا بالأثواب، وتساقوا بالأكواب، كأنهم حضور طال عليهم غياب، أو سفر أتيح لهم إياب.

وصفيك مع أخوان صدق، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق فى مسكان العصفور، أستغفر الله، أو كناس اليعفور، كأن إقليدس قد قسم بيننا مساحته بالموازين، وارتبطنا فيه ارتباط البيادق بالفرازين، حتى صار عقدنا لا يُحَلُّ وحدُّنا لا يُفَلُّ، بحيث نسمع سور التنزيل كيف تُتْلَى، ونتطلع صور التفصيل كيف تجلى، والقومة حوالينا كيف يجهدون فى دفع الضرر، ويعمدون إلى قمع العمد بالدرر.

فإذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين، وسرت بينهم سُرى القين، توهموا أنها إلى أعطافهم واصلة، وفى إقحامهم حاصلة، ففروا بين الأساطين، كما تفر من النجوم الشياطين، كأنما ضربهم أبو جهم بعصاه، أو حصبهم عمير بن ضابئ بحصاه، فأكرم بها سماع تشوق إلى جنة الخلد، ويهون فى السعى إليه أنفاق الطوارف والتلْد تعظيما لشعائر الله وتنبيها لكل ساهٍ ولاهٍ.

حكمة تشهد لله تعالى بالربوبية وطاعة تذل لها كل نفس أبية، فلم أر منظرا منها أبهى ولا مخبرا أشهى، وإذا لم تتأمله عيانا، فتخيله بيانا، وإن كان حظ منطقى من الكلام حظ السفيح من الأزلام (والسفيح قدح لا نصيب له فى الميسر) ولكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها وأذمة تقلدنا حمائلها، يوجب إتحافى سمينا وغثا، وليس إلطافى جديدا ورثا، لا زلت لزناد النيل موريا، ولآماد الفضل مجريا، والتحية العبقة الريا، المشرقة المحيا، عليك ما طلع قمر، وأينع ثمر، ورحمة الله تعالى وبركاته.

تمام الحديـث فى متعلقـــات الجامـــع :

وذكر ابن بشكوال فى كتاب «الصلة» أن الحكم المستنصر هدم الميضأة القديمة التى كانت بفناء الجامع، يستسقى لها الماء من بئر السانية، وبنى موضعها أربع ميضآت فى كل جانب من جانبى المسجد الشرقى والغربى، منها ثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء، أجرى فى جميعها الماء فى قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة، إلى أن صبت ماءها فى أحواض رخام، لا ينقطع جريانه الليل والنهار.

وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذها على أبواب المسجد بجهاته الثلاث : الشرقية والغربية والشمالية، أجراها هناك إلى ثلاثة جوانب من حياض الرخام، استقطعها بمقطع المنستير بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير، وألقاه الرخامون هنالك، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم فى المدة الطويلة حتى استوت فى صورها البديعة لأعين الناس.

وخفف ذلك من ثقلها، وأمكن من إهباطها إلى أماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع، وأمد الله على ذلك بمعونته، فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام شجر البلوط على فلك موثقة بالحديد المثقف محفوفة بوثاق الحبال، قرن لجرها سبعون دابة من أشد الدواب، وسهلت قدامها الطرق والمسالك، وسهل الله حملها، واحدة بعد أخرى، على هذه الصفة فى مدة اثنى عشر يوما، فنصبت فى الأقباء المعقودة لها.

قال ابن بشكوال : وابتنى المستنصر فى غربى الجامع دار الصدقة، واتخذها معهدا لتفريق صدقاته المتوالية، وابتنى الفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربى.

عمل أهل قرطبة حُجة فى الفقه :

واعلم أنه كان لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب، حتى إنهم يقولون فى الأحكام: هذا مما جرى به عمل قرطبة.

وفى هذه المسألة نزاع كثير، ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه فى ذلك.

قال الإمام ابن عرفة (محمد بن عرفة الورغمى التونسى) (٧١٦- ٨٠٢هـ/ ١٣٦٠-١٣٩٩م) فى اشتراط الإمام على القاضى الحكم بمذهب - وإن خالف معتقد المشترط اجتهادا وتقليدا - ثلاثة أقوال:

الصحة الباجى ولعمل أهل قرطبة، ولظاهر شرط سحنون على مذهب من ولاة الحكم بمذهب أهل المدينة، قال المازرى: مع احتمال كون الرجل مجتهدا.

الثانى : البطلان للطرطوشى، إذ قال فى شرط أهل قرطبة، هذا جهل عظيم.

الثالث: تصح التولية ويبطل الشرط، تخريجا على أحد الأقوال فى الشرط الفاسد فى البيع للمازرى عن بعض الناس.

قال ابن غازى : إن ابن عرفة نسب للطرطوشى البطلان مطلقا، وابن شاس إنما نسب له التفصيل.

ولما ذكر مولاى الجد الإمام قاضى القضاة بفاس سيدى أبى عبد الله المقرى التلمسانى (جد مؤلف نفح الطيب الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى) فى كتابه «القواعد» شرط أهل قرطبة المذكور قال بعده ما نصه:

وعلى هذا الشرط ترتب إيجاب عمل القضاء بالأندلس، ثم انتقل إلى المغرب، فبينا نحن ننازع الناس فى عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلى وابن مسعود ومن كان معهما.

رجـــع إلى وصـــف قرطبـــة ومســـجدها :

وقرطبة فى تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضا، وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفيها ما يكفى أهلها من الحمامات والأسواق والصناعات، وطول قرطبة ثلاثة أميال فى عرض ميل واحد، وهى فى سفح جبل مطل عليها.

وفى مدينتها الثالث وهى الوسطى القنطرة والجامع الذى ليس فى معمور الأرض مثله، وطوله ١٠٠ ذراع فى عرض ٨٠، وفيه من السوارى الكبار ألف سارية، وفيه ١١٣ ثريا للوقود أكبرها تحمل ١٠٠٠ مصباح، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه، وبقبلته صناعات تدهش العقول.

وعلى فرجة المحراب سبعة قسى قائمة على عمد، طول كل قوس فوق القامة، قد تحير الروم والمسلمون فى حسن وضعها، وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة، اثنان أخضران واثنان لازورديان، ليس لها قيمة لنفاستها.

وبه منبر ليس فى معمور الأرض أنفس منه ولا مثله فى حسن صنعته، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاقلى.

ويذكر فى تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صناع، لكل صانع فى كل يوم نصف مثقال محمدى (يقال : إن الدنانير المحمدية منسوبة إلى محمد بن الناصر الموحدى، وفى الأوقية الواحدة ٢٣ درهما، وهناك دنانير محمدية تنسب إلى

محمدية العراق وأخرى إلى مدينة المحمدية بالمغرب) فكان جملة ما صرف على المنبر، لا غير ١٠٥٥٠.

وفى الجامع حاصل كبير (مخزن أو مستودع) ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده.

وبهذا الجامع مصحف يقال : إنه عثمانى.

وللجامع عشرون بابا مصفحة بالنحاس الأندلسى، مخرمة تخريما عجيبا بديعا، يعجز البشر ويبهرهم، وفى كل باب حلقة فى نهاية الصنعة والحكمة، وبه الصومعة العجيبة التى ارتفاعها مائة ذراع بالمكى المعروف بالرشاشى (والرشاشى ذراع ينسب إلى الرشاشى الذى جرى التكسير بذراعه، أى اتخذ طوله وحدة لقياس الأطوال والمساحات) وفيها من أنواع الصنائع العجيبة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته.

وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حُمر مكتوب على واحد منها اسم محمد ﷺ، وعلى الآخر صورة عصا موسى، وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح، والجميع خلقة ربانية.

وأما القنطرة التى بقرطبة فهى بديعة الصنعة، عجيبة المرأى، فاقت قناطر الدنيا حسنا، وعدد قسيها ١٧ قوسا، سعة كل قوس منها ٥٠ شبرا، وبين كل قوسين ٥٠ شبرا.

وبالجملة فمحاسن قرطبة أعظم من أن يحيط بها وصف.

وما ذكره فى طول المسجد وعرضه مخالف لما مر، ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك، كما أشار إليه هو فى أمر الصومعة، وكذا ما ذكره فى عدة السوارى، إلا أن يقال: ما تقدم باعتبار الصغار والكبار، وهذا العدد الذى ذكره هنا إنما هو للكبار فقط، مع أن المتقدم إنما هو للكبار كما صرح به.

وقال ابن سعيد فى «المغرب» وعند تعرضه لذكر جامع قرطبة:

اعتمدت فيما أنقله فى هذا الفصل على كتاب «الصلة» لابن بشكوال، فقد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء، وأغنى عن الاستطلاع إلى كلام غيره، عن الرازى أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا بما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر رضى الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخل مدينتها تحت السور، وكانوا يسمونها بشنت بنجنت Santo Vielnte، وابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعا وبقى الشطر الثانى بأيدى النصارى، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة.

واقتنع المسلمون بما فى أيديهم إلى أن كثروا وتزيدت عمارة قرطبة ونزلها أمراء العرب فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها، حتى كان الناس ينالون فى الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف، وقصر أبوابها، وتطامن سقفها حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض، ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى إلى الأندلس واستولى على إمارتها، وسكن دار سلطانها قرطبة، وتمدنت به، فنظر فى أمر الجامع، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه، فأحضر أعاظم النصارى وسامهم بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه، فأبوا من بيع ما بأيديهم، وسألوا بعد الجد بهم أن يباح لهم بناء كنيستهم التى هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به، فتم الأمر على ذلك، وكان ذلك سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن على صفة ذكرها لا حاجة فى تفسير الزيادة فيه، وإنما الحاجة إلى وصفه بكماله وكمل سنة ١٧٠هـ/ ٧٦٨م.

وقال ابن سعيد فى «المُغرِب» : وهلك عبد الرحمن قبل أن يتم الزخرفة، فأتمها ولده محمد ابن عبد الرحمن، ثم رم المنذر بن محمد ما وهى منه، وذكر ما جدده خليفتهم الناصر ونقضه للصومعة الأولى وبناؤه للصومعة العظيمة، قال:

ولما ولى الحكم المستنصر بن الناصر، وقد اتسع نطاق قرطبة، وكثر أهلها، وتبين الضيق فى جامعها لم يقدم شيئا على النظر فى أمر الزيادة فبلغ الجهد، وزاد الزيادة العظمى.

قال: وبها كملت محاسن هذا الجامع، وصار فى حد يحسر الوصف عنه، وذكر حضوره لمشاورة العلماء فى تحريف القبلة إلى نحو المشرق، حسبما فعله والده الناصر فى قبلة جامع الزهراء، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة إلى نحو الغرب، فقال له الفقيه أبو إبراهيم : يا أمير المؤمنين، إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعانى وأمثالهما، وإنما فضل من فضل بالاتباع، وهلك من هلك بالابتداع، فأخذ الخليفة برأيه، وقال: نعم ما قلت، وإنما مذهبنا الاتباع.

قال ابن بشكوال: ونقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة فى هذه الزيادة وما اتصل بها انتهت إلى ٢٠,٠٦١,٥٣٧ دينار ودرهمين ونصف.

ثم ذكر ابن سعيد الصومعة نقلا عن ابن بشكوال فقال : أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الأولى سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، وأقام هذه الصومعة البديعة، فحفر فى أساسها حتى بلغ الماء مدة من ٤٣ يوما، ولما كملت ركب الناصر إليها من مدينة الزهراء وصعد فى الصومعة من أحد درجيها ونزل من الثانى، ثم خرج الناصر وصلى ركعتين فى المقصورة، وانصرف.

قال ابن سعيد وكانت الأولى ذات مطلع واحد، فصير لهذه مطلعين فصل بينهما البناء، فلا يلتقى الراقون فيها إلا بأعلاها، تزيد مراقى كل مطلع منها على ١٠٠ سُبع.

قال: وخبر هذه الصومعة مشهور فى الأندلس وليس فى بلاد المسلمين صومعة تعدلها.

قال ابن سعيد : قال ابن بشكوال: هذا لأنه لم ير صومعة مراكش ولا صومعة إشبيلية اللتين بناهما المنصور من بنى عبد المؤمن، فهما أطول وأعظم، لأنه ذكر أن طول صومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعا، وإلى أعلى الرمانة الأخيرة بأعلى الزج ٧٣ ذراعا وعرضها فى كل تربيع منها ١٨ ذراعا.

قال ابن سعيد: وطول صومعة مراكش ١١٠ أذرع، وذكر أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة المقطعة منجدة غاية التجنيد، وفى أعلى ذروتها ثلاث شمسات، يسمونها رمانات، ملصقة فى السفود البارز فى أعلاها من النحاس، اثنتان منها ذهب إبريز، والثالثة منها وسطى بينهما من فضة إكسير، وفوقها سوسنة من ذهب إبريز مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة فى طرف الزج البارز بأعلى الجو، وكان تمام هذه الصومعة فى ١٣ شهرا.

وذكر ابن بشكوال فى رواية أن موضع الجامع الأعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وغيرها، فلما قدم سليمان بن داود ودخل قرطبة قال للجن: اردموا هذا الموضع وعدلوا مكانه، فسيكون فيه بيت يُعبد الله فيه، ففعلوا ما أمرهم به، وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور.

قال: ومن فضائله أن الدارات الماثلة فى تزاويق سمائه مكتوبة كلها بالذكر والدعاء إلى غيره بأحكم صنعة.

وذكر مصحف عثمان بن عفان الذى كان فى جامع قرطبة وصار إلى بنى عبد المؤمن فقال:

هو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان، مما خطه بيمينه، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم.

الــزهـــــراء:

وأما الزهراء فهى مدينة الملك التى اخترعها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله، وهى من المدن الجليلة العظيمة القدر، قال ابن الفرضى وغيره : كان يعمل فى جامعها حين شرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة، منهم ثلاثمائة بنّاء ومائة نجار، وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع، فاستتم بنيانه وإتقانه فى مدة من ٤٨ يوما، وجاء فى غاية الإتقان من خمسة أبهاء عظيمة الصنعة، وطول من القبلة إلى الجوف - حاشا المقصورة - ثلاثون ذراعا، وعرض البهو الأيسر من أبهائه من الشرق إلى الغرب ١٣ ذراعا، وطول صحنة المكشوف من القبلة إلى الجوف ٤٣ ذراعا وعرضه من الشرق إلى الغرب ٤١ ذراعا، وجميعه مفروش بالرخام الخمرى، وفى وسطه دوارة يجرى فيها الماء، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف - سوى المحراب - ٩٧ ذراعا، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٩ ذراعا، وطول صومعته فى الهواء ٤٠ ذراعا، وعرضها ١٠ أذرع فى مثلها.

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد، فصنع فى نهاية من الحسن، ووضع فى مكانه منه، وبنيت حوله مقصورة عجيبة الصنعة، وكان وضع هذا المنبر فى مكانه من ذلك المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م.

قال ابن بشكوال: وفى صدر هذا السنة كمل الناصر بنيان القناة الغريبة الصفة التى جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة، غربى قرطبة، فى المناهر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة شديد الروعة، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر، فطلى بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد.

يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجه فى تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وشجاجة صبه، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه.

فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر، لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسمو أبراجها التى يترقى الماء منها ويتصوب من أعاليها.

وكانت مدة العمل فيها، من يوم ابتدئت من الجبل إلى أن وصلت - أعنى القناة - إلى هذه البركة ١٤ شهرا، وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة، وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامة أهل مملكته، ووصل المهندسين والقوام بالعمل بصلات حسنة جزيلة.

وأما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م إلى آخر دولة دولة الناصر لدين الله وابنه الحكم، وذلك نحو من أربعين سنة.

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء، على ما وُصف، كانت أول جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان من السنة، وكان الإمام القاضى أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى عيسى، ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة، وأول خطيب به القاضى المذكور.

ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة أطبق الناس على أنه لم يُبْنَ فى الإسلام مثله ألبتة، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد النائية والنِّحل المختلفة، من ملك وارد ورسول وافد، وتاجر جهيد - وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة - إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شيئا، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه والتحدث عنه.

والأخبار عن هذا تتسع جدا، والأدلة عليه تكثر، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرق وبراعة الملبس والحلة، ما بين منبر مرمر مسنون، وذهب موضون، وعُمُد كأنما أُفرغت فى القوالـب، ونقـوش كالرياض، وبرك عظيمـة محكمـة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها، فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة، كيما يُرى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعده لأهل السعادة فى دار المقامة التى لا يتسلط عليها الفناء، ولا تحتاج إلى الرم، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم.

وذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان، صاحب الشرطة، أن مبانى قصر الزهراء اشتملت على ٤٠٠٠ ساريـة ما بـين كبيـرة وصغيرة، حاملة ومحمولة، ونيف ما فيه من السوارى على ١٢٣٠٠ سارية.

قال: منها ما جلب من مدينة رومية، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية، وأن مصاريع أبوابها، صغارها وكبارها كانت نيفا على ١٥٠٠٠ باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه، والله سبحانه وتعالى أعلم، فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس وأجله خطرا وأعظمه شأنا.

قلت (والمتكلم هنا ابن حيان) : فسر بعضهم ذلك النيف فى كلامه بثلاث عشرة، والله أعلم.

وقال بعض من أرخ الأندلس: كان عدد الفتيان بالزهراء ١٣٧٥٠ فتى، ودخالتهم من اللحم فى كل يوم - حاشا أنواع الطير والحوت - ١٣٠٠٠ رطل، وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ٦٣١٤ امرأة، وقيل : إن عدد الفتيان الصقالبة ٣٧٥٠ فتى، وجعل بعضهم مكان الخمسين سبعة وثمانين.

وقال آخر : ٦٠٨٧ فتى، والمرتب لحيتان بحيرة الزهراء ١٢٠٠٠ خبزة كل يوم، وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم.

ثم قال الأول : وكان لهؤلاء من اللحم ١٣٠٠٠ رطل، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان.

وقال ابن حيان: ألفيت بخط ابن دحون الفقيه، قال مسلمة بن عبد الله، العريف المهندس: بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان الزهراء أول سنة ٣٥٢هـ. ٩٣٦م، وكان مبلغ ما ينفق فيها من الصخر المنحوت كل يوم المنجور المعدل ٦٠٠٠ صخرة، سوى الصخر المصرف فى التبليط، فإنه لم يدخل فى هذا العدد، وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ١٤٠٠ بغل، وقيل : أكثر، منها ٤٠٠ زوامل الناصر لدين الله ومن دواب الأكرياء الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر، يجب لها فى الشهر ٣٠٠٠ مثقال، وكان يرد الزهراء من الجيار والجص فى كل ثالث من الأيام ١١٠٠ حمل، وكان فيها حمامان، واحد للقصر وواحد للعامة.

وذكر بعض أهل الخدمة فى الزهراء أنه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلاثمائة ألف دينار، مدة خمسة وعشرين عاما، التى بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها، لأنه توفى سنة خمسين، فحصل جميع الإنفاق فيها فكان خمسة عشر بيت مال.

قال (ابن حيـان) : وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وإفريقية وتونس، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس، عريف البنائين، وحسن وعلى ابنا جعفر الإسكندرانى، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير.

وقال بعض ثقات المؤرخين: إنه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير.

وكان عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ١٠١٣ سارية ومن بلاد الإفرنج ١٩ سارية، وأهدى إليه ملك الروم ١٤٠ سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس طركونه Tarracona وغيرها.

فالرخام المجزع من رية (مالقة) والأبيض من غيرها، والوردى والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقس Sfaes، وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليه أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء (القدس).

وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام، وقيل : من القسطنطينية مع ربيع الأسقف أيضا، وقالوا : إنه لا قيمة له لفرط غرابته، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل فى البحر، ونصبه الناصر فى بيت المنام، فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس، وجعل علية ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى.

ومما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، ويخرج الماء من أفواهها.

وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره، وكان يخبز فى أيامه فى كل يوم برسم البحيرات ٨٠٠ خبزة، وقيل : أكثر.

المنصــور وابن شُــهيد :

ومن المطمح أن المنصور لما بنى الزاهرة غزا غزوة وأبعد فيها الإيغال الكبير فى أرض الروم، وغال فيها من عظماء الروم من غال، وحل من أرضهم ما لم يطرق قبله، وراع منهم ما لم يُرَع قط ولم يفرق، وصفر صفرا سما به على كل حسناء عقيلة، وجلا بها كل صفحة للحسن صقيلة، ودخل قرطبة دخولا لم يعهد من قبل، وشُهد له فيها يوم مثله لم يُشهَد، وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عذاه له وحداه منتجعه ورائده، وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر، وله على ابن أبى عامر أياد محكمة الأواصر، وهو الذى نهض به أول انبعاثه، وشفا أمره سنة التياثه، وخاصم المصحفى

المصحفى عنه بلسان من الحماية ألد، وتوخاه بإحسان قلده من الرعاية ما قلد وأسمى رتبته وحلى بأعظام جيده وكبته، وكان كثيرا ما يتحفه، ويصله ويلطفه، فلما صدر المنصور من غزوته وقفل نسيء أعظم وعقل، وكتب إليه ابن شهيد الشعر الذى مطلعه:

أنا شـــيخ والشـــيخ يهـــوى الصـــبـــايا
يـا بـنـفـــــــسى أقــــيك كـل الـرزايـا

ودخل يوما على المنصور والمنصور قد ارتكأ وارتفق، وتحلى بمجلسه ذلك الأفق، والدنيا بمجلسه ذلك مسوقة، وأحاديث الأمانى به منسوقة، فأمره بالنزول فنزل فى حملة الأصحاب، والقمر يظهر ويحتجب فى السحاب... ... فقال:

أرى بدر الســـمـــاء يلوح حـــينا
فـــيـــبـــدو ثم يلتـــحف الســـحـــابا

وكان المنصور يشعر أنه مغتصب وكان يقول فى بعض مجالسه : إنها ستزول، وقد ورثه ابنه المظفر وقام بالأمر قياما حسنا، ولكنه، كما رأينا، لم يحكم إلا حوالى سبع سنوات ومات بمرض، فقام بالأمر أخوه الملقب بشيخول، فقام عليه المهدى والعامة... وانقرضت دولة آل عامر ولم يبق منها آمر.

وخربت الزاهرة وذهبت كأمس الدابر، ودخلت منها النسوت الملوكية والمنابر، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح، وصارت قاعا صفصفا، وأبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفا.

الفقيـه عبـد الملك بن حبيـب، أبـو مـروان :

درس حتى صار أعلم أهل الأندلس، وقال محمد بن لبابة: فقيه الأندلس : عيسى بن دينار، وعالمها : عبد الملك بن حبيب، وراويها : يحيى بن يحيى الليثي.

توفي بالأندلس في رمضان ٢٣٨هـ/ فبراير ٨٥٣م، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

وقد انفرد بالفتوى في أيام عبد الرحمن الناصر، رغم ضعفه، وهذا الكلام عن أبي عبد الله محمد بن عمر بن لبابة، وقد نفى المقرى عنه ذلك، وقال : إن روايته للموطأ نسبه يحيى بن يحيى ابن كثير بن وسلاس بن شماس بن منغايا، وقد ضبط ابن خلكان هذه الأسماء.

وقد روى الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي، المعروف بشطبون، وسمع من يحيى ابن معن القيسي الأندلسي، ثم ارتحل إلى المشرق وسنه ٢٨ سنة، فسمع من مالك بن أنس الموطأ إلا أبواب من الاعتكاف شك في سماعها، فأثبت روايته فيها عن زياد، وذلك مما يدل على ورعه، وسمع بمصر من الليث بن سعد، وبمكة من سفيان بن عيينة، وتفقه بالمدنيين والمصريين كعبد الله ابن وهب وعبد الرحمن بن القاسم العتقي، وسمع منهما، وهما من أكابر أصحاب مالك، وانتهت إليه الرياسة بالأندلس، وبه اشتهر مالك في تلك الديار، وروى عنه كثير، وأشهر رواة الموطأ هي رواية يحيى المذكور.

وكان مع أمانته ودينه معظما عند الأمراء يكنى عندهم، عفيفا عن الولايات، جلت رتبته عن القضاء، وكان أعلا من القضاة.

قال الحافظ ابن حزم: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان:

مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كان القضاة من قبله من أقصى الغرب إلى أقصى المشرق، فكان لا يولي إلا أصحابه والمنتسبين إليه.

ومذهب مالك لما عظم بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة، وكان لا يُولّي قاض في بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه، ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم وداعيا إلى قبول رأيه لديهم.

قال ابن الفرضي في تاريخه: ولما انصرف يحيى إلى الأندلس كان إمام وقته وواحد بلاده، وكان ممن اتهم بالهيج في وقعة الأندلس المشهورة ففر إلى طليطلة، ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أمانا وانصرف إلى قرطبة.

القاضي منــذر بن سعيــد البلوطي:

قاضي الجماعة بقرطبة، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، ومن مشهور ما جرى له في ذلك قصته في أيتام أخي نجدة، وحدث بها أهل العلم والرواية، وحدث بها جماعة من أهل العلم والرواية، وهي أن الخليفة الناصر احتاج إلى شراء دار لحظية من نسائه تكرم عليه فوقع استحسانه على دار كانت لأولاد أخي زكريا أخي نجدة، وكانت بقرب النشارين بالربض الشرقي منفصلة عن دوره، ويتصل بها حمام له غلة واسعة، وكان أولاد زكريا أخي نجدة أيتاما في حجر القاضي، فأرسل الخليفة من قومها له بعدد ما طابت نفسه، وأرسل ناسا أمرهم بمداخلة وصي الأيتام في بيع الدار، فذكر أنه لا يجوز إلا بأمر القاضي، إذ لم يجز بيع الأصل إلا عن رأيه ومشورته، فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع الدار، فقال لرسوله: البيع على الأيتام ممنوع إلا لوجوه: منها الحاجة، ومنها

الوهى الشديد ومنها الغبطة، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأما الوهى فليس فيها، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع، وإلا فلا، فنقل جوابه إلى الخليفة، فأظهر الزهد فى شراء الدار طمعا أن يتوخى رغبته فيها.

وخاف القاضى أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام سورتها، فأمر وصى الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها، ففعل ذلك وباع الأنقاض، فكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان، فاتصل الخبر به، فعز عليه خرابها وأمر بتوقيف الوصى على ما أحدثه فيها، فأحال الوصى على القاضى أنه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك إلى القاضى منذر، وقال له: أنت أمرت بنقض دار أخى نجدة؟ فقال له : نعم، فقال : وما دعاك إلى ذلك؟ قال أخذت فيها بقول الله تعالى : **﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾** [الكهف : ٧٩] فمقوموك لم يقدروها إلا بكذا، وبذلك تعلق وهمك، فقد نص فى إنقاضها على أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمام فضلا، ونظر الله تعالى للأيتام، فصبر الخليفة عبد الرحمن وقال : نحن أولى من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا.

وقالوا (فى مطمح الأنفس لابن الخطيب): وكان على جزالته حسن الخلق كثير الدعابة، فربما ساء ظن من لا يعرفه، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار له ثورة الأسد الضارى.

فمن ذلك ما حدث به سعيد ابنه قال: قعدنا ليلة من ليالى شهر رمضان العظم مع أبينا للإفطار بداره البرانية، فإذا سائل يقول: أطعمونا من عشائكم أطعمكم الله من ثمار الجنة هذه الليلة، ويكثر من ذلك، فقال القاضى: إن استجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا واحد.

وحكى عنه قاسم بن أحمد الجهنى (مطمح الأنفس لابن الخطيب ص ٤٤) أنه ركب يوما لجيازة أرض محبسة فى ركب من الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو إبراهيم اللؤلؤى ونظراؤه قال: فسرنا

نقفوه، وهو أمامنا، وأمامهم أمناؤه يحملون خرائطه، تغلب عليهم السكينة والوقار، وكان القضاة يومئذ معروفون بالحدب إليه، وهو لا ينبعث معه، ولا يفارق موضعه، إلى أن كلمه الحسن وقال له: ما لك لا تساعد الحاجب في فعله وتتقبل صنعه (المطمح ٤٤ والمرقبة العليا ص ٧٣) فمن أجلك نزل وبسببك تبذل، فقال له: يا سيدى أمير المؤمنين، الحاجب سلمه الله تعالى لا هوجل معه، وأنا بهـذا الهوجل الذى معى يعقلنى، ويمنعنى من أن أجول معه مجاله - يعنى أن الحاجب خصى لا هوجل معه، والهوجل هو الذكر - فاستفرع الحكم ضحكا من بادرته ولطيف تعريفه لجعفر، وخجل جعفر من قوله، وسبه سب الأشراف، وخرجا من الماء، وأمر لهما الخليفة بخلع ووصلهما بصلات سنية تشاكل كل واحد منهما.

أهم من رحل من علماء الأندلس إلى المشرق:

١- عبد الملك بن حبيب السلمى (مقرى ٥/٢).

٢- أبو عبد الله محمد بن أبى عيسى (مقرى ١٢/٢).

٣- عتيق بن أحمد بن عبد الباقى (مقرى ١٥/٢).

٤- أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصارى الأبدى.

٥- منذر بن سعيد البلوطى : مق ١٦/٢.

٦- أبو القاسم الشاطبى : مق ٢٢/٢.

٧- أبو بكر بن العربى : مق ٢٥/٢.

٨- أبو بكر عامر بن محمد بن حجاج الغافقى الإشبيلى : مق ٤٣/٢.

٩- جمال الدين أبو محمد بن ذى النون الأنصارى المالقى، من أشياخ أبى حيان : مق ٤٤/٢.

١٠- سوار بن طارق قرطبي : مق ٤٦/٢.

١١- بقي بن مخلد.

١٢- قاسم بن أصبغ : مق ٤٧/٢.

١٣- قاسم بن ثابت العوفي السرقسطي : مق ٤٩/٢.

١٤- قاسم بن أحمد بن محمد المرسي : مق ٥٠/٢.

١٥- قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار : مق ٥٠/٢.

١٦- أبو بكر الغساني، من أهل المرية : مق ٥١/٢.

١٧- محمد بن حيون، من أهل وادي الحجارة : مق ٥٢/٢.

١٨- محمد بن إبراهيم بن غالب المالقي : مق ٥٢/٢.

١٩- محمد بن إبراهيم البقوري : مق ٥٣/٢.

٢٠- محمد بن إبراهيم بن موسى، من طليطلة : مق ٥٣/٢.

٢١- أبو عبد الله القرطبي الهاشمي الأندلسي : مق ٥٤/٢.

٢٢- محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسن القرطبي : مق ٥٧/٢.

٢٣- محمد بن علي بن خلف التجيبي الإشبيلي : مق ٥٧/٢.

٢٤- أبو بكر الجياني بن ياسر : مق ٥٨/٢.

٢٥- محمد بن علي التجيبي الدهان الغرناطي : مق ٥٨/٢.

٢٦- أبو عمر محمد بن أبي الربيع القرشي العثماني : مق ٥٨/٢.

٢٧- أبو بكر محمد بن علي بن هذيل التليسي : مق ٥٨/٢.

٢٨- أبو سلمة محمد بن علي البياسي الغرناطي : مق ٥٩/٢.

٢٩- محمد بن علي الشامي الأندلس الغرناطي : مق ٥٩/٢.

٣٠- محمد بن عمار القلاعي الميورقي : مق ٦٠/٢.

٣١- محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار القرطبي : مق ٦٠/٢.

٣٢- محمد بن عمروس القرطبي : مق ٦١/٢.

٣٣- محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المعافري، المعروف بابن الأعشى القرطبي : مق ٦٢/٢.

٣٤- محمد بن فطيس الغافقي : مق ٦٢/٢.

٣٥- محمد بن قاسم.. بن محمد بن سيار القرطبي : مق ٦٢/٢.

٣٦- محمد بن قاسم... القرشي الفهري، عرف بابن رمان الغرناطي : مق ٦٣/٢.

٣٧- محمد بن لب الشاطبي : مق ٦٣/٢.

٣٨- محمد بن سراقة الشاطبي القرطبي : مق ٦٤/٢.

٣٩- محمد بن أحمد الفريشي : مق ٦٥/٢.

٤٠- محمد بن محمد بن خيرون : مق ٦٥/٢.

٤١- ضياء الدين أبو جعفر بن بندار القيسي المالقي : مق ٦٦/٢.

٤٢- أبو بكر محمد الزهري، المعروف بابن محرز البلنسي : مق ٦٦/٢.

٤٣- أبو الوليد الباجى : مق ٦٧/٢.

٤٤- أبو محمد بن حزم الظاهرى : مق ٧٧/٢.

٤٥- أبو بكر محمد بن الوليد.. الفهرى الطرطوشى : مق ٨٥/٢.

٤٦- محمد بن عبد الجبار الطرطوشى : مق ٩٠/٢.

٤٧- القاضى الشهيد أبو على الصدفى : مق ٩٠/٢.

٤٨- ابن أبى روح الجزيرى : مق ٩٣/٢.

٤٩- أبو حفص عمر بن حسن الهوزنى : مق ٩٣/٢.

٥٠- أبو عمرو عثمان بن الحسين بن دحية : مق ٩٤/٢.

٥١- الكاتب أبو بكر بن القاسم، من أهل وادى الحجارة : مق ٩٥/٢.

٥٢- الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقى : مق ٩١/٢.

٥٣- الشاعر الأديب أبو محمد عبد المنعم ين عمر بن حسان المالقى : مق ٩٩/٢.

٥٤- الحافظ أبو الخطاب بن دحية الظاهرى المذهب : مق ٩٩/٢.

٥٥- الحافظ خلف بن سهل بن القاسم بن الدباغ.

٥٦- خلف بن عبد الله بن سعيد بن زرارة بن المرابط : مق ١٠٥/٢.

٥٧- أبو الصلت أمية... الإشبيلى : مق ١٠٥/٢.

٥٨- الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول السرقسطى : مق ١١٠/٢.

٥٩- الفقيه المقرئ أبو عامر التيارى : مق ١١٠/٢.

٦٠- الأديب الطبيب يوسف بن عتبة الإشبيلى : مق ١١١/٢.

٦١- جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن موسى المعروف بابن مُسَدى.

٦٢- أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدى الحميدى ولد بالجزيرة. مق ١١٢/٢.

٦٣- الكمال أبو العباس أحمد الشريشى : مق ١١٥/٢.

٦٤- أبو بكر يحيى بن سعدون : مق ١١٦/٢.

٦٥- محمد بن أبى الحسن بن عبد ربه : مق ١١٨/٢.

٦٦- محمد بن الصفار القرطبى : مق ١١٩/٢.

٦٧- أبو الوليد بن الجنّان الشاطبى : مق ١٢٠/٢.

٦٨- أبو محمد القرطبى : مق ١٢٣/٢.

٦٩- على بن أحمد القادسى الكنانى : مق ١٢٤/٢.

٧٠- أبو عبد الله بن العطار القرطبى، أديب، شاعر : مق ١٢٤/٢.

٧١- عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى القرطبى : مق ١٢٩/٢.

٧٢- أبو بكر بن محمد بن أحمد البكرى الشريشى : مق ١٣١/٢.

٧٣- أبو محمد عبد العزيز بن أحمد، المغربى من أهل المرية : مق ١٣٣/٢.

٧٤- الإمام الربانى أبو عمرو الدانى، قرطبى : مق ٨٣٥/٢.

٧٥- أبو محمد عبد الله بن عيسى بن حبيب : مق ١٣٦/٢.

٧٦- أبو العباس أحمد بن على بن شكر : مق ١٣٧/٢.

٧٧- علم الدين القاسم بن أحمد المريني المقرئ اللورقي : مق ١٣٧/٢.

٧٨- أبو عبد الله بن الربيع الغرناطي : مق ١٣٧/٢.

٧٩- أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى قرطبي : مق ١٣٩/٢.

٨٠- محمد بن سعدون الباجي ابن الزنوفي : مق٢/ ١٣٩.

٨١- محمد بن سعيد، قرطبي أصله من نبلة : مق ١٤١/٢.

٨٢- محمد بن سعد الأعرج، طليطلي : مق ١٤٠/٢.

٨٣- محمد بن سعيد بن إسحاق القرطبي أصلا : مق ١٤٠/٢.

٨٤- محمد بن سعيد بن الحكم، قرطبي : مق ١٤٠/٢.

٨٥- محمد بن سليمان المعافري الشاطبي : مق ١٤٠/٢.

٨٦- محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي : مق ١٤١/٢.

٨٧- محمد بن صالح الأنصاري المالقي : مق ١٤٢/٢.

٨٨- محمد بن صالح القحطاني : مق ١٤٢/٢.

٨٩- محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الداني : مق ١٤٣/٢.

٩٠- محمد بن عيسى بن دينار، قرطبي : مق ١٤٩/٢.

٩١- محمد بن يحيى الليثي : مق ١٤٩/٢.

٩٢- محمد بن مروان بن خطاب المعروف بابن أبي جمرة.

٩٣- محمد بن أبي علاقة البواب قرطبي : مق ١٥٠/٢.

٩٤ - محمد بن حزم بن بكر التنوخي، طليطلي وسكن قرطبة، يعرف بابن المديني : مق٢/١٥٠.

٩٥ - محمد بن يحيى بن عائذ، طرطوشي : مق ٢/١٩١.

٩٦ - محمد بن عبدون الجيلي العدوى قرطبي : مق ٢/١٩١.

٩٧ - محمد بن عبد الرحمن الأزدى الفراء قرطبي : مق ٢/١٥٢.

٩٨ - محمد بن صالح المعافرى : مق ٢/١٥٢.

٩٩ - محمد بن أحمد الأنصارى السرقسطي : مق ٢/١٥٣.

١٠٠- محمد بن عيسى بن بقاء، قرطبي : مق ٢/١٥٣.

١٠١- محمد بن طاهر بن عيسى- دانية : مق ٢/١٥٤.

١٠٢- محمد بن أبي سعيد الفرج البزار، سرقسطة : مق ٢/١٥٥.

١٠٣- أبو بكر محمد بن سعيد، المشهور بالميورقي، وسكن غرناطة : مق ٢/١٥٥.

١٠٤- أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطفيل العبدى الإشبيلي، يعرف بابن عظيمة : مق ٢/١٥٥.

١٠٥- محمد بن أحمد بن جراح الخزرجي- جيان : مق ٢/١٥٧.

١٠٦- محمد بن علي بن ياسر الجياني : مق ٢/١٥٧.

١٠٧- محمد بن يوسف بن سعادة مرسي : مق ٢/١٥٨.

١٠٨- محمد بن إبراهيم بن وضاح اللخمي، غرناقة : مق ٢/١٦٠.

١٠٩- محمد بن عبد الرحمن التجيبى، من لقنت : مق ١٦٠/٢.

١١٠- محيى الدين بن عربى : مق ١٦٢/٢.

١١١- الصوفى أبو الحسن على الششترى : مق ١٨٥/٢.

١١٢- أبو الحسن أحمد بن على الحرانى، مرسية : مق ١٨٧/٢.

١١٣- أبو العباس المرسى : مق ١٩٠/٢.

١١٤- أبو عبد الله الساحلى (الطويجن) مق : ١٦٤/٢.

١١٥- ضياء الدين أبو الحسن على بن عفيف الخزرجى الساعدى : مق ١٩٥/٢.

١١٦- أبو محمد عبد الحق الشهير بابن سبعين، مرسى : مق ١٩٦/٢.

١١٧- محمد بن إبراهيم الشهير بابن غصن الإشبيلى : مق ٢٠٧/٢.

١١٨- الشيخ الفقيه الأستاذ النحوى التاريخى اللغوى أحمد بن يوسف الفهرى الليلى . مق ٢٠٨/٢.

١١٩- محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح القرطبى : مق ٢١٠/٢.

١٢٠- أبو القاسم بن حاضر الجزيرى الخزرجى محمد بن أحمد، من جزيرة شقر : مق ٢٠٠/٢.

١٢١- أبو القاسم أحمد التجيبى، من أهل بلش Velee .

١٢٢- أبو بكر الخزرجى محمد بن أحمد بن حسن، وقيل: محمد بن عيسى المالقى : مق ٢١٢/٢.

١٢٣- أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمى، قرطبى : مق ٢١٣/٢.

١٢٤- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الزهرى الإشبيلى : مق ٢١٤/٢.

١٢٥- محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم القرطبى المعروف بالورشى، نسبة إلى قراءة ورش القارئ : مق ٢١٤/٢.

١٢٦- أبو عبد الله محمد بن أحمد الباجى : مق ٢١٥/٢.

١٢٧- محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى القرطبى : مق ٢١٥/٢.

١٢٨- محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافرى، المقرئ الفرضى الأديب، نشأ ببلنسية وعاش بالإسكندرية : مق ٢١٦/٢.

١٢٩- محمد بن أحمد بن سهل الطليطلى، المعروف بالنقاش : مق ٢١٧/٢.

١٣٠- محمد بن أحمد القيسى القبرى : مق ٢١٧/٢.

١٣١- جمال الدين أبو بكر الوائلى الشريشى : مق ٢١٧/٢.

١٣٢- محمد بن أحمد بن مفرّج، المعروف والده بالقنتورى، وكان جد أبيه مفرّج صاحب الركاب للحكم بن عبد الرحمن الداخل : مق ٢١٨/٢.

١٣٣- محمد بن أحمد بن موسى، رحل من المغرب : مق ٢١٩/٢.

١٣٤- أبو عبد الله بن أحمد بن موسى بن حنبل العبدرى البلنسى : مق ٢١٩/٢.

١٣٥- محمد بن أحمد بن نوح الإشبيلى، ولد باشبيلية : مق ٢٢٠/٢.

١٣٦- محمد بن أسباط المخزومى القرطبى : مق ٢٢٠/٢.

١٣٧- أبو بكر محمد بن إسحاق، الشهير بابن السليم، قاضى الجماعة بقرطبة : مق ٢٢٠/٢.

١٣٨- موسى بن بهيج الأندلسى المغربى الواعظ : مق ٢/٢٢٠.

١٣٩- أبو مروان موسى بن سعادة (مرسى) : مق ٢/٢٢١.

١٤٠- أبو محمد بن عيسى (وادى آش) : مق ٢/٢٢٢.

١٤١- ولده بدر الدين محمد، وكان حاد الذهن، إماما فى النحو وعلم المعانى والمنطق : مق ٢/٢٣٣، ٢٣٤.

١٤٢- محمد بن طاهر التدميرى : مق ٢/٢٣٤.

١٤٣- أبو عبد الله القيجاطى، من بنى جهور Quesada .

١٤٤- محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى الغرناطى : مق ٢/٢٣٥.

١٤٥- أبو عبد الله محمد بن عبد السلام : مق ٢/٢٣٦.

١٤٦- محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج.

١٤٧- محمد بن عبد الملك بن صيفون القرطبى : مق ٢/٢٣٧.

١٤٨- محمد بن محمد بن عبد الملك السعدى (قرطبة).

١٤٩- أبو بكر السرج الشنتمرى Santa maria : مق ٢/٢٣٨.

١٥٠- محمد بن عبد الله بن الرقاع، قرطبى : مق ٢/٢٣٩.

١٥١- محمد بن عبد الله بن سعيد بن عابد. قرطبى ٢/٢٣٩.

١٥٢- محمد بن عبد الله بن سليمان بن هاجد : مق ٢/٢٣٩.

١٥٣- محمد بن عبد الله بن خيرة القرطبى : مق ٢/٢٤٠.

١٥٤- محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى الفضل السلمى المرسى : مق ٢٤١/٢.

١٥٥- أبو بكر محمد بن عبد الله النبى : مق ٢٤٣/٢.

١٥٦- محمد بن عبد الله الخولانى الباجى، المعروف بابن القوق.

١٥٧- محمد بن عبد الله اللوشى الطبيب : مق ٢٤٣/٢.

١٥٨- محمد بن عبدون العذرى القرطبى : مق ٢٤٣/٢.

١٥٩- أبو مروان عبد الملك بن مروان بن زهر الطبيب : مق ٢٤٤/٢.

١٦٠- بنت بنى زهر : مق ٢٤٧/٢.

١٦١- أبو الحجاج يوسف الساحلى، غرناطى : مق ٢٥٣/٢.

١٦٢- يحيى بن الحكم البكرى، الملقب بالغزال لجماله.

١٦٣- أبو الحسن على بن سعيد متمم كتاب «المغرب فى أخبار المغرب» : مق ٢٦٢/٢ من أهل قلعة يحصب، غرناطى، ومن أخبار بيته ص ٢٩٠ وما يليها.

عن ابن سعيد، بناء الهودج فى مصر : مق ٢٩٠/٢.

مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن حديد : مق ٢٩٢/٢.

١٦٤- الشهاب التلعفرى، شاعر من بنى حديد : مق ٢٩٤/٢.

العادل بن أيوب.

صفى الدين أحمد المردغانى : مق ٢٩٩/٢.

١٦٥- دفتر خوان الدمشقى : مق ٣٠٠/٢.

أبو الحسن على بن مروان الزناطى الكاتب : مق ٣٠١/٢.

ابن الربيب المؤرخ.

١٦٦- الكاتب المجيد أبو العباسى أحمد الغسانى، كاتب ملك إفريقية : مق ٣٣١/٢.

ترجمة والد ابن سعيد أبى عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد : مق ٣٣٣/٢.

محمد بن عبد الملك بن سعيد، والد على بن سعيد، صاحب أعمال إشبيلية وغرناطة.

عبد الملك جد على بن سعيد : مق ٣٣٦/٢.

وصف ابن سعيد للفسطاط : مق ٣٣٧/٢.

وصف ابن سعيد للقاهرة : مق ٣٤٤/٢.

١٦٧- بعض أخبار والد ابن سعيد محمد بن عبد الملك بن سعيد : مق ٢٣٥/٢.

١٦٨- وصية عبد الملك بن سعيد، والد على بن سعيد لابنه : مق ٣٥٢/٢.

١٦٩- رسالة ابن سعيد الأب لعبد الواحد الموحدى : مق ٣٦٢/٢.

١٧٠- عبد الرحمن بن عبد الملك بن سعيد : مق ٣٧٠/٢.

١٧١- على بن عبد الله بن يوسف، الشاطبى الأصل، البلنسى المولد، من أجداد على بن سعيد : مق ٣٧٤/٢.

١٧٢- أبو عبد الله محمد بن على بن يوسف الشاطبى الأصل البلنسى المولد : مق ٣٧٤/٢.

١٧٣- أبو بكر حميد الأنصارى القرطبى نزيل مالقة : مق ٣٧٨/٢.

١٧٤- اليسع بن عيسى بن حزم.. الغافقى، من أهل بلنسية : مق ٣٧٩/٢.

١٧٥- محمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد التجيبى من أجداد ابن سعيد : مق ٣٨٢/٢.

من شعر أبى عمران بن سعيد، عم على بن سعيد : مق ٣٦٤/٢

نور الدين بن سعيد، جد على بن سعيد : مق ٣٦٨/٢

١٧٦- عم على بن سعيد، أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمى الباجى.

١٧٧- من أعمام على بن سعيد: عيسى بن سليمان بن عبد الملك.. الرعينى الرندى. مق ٣٨٠/٢.

١٧٨- أبو الربيع سليمان بن أحمد الينيبى، هاجر إلى مصر ومد/الملك الكامل.

١٧٩- أبو جعفر أحمد بن يحيى.

١٨٠- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، صاحب الرحلة : مق ٣٨١/٢.

١٨١- ابن عنين الهجاء : مق ٤٠١/٢.

١٨٢- ظهير الدين بن أيوب طغتكين.

رجع إلى ذكر دمشق :

١٨٣- مولانا الشيخ عبد الرحمن العماوى، مفتى الشام : مق ٤٢٦/٢.

١٨٤- عالم الشام شيخ الإسلام عمر القارئ : مق ٤٣٩/٢.

١٨٥- الشيخ محمد بن يوسف المراكشى الكاملى : مق ٤٧٠/٢.

١٨٦- أبو العالم زيدان بن أحمد المنصور : مق ٤٧٩/٢.

١٨٧- بقية الكلام عن الفقيه الكاتب أبى الحسين بن جبير : مق ٤٧٨/٢.

١٨٨- الأديب أبو عامر بن عبدون : مق ٤٩٤/٢.

١٨٩- أبو معز نديم محمد بن أبى عامر : مق ٤٩٦/٢.

موقف ابن بسام فى الذخيرة من الهجاء :

١٩٠- ابن سام، عارض بالذخيرة يتيمة الثعالبى : مق ٥٠٠/٢.

١٩١- حبيـب بن الوليـد بن حبيب الداخل إلى الأندلس بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، ويعرف بدحون، قرطبى : مق ٥٠٢/٢، ٥٠٣.

١٩٢- ومن ولده سعيد بن هشام، وكان أديبا عالما فقيها : مق ٥٠٣/٢.

١٩٣- عمر بن فرج الرخجى : مق ٥٠٣/٢.

١٩٤- بهلول بن فت/من أهل أقليش Ucles

١٩٥- أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولى الشاطبى : مق ٥٠٤/٢.

١٩٦- أبو جعفر أحمد بن لب بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس بن ميمون اليحصبى، سكن شاطبة، وأصله من انشيان عملها : مق ٥٠٥/٢.

١٩٧- أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه العابد، من عمل قسطنطينية، عمل دانية : مق ٥٠٦/٢.

١٩٨- أبو جعفر النحوى، ذكره العينى فيما حكاه ابن الأبار : مق ٥٠٦/٢.

١٩٩- أبو الحسن جابر بن أحمد بن عبد الله الخزرجى القرطبى : مق ٥٠٦/٢.

٢٠٠- أبو الحسن جوهر بن خلف بن أبى عمر بن قاسم بن ثابت : مق ٥٠٧/٢.

٢٠١- أبو على الحسن بن حفص بن الحسن بن البهرانى : مق ٥٠٧/٢.

٢٠٢- أبو على الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم بن محمد الأموى، ويعرف بابن برنجال، من أهل دانية : مق ٥٠٨/٢.

٢٠٣- أبو على الحسن بن إبراهيم بن محمد بن تقى الجذامى المالقى : مق ٥٠٨/٢.

٢٠٤- أبو على الحسن بن على بن الحسن بن عمر الأنصارى البطليوسى : مق ٥٠٩/٢.

٢٠٥- أبو الأعلى الحسن بن محمد بن الحسن الأنصارى، من أهل لرية Loria عمل بلنسية : مق ٥٠٩/٢.

٢٠٦- الحســين بن أحمــد بن الحسيــن بن على التجيبى القرطبى، أخذ علم العدد والهندسة عن أبى عبد الله، المعروف بابن برغوث، علم العدد والهندسة : مق ٥١٠/٢.

٢٠٧- أبو يوسف حماد بن الوليد الكلاعى، درس بقرطبة : مق ٥١١/٢.

٢٠٨- أبو القاسم خلف بن فت/بن عبد الله بن جبير (طرطوشه) يعرف بالجبيرى : مق ٥١١/٢.

٢٠٩- أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون (بطليوس) : مق ٥١٢/٢ من قنطرة السيف، وسكن بطليوس.

٢١٠- زرارة بن محمد بن زرارة : مق ٥١٢/٢.

٢١١- أبو الحسين طاهر الأندلسى، من أهل مالقة : مق ٥١٢/٢.

٢١٢- أبو الطاهر الأندلسى (ليلة) : مق ٥١٣/٢.

٢١٣- أبو محمد طارق بن يعيش، من منصف، قرية بغربى بلنسية : مق ٥١٣/٢.

٢١٤- محمد بن إبراهيم بن مزين الأودى، من أهل أكشونية Oxonoba.

٢١٥- محمد بن أحمد بخياز الشاطبى : مق ٥١٤/٢.

٢١٦- أبو مروان محمد بن أحمد.. بن شرجعة بن رفاعة (إشبيلى) : مق ٥١٤/٢.

٢١٧- أبو العباسى أحمد بن محمد الواعظ الإشبيلى ثم المعرى، له معرفة بالأدب وخبرة بالشعر والخطب : مق ٥١٦/٢.

٢١٨- الإمام زكى الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز الإشبيلى، محدث عام : مق ٥١٨/٢.

٢١٩- بقى بن مخلد بن يزيد، محدث مسند إشبيلى : مق ٥١٨/٢.

٢٢٠- يوسف بن يحيى الأزدى المعروف بالمغـامى، من أهـل قرطبـة، وأصله من طليطلة : مق ٥٢٠/٢.

٢٢١- الحافظ أبو بكر عبد الحق بن عطية، محدث : مق ٥٢٣/٢.

٢٢٢- شهاب الدين أحمد بن فرح، محدث إشبيلى.

٢٢٣- عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر، محدث قرطبى : مق ٥٣١/٢ :

٢٢٤- القاضى خالد بن عيسى بن أحمد بن أبى خالد البلوى، محدث : مق ٥٣٢/٢.

٢٢٥- برهان الدين أبو إسحاق بن الحاج إبراهيم، محدث، نميرى غرناطى : مق ٥٣٤/٢.

٢٢٦- أثير الدين أبو حيان النحوى، غرناطى : مق ٥٣٥/٢.

٢٢٧- المسند المعمر فخر الدين، أبو الطاهر إسماعيل بن هبة الله المصرى ابن المليحى، آخر من روى القرآن بالتلاوة على أبى النجود : مق ٥٤٩/٢.

٢٢٨- الشيخ النحوى الناظم الناثر، أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى : مق ٥٨٤/٢.

٢٢٩- محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى : مق ٥٨٩/٢.

٢٣٠- الحافظ جمال الدين بن مسدى من الجزيرة الخضراء، نحوى محدث : مق ٥٩٤/٢.

٢٣١- الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز الغافقى القبقورى، إشبيلى : مق ٥٩٥/٢.

٢٣٢- أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبى الخليل الإشبيلى النباتى : مق ٥٩٦/٢.

٢٣٣- أبو العباس أحمد بن عبد السلام، الشهير بالمسيلى المحدث : مق ٥٩٨/٢.

٢٣٤- أبو العباس أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبى الزاهد، ويعرف بابن الأقليشى، المحدث النحوى : مق ٥٩٨/٢.

٢٣٥- أبو العباسى أحمد عمر المعافرى المرسى، أصله من طلبيره، ويعرف بابن أفرند الفقيه، من أصحاب الغزالي : مق ٦٠٠/٢.

٢٣٦- أبو جعفر بن عبد الملك بن عميرة العتبى، فقية أصله من لورقة : مق ٦٠٠/٢.

٢٣٧- أبو عمر أحمد ... بن عات نحوى فقيه : مق ٦٠٠/٢.

٢٣٨- أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن حنون البهراتى، محدث : مق ٦٠٣/٢.

٢٣٩- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد المخزومى – محدث قرطبى، يعرف أبوه بكوزان : مق ٦٠٣/٢.

٢٤٠- أبو جعفر أحمد .. بن عياش، فقيه محدث مرسى : مق ٦٠٤/٢.

٢٤١- أبو إسحاق إبراهيم بن حصن بن أحمد بن حزم، أندلسى، سكن دمشق وولى الحسبة بها : مق ٦٠٤/٢.

٢٤٢- أبو أمية إبراهيم بن ضبة، من أهل المرية، ونزل مرسية : مق ٦٠٥/٢.

٢٤٣- كريمة المروزية : مق ٦٠٦/٢.

٢٤٤- أبو القاسم بن فورتش، محدث سرقسطى : مق ٦٠٧/٢ ولد بتاكرنا.

٢٤٥- أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر القرشى، محدث إشبيلى : مق ٦٠٦/٢.

٢٤٦- أبو الرواد عيسى النفزى الحميرى التاكرنى، محدث من تاكرنا : مق ٦٠٧/٢.

٢٤٧- الإمام النحوى نور الدين أبو الحسن على بن أحمد بن حمدون، مالقى : مق ٦٠٩/٢.

٢٤٨- عبد البر بن فرسان الوادى آشى : مق ٦١١/٢.

٢٤٩- عبد المنعم بن عمر الغسانى، أديب من وادى آش : مق ٦١٤/٢.

٢٥٠- أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد القرطبى، إمام حافظ فى التفسير والفقه والحساب : مق ٦١٤/٢.

٢٥١- أبو العباسى القرطبى، فقيه محدث : مق ١٦٥/٢.

٢٥٢- أبو جعفر أحمد بن سيد بونه : مق ٦١٦/٢.

٢٥٣- الفقيه القاضى الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب الشاطبى، الفقيه القاضى : مق ٦١٦/٢.

٢٥- محمد بن يحيى الأندلسى اللبسى الفقيه القاضى الحافظ : مق ٦١٧/٢.

٢٥٥- الوزير الشهير أبو عبد الله الحكيم رندى.

٢٥٦- الحافظ نجيب الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الأمير القائد على بن حسن عبد العزيز بن هلال، صاحب الحديث والسنة : مق ٦٢٦/٢.

٢٥٧- محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد، أبو بكر العربى الإشبيلى : مق ٦٢٦/٢.

٢٥٨- يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز القرطبى، محدث حافظ : مق ٦٢٧/٢.

٢٥٩- أبو بكر محمد بن أحمد... البكرى الشريشى، حافظ فقيه : مق ٦٢٧/٢.

٢٦٠- المحدث المشهور أبو بكر بن محمد بن على بن ياسر، ولد بجيان : مق ٦٢٨/٢.

٢٦١- أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب.. بن حزم المرى : مق ٦٢٩/٢، ٦٣٠.

٢٦٢- أبو زكريا يحيى بن قاسم بن هلال القرطبى، فقيه حافظ : مق ٦٣٠/٢.

٢٦٣- أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عوانة الألبيرى، فقيه محدث : مق ٦٣٠/٢.

٢٦٤- أبو بكر محمد بن أحمد بن إبراهيم الصدفى الإشبيلى، فقيه محدث : مق ٦٣١/٢.

٢٦٥- أبو يحيى زكريا بن خطاب الكلبى التطيلى، فقيه محدث : مق ٦٣١/٢.

٢٦٦- سعد الخير بن محمد بن سعد البلنسى المحدث : مق ٦٣٢/٢.

٢٦٧- أبو عثمان سعيد بن نصر بن خلفون الاستجى المحدث : مق ٦٣٣/٢.

٢٦٨- أبو عثمان سعيد الأعناقى القرطبى المحدث : مق ٦٣٣/٢.

٢٦٩- أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف الأقليشى المحدث : مق ٦٣٣/٢.

٢٧٠- أبو الأصبغ عبد البر بن على المعروف بابن الطحان، مقرئ محدث إشبيلى : مق ٦٣٤/٢.

٢٧١- أبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف، محدث أندلسى : مق ٦٣٥/٢.

٢٧٢- أبو محمد عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة السعدى الشاطبى، محدث كبير : مق ٦٣٥/٢.

٣٧٣- الحكيم الطبيب أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجليانى، أديب فاضل : مق ٦٣٥/٢.

٢٧٤- أبو القاسم محمد عبد الوهاب بن عبد القدوس القرطبى، مؤلف المقنع فى القراءات : مق ٦٣٧/٢.

٢٧٥- عبد الله أو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله بن محمد، أبو الحكم الباهلى، ولد بالمرية، كان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة : مق ٦٣٩/٢.

٢٧٦- أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن صافى، غرناطى ناب فى الحسبة، أديب شاعر : مق ٦٣٩/٢.

٢٧٧- طالوت بن عبد الجبار، فقيه شاعر : مق ٦٣٩/٢.

٢٧٨- ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد القرطبى الشاعر، كتب فى الفرائض : مق ٦٤١/٢.

٢٧٩- مالك بن مالك الشاعر من جيان : مق ٦٤٢/٢.

٢٨٠- أبو على منصور بن خميس، من المرية، وأخذ القراءات : مق ٦٤٢/٢.

٢٨١- منصور بن لب بن موسى، من المرية وأخذ القراءات : مق ٦٤٣/٢.

٢٨٢- مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج قرطبى، أخذ القراءات : مق ٦٤٣/٢.

٢٨٣- محب بن الحسين، قرطبى شاعر مقرئ : مق ٦٤٣/٢.

٢٨٤- مساعد بن أحمد بن مساعد الأصبحى - أوريولة، ويعرف بابن زعوقة، جمع القراءات : مق ٦٤٠/٢.

٢٨٥- أبو حبجب نصر بن القاسم- غرناطة، سمع الحديث : مق ٦٤٥/٢.

٢٨٦- النعمان بن النعمان المعافرى - ميورقة، كان شيخا مجاب الدعوة : مق ٦٤٥/٢.

٢٨٧- نعم الخلف بن عبد الله بن أبى ثور - طرطوشة، مجاب الدعوة : مق ٦٤٥/٢.

٢٨٨- ثابت بن المفرج بن يوسف، من بلنسية، شاعر وحكيم، مجاب الدعوة : مق ٦٤٥/٢.

٢٨٩- ضمام بن عبد الله، شاعر فقيه، ويقال همام : مق ٦٤٥/٢.

٢٩٠- ضرغام بن عروة بن حجاج بن أبى فُريحة، مولى عبد الرحمن الداخل، وكان فقيها.

٢٩١- عبد الله بن محمد بن عامر بن عامر بن أبى عامر، قرطبى من الجزيرة الخضراء، وهو والد المنصور ابن أبى عامر، فقيه : مق ٦٤٦/٢.

٢٩٢- أبو محمد عبد الله بن حمود، كان شاعرا فقيها : مق ٦٤٧/٢.

٢٩٣- عبد الله بن رشيق القرطبى، فقيه شاعر : مق ٦٤٧/٢.

٢٩٤- أبو بكر اليابرى Evora ونزل إشبيلية : مق ٦٤٨/٢.

٢٩٥- أبو محمد عبد الله بن محمد بن مرزوق، أندلسى، فقيه، شاعر : مق ٦٤٩/٢.

٢٩٦- عبد الله بن محمد العربحى يعرف بابن مطحنه من مرسية، محدث، شاعر : مق ٦٤٩/٢.

٢٩٧- أبو محمد عبد الله الشلبى Silves فقيه، شاعر : مق ٦٥٠/٢.

٢٩٨- أبو محمد عبد الله بن موسى المرسى، يعرف بابن برطلة، شاعر، محدث : مق ٦٥٠/٢.

٢٩٩- أبو محمد عبد الله بن خلف بن سعادة، محدث مقرئ : مق ٦٥٢/٢.

٣٠٠- أبو محمد عبد الله بن يوسف المرى، ويقال : إنه فقيه : مق ٦٥٢/٢.

٣٠١- شهاب الدين أحمد بن عبد الله من مهاجر الوادى آش، محدث : مق ٦٥٣/٢.

٣٠٢- أبو جعفر أحمد بن صابر، غرناطى، فقيه شاعر.

٣٠٣- أبو القاسم ابن الإمام القاضى أبى الوليد الباجى Beja، سكن سرقسطة وغيرها : مق ٦٥٦/٢.

٣٠٤- الإمام الفاضل الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلى الغرناطى، شاعر فقيه : مق ٦٥٧/٢.

٣٠٥- الوليد بن هشام، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل، فقيه، شاعر، قرطبى : مق ٦٥٩/٢.

٣٠٦- أبو زكريا الطليطلى، شاعر فقيه : مق ٦٦٠/٢.

٣٠٧- أبو بكر يحيى بن عبد الله بن محمد القرطبى، يعرف بالمغيلى، فقيه شاعر : مق ٦٦١/٢.

٣٠٨- الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن على بن يحيى بن سلمة الغرناطى، شاعر، فقيه : مق ٦٦١/٢.

٣٠٩- الأديب أبو عبد الله محمد بن على بن يحيى الغرناطى، فقيه، شاعر : مق ٦٦١/٢.

٣١٠- نور الدين أبو الحسن الميورقى، فقيه، شاعر : مق ٦٦٢/٢.

٣١١- الفقيه الشاعر ابن عتبة الإشبيلى : مق ٢٦٣/٢.

٣١٢- أبو عبد الله بن جابر محمد بن جابر الضرير، فقيه، شاعر : مق ٦٦٤/٢.

٣١٣- الفقيه أبو جعفر الإشبيلى، فقيه، شاعر : مق ٦٧٥/٢.

٣١٤- الولى الصالح أبو مروان عبد الملك بن بشر، فقيه، شاعر، من بجانس، قرية من قرى وادى آش، فقيه، شاعر : مق ٦٩٠/٢.

٣١٥- الطبيب الماهر ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن البيطار المالقى، كان شاعرا، أيضا : مق ٦٩١/٢.

٣١٦- الشيخ أبو الحسن على البسطى، الشهير بالتلعفرى، فقيه، شاعر، : مق ٦٩٣,٦٩٢/٢.

٣١٧- أبو عبد الله شمس الدين الراعى الغرناطى، فقيه، شاعر : مق ٦٩٤/٢.

نهايـــة خلافة قرطبـــة

مات عبد الرحمن شيخول - الابن الثانى لمحمد بن أبى عامر - قتيلا فى ٣ رجب ٣٩٩هـ/ مارس ١٠٠٩م، وكان هذا التعيس يعرف أن محمد بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدى لن يطمئن حتى يقضى عليه، وهذا الرجل الذى لم يرزقة الله بشىء من الذكاء كان يعرف ذلك، ولكن ربما كان من آماله أن ينجو من الموت، ولكنه كان واثقا من أن محمدا المهدى يطلبه ليذيقه كأس الموت.

وقد وقف قليلا فى ارملاط Guadalmellats ثم تقدم إلى قرطبة حيث قُتِل فى التاريخ الذى ذكرناه، وقد قتل معه صديقه وحليفه لونت كاريون، ولكن أسوأ ما فى الأمر أن محمدا المهدى قاتله كان لا يمتاز عنه بشىء، فقد كان غبيا سيئ التصرف، وكان يرأس الأندلسيين، ولكن بربر الأندلس - وكانوا كثيرين جدا - لم يطمئنوا إليه، فبحثوا عن أموى آخر يولونه أمر أنفسهم، ووجدوا أمويا يسمى سليمان فبايعوه على أنفسهم وتلقب بالمستعين.

وبدأ الصراع بين عرب الأندلس ورئيسهم محمد المهدى، ومنافسه سليمان المستعين، ولم يكن أفضل منه، وقام بأمر سليمان المستعين، وقد أساء بربر سليمان المستعين إلى أهل قرطبة، ولم يثبت البربر مع سليمان المستعين، واختاروا لرياستهم ابن أخ لسليمان المستعين، يسمى هشاما، ولقبوه بالرشيد.

وكان يؤيد محمدا المهدى رجال أقوياء وأذكياء، وقد أطلق محمد المهدى سراح رجال الفكر الذين كانوا من حزبه، ومنهم أبو عمر ابن حزم.

وقد اعتزل ابن حزم السياسة ولجأ إلى قرطبة، وكذلك القاضى ابن ذكوان.

ومد البربر أيديهم إلى النصارى طالبين العون فاستنصروا بالكونت سانشو غرسية El Conde Sancho صاحب قشتالة وعرضوا عليه تعويضات كبيرة.

وفي نفس الوقت وقع اختيارهم من بين حفدة عبد الرحمن الناصر على رجل يسمى سليمان بن الحكم بن سليمان، حفيد الناصر، وابن أخي هشام الرشيد، وكانت سنه إذ ذاك واحدا وخمسين سنة، وتلقب هذا الرجل بإمام الحزب البربرى، وأرسلوا به إلى شمال الأندلس، ووصلوا به أولا إلى قلعة رباح، وهناك التقوا برسول من محمد المهدى يخطب ودهم، فرفضوه باحتقار، ثم اتجهوا إلى وادى الحجارة حيث وجدوا رسولا من محمد المهدى يعرض عليهم الصلح معهم ووعد مساعدتهم، فرفضوا ذلك بكل احتقار، حيث وجدوا مقاومة، فاتجهوا بعد ذلك إلى مدينة سالم Medinaceli وكان الفتي واضح صاحبها فرفضهم، ورفض التعاون معهم، بل أصدر أمرا بأن لا يقيموا فى الثغر الأوسط.

ورغم ذلك كله فقد ظلت حالة البربر سيئة، وكان محمد المهدى جادا فى مطاردتهم رغم قلة قواته، فاستعان سليمان المستعين بسانشو غرسية الكونت، الذى كان قد استمع لدعوتهم وأقبل بنصرهم، وقد قتل فى النهاية بسبب ضعف البربر الذين كان أهل قرطبة لا يرضون عنهم.

واستقر زاوى ابن زيرى فى منية من منيات قرطبة، وقد حاول أن يهاجم محمدا المهدى الذى كان متعصما بمدينة سالم من الثغر الأوسط، ولما فشلوا فى ذلك عادوا إلى قرطبة واستقروا فيها بقواتهم رغم معرفتهم بكراهة القرطبيين لهم.

وإزاء هذه الحالة من ضعف البربر وإمامهم سليمان المستعين تحرك ملوك النصارى فى الشمال للهجوم على أراضى المسلمين، وكان من المقدمين على ذلك رايموندو بوريل الثالث، صاحب برشلونه، وأخوه أومنجول، الذى كان ساعده الأيمن فى الحروب، وكان صاحب كونتيسة أورخل

Urgel وكان هو وأخوه رايموندو بوريل يأخذان من البربر تمنا لمساعدتهما، وكان المبلغ الذى يأخذانه باهطا، مائة قطعة من الذهب فى اليوم للفارس، أما القوات الراجلة فكانا يتسلمان عند رجالها دينارين فى اليوم، وقامت هدنة بينهم وبين محمد المهدى.

وقد كسب النصارى بذلك، فها هى أرض المسلمين مفتوحة أمامهم لا يكاد يحميها أحد، بل دخلت قرطبة جماعات من رجالهم معاونة للبربر.

أما محمد المهدى فتقدم إلى شاطبة، وكان يقود قواته الفتيان واضح وعنبر، وكانا من فتيان محمد بن أبى عامر، وكانت قلوب القرطبيين مع محمد المهدى رغم خضوعهم المفروض عليهم للبربر، وتقدم واضح مولى محمد المهدى الذى أصبح حاجبا، أى رئيس وزراء.

وقد تمكن رايموندو بوريل الثالث من الاستيلاء بصورة نهائية على حصون كبيرة على نهر الدويرو، وخاصة سان استيفانو وكولونيا وأوسما وغرماج Gormaz وكلها كانت من بلاد الخلافة الأموية التابعة لها.

انظر :

Huici, cronicas latinas de la Reconguista.

Aguads Bleya, Manuscritas de la Historia de Espana.

ويضيف أن الليونين استولوا، أيضا، على سيبولفيدا Sepulvera على نهر الدويرو، على نفس مستوى من جبال مدينة سالم وجواديراما Guadirrama، وقد قبل ذلك كله دون تحقيق معظم كبار المؤرخين الأوروبيين مثل بيريث دى أوربل Perez de Urbel ودوزى دمنرذ بيدال و Merico Cas-tro, Espano en su Historia.

وفى خلال هذا القرن العاشر الميلادى حلت غرناطة محل البيرة كعاصمة للإقليم، ذلك أن

زيرى بن ماكش الزعيم البربرى قرر ترك الأندلس والعودة إلى إفريقية والمغرب، وطنه الأصلى، فركز كل قواته فى الأندلس فى جنوب الأندلس للعودة إلى المغرب، واتخذ عاصمته فى غرناطة ضاحية إلبيرة، ومن ذلك الحين أصبحت غرناطة محل إلبيرة، وكانت قبل ذلك عاصمة الإقليم، وهناك أقام حتى جمع قواته وعبر إلى المغرب فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٤٩٢م) واستعان فى ذلك بزعماء من البربر مثل خيران ومظفر البربريين، وكانا من فتيان المنصور محمد بن أبى عامر.

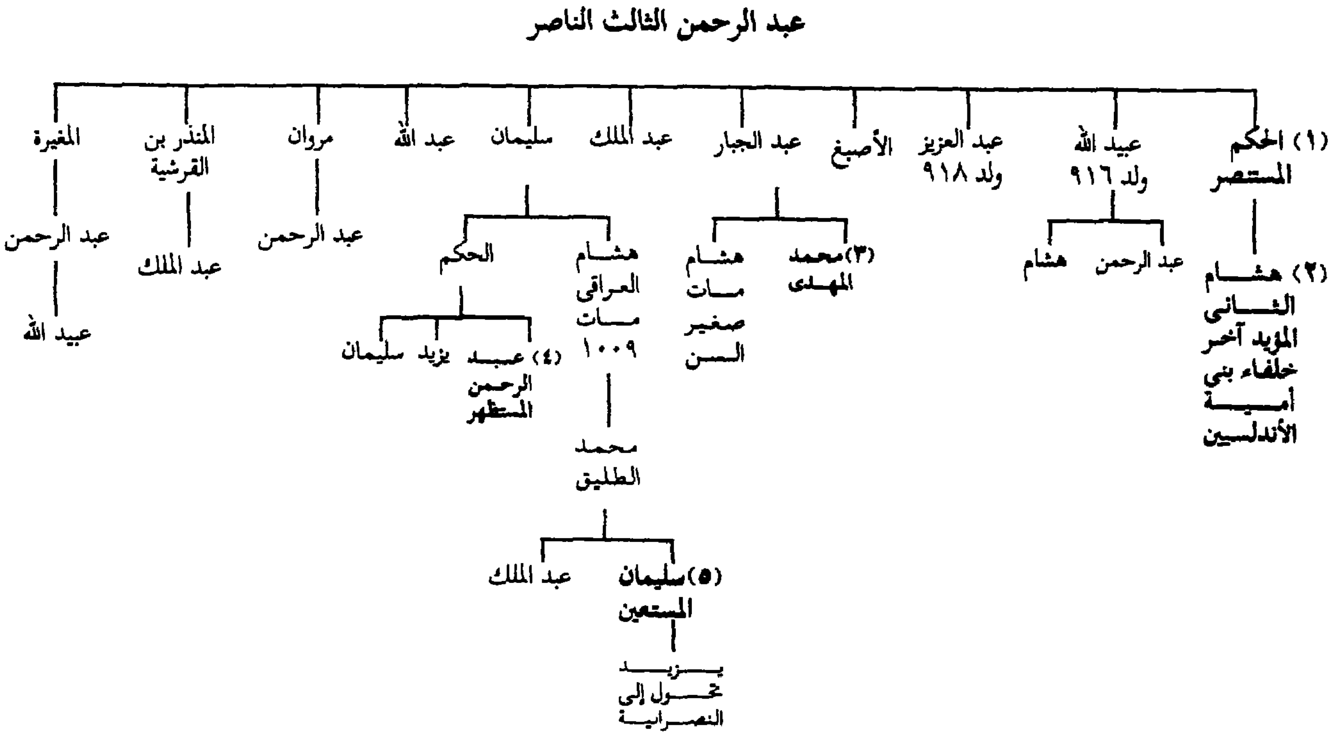
هشام الثالث المعتد ونهاية الخلافة الأموية فى الأندلس :

كان ما فعله أبو الحزم بن جهور فى قرطبة من إلغاء الخلافة مثالا احتذاه الكثيرون من قضاة من أمثال إسماعيل بن عباد، قاضى إشبيلية، وأحمد بن محمد بن الأفطس، صاحب بطليوس، ومحمــد بن ذى النون صاحب طليطلة، فهؤلاء وغيرهم لم يجدوا أمامهم فى قرطبة خليفة يخضعون له.

ويمكن أن يقال : إنهم اضطروا إلى الاستقلال، ولكن العيب فى أن بعضهم، كهؤلاء الذين ذكرناهم قبلا، أسرفوا فى ادعاء الولاية واعتبروا أنفسهم سلاطين لنواحيهم، ونسوا أن واجبهم الأول كان المحافظة على وحدة الأندلس لا تقسيمه إلى سلطنات صغيرة، لأن إسبانيا النصرانية كانت للأندلس بالمرصاد، وهذا التقسم أضعف الأندلس وأطمع رجلا مثل الفونسو السادس، ملك ليون، إلى الطمع فى بلاد المسلمين والعمل فعلا على غزو هذه السلطنات الضعيفة من قاعدته طليطلة.

وكل من تولى أمر الأندلس بعد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر كانوا من نسل عبد الرحمن الناصر كانوا من نسل عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر.

وإليك شجرة نسب عبد الرحمن هذا وابنه الحكم المستنصر عبد الرحمن الثالث أو الناصر.


عبد الرحمن الثالث الناصر
(١) الحكم المستنصر
(٢) هشـــام الثـــانى المؤيد آخر خلفاء بني أمـيـــة الأندلسيين
عبيد الله ولد ٩١٦
عبد الرحمن
هشام
عبد العزيز ولد ٩١٨
الأصبغ
عبد الجبار
(٣)محمد المهدى
هشـام مـات صغير السـن
عبد الملك
سليمان
هشـام العراقى مـات ١٠٠٩
محمد الطليق
(٥)سليمان المستعين
يـزيـد تحـول إلى النصـرانيـة
عبد الملك
الحكم
(٤) عبـد الرحمن المستظهر
يزيد
سليمان
عبد الله
مروان
عبد الرحمن
المنذر بن القرشية
عبد الملك
المغيرة
عبد الرحمن
عبيد الله

ومعظمهم لا يستحقون الخلافة أو السلطنة، ولكن ما فعله أبو الحزم بن جهور فرض عليهم ذلك بسبب سوء تصرفه، وهو نفسه لم يستفد من قرطبة، كما كان يتصور، فقد خلفه على ولاية قرطبة ابنه، وعندما مات ابنه انتهت سلطنة بنى جهور وأصبحت قرطبة موضع طمع ملوك الطوائف.

وقد استولى عليها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وأصبحت تابعة لإشبيلية.

وعندما دخل المرابطون الأندلس مدافعين عن الإسلام استولوا على قرطبة، وخلفهم عليها الموحدون.

وقد طمع فيها ملوك إسبانيا النصرانية، وكان الذى استولى عليها الفونسو السادس، صاحب طليطلة، وهو ملك ليون وقشتالة، وأصبح الآن سلطان معظم الأندلس الإسلامى، والمسلمون أصحاب الفضل الأكبر عليه، فهم الذين سهلوا له الاستيلاء على قرطبة وغيرها، وكان قد أصبح أكبر سلاطين الأندلس.

ولا يمكن تعليل سوء تصرف أبى الحزم بن جهور من إلغاء الخلافة إلا قلة الوطنية وانعدام الشعور عنده بأهمية الأندلس الإسلامى، لأن ألفونسو السادس انتزع طليطلة من صاحبها المأمون بن ذى النون، ونقل إليها عاصمته من ليون، وبعد استيلائه على طيلطلة أصبحت كل بلاد الأندلس الإسلامى تحت رحمته.

وبعد أيام المرابطين والموحدين وبنى مرين أصبحت قرطبة وكل بلاد الأندلس تحت رحمة النصارى.

والبابوية بصفة خاصة لم تنس شبه الجزيرة الأيبيرية، وظلت تحمس ملوك النصارى على

الاستيلاء على ما بقى من بلاد المسلمين، ولولا محمد بن الأحمر، ملك غرناطة، لضاع الأندلس كله من وقت متقدم جدا.

سيطرة الموالى العامريين على الاندلس :

بعد زوال خلافة بني أمية أصبح الأندلس خاضعا لابن أبى عامر، ثم ابنه عبد الملك المظفر، ثم أخيه عبد الرحمن شيخول، الذى لم يكن على شيء من الذكاء، وطمحت نفسه إلى ولاية الخلافة، وفعلا استطاع أن يصدر أمرا بولايته الخلافة، ولكنه كان، كما رأينا، سخيف الرأى وسيئ التدبير، فكانت ولاية الخلافة التى أعلنها نهايته، فلم يكن على شيء من المواهب التى تؤهله لهذه المسئولية، وبالفعل قام عليه محمد المهدى الأموى وعزله ثم قتله، وانتهت حياته أسوأ نهاية.

وبعد موته أصبحت الخلافة والسلطان للموالي العامريين، أى موالي محمد بن أبى عامر، وأول من ظهر أمرهم منهم خيران العامرى، وكان يلى بلنسية، وهى تدمير، فانتزى بهم وضم إليه جزر البليار الثلاثة: ميورقة ومنورقة ويابسة، فكبرت دولته، بل إنه غزا سردائية وضمها إلى مملكته.

وقد توفى سنة ٤١٩هـ/ ١٠٩٩م، وخلفه فى حكمها زميله فى العمالة لبنى عامر، زهير الفتى.

وقد أراد هذا الرجل أن يستولى على غرناطة، ولكن بربر الأندلس الصنهاجيين تعرضوا له وهزموه فانصرف عنها، ولكنه كان يحكم دانية وجرز البليار وسردانية، واستمر يحكم إلى أن توفى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م.

وخلفه ابنه أبو يحيى بن معن بن صمادح، أجلسه على العرش بنو عمه التجيبيون، وتمت له الإمارة، وسمى نفسه معز الدولة، وقد اتخذ لقبيين من ألقاب الخلافة، وسمى نفسه المعتمد على الله الواثق بفضل الله.

وكان أديبا مؤرخا واسع العلم فى الأدب فقصده الكتّاب والشعراء ومدحوه.

وقد ظل واليا على المية حتى دخل المرابطون الأندلس وعزلوا المتعمد بن عباد ونفوه إلى أغمات بالمغرب الأقصى.

ووقعت الحرب بينه وبين جاره القديم باديس من حبوس، وعندما خرج إلى غرناطة، خرج عليه باديس بن حبوس، ولكنه اكتفى بالمرية والجزائر الشرقية، وجمع مالا كثيرا، وقد أطلق سراح معظم من وقع فى أسره من أهل الفكر مثل ابن حزم، وكان أبوه وزير المنصور محمد بن أبى عامر والباجى وغيرهم، ولكنه قتل أحمد بن عياش لأنه كان من كبار المحرضين على الثورة عليه.

ملوك الطوائف فى قرطبة وإشبيلية وبلاد موسطة الاندلس وغربها :

ذكرنا أن المسئول الأول عن قيام دول الطوائف فى الأندلس هو أبو الحزم، بإلغائه الخلافة الأموية ثم العامرية من قرطبة، وهو جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله ابن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبى عبدة، فهو إذن يدخل فى طائفة المماليك الأندلسيين، إذ إن نسبه البعيد يصل به إلى يوسف بن بخت بن أبى عبدة، وذُكر أن جديه بخت وأبى عبدة من الموالى الأندلسيين، وجداه بخت وأبو عبيدة دخلا الأندلس قبل عبد الرحمن الداخل.

وقد اتفق أهل قرطبة على تولية أبى الحزم جهور أمرهم لاجتماع مظاهر الرياسة فيه، فابتكر سياسة خاصة تجعله الرئيس المولى من الجماعة فكان لا يعمل شيئا إلا ويقول: هذا شأن الجماعة وأمرها، وما أنا إلا منفذ، فخدع أهل قرطبة وملكهم.

وتتلخص سياسته فى أنه حصل كل ما يرتفع إليه من البلد بعد إعطاء مقاتليه، وصير ذلك فى أيدى ثقات من الخدمة مشاركا لهم بضبطه، فإن فضل شيء تركه بأيديهم مثقفا مشهودا عليه،

لا يتلبس لهم بشيء منه، وإن سئل قال: ليس لى عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم، وإذا رابه أمر أو عزم على تدبير أحضرهم وشاورهم، وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء، فأعطى السلطان حظه من النظر، ولم يخل مع ذلك من نظره لمعيشته حتى تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص، اللذين لولاهما ما وجد فيه عائبه مطعنا، ولكمل لو أن بشرا يكمل.

وكان مع براعته ورفعة قدره من أشد الناس تواضعا وعفة، ما شبههم ظاهر بباطن وأولا بآخر، لم يختلف له حال من الفتاء إلى الكهولة، واستمر فى تدبيره بقرطبة، فأنجح سعيه بصلاحها ولم شعثها فى المدة القريبة، وأثمر الثمرة الزكية ودب دبيب الشفاء فى السقام، فنعش منها الرفاء، وألحفها رداء الأمن، ومنع عنها من كان يطلبها من البرابرة المتوزعين أسلابها بخفض الجناح، والرفق فى المسائل حتى حصل على سلمهم واستدرار مرافق بلادهم، ودارأ القاسطين من ملوك الفتنة حتى حفظوا حضرته وأوجبوا لها حرمة بمكابدة الشدائد، حتى ألانها بضروب احتياله، فرخصت الأسعار وصاح الرخاء بالناس أن يعملوا قلبوه من كل صقع فظهر تزيد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها وغلت الدور وتحركت الأسواق، وتعجب ذو التحصيل أو جباية، وأمر الله بين الكاف والنون.

وتوفى أبو الحزم جهور ليلة الجمعة ٦ محرم سنة ٤٣٥هـ/ ١٦ أغسطس ١٠٤٨م.

وفى سنة ٤٢٥هـ/ ١٠٣٨م قتل يحيى بن على بن حمود.

يقول ابن عذارى : وأنا أشرح فى هذا الموضع كيفية مقتله، إذ كان خاتمة آثاره ومميزا فى عيون أخباره، وقد تقدم فى أخبار عمه القاسم (ابن حمود) لمع من أخباره، وكيف نجم ملكه وعلى يد من نظم سلكه (ابن عذارى، البيان ١٧٧/٣- ١٨٨).

مقتل يحيى بن على بن حمود :

قال حيان بن خلف: «حكى لى أبو الفتح البرزالى قال:

لما كان عيد أضحى سنة ٤٢٦هـ/ ١٧ أكتوبر ١٠٣٥م، وانغمس يحيى فى شربه ولهوه، سرت ومعى واحد من بنى عمتى إلى اللحاق بإشبيلية للاجتماع بابن عمنا محمد بن عبد الله البرزالى والقاضى ابن عمنا، فوصلنا وأنبأناهما عن خبر يحيى بن حمود ولهوه، فرأيا أن يوجها إليه جيشا لقتاله، فخرج إسماعيل بن عباد مع ابن عمنا فى المحرم من سنة ٤٢٧هـ/ نوفمبر ١٠٣٥م وهما فى بيعة هشام بن الحكم، المنصوب عندهما بإشبيلية تلك الأيام، فجئنا إلى باب قرمونة بالجيش كى نغيظ يحيى فيخرج أو يخرج أحدا من قبله، وقدمنا سرية وأكمنا الجيش بناحية أخرى، وقد كنا وجهنا فوارس ليله للسامرة، فنعر نعرة ووثب قائما يقول: وابياض يحيى الليلة، وابن عباد زائرة.

وأمر بالإسراج، وتقدم إلى أصحابه وغلمانه، وبادر الخروج ليلا على باب قرمونه، وأصحابه يتلاحقون فالتأمنا عدته فى نحو ٣٠٠ فارس، فمضى على وجهه مغترا يضرب أمجن خيله، فألقى نفسه علينا فى أوائل خيله لا ينجينا منه إلا الصدق.

واستقبلناه يوجوهنا ثم كنا فى جبل منيع الصعود إلينا نذود منه وننال من أصحابه، فإذا رددنا عليهم استعنا بفضل الانحدار من علٍ فنتخطفهم خطفة الأجادل، فصدقنا هذه الحملة فساقنا حتى رمانا على إسماعيل بن عباد ومن معه من الأندلسيين، فثاروا فى وجهه، فتوقف الفريقان وظهر كمين ابن عباد وجاد صبره، وحرض غلمانه العجم فشدت الجماعة على يحيى شدة منكرة، وانحدروا من ذلك التل الذى تسنموه فانكسروا، وصرع فى ذلك قوم، وتمادى الطلب وراءهم بعد

موافقة عظيمة، فصرع يحيى وخر رأسه وطير به إلى ابن عباد بإشبيلية فخر ساجدا، وعجب من حضر لسجوده، وانطلق البلد فرحا، واستمرت على أصحاب يحيى حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالى وبدت عصبية لقومه، وكلم ابن عباد فى رفع السيف عنهم، فأطاعه فى ذلك وتمم لابن عباد ما أراد من حقن الدماء، إذ لم يأت الذى أتاه إلى عن ضرورة.

ولم يلبث أن أسرع إلى قرمونة دون إسماعيل بن عباد فجاءها لوقته، وقد ملك سودان يحيى أبوابها على أهلها، فجاء إلى مكان عرفه من سورها فدخل منه إلى دار يحيى فحاز جميع ما ألفاه بها من مال أو متاع، واشتمل على نسائه وأباح حرمه لبنيه، واستحل خدامهن، واستوى على مجلسه، ونصر نصرا لا كفاء له، وصدق الخبر على أهل قرطبة فما صدقوه من الفرح.

وفى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م، أظهر القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد المؤيد هشام بن الحكم ودعا الناس إلى طاعته واستحجب ابنه إسماعيل بن محمد، صاحب بلنسية وأعمالها، والموفق صاحب دانية، والجزائر الشرقية، وصاحب طرطوشة، والوزير أبو الحزم بن جهور بالإقرار بخلافته، وسارعوا إلى الدخول فى طاعته، ووردت كتبهم بذلك إليه، وانعقد تجديد البيعة له بقرطبة، وذلك فى أوائل المحرم من السنة (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م) وكانت البيعة من إنشاء الوزير الكاتب أبى حفص أحمد بن بُرد، وكتب أيضا عن نفسه مهنيا بالظهور والعودة إلى الخلافة.

واختلف فى هذا المؤيد اختلافا كثيرا وهل هو هو أم لا، والأكثرون اتفقوا على أنه مشبه له، وأن ابن عباد أوقفه لينال به مراده، وآخرون ذكروا أنه المؤيد بعينه واسمه، فذكر، والله أعلم، أنه كان مختفيا بمالقة حين توثب على بن حمود على الخلافة وخفى أمره، ثم مر من مالقة إلى المرية فى الاختفاء إلى أن أنهى خبره إلى صاحبها زهير الفتى فأمر بإخراجه من المرية، فخرج منها وآوى إلى قلعة رباح من طاعة ابن ذى النون ثم استجلبه القاضى، حسبما يأتى ذكره فى موضعه عند ذكر دولة ابن عباد.

وفى شعبان من هذه السنة توفى القاسم بن حمود وحمل إلى ابنيه وكانا بالجزيرة الخضراء ودفن بها، وذلك لخمس خلون من شعبان المذكور (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م).

وفيها اجتمع زهير وحبوس مع محمد بن عبد الله زعيم زناتة بجهة استجه فى يوم الأربعاء لخمس خلون من ذى القعدة من السنة (٤٢٧هـ/ نوفمبر ١٠٣٥م) واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة إشبيلية، واحتلوا قرية طشتاته وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد، واحتلوا بالقلعة يوم الاثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طريانة يوم الأربعاء بعده، واحتلوا بحصن القصر، وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس بن على بن حمود، وانصرفوا إلى قرمونة، وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وانصرف زهير إلى المرية، وأخطب لإدريس فيها فى منتهى شهر ذى حجة من السنة.

وفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م توفى حبوس بغرناطة، وصارت رياسته إلى ابنه باديس، فذهب هو وأخوه بلقجى إلى مخالفة زهير على ما كان أبوهما معه، فاجتمع زهير معهما بقرية إلبونت بمقربة من أغرناطة فعزاهما فى أبيهما، وتشطفت فى مرغوبهما، ثم حملتهما الحمية إلى الغدر به والمكاشفة له، فلما أخذ فى الانصراف ووجه محلته للذهاب قطعوا له الطريق، وأرصدوا له الخيل بكل مضيق، فكان هو وجمعه كأمس الذاهب، ولم يوقع لزهير على أثر، وقتل صاحبه زهير بعد كرات كرها، وأخذ كاتبه ابن عباس وسيق إلى غرناطة ثم قتلاه برمحاهما سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م.

كانت ولاية عبد العزيز بن أبى عامر المتلقب بالمنصور، صاحب كورتى تدمير وبلنسية على المرية على إثر مقتل زهير فى هذه السنة، وولايته أيضا مرسية، فبقى ذلك فى يد المنصور المذكور إلى أن مات إلا المرية فغدره فيها ابن صمادح رئيس المرية إذ ولاه عليها وانتزى فيها عليه.

وفى هذه السنة كان مولد المعتصم أبى يحيى محمد بن معن أبى الأحوجى بن صمادح، رئيس المرية، وتوفى بها فى شهر ربيع الأول من سنة ٤٤٣هـ/ نوفمبر - مايو ١٠٥٦م.

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من موسوعة

تاريخ الأندلس

ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثاني، وأوله

بداية الدولة العبادية وتاريخها

إلى آخر أيام محمد بن إسماعيل بن عباد

أعان الله على إتمامه

الفهارس العامة

أولا :
فهــرس الأعــــــلام

(أ)

(خ)

(ق)

❖ ❖ ❖

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا :

فهـــرس الأمـــاكـــن الجغرافيـــة

(أ)

(ت)

(ح)

(خ)

(ظ)

....

(ع)

(غ)

❖ ❖ ❖

ثالثا:

فهــرس الطوائـــف والقبائـــل

(أ)

(ن)

❖ ❖ ❖

رابعا :

فهـــرس الآيـــات القـــرآنيـــة

فهرس الآيات القرآنية

خامسا :

فهـــرس الأشـــــعــار

سادسا :

فهـــرس الكتـــــــب

فهرس الكتب

❖ ❖ ❖

سابعا :

فهـــرس المو ضــــــوعات

فهرس الموضوعات

المـوضــــــــوع	الصـفـحـة

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصـفـحـة

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بور سعيد . الظاهر

تليفون : ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠